



ترجمة لمختارات من أشهر مؤلفات الكاتب تيموثي.ش.أرثر



ترجمة: أمل عمر بسيم الرفاعي



© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.

www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.

نشر إلكترونيًا في رجب ، ١٤٣٦ / مايو ، ٢٠١٥.

يمنع منعًا باتًا نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني: ليلى الأملعي
تصميم الغلاف: إدريس يحيى
التدقيق اللغوي: خيرية الأملعي



محتويات الكتاب

المقدمة.....	٤
مجموعة المقالات والقصص الاجتماعية.....	٥
الصفح والنسيان.....	٥
سجل الذاكرة الإنسانية.....	١٩
الفصل الأول.....	١٩
الفصل الثاني.....	٢٩
الفصل الثالث.....	٣٨
الفصل الرابع.....	٤٦
لمسة اليد الودیعة.....	٥٤
تأثير الكلام على الآخرين.....	٦٠
كُن حليماً.....	٦٥
الكلمة الطيبة.....	٧٥
أثر التعامل الحسن.....	٧٧
هناك جانب جيد لدى الجميع.....	٨٠
الثروة.....	٨٤
السبيل إلى الشعور بالسعادة.....	٨٧
الأسلوب الأفضل لمساعدة الفقراء.....	٩٧
هل يستحق الأمر العناء؟.....	١١٠
انظر إلى الجانب الآخر.....	١٢٣
السيطرة على النفس.....	١٣٣
علاج الشعور بالإحباط.....	١٣٨
ذكريات رجل مسن حول بصمات الزمن.....	١٤٤
الرضى والقناعة أفضل من الثروة.....	١٥١
هل تُعاني أكثر من جيرانك؟.....	١٥٨
مجموعة القصص والمقالات حول أسس السعادة العائلية والسعادة الزوجية.....	١٦٣
رسائل من سيدة متزوجة إلى زوجة شابة.....	١٦٣
من هو الأكثر سعادة؟.....	١٧٣
الخطأ الفادح.....	١٨٠
الرومانسية والواقع.....	١٨٩

الأمل الضائع.....	٢٠٦
الخطأ والصواب.....	٢٢٠
الإيمان والوقت والعزيمة.....	٢٣٧
تأثير التقدير والعبارات الرقيقة.....	٢٥٤
حياة امرأة هناك.....	٢٦٥
زوجة مخلصه.....	٢٨٠
المُهْملة.....	٢٩٠
نيلي.....	٣٠٥
مجموعة القصص الموجهة للناشئين.....	٣١٢
طريق الغواية.....	٣١٢
نصائح الجدّ.....	٣٢٥
كيف يمكن للمرء أن تجنب الشجار.....	٣٣٩
قابل الشر بالخير.....	٣٤٤
أهمية وعد الأم.....	٣٤٩
أليس واليماة.....	٣٥٥
مجموعة المقالات والقصص التي تعالج موضوع.....	٣٦٠
الإيمان.....	٣٦٠
الطريق المظلمة.....	٣٦٠
ملاك مُتَنَكِّر بطفلة.....	٣٦٩
اليماة البيضاء.....	٣٨٠
تطلّع المرء إلى الراحة والسكينة.....	٣٩١
خلف كل سحابة بريق من ضياء.....	٣٩٥
عاهات الجسد وجمال الروح.....	٣٩٦
الغني والفقير.....	٣٩٨
أحبّونا... من أحببناهم... ومن غادروا الحياة قبلنا.....	٤٠٢
جَنَّة عدن.....	٤٠٧
الرحيل عن العالم.....	٤١٢
السيرة الذاتية للكاتب تيموثي.ش.آرثر:.....	٤١٧

المقدمة

كلُّ منا ينشد السعادة لكننا كثيراً ما نُخطئ في اختيار الطريق الأفضل إلى السعادة الحقيقية. قد يعتقد البعض أن السعادة في المال، وقد يعتقد البعض الآخر أن السعادة في السلطة، بينما يجدها آخرون في المحبة، لكن القليل من بيننا من يُدرك بأن كل ما قد يتمتع به المرء من مال ومن سلطة ومن محبة سريع الزوال... لذا علينا أن نبحث عن السعادة الحقيقية التي تنبع من داخل نفوسنا، وأن ندرك بأن سعادة الشخص الفاضل لا تكتمل إلا بالرضى والقناعة وبالعطاء، وبأنها بإسعاد الآخرين، وبأن قِمة السعادة تكون في اطمئنان النفس وفي راحة الضمير. فكم من حسد يَنصب على خزائن المال من عيون جائعة ومن نفوس مُتعطشة طامعة!

وكم من سلطة زالت بين عشية وضحاها! وكم قد يعاني المرء من فقدان من أحبه ومن أحبوه!

هذا ما عبّر عنه الكاتب الأمريكي تيموثي شي آرثر

Timothy Shay Arthur في هذه المجموعة من القصص القصيرة التي يسرني أن أضعها بمتناولكم، و هي قصص هادفة ألقى فيها الكاتب الضوء على أوجه العلاقات بين مختلف فئات المجتمع، وعلى الأسس الأخلاقية السليمة التي يجب أن تسود التعامل بين الزوجين - بين الأهل والأولاد - بين الشقيقات والأشقاء - بين الأصدقاء - وبين الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة إلخ... بما يحقق الوصول إلى مجتمع فاضل وإلى حياة سعيدة. كما أورد فيها بأسلوب بسيط ومُشوّق المقارنة بين التصرف الإنساني الصائب السليم والتصرف الخاطئ الخالي من التعاطف، وكان يختتم كلّاً من قصصه بمقولة تتناسب مع مكارم الأخلاق والفضائل.

مجموعة المقالات والقصص الاجتماعية

الصفح والنسيان

قصة ذات مغزى عميق جدًا، يُصوّر فيها الكاتب الصراع الداخلي الذي يُعاني منه كل منا عندما يتعرض للإساءة ممن كانوا بالأمس أقرب الأصدقاء إليه...
فهل بإمكان المرء أن ينسى الإساءة حتى لو غفر زلّة أخرى؟... أم أنّ ذكرى جرح الكرامة لابدّ أن تترك أثرها في النفس رغم الصفح والغفران؟... هذا ما يصوّره الكاتب بكلّ شفافية في هذه القصة.
اللهم إذا أسأتُ إلى الناس أعطني شجاعة الاعتذار، وإذا أساء الناس إليّ أعطني القدرة على الصفح والنسيان
اصفح وانس!...

لِمَ يجب أن يكون العالم موحشًا ومتوحّدًا؟
ولِمَ علينا أن نشوّه هذه الجنة الواسعة التي نعيش فيها؟
فلو كانت الزهور لن تتذكر سوى النسمات الباردة التي هبّت وعصفت بها،
ولو كانت النباتات في الحقول الخضراء سوف تتوقف عن النمو خشية هبوب العواصف،

لما استمرت الحياة في هذا الكون...
"إيرنست! عليك أن تصفح وتنسى."
"لا، لن أصفح ولن أنسى، لقد فعل ذلك عن عمد...
لا يمكن أن أتغاضى مُطلقًا عن مثل تلك الإهانة الصريحة."
"حتى لو تقبّلنا أنّ الأمر كان قد تمّ عن عمد، وإن كنتُ أشك في ذلك، فعليك أن تتذكر بأنه صديق قديم لك، وبأنك سبق وعرفته جيّدًا منذ مدة طويلة وبأنك كنت تحبه وتحترمه.

لا يمكن أن يكون قد أدرك بأن ما قاله سوف يتسبب لك بأية إهانة، وقد يكون ما فعله كان على سبيل المزاح والدعابة."

"هذا ليس صحيحًا، وإنما كان تصرفه بالتأكيد انطلاقة من شعور نابع من داخله."

"حسنًا... قد يحدث أن يتصرف أي شخص بهذا الشكل، وأنا أؤكد بأنه لا يمكن شيء خارجي أن يُحرك إرادتنا ما لم تكن له دوافعه من داخل أنفسنا."

"حسنًا جدًا. وهكذا ترى بأنّ تصرف مارتسون يُشير إلى أنه في داخله لا يشعر تجاهي بأي تقدير أو احترام، وهذا ما أثبت لي بأنه لا يمتلك صفات الشخص الذي يجعله أهلاً لأن يكون صديقي. كنتُ قد خدعتُ به، وقد ظهر الآن على حقيقته، فهو شخص وضعي بالفعل..."

"لا يا صديقي، لا أرجوك... لا يجوز أن تستخدم مثل هذه العبارات بشأن السيد مارتسون."

"بلى، فهو شخص لا يتحلّى بأي صفات حميدة أو مبادئ. كان يرغب أن يُسيء إليّ، وأن يجعلني أبدو سخيًا، والشخص الذي يتصرف كما فعل لا يمكن أن تكون لديه ولا حتى ذرة واحدة من مشاعر الاحترام تجاه غيره..."

هل يمكن أن تنبعث مياه ملوثة من ينبوع صافٍ؟...

ألا تُعرف الشجرة نوع ما تطرحه من ثمار؟...

بإمكاني أن أدرك عندما يبحث أي رجل عن إهانتني وعن إيذائي عن قصد، بأنه لا يرغب بأن تكون لي أي علاقة به بعد الآن."

قال الشخص الذي كان يتحدث إليه:

"ربما... ربما! كان ما قلته صحيحًا بشكل عام، لكنني أرى بأن ما تسبب به مارتسون بتصرفه كان قد أدى في الحقيقة إلى جرح اعتزازك بنفسك أكثر من أن يكون قد تسبب بجرح كرامتك، وهذا ما يجعلك تتحدث عنه الآن بهذه الطريقة."

اعترض إرنست، وقال: "سيد ويلفورد! أرجوك..."

"هيا يا صديقي، لا حاجة لأن تغضب مني الآن، فأنا في سن يضاعف سنك، وقد عشتُ ما يكفي من سنوات لكي يكون بإمكانني أن أتفهّم بهدوء نوايا البشر، ولكي أدرك الدوافع الداخلية التي تكمن وراء جميع التصرفات الإنسانية... الأفضل من بينهم ليس لديه - في أحسن الأحوال - سوى القليل مما قد يفاخر به، وإنما - وعلى العكس - قد يكون لديه الكثير مما يؤسف عليه بما يتعلق بالدوافع النبيلة..."

من الأكثر سهولة بالنسبة إلى أي شخص أن يتصرف بشكل سيء من أن يقوم بعمل صالح، ومن الأسهل بكثير على المرء أن يترك لنفسه العنان للاستسلام لرغباته الشريرة من أن يكبح جماح نفسه وأن يلتزم بالعدالة وبالمحاكمة العقلانية السليمة في تعامله مع الآخرين...

حاول أن تختبر نفسك بهذه القاعدة الإنسانية وأن تسأل نفسك فيما إذا كانت مشاعرك وردّة فعلك ستكون بهذا الشكل لو كان السيد مارتسون قد تصرف بالطريقة التي تصرف بها معك مع أي شخص آخر؟...

لا... لا تُجبني بنعم بمجرد ردّة فعل سريعة. عليك أن تفكّر بهدوء بهذا الأمر فإن كانت إجابتك بلا، فهذا يعني بأن الأمر ليس بسبب رغبتك في الحفاظ على المبدأ، وإنما لأن ما حدث يتعلق بك شخصيًا، وهو ما جعل الموضوع يبدو لك بمثابة الإهانة لكرامتك وبمثل هذه المرارة والسوء."

لم يكن إرنست قد استساغ تلك الطريقة البسيطة في تفسير مُحدثه للأمر؛ لأنها كانت تمسّ ذات الشيء الذي كان السيد مارتسون قد أهانه به وهو كرامته؛ لذا كان قد أجابه ببرود:

"بالنسبة لهذا الأمر، فأنا راضٍ جدًا بما لديّ من أسباب جعلتني أستاذ من مارتسون، وأنا على استعداد تام لأن أتحمّل مسؤولية ردّة فعلي الحالية تجاه هذه القضية، فلو تعاملت معه مع جديد فسوف أكون قد ناقضتُ إلى حدّ كبير ما أشعر به حاليًا تجاهه."

وبذلك قال السيد ويلفورد: "كل ما بإمكانني أن أقوله في هذه الحالة:

"ليمنحك الله ذهنًا أكثر حكمة! نعم. هذا هو فقط أفضل ما بإمكانني أن أتمناه لك."

أما الموضوع الذي كان قد تم حوله الحوار السابق فهو التالي:
كان الشابان اللذان حصل بينهما ذلك الخلاف، عندما دخلا عالم الأعمال ولعدة سنوات، من الأصدقاء المقربين جدًّا، كان كلُّ منهما على اطلاع تام على طباع وعلى أخلاقيات الشخص الآخر وما لديه من عيوب وكان تعاملهما اليومي معًا يكشف لهما أحيانًا عن طباع لم تكن قد ظهرت سابقًا وقد تكون أحيانًا مما قد لا يستسيغه الآخرون.

كانت لإدوارد مارتسون عيوبه كما لدى إرنست عيوبه أيضًا، وكانت للأخير عيوبه بقدر ما للأول من عيوب. كان كلُّ منهما يُدرك ذلك؛ لذا كان بينهما دومًا شبه رصد متبادل لتلك العيوب، لكن كان هناك بينهما بذات الوقت تسامح ولين في تعامل كلُّ منهما مع الآخر ولمدة لا بأس بها، على الرغم من أن كلاهما كان يرى أكثر مما ينبغي بأن من الضروري تصحيح الكثير مما لدى الآخر من عيوب...

كان من عيوب السيد مارتسون سرعة الغضب وبالتالي الاستعداد للتفوه بأشياء بغيضة وجارحة دون تفكير، لكن كانت لديه أيضًا ميزة الاستعداد للتسامح وكذلك الكثير من الطباع الجيدة ومن الصفات الحميدة الأخرى.

أما إرنست فكان أيضًا سريع الغضب، لكن العيب الأكبر في طباعه كان في مقدار تقديره لنفسه، وهو الأمر الذي جعله حساسًا للغاية تجاه أيِّ تصرف قد يصدر عن الآخرين يكون من شأنه أن يمسّ اعتزازه بنفسه... لم يكن بإمكانه احتمال أي تصرف يتم بدون كلفة حتى من أقرب الأصدقاء إليه؛ لأنه كان يشعر بأن في ذلك ما يتسبب له بالإذلال، هذا إن لم نقل بأنه قد يعتبره أيضًا ما قد يحطّ من كرامته، وهو الأمر الذي جعل العديد من الأشخاص ينفرون من التعامل معه، خشية أن يتصرف أحدهم بطريقة ما أو خشية أن يقول من حين لآخر ما من شأنه أن يجرح كرامته ولو بقدر ضئيل...

أما مارتسون فلم يكن في طباعه على الإطلاق ما يشبه صديقه في تلك الأمور. كان نادرًا ما يفكر بتقديره لنفسه كما لم يكن يترك المجال لآراء الآخرين للتأثير عليه، لكنه بذات الوقت لم يكن يسمح لأحد بالتصرف بما قد يؤدي إلى التعدي على كرامته...

كانت القطيعة بين الشابين قد حدثت بهذا الشكل:

كان الصديقان ذات يوم برفقة بعض الأصدقاء الآخرين وكانت برفقتهم أيضًا سيدة شابة جميلة كان إرنست قد رغب الظهور أمامها بأفضل صورة ممكنة؛ لذا بدأ يروي لهم إحدى المغامرات التي يظهر فيها البطل المغوار، إلا أنه وهو يفعل ذلك كان قد بالغ جدًا بوصف الدور الذي أدّاه، ما جعل مارتسون الذي كان على علم بكل الظروف التي رافقت الأحداث، يشعر بميل إلى التسلية والضحك ويبدأ باستدراجه ببعض الملاحظات التي جعلت الموضوع بكامله يبدو مثيرًا للضحك ولبعض السخرية من جميع الموجودين، وهو الأمر الذي جعل كرامة الشاب تُجرح إلى حدّ كبير، وبشكل خاص لأن الشابة التي كان الحديث يهدف إلى إثارة انتباهها كانت قد ضحكت بكل جوارحها، وأدلت ببعض التعليقات التي كانت بالأحرى قد أخرجت إرنست للغاية، و لكن إرنست - على الرغم من شدة تأثيره بذلك الموقف المخرج - كان قد عمل على إخفاء مشاعره تمامًا. أما مارتسون فكان قد لاحظ أيضًا بأن ما أدلت به تلك الشابة من تعليقات - دون تفكير - كان قد حرّض أكثر على إثارة الاستهزاء بقصة صديقه، وبأن تأثير ذلك على للموجودين و على نفس صديقه الشديد الحساسية، كان أكثر بكثير مما كان يرغب به أو مما كان يقصده.

لذا كان مارتسون قد شعر بالندم لأنه تفوه بتلك الملاحظات، وبذلك انتظر إلى أن يغادر المكان برفقة إرنست لكي يُعرب له عن أسفه عن تصرفه غير المقصود، لكن صديقه لم يكن قد ترك له المجال لذلك وإنما عمل على الانسحاب بمفرده من الجلسة لكي يشعر مارتسون بأن بما قاله قد جرح كرامته بشكل خطير وجدّي...

كما كان مارتسون في وقت مبكر من صباح اليوم التالي قد ذهب أيضًا إلى منزل صديقه لكي يعتذر إليه لما تسبب له به من إزعاج، ولكن صادف أن صديقه لم يكن في المنزل. وكان مارتسون عندما وصل بعد ذلك إلى مكتبه قد وجد أمامه حاشية صغيرة من إرنست تتضمن أسوأ العبارات وأقسى الإهانات، كانت تلك الحاشية قد كتبت بأسلوب جعل مارتسون يُقلع نهائيًا عن نيته في الاعتذار وبذلك رمى تلك الحاشية الصغيرة جانبًا، وقال:

"سوف أعتبر أن كل ما بيننا قد انتهى منذ اليوم، وبأننا من الآن فصاعدًا قد أصبحنا غرباء تمامًا بعضنا عن بعض."

كما كان الصديقان قد تصادفا بعد ساعة في الشارع لكن كلاً منهما كان قد نظر إلى الآخر ببرود ومرّ إلى جانبه حتى دون أن يُلقي عليه التحية ولو بإيماءة من رأسه وهو الأمر الذي عزّز ما أصبح بينهما من نفور...

وبما أن السيد ويلفورد العجوز كان على علاقة جيدة مع الشابين، وكان يحمل لكليهما الكثير من التقدير لما لدى كلٍّ منهما من صفات حميدة؛ لذا فقد أسفّ للغاية لما حدث بينهما، وحاول السعي لمعالجة ذلك الشرخ الذي فرّق بينهما لكن ذلك كان دون جدوى...

كانت كرامة إرنست قد جُرّحت على نحوٍ موحٍ، ولم يكن على استعداد للصّح عما اعتبره إساءة مقصودة لا يمكن أن تُغتفر.

وكان مارتسون قد شعر أيضًا بالكثير من الإهانة من الحاشية التي تلقّاها من صديقه، وبذلك كان قد تمسّك أيضًا بقراره بألا يُعرّض كرامته للإهانة بأن يتصل من جديد بمثل ذلك الرجل الذي قام مع أقل إثارة بتوجيهه مثل تلك العبارات الجارحة إليه في تلك الرسالة المُشينة.

وبذلك أصبح الموضوع كالتالي:

كان أحد طرفي الخلاف قد شعر بأنه كان قد تعرّض لإهانة كرامته واعتزازه بنفسه، كما كان الطرف الآخر قد شعر أيضًا بأنه تعرّض للإهانة ولعدم الاحترام، وهذا ما

أدى ليس فقط إلى الإبقاء على القطيعة بينهما، وإنما إلى تعميقها وإلى تفاقمها يوماً بعد يوم...

حاول السيد ويلفورد استخدام أقصى ما لديه من تأثير على صديقيه الشابين لقمع ثورة الغضب التي أدت إلى تلك القطيعة بينهما، لكن ذلك كان عبثاً؛ لأن صوت الغرور والكبرياء كان لدى كل منهما أقوى من صوت العقل.

مرّت عدة أشهر، ومرت عدة سنوات، وهما لا زالا كالغرباء عن بعضهما، رغم أن الظروف كانت تجبرهما باستمرار على الاجتماع إما في المناسبات الرسمية أو في أماكن العمل. كانا يختلطان بذات الأوساط الاجتماعية وكان أصدقاء أحدهما من أصدقاء الآخر، ولكن نادراً ما كان أحدهما ينظر إلى وجه الآخر أو يوجه إليه الحديث أو التحية...

ولكن هل كان ذلك قد جعلهما أكثر سعادة؟ لا!... وعلى الإطلاق؛ لأن الله - تعالى - قال في كتبه المقدسة:

"لن يغفر الله لمن لا يصفحون عن تجاوزات الآخرين"

وهل كان كل منهما يشعر بالفعل بأنه لم يعد يكثر بالآخر؟ لا، وعلى الإطلاق... كان إرنست يسترجع دوماً ويضخم ما كان قد تعرّض إليه من إهانة، لكنه كان بذات الوقت يفكر أيضاً بأن أسلوبه في التعبير عن استيائه كان من شأنه أن يتسبب لمارتسون بإساءة كبيرة قد تعادل ما لقيه منه من إهانة...

أما مارتسون فكان مع مرور الوقت قد بدأ يجد أكثر فأكثر، بأن العبارات التي قالها حينذاك على سبيل الدعابة تعتبر أقل استفزازاً بكثير من تلك الحاشية الصغيرة القاسية التي تلقاها من صديقه، والتي كان قد احتفظ بها وكان بعيد قراءتها من وقت لآخر.

كان كل من الصديقين السابقين مُجبّراً على الاهتمام وعلى التفكير بالآخر؛ لأنهما كانا يحققان الكثير من النجاح في عالم الأعمال ما ضاعف التقدير والاحترام الذي كانا يلقيانه ممن حولهما في الأوساط الاجتماعية، وكثيراً ما كان يُشار إلى اسم أحدهما أمام الآخر بكلّ استحسان وتقدير، وقد يحدث أيضاً في بعض الأحيان أن

يتم جمعهما معًا بطريقة كانت تجعل موقف كلٍّ منهما تجاه الآخر في غاية الإحراج.

فعلى سبيل المثال كان أحدهما قد أُستدعي ذات يوم لرأس إحدى الجلسات الرسمية، وكان الآخر قد كُلف بأمانة سر ذات الجلسة، ولم يكن بإمكان أحدهما أن يعتذر بالطبع. كان المطلوب أن تدور بينهما مناظرة حول موضوع الاجتماع، وكانت المناظرة قد تمت بالفعل وبجاح ولكن بكل برود وبأسلوب رسمي إلى آخر الحدود.

لم يكن أحدهما عندما كان عليه أن ينظر إلى عيني الآخر يُشاهد أي وميض لتلك الصداقة القديمة التي كانت بينهما، ما جعل السيد ويلفورد الذي شارك في تلك الجلسة يشعر بالكثير من الأسف، عندما لاحظ بأن تبادل الحديث بين إرنست ومارتسون كان يتم بشكل رسمي إلى أبعد الحدود، وبأن أيًا منهما لم يكن قد عدل من سلوكه تجاه الآخر ولو بأقل تقدير، ذلك لأنه كان يُكنّ لهما الكثير من المحبة والتقدير، ولأنه كان يعلم مقدار الخير الذي يكمن في نفسيهما؛ لذا كان في طريق عودته إلى منزله قد حدث نفسه بالقول:

"لا يجوز أن يستمر الأمر بهذا الشكل، فهما بذلك يتسببان بالتعاسة لنفسيهما، كما أنهما يحرمان المجتمع من تضافر جهودهما لأجل الصالح العام. وكل ذلك لماذا؟ لأجل سبب تافه! سوف أبذل جهدي من جديد لإعادة الوئام بينهما، وقد يكون النجاح حليفي هذه المرة..."

وبذلك ذهب السيد ويلفورد في اليوم التالي لزيارة إرنست في مكتبه، وكان الأخير قد رحّب به كثيرًا، وكان السيد ويلفورد بعد تبادله الأحاديث مع إرنست حول مختلف المواضيع قد تطرق إلى موضوع جلسة الليلة الماضية بأن قال:

"كانت تلك المناظرة مع أمين السر قد تمّت أمس بكلّ نجاح، لكنها في الواقع كانت قد جرت أيضًا بأسلوب رسمي للغاية، لا يكاد يتصف بالدماثة." أجابه إرنست: "أنت تعلم جيدًا بأنني لا أحب مارتسون."

قال ويلفورد: "لكن هذه هي وجهة نظرك أنت فقط يا صديقي، لأن كل من يعرفه يقدره جدًا."

قال إرنست: "هذا لأنهم لا يعرفونه كما أعرفه أنا."

قال ويلفورد: "ربما كان الآخرون يعرفونه أكثر مما تعرفه أنت، وهنا يكمن الفارق."

أجاب إرنست: "لو وجه إليك أحدهم ضربة فلاك بأك بك أنت فقط من يشعر بمقدار قوة ضربته تلك وبأكثر مما قد يشعر بها الآخرون."

قال ويلفورد: "ألا تزال تُعزّز شعورك بالغضب وأفكارك القاسية تجاهه؟ عليك أن تصفح وأن تُسامح يا صديقي. اصفح وسامح ولا تدع الشمس تغرب وأنت لا تزال على حنقك."

أجاب إرنست: "سيد ويلفورد! بإمكانني أن أسامح، وأنا أسامح لأن الله يعلم بأنني لا أريد أي سوء لأحد، لكن ليس بإمكانني أن أنسى. أنت بذلك تطلب مني الكثير." أجابه العجوز:

"أنت لا تنسى؛ لأنك لا تسامح، عليك أن تصفح وأن تغفر وسوف تجد حينئذ بأنك نسيت، وأنا على يقين بأنك سوف تكون أكثر سعادة بالنسيان مما قد تكون بالصفح فقط."

لكن إرنست هزّ رأسه، وقال:

"أفضل أن تبقى الأمور على ما هي. فعلى الأقل لن يكون علي أن أتنازل إلى مستوى فتح موضوع الصلح المخزي والمذل من جديد... كنت عندما أساء مارتسون إليّ بذلك الاستهتار، قد كتبتُ إليه ملاحظة جميلة عبّرتُ بها عن مشاعري تجاه سلوكه، لستُ أذكر الآن ما كتبتُه، ولم يكن لديه بالتأكيد ما يمنعه من المجيء إليّ لكي يعتذر عن سلوكه الأخرق، لكنه لم يشأ أن يفعل ذلك الأمر. واضحٌ أن ليس بإمكانني أن أسترجع في ذهني الآن ذلك التوبيخ الغاضب الذي وجهتهُ إليه. كان ذلك ما فعلتهُ." قال السيد ويلفورد: "لا بد أن يكون من كتب رسالة وهو في حالة من الغضب الشديد، ثم نسي بعد ذلك ما كتبتُه، أنا على يقين بأن ما قاله ليس تمامًا ما كان

يرغب بقوله. أنا على يقين بأنك لو قرأت ما ورد في الرسالة التي كتبتها إليه حينذاك، فلن تعجب من أن يكون السيد مارتسون قد شعر بالإهانة..."
قال إرنست: "هذا دون شك. مستحيل. لابد أن مارتسون قد أحرق تلك الرسالة على الفور من استلامها."

وكان السيد ويلفورد قد حاول دون جدوى أن يُقنع إرنست بالموافقة على نسيان الماضي، لكنه أكد له بأنه لم يعد يرغب بتجديد العلاقة مع صديقه القديم."
وفي الوقت الذي كان ذلك الحوار يتم بين السيد ويلفورد والسيد إرنست، كان مارتسون جالساً بمفرده يُفكر بحزنٍ بالماضي، كانت أمامه الرسالة التي كتبها له إرنست. كان قد عثر عليها بالصدفة بين أوراقه وأعاد قراءتها من جديد، لكن مشاعره كانت حينذاك قد أصبحت أكثر اعتدالاً. كانت تلك هي المرة الأولى التي سمح لنفسه فيها بالتفكير في ذلك الأمر. حدّث نفسه:

"لابد أن ما قلته حينذاك كان قد أصاب إرنست في العمق، على الرغم من أنه كان على سبيل الدعابة وبدون أن أكون قد قصدتُ بذلك أن أتسبب بجرح مشاعره."
ثم قال - بعد فترة قصيرة من التفكير -:

"لم يكن لهذا الأمر أن يستمر لهذه المدة الطويلة فليس الأصدقاء بهذه الكثرة لكي يكون علينا أن نتخلى دون أي اكتراث عن صداقة مَنْ كُنَّا قد عرفناهم جيداً، ومَنْ تأكدنا من إخلاصهم لنا، لاشك أن لدى إرنست الكثير من الصفات الحميدة."
لكن شعور الكبرياء كان قد تملّكه من جديد وسيطر عليه بكثير من الإيحاء بأن من المفترض أن يدين الشخص لنفسه بالاعتزاز بالنفس. وبذلك فكّر:

"عليّ أنا أيضاً أن أدين لنفسي بما يدين به الآخرون لأنفسهم من كرامة واعتزاز بالنفس. هل كنتُ على وشك أن أضعف وأعتذر لصديقي؟ ألم أكن قد تمكنتُ من ذلك قبل إرساله مثل تلك الرسالة المهيينة إليّ؟

ثم حدث نفسه من جديد:

"لا، لم تكن تلك الرسالة مُهيينة إلى هذا الحدّ لأن ما فعله لا يمكن أن يُعفيني أيضاً من مسؤوليتي تجاهه. أه... أنا! كم قد يؤدي بنا الغضب إلى التهور!"

وكان مارتسون بعد فترة من التأمل قد تناول قصاصة ورق وقلمًا وبدأ يكتب:

سيدي العزيز،

سوف أقوم الآن بما كان عليّ أن أقوم به منذ سنوات، وهو بأن أتقدم إليك باعتذاري الصادق عن العبارات التي كنتُ قلتُها على سبيل الدعابة ودون تفكير، والتي لم أكن قد قصدتُ بها على الإطلاق التسبب بجرح كرامتك... أنا أشعر الآن بالكثير من الأسف؛ لأنني كنتُ قد خرجتُ إحساسك ولولا هذه الحاشية الصغيرة التي أرسلتها إليّ حينذاك والتي أرفقها لك مع هذه الرسالة، لكنتُ قد تقدمتُ باعتذاري إليك في أول فرصة سنحتُ لي، لكن ما شعرتُ به حينذاك إليها من فحواها الغريب كان قد حال دون قيامي بذلك... أعترف بأنني كنتُ قد أخطأتُ بأن تركتُ لمشاعري تحجب عني التفكير بحكمة وبهدوء.
رفقًا الحاشية التي أشرتُ إليها.

صديقك القديم مارتسون.

ثم أغلق مارتسون الرسالة وأرسلها إليه بواسطة الساعي.
"من الأفضل أن يتصرف المرء بشكل جيد ولو بعد تأخير من ألا يتصرف جيدًا على الإطلاق، وأنا أشعر الآن بأنني بوضع أفضل لأنني سأكون قد حققتُ احترامي لذاتي، كما أن لديّ الآن إحساس داخلي بأنني قد تصرفتُ الآن على الأقل بطريقة صحيحة تجاه هذا الموضوع وبأكثر مما فعلتُ لمدة طويلة."
وكان مارتسون حينما شعر بالراحة النفسية قد عاد إلى دراسة بعض الأوراق المتعلقة بعمله وكان قد استغرق بسرعة بعمله، ما جعله ينسى ذلك الأمر الذي كان قد شغل تفكيره مؤخرًا إلى حد كبير.
ثم كان أحدهم قد فتح فجأة باب المكتب. وكان مارتسون عندما استدار لكي يرى من دخل، نهض على قدميه. وكان ذلك الشخص إرنست...

كان وجه الأخير شاحباً ومضطرباً، وكانت شفثاه ترتجفان. اقترب بسرعة إلى الأمام وهو يمد يده إلى مارتسون، لكن ذلك لم يكن لكي يُمسك بيد صديقه القديم، وإنما لكي يعرض عليه الرسالة التي أعيدت إليه. ثم قال بصوت أبَحّ: "مارتسون، هل كنتُ أنا من أرسلتُ إليك هذه الرسالة؟"

كانت إجابة مارتسون الحازمة التي لم تكن تخلو بذات الوقت من اللطف: "نعم، كنتُ قد فعلتُ ذلك"

قال إرنست: "وها أنا ألغيها الآن!"

ثم قام بتمزيق الرسالة إرباً ورماها على الأرض، و أضاف - بصوت في غاية الاضطراب :-

"هل يمكن أن تنسى ما ورد فيها وأن تمحوه نهائياً من ذاكرتك؟"

أجابه مارتسون - بانفعال واضح وقد أمسك بقوة بيد إرنست :-

"لم تُعد في ذاكرتي يا صديقي، فقد أزلتها الآن تماماً."

وكان إرنست قد ضغط بالمقابل بقوة على يد صديقه القديم وهو يركّز عينيه على عيني مارتسون إلى أن امتلأت عيناهما بالدموع بحيث لم يعد بإمكانهما رؤية تلك التقاطيع القديمة المعتادة لكل منهما ولا نظرة التسامح التي بدت فيهما.

ثم قال مارتسون بصوت يملؤه الانفعال:

"دعنا نغفر ونصفح وننسى، لقد أساء كلُّ منا للآخر، وكنا بذلك قد أساءنا لأنفسينا؛

لأننا تركنا الانفعالات الشريرة تتحكم بنا عوضاً عن العواطف النبيلة."

أجابه إرنست: "وأنا أقول من أعماق قلبي. آمين! دعنا نصفح ونتسامح وننسى.

ليتنا كنا من سنوات بمثل هذه الحكمة والتعقل!"

وبذلك كان الصديقان قد تصالحا.

والآن فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو:

"ما الذي كسبه كلُّ منهما من سخطه ونقمته على الآخر؟...

وهل كان إرنست قد أرضى بتصرفه ذاك غروره وكبريائه؟...

وهل كان مارتسون قد حصل على المزيد من احترام الذات؟... نعتقد أن هذا لم يكن قد حدث مع الأسف!...

كم قد يكون شعور الأنانية أعمى!

وكم بإمكانه أن يحشد الذهن بالنوازع الشريرة وبالأفكار المضللة!

كم بإمكانه أن يحجب الجانب الجيد في الآخرين، وأن يؤدي إلى المبالغة بما قد يؤخذ على الآخرين، وأن يحوِّله إلى جريمة!

لذا دعونا نتوخى الحذر من مثل هذا الشعور.

عندما شاهد السيد ويلفورد العجوز إرنست وعلم منه بما تمّ بينهما قال:

"ها قد تمّ الصلح بينكما أخيراً"

وأجاب الأخير: "نعم لقد أصبح بإمكانني الآن أن أنسى كما أصفح وأسامح"

وقال ذلك العجوز الحكيم ويلفورد:

"عليك بالأحرى أن تقول أن بإمكانك أن تنسى لأنك صفحت. ولو أنك صفحت وسامحت بالفعل فسوف تتوقف عن التفكير بما كان من تصرف خاطئ من صديقك. يتحدث الناس عن الصفح وعن عدم النسيان، ولكن الأمر ليس هكذا فالمرء لا ينسى لأنه لم يكن قد صفح بالفعل."

قال إرنست:

"أعتقد بأنك على صواب فأنا الآن أفكر فقط بما لدى صديقي من صفات حميدة كما كنتُ قد فكرتُ سابقاً بما فيه من عيوب، وقد نسيْتُ الشر بتفكيري بالخير."

أجاب السيد ويلفورد:

"ذلك لأنك قد سامحتَه فأنت قبل أن تسامحه لم تكن فكرة الشر لديك تدع المجال للتفكير بالخير."

كان السيد ويلفورد على حق فنحن عندما نصفح لا نجد بعد ذلك أية صعوبة في النسيان..."

وربما عليّ أن أضيف ما يلي:

علينا في النزاعات مع من نحبهم أن نتعامل مع الوضع الراهن فقط، وألا نحاول استرجاع ما حدث في الماضي.

سجل الذاكرة الإنسانية

الفصل الأول

قال صديق مُتقدّم بالسن لصديقه الشاب إدوين فلورانس وعلى يتحاوران:
"هناك في ذهن كلّ منا سجل دوّن فيه كل تصرّف من تصرفاتنا، وكل عمل نقوم به بأحرف لا يمكن أن تمحوها الأيام ولا أن يُزيلها من ذاكرتنا مرور الوقت. وبانقضاء ذلك اليوم وإطلالة يوم جديد تُطوى الصفحة التي سُطر فيها ما جرى في اليوم السابق وتُفتح صفحة جديدة..."

هذا السّجل هو ذاكرتنا الذي يتوقف على ما سُطر فيه وعلى ما يحتويه ما سوف يكون عليه مستقبلنا سواء أكنا سنلقى السعادة أم أننا سوف نعيش بشقاء... وعلى الرغم من أن تصرفاتنا في اليوم السابق تصبح من الماضي، وتعتبر قد انتهت إلى الأبد مع انقضاء الزمن الذي تمت فيه، وعلى الرغم من أن ما حدث لا يمكن أن يعود من جديد، لكنه يكون قد سُجل وتم ختمه وبُصم ببصمة لن يكون هناك ما يمكن أن يمحوها أو يُزيلها من ذاكرتنا.

بإمكاننا أن نتوب وأن نندم على ما ارتكبنا من آثام، وبإمكاننا أن نُظهر قلوبنا من نزعة الشر، لكن لن يكون بإمكاننا بأية طريقة، حتى لو كنا قد تُبنا وكفّرنا عن أخطائنا، أن نعيد الوقت الذي مضى ولا أن نُعدّل شيئاً مما سُجّل في صفحة الذاكرة...

آه يا صديقي! ليت كان بإمكانني أن أمحو ما سُجّل في بعض صفحات سجل ذاكرتي، فتلك الصفحات تفتح أمام عيني مع مطلع كل يوم جديد. كم كنت سأشعر بالسعادة والسكينة لو حدث ذلك! لكن ليس بإمكانني أن أفعل ذلك. هناك

أخطاء وتصرفات مما قد لا ينفع التوبة ولا الندم في تطهيرنا منها كي نشعر بالسكينة ونستطيع العيش بسلام في المستقبل.

لم يعد بإمكانني، رغم توبتي، أن أعيد الزمن إلى الوراء لكي أقوم بإصلاح ما ارتكبته من أخطاء بحق الآخرين...

إدوين! عليك أن تحرص دومًا على أن تظلّ صفحات ذاكرتك خالية مما قد يُطْخِها من بقع سوداء. عليك أن تحذر لأن سعادتك وراحتك النفسية تتوقفان على ما سُجِّل في سجل ذاكرتك..."

كان إدوين فلورانس قد أصغى بكل اهتمام لما قاله ذلك الصديق العجوز، لكنه لم يكن أخذه بعين الاعتبار...

كان بعد ساعة من ذلك الحوار جالسًا بالقرب من خطيبته ينظر إلي وجهها بعينين تشعان بالحنان. لم تكن جميلة بالمعنى الذي يصفه الناس، ومع ذلك لم يكن لأي شخص قد يمضي بصحبته ولو ساعة واحدة إلا ويكتشف ما لديها من سمو روح يُضفي عليها الكثير من الجمال...

كان ذلك جمال الروح و الخلق وهو ما جعل إدوين فلورانس يفتتن بها وينجذب إليها، كما كان قلب الفتاة الشابة قد تجاوب أيضًا مع تلك العاطفة الرقيقة بكل سعادة.

سألها إدوين بصوت خافت:

"إديث هل تحبينني؟"

وكانت الشابة قد أجابته وفي عيناها نظرة شغف:

"بلى! أنا أحبك قدر محبتي لحياتي."

وكان كلُّ منهما - بعد أن تسامرا لمدة طويلة - قد عاد إلى منزله وهو يشعر بسعادة غامرة.

كم كانت أحلام تلك الشابة سعيدة تلك الليلة! كانت ترى وجه إدوين في كل ما تطوف به أفكارها.

كانا يتقابلان يوميًا، واستمرت تلك اللقاءات السعيدة بينهما لمدة طويلة لكن تغييرًا مفاجئًا كان قد طرأ على إدوين. أخذت زيارته تتباعد وتصبح أقل، وكان قد بدأ يتصرف بتحفظ عندما يجتمع بتلك الشابة التي كان كلُّ ما في حياتها قد ارتبط به، ما جعل قلبها يرتعش كما لو أن يدًا من جليد قد أخدمت ما فيه من حرارة... فكرت في أن تسأله عن سبب ذلك التغيير، لكنه كان قد بدأ يُصبح أكثر فأكثر برودًا، ما جعلها تنطوي على نفسها أشبه بزهرة ذبلت أوراقها النضرة بعصف نسمة باردة من أصابع الخريف...

لم يكن إدوين عندما جاء لزيارة إديث ذات يوم قد تصرف ببرود فقط وإنما كان لسبب ما يبدو مرتبكًا إلى حد كبير.

كان قد أمسك بيد إديث بلطف، على الرغم من أنه كان قد توقف عن ذلك لأسابيع ما عدا عندما كان يحييها وقال:

"إديث! أود أن أعرب لك عن مقدار احترامي لك... وأنني أحببتك جدًا... نعم، أحببتك واعتبرتك أختًا لي... أختًا نقية طيبة لكنني..."

وكان قد توقف قليلًا عن الكلام لما شاهده من تغيير في ملامح إديث. كان وجهها قد شحِب إلى حد كبير وكانت بالأحرى تكاد تتوقف عن التنفس. سألتها بصوت يُعرب عن القلق: "هل أنت مريضة؟"

لكن إديث كانت قد بدأت تسيطر على مشاعرها وأجابته بضعف:
"لا"

تلا ذلك دقيقة صمت مطبق كانت إديث خلالها - بكثير من الجهد - قد تماكنت نفسها واستطاعت أن تُسيطر تمامًا على مشاعرها.

كان إدوين بعد أن تبين له ذلك قد تابع كلامه:

"ما كنتُ أود أن أعلمك به إديث هو أنني أحببتك كما يحب المرء شقيقةً طاهرةً طيبة... فهل تتقبلين مني هذا النوع من المحبة؟ هل بإمكانك أن تعتبريني صديقًا... أخًا لك؟"

كانت قد علت وجه إديث صفرةً أشبه بصفرة الموت، ارتجفت شفاتها وظهرت في عينيها نظرة غريبة. لكن ذلك التغيير كان قد زال سريعاً وعاد إلى وجهها من جديد ما يُشير إلى رباطة الجأش.

وكانت إديث على الفور من سماعها ما نطق به فلورانس من تلك العبارات الجارحة قد سحبت يدها من يده، وكانت عندما حاول إدوين الإمساك بها من جديد قد تجنبت لمسة يده.

قال الشاب من جديد: "لم تجبينني إديث."

قالت إديث: "هل ترغب بسماع إجابتي؟"

وكانت قد نطقت بتلك العبارة بصوت خافت لا يكاد يسمع.

كانت إجابة إديث بلهفة:

"نعم إديث. دعينا لا نفرق عن بعضنا. أنت بالنسبة إليّ كما كنتِ دوماً صديقة عزيزة جداً... صديقة أقدرها جداً. لم أكن قط قد اجتمعتُ بك إلا وأحسستُ بشعور لطيف يملأ قلبي بالسعادة، لكنني لم أكن قط قد..."

كانت إديث قد نهضت فجأة على قدميها، وقالت:

"دعنا منذ الآن نُصبح غرباء عن بعضنا."

وكانت قد خرجت بسرعة من الغرفة.

كان الشاب قد غادر المنزل ببطء دون أن يشاهد أيّاً من أفراد العائلة.

ولم تكن هناك قوة في العالم أن تمحو من سجل ذاكرته ما كُتب فيها عما حدث ذلك اليوم. كان ذلك قد حُفر بعمق بحيث لم يكن لغبار السنين أن يمحوه.

كان إدوين بعد أن غادر ذلك المنزل قد أخذ يسترجع شكل وجه إديث الشاحب، وظلّ ذلك الأسى الذي كان في نبرة صوتها المأسويّ عندما قالت: "لنكن منذ الآن غرباء عن بعضنا." يرنّ في أذنيه.

حاول ألا يراها أمامه وألا يسمع صوتها، لكن ذلك كان مستحيلاً. كان صوتها وشكل وجهها قد أثرا في قلبه بعمق.

كان إدوين فلورانس قیل بضعة أيام قد ارتبط عاطفياً بفتاة أخرى. أكثر جمالاً وفتنة وأكثر تألقاً وذكاء من إديث. كانت تدعى كاترين ليمنور وهي امرأة فاتنة بل المرأة الأكثر فتنة ممن كان قد قابلهن من نساء طوال حياته؛ لذا كان منذ قابلها قد تغير اتجاه إديث.

كانت كاترين لينمور قد أعجبت أيضاً بفلورانس وكانت قد شجعتُه بأن أظهرت له إعجابها به؛ ما جعلها تكسب قلبه، وهذا هو ما جعله ينسى حبه الأول قبل أن يمر وقت طويل على تعارفهما...

لكن الأنسة ليمنور كانت بريئة في ذلك الأمر؛ لأنها لم تكن تعلم شيئاً عن علاقته السابقة بإديث، وعما كان يربط بينهما من عاطفة...

لم يكن قلب إدوين بعد وداعه إديث قد طاوعه على الارتباط على الفور بالأنسة ليمنور. كان كل ما يشغل تفكيره في ذلك الوقت هو تلك الشابة التي هجرها بكل قسوة ما جعله يشعر بالكثير من الندم على تصرفه تجاهها، وكان كلما اقترب موعد ارتباطه بالأنسة ليمنور وهو يعيش في ذلك الصراع المؤلم، قد فكر بالاعتذار عن مقابلة الأنسة ليمنور في ذلك اليوم على الأقل. كانت المرأة التي افتتن بها قد جعلته يرتكب مثل ذلك العمل الجائر بحق ذلك القلب المحب المخلص الذي منحه ثقته... لم يكن أمامه في مثل ذلك الموقف سوى الشراب، وبسبب توقعه صحياً كان قد فكر في البداية أن يتظاهر بعدم الاستقرار العقلائي؛ لكي يتمكن من الاحتجاب ومن التهرب من كاترين ليمنور ومن كل من حولها، لكنه كان آخر الأمر أرسل إليها حاشية صغيرة أشار فيها إلى توقعه صحياً.

كانت تلك الليلة أتعس ليلة في حياة ذلك الشاب.

مرّت عدة أيام دون أن يكون قد سمع شيئاً عن إديث، كما لم يكن بإمكانه بالطبع أن يطلب زيارتها؛ لأنها كانت قد حرّمت عليه ذلك... كان لكلماته تأثيرها الأكثر إيلاً مما تتوقع، ما جعله يشعر بالكثير من القلق حول ما يمكن أن يكون لذلك من نتائج على المدى الأبعد...

كان إدوين بعد مرور بضعة أيام وهو يمشي مع الأنسة كاترين لينمور قد وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام إديث. كان التغيير الكبير قد طرأ عليها قد جعله يُصعق.

كانت إديث قد أَلقت عليه - وهي في طريقها - نظرة عابرة لكنها لم تكن قد أظهرت ما يشير إلى معرفتها به ما جعل رفيقته تسأله بدهشة:

"أليست هذه الأنسة إديث والتر؟"

أجاب فلورانس: "نعم"

سألته كاترين من جديد:

"ما الذي أصابها؟ ما هي مشكلتها؟ هل كانت مريضة؟ تبدو مروعة؟"

قال الشاب - وهما يتابعان السير -:

"هذا صحيح! لم أكن قد شاهدتها قط بهذا الوضع السيئ."

عادت الأنسة لينمور للحديث عن فقط لكنها، كانت قد تعاطفت معها كثيرًا لما شاهدته فيها من تغيير بالإضافة إلى ما لمستّه من سوء وضعها وقالت:

"كنت قد التقيت بها عدة مرات فقط، لكن ذلك كان كافيًا؛ لأن يجعلني أكوّن فكرة رفيعة عن شخصيتها. كان أحدهم قد اعتبرها عادية جدًا لكنني لا أرى ذلك. هناك شيء رائع في شخصيتها بحيث لن يكون بإمكان من يعرفها عن قرب إلا ويكتشف في ملامحها جمالًا حقيقيًا."

وكان إدوين قد أضاف:

"هذا صحيح! فليس بإمكان من يتعرّف عليها عن قرب إلا أن يحبها لما تتميز به من تلك الطيبة التي تحدثت عنها."

سألته رفيقته: "هل كنت على علاقة وثيقة بها؟"

وكان فلورانس قد أجاب:

"نعم. كانت لمدة طويلة بمثابة الأخت بالنسبة إليّ."

كان هناك نوع من الاضطراب في صوت فلورانس وهو يقول ذلك.

قالت الأنسة لينمور: "لكنها كانت قد مرت إلى جانبك كما لو أنها لم تتعرف عليك."

قال فلورانس " هذا ما لاحظته."

قالت رفيقته: "لكن ما يدعو للاستغراب أن تكون قد نظرت إلى وجهك نظرة غامضة وبكل ببرود! ما الذي قد يكون قد حلّ بها؟"

"وكان فلورانس قد غامر بالقول:

"كنتُ قد لاحظتُ أيضًا منذ مدة ذلك التغيير فيها، لكنها لم تكن بهذا الشكل. لابد أن هناك ما تعاني منه بشدة."

وكان إدوين فلورانس عندما افترقا قد شعر بنوع من الراحة لانتهاء ذلك الجوار حول إديث، ثم مرّ عدة أسابيع دون أن يكون إدوين قد سمع أو التقى بإديث. وكان أثناء ذلك قد التقى عدة مرات بالآنسة لينمور التي كانت تشجعه دومًا على التقرب منها إلى أن غامر أخيرًا بالكشف لها عما في قلبه من مشاعر.

كانت الشابة قد أصغت إليه بسرور، لكنها لم تكن مع ذلك قد وافقت على الفور على الارتباط به. لم تكن كاترين لتوضح لم رفضت عرض ذلك المحب المتلهف، وإنما أجابته بأنها لم تكن قد فكرت بالزواج في الوقت الحاضر ثم طلبت مهلة قصيرة للتفكير.

كان إدوين قد لاحظ من أسلوب تصرفها بأن إجابتها سوف تكون لصالحه، واعتقد بأنه سوف يكون في غاية السعادة؛ لأن بإمكانه حينذاك أن يمحو من ذاكرته كل ذكرى للآنسة إديث ولما كان من تصرفه الجائر تجاهها. لكن ذلك كان مستحيلًا...

كان شكل وجه إديث عندما شاهدها مؤخرًا قد ظلّ ماثلاً أمام ناظريه. كان يراه حتى وهو يمشي في الشوارع، ما جعله يخشى دومًا أن يلتقي بها فجأة، وبذلك لم يعد يشعر بالمتعة والراحة في أي مكان ما لم يتأكد من عدم وجودها فيه.

كانت الآنسة لينمور بعد بضعة أيام من تقدّمه بطلب يدها - وهي على وشك اتخاذ القرار الإيجابي بقبول عرضه للزواج - قد سمعت بعض التعليقات حول الآنسة إديث والتر ما لفت انتباهها لذلك الموضوع الغامض، وكانت بذلك قد بدأت على

الفور تستفسر عنها من أصدقائها وممن يعرفونها إلى أن كان أحد الأشخاص الذين تحدثت إليهم قد قال لها:

"أحقاً أنك لا تعرفين شيئاً عن الأنسة إديث؟"

وكانت قد أجابت:

"كل ما أعرفه أن تغييراً كبيراً قد طرأ عليها، لكنني لم أسمع من أحد عما كان السبب في ذلك."

قال رفيقها: "حقاً! اعتقدتُ بأن من المعروف لدى الجميع بأنه كان قد تم التلاعب بعواطفها وبأنها صُدمت عاطفياً."

قالت الأنسة ليمنور بسخط:

"لكن مَنْ بإمكانه أن يتلاعب بعواطف مثل تلك المخلوقة الرقيقة الطيبة جداً؟ لابد أن الرجل الذي كان بإمكانه أن يفعل ذلك لا يتمتع بأية خصال حميدة، كما أن ليس لديه - على ما يبدو - أيّ تقدير حقيقي لِمَا هو جيدٌ وسامٍ في شخصية المرأة. لم أكن قد التقيتُ بها سوى بضع مرات، لكن ذلك كان كافياً لأن يجعلني أشعر بالكثير من التقدير نحوها، وبأن أعتبرها أروع إنسانة من بنات جنسنا. لابد أن هناك شيئاً دنيئاً وزائفاً في قلب الرجل الذي بإمكانه أن يتلاعب بعواطف مثل تلك المرأة."

وكانت الإجابة:

"الحقيقة أن الرجل الذي تلاعب بعواطفها هو السيد إدوين فلورانس! كان قد كسب قلبها، ثم تولى عنها وترك فيض العواطف التي أثارها في قلبها يضيع تحت قدميه."

كانت الأنسة ليمنور بحاجة للكثير من الجهد لكي ننمكن من إخفاء ذلك الاضطراب الشديد الذي أصابها لدى سماعها مثل ذلك التصريح غير المتوقع، وكان ما لديها من كثيرٍ من إمكانية ضبط النفس قد ساعدها على السيطرة على انفعالها.

وكانت بعد لحظة من الصمت قد سألت بدهشة من جديد:

"أهو بالفعل إدوين فلورانس؟"

أجاب رفيقها: "نعم، هذا هو الرجل... كم كان مقدار ما تسبب به لها من أسي! لم أكن قط قد شاهدتُ مثل ذلك التغيير الذي طرأ على إديث، فقد تسبب إدوين بإزالة كل ما في حياتها من نور الحياة. كانت محبتها لفورانس على ما يبدو محور حياتها لذا جعلها هجرانه لها تفقد اهتمامها بالحياة، لكن ما أخشاه هو أن يؤدي ذلك إلى فقدانها تمامًا أية رغبة في العيش."

قالت الأنسة ليمنور: "هذا رهيب بالفعل! يبدو أن خداع من أحبته قد حطّم قلبها." قال رفيقها: "أخشى أن يكون الأمر كذلك."

ثم قالت الأنسة ليمنور من جديد:

"هل هي الآن مريضة فأنا لم أعد شاهدها منذ وقت طويل؟"

وأجاب رفيقها: "لا ليست مريضة من الناحية الجسدية لكنها على ما يبدو قد أصيبت بانهيار عصبي، ومع ذلك فهي تحاول عندما تقابلينها أن تبدو هادئة وسعيدة لكن كل ما تبذله لإخفاء مشاعرها لا يمكن أن يخدع أحد." سألته الأنسة ليمنور من جديد:

"لكن لم كان السيد فلورانس قد تصرف تجاهها بتلك الطريقة؟"

"ما علمته أن ذلك لأنه كان قد تعرّف على من هي أجمل وأكثر فتنة وذكاء منها..." ولم تكن تلك الشابة قد وجهت إليه المزيد من الأسئلة، لكن من نظر إليها عن قرب كان بإمكانه أن يلحظ بأن حمرة خديها الجميلتين قد بهتت شيئًا فشيئًا إلى أن حلّ محلها شحوب شديد، وكانت بعد وقت قصير قد انسحبت من الجلسة.

لم يعد إدوين فلورانس في ذلك الوقت، بانشغاله بحبه الجديد، يتذكر علاقته السابقة بالآنسة إديث إلا نادراً. كانت صورة الأنسة إدوين قد اختفت من ذاكرته لكي تحل محلها صورة الأنسة ليمنور. لكن ذلك التأجيل بسبب طلبها مهلة للتفكير كان قد بدأ يؤلمه. كان كلما طالت تلك المدة يشعر أكثر فأكثر بأن سعادته في المستقبل تتوقف على الارتباط بزواجه من تلك الشابة الجميلة، وبأنه سوف يكون في غاية التعاسة في حال رفضها الارتباط به.

وكان ذات يوم وهو في تلك الحالة من القلق والاضطراب قد ذهب لزيارة الأنسة ليمنور. كان يشعر بالأمل وكان بذات الوقت يخشى نتيجة ذلك اللقاء، لكنه كان مع ذلك قد قرر أن يعرف ما هو قدره.

لكن إدوين فلورانس كان من اللحظة التي شاهد فيها كاترين ليمنور قد شعر بأن هناك تغييرًا في تصرفها نحوه. لم تكن قد ابتسمت كعادتها عندما استقبلته، وكان هناك بعض البرود في النظرة الثابتة التي قابلته بها بعينيها الواسعتين. ما جعله يسألها عندما أعرضت عن مصافحته:

"هل حدث أن تصرفت بما يسيء إليك؟" وكانت إجابتها الصارمة:
"نعم"

سألها السيد فلورانس بدهشة: "بماذا؟"
أجابته بحزم:

"بكونك خدعت من كانت قد سمعت منك أرق عبارات المحبة للمرة الأولى في حياتها."

وكان الشاب قد جفل أشبه بمن أصيب بلسعة أفعى
تابعت الأنسة حديثها بالقول:

"ولأن الرجل الذي خدع الأنسة إديث والتر لن يكون مخلصًا إليّ ذات يوم، ولن أتعلم المحبة التي كانت ذات يوم لها. عليك أن تذهب الآن لكي تحاول شفاء جروح القلب الذي كنت قد حطمته تقريبًا، وهذا إن لم يكن الوقت قد تأخر كثيرًا لكي تفعل ذلك. أما بالنسبة إليّ فكل ما عليك هو أن تنسى تمامًا بأنك كنت قد تعرّفت إليّ ذات يوم... هذا ما يجب أن تصبح عليه علاقتنا من الآن فصاعدًا."

وكانت كاترين ليمنور بعد أن قالت ذلك قد غادرت الغرفة، وتركت الشاب - الذي صُنع بما تلقاه منها من توبيخ - بمفرده، وبذلك كان إدوين فلورانس قد غادر المنزل على الفور.

الفصل الثاني

كان قلب إدوين فلورانس في تلك الليلة ينبض بكثير من الاهتياج، كان قد جلس بمفرده في غرفته يسترجع الحوار الذي جرى أثناء مقابلته الأخيرة للآنسة ليمنور، وكانت ذاكرته خلال بضع ساعات قد قلبت العديد من صفحات سجّل حياته. كم كان سيشعر بالسروور لو كان بإمكانه أن يحوّل بصره لكي يتفادى النظر إلى تلك الصفحات، لكنه لم يكن قد تمكّن من ذلك...

كان السجّل مفتوحاً أمام ناظريه وكان عليه أن يقرأه. كان وهو يقرأ يشاهد عيني إديث ينظران إليه. كانت نظرتها في البداية نظرة محبة وحنان كما كانت عليه في أيام تعارفهما الأولى، ثم تحولت إلى نظرة حزن وقد امتلأت عيناها بالدموع.

كانت يدها بين يديه بكل ثقة ثم كانت قد سحبتهما بسرعة. كانت يراها جالسة إلى جانبه تسند رأسها على كتفه، ثم كانت تُعرض عنه ببرود، وتسقط على الأرض أشبه بشجرة طرية حُرمت من الدعامة التي كانت تستند إليها...

آه... ليت كان بإمكانه فقط أن يمسح هذا السجّل من ذاكرته لكيلا يعود إليه بذكرياته، ولكيلا يعود لقراءته! كم كان يتمنى أن يشرب من مياه نهر النسيان لكي يكون بإمكانه أن ينسى كل ما مرّ به!...

والأكثر من ذلك الآن أن ما لقيه من تعنيف من الآنسة ليمنور يكاد يقوده إلى الجنون. كان بهجرانه إديث قد ترك قلبه بتوجه نحو

محبوبته الأخرى بكل إخلاص. لكنها صدمته الآن برفضها عرضه الزواج...

تلا ذلك ليلة من الأرق، ولم يكن الصباح قد جلب له كثيراً من الهدوء، كما لم يكن قد جلب لروحه الكثيبة السكينة.

كان مع ذلك قد أصبح أكثر هدوءاً، وحلّ في نفسه شعور لطيف عندما عاد بأفكاره من جديد نحو إديث والتر. كان عندما عاد بذاكرته إلى المشاعر الرقيقة التي جعلت

فلبه ينبض نحوها لمدة طويلة قد شعر من جديد بالتقدير لجمال شخصيتها
وتساءل:

"كيف كان بإمكانني أن أفنتن غيرها؟ ما هو ذلك السحر الذي أصابني عندما
تعرفت على الأنسة ليمنور؟"

كانت تلك هي الكلمات التي نطق بها دون شعور والتي أشارت إلى تغير مشاعره
نحو الأنسة ليمنور، وكان ذلك التغيير قد بدأ يتزايد مع مرور الأيام إلى أن عادت
عاطفته السابقة نحو إديث تملأ قلبه. لكنه كان قد تذكر بأنه كان قد تركها
بنذالة ما جعله يتساءل عما قد يكون موقفها تجاهه... كان ضوء جديد قد
سطع أمام عينيه حينذاك ما جعله شعر بأنه لن يتمكن بعد ذلك من الالتفات إلى
أي جمال أو لأي فتنة سوى في محبوبته الأولى.
تساءل: "هل بإمكانه أن يعود إليها من جديد؟ هل ستقبله؟ هل ستتيح له المجال
لشفاء جروحها؟"

وكان قلبه قد ارتعش وهو يتساءل عن ذلك؛ لأنه لم يكن واثقاً من الإجابة التي
ينتظرها.

كان إدوين فلورانس قد قرر آخر الأمر بأن عليه أن يجتمع بإديث؛ لكي يحاول
إصلاح ما نجم عن سوء تصرفه تجاهها، وبأن ذلك سيكون لأجلهما معاً لأجلها
ولأجله...

كان قد اتخذ ذلك القرار بعد مرور ثلاثة أشهر على رفض الأنسة ليمنور الارتباط
به، لكن عدة أسابيع كانت قد مرّت قبل أن يتمكن من إرغام نفسه على التصرف
وفق ذلك القرار. لم يكن إدوين فلورانس طوال تلك المدة قد التقى بتلك الشابة، كما
لم يكن قد عرف عنها شيئاً.

كان مساء ذات يوم من أيام الخريف قد توجه نحو المنزل الذي تُقيم فيه مع خالتها
تتنازع قلبه عدة مشاعر. كانت محبته للأنسة إديث قد عادت إليه بذات العنفوان
ما جعل روحه تهفو إلى العلاقة السابقة بينهما.
طرق الباب وكان عندما فتحت له الخادمة الباب قد سألهما:

"هل بإمكانني أن أقابل الآنسة والتر؟"

أجابته الغريبة: "تفضل بالدخول."

وكان فلورانس بذلك قد دخل إلى البهو الصغير الذي كان قد أمضى فيه ساعات طويلة مع إديث. ساعات لا يمكن أن تُمحى من ذاكرته... ساعات سعيدة أكثر مما بإمكانه أن يصفها... لكن تلك الذكرى كانت قد أحرقت قلبه بالألم وكان وهو ينظر حوله إلى الأشياء التي كان عرفها قد شعر بمشاعر غريبة...

كان بعد وقت قصير قد سمع وقعًا خفيفًا لأقدام كانت تنزل السلالم وتتوجه نحو الممر، ثم فُتح الباب. ها هي إديث أخيرًا... لا... لم تكن إديث بل كانت تلك خالتها من دخلت البهو.

نهض الشاب - وهو يلهث - استعدادًا لاستقبالها ومدّ يده لكي يُحييها لكنها أعرضت عنه وقالت له ببرود:

"أهلاً سيد فلورانس!"

وكان فلورانس قد همس:

"كيف حال إديث؟"

أجابت خالتها: "إنها تتراجع بسرعة."

كان إدوين قد ترنح وتراجع إلى الخلف. جلس على أحد المقاعد وسألها - وهو يرتجف :-

"أهي مريضة؟"

كانت خالتها قد أجابته بطريقة تنم عن الكثير من الامتناع:

"هل تسأل عما إذا كانت مريضة؟ إنها تموت."

قال السيد فلورانس بأسى: "تموت؟"

ثم سأل من جديد:

"هل هي مريضة منذ زمن طويل."

قالت خالتها:

"إنها تموت منذ أربعة أشهر... وهي تموت يومًا بعد يوم."

كان في تبرة صوتها ما يشير إلى الاتهام ما جعل الشاب يفهم على الفور ما تعنيه.
لم يكن ذلك ما كان يتوقعه من تلك الزيارة.
سأل من جديد: "هل بإمكانني أن أراها؟"
كانت الخالة قد هزت رأسها بالنفي وقالت:
"دعها ترحل بسلام."

قال فلورانس:

"أرجوك لن أزعجها وإنما سأعمل على تهدئتها... أرجوك دعيني أراها فقد يكون
بإمكانني أن أعيدها إلى الحياة!"
قالت الخالة: "فات الأوان... فهي مُشارفة على الموت."
كان إدوين قد وثب على قدميه، وقال من جديد - بانفعال شديد -:
"دعيني أراها! دعيني أراها!"

قالت خالتها: "لو رأتك وهي في تلك الحالة فسوف تتسبب بإطفاء ما تبقى من
نبض الحياة فيها. اذهب أيها الشاب! فقد فات الأوان! لا تحاول تحريك المياه التي
كنت قد أثرتها لمدة طويلة بعد أن رقدت بهدوء... دع روحها ترحل بسلام!"
كان فلورانس قد ارتمى في مقعده من جديد. جلس هناك لبضع دقائق وهو في حالة
من الشلل العقلي.

أما في الغرفة الأعلى فكانت إديث الشاحبة مُمددةً هناك إلى جانبها شابة كانت
مُمسكة بيدها النحيلة. كانت تلك الفتاة تعيش معها منذ سنوات أشبه بشقيقة
لها. كان وجه المريضة موجَّهاً نحو الجدار. كانت مُغمضة العينين تتنفس بهدوء.
وكان أحد الخدم قد دخل الغرفة بعد حوالي عشر دقائق، وهمس لتلك الفتاة بأن
هناك شخص في البهو. كانت إديث قد استدارت على الفور وقالت لرفيقتها بصوت
خافت هادئ:

"لابد أن السيد فلورانس قد جاء."

ما جعل رفيقتها تُصعق ويصعد الدم إلى وجهها.
وأضافت الشابة المشارفة على الموت بكل هدوء:

"لابد أنه الآن في الردهة. ألن تطلبي منه الدخول؟"

كانت رفيقتها بعد بضع دقائق من التردد قد نهضت متسللة خارج الغرفة، وكانت قد وجدت الخالة والسيد فلورانس بانتظارها في الممر. كانت الخالة قد استجابت أخيراً لرجاء السيد فلورانس بعد كل ما كان منها من رفض ومعارضة...

قالت الفتاة: "أبدت لي إديث رغبتها برؤية السيد فلورانس."

سألته الخالة بدهشة: "من الذي أعلمها بوجوده هنا؟"

"لم يعلمها أحد بذلك فأنا نفسي لم أكن أعلم بذلك."

قال السيد فلورانس: "إنه قلبها... لابد أن قلبها قد أعلمها بوجودي هنا"

وكان وهو يتحدث قد تجاوز الخالة بخطى سريعة ودخل إلى الغرفة التي ترقد فيها المريضة المشارفة على الموت.

كانت إديث عندما دخل إلى الغرفة تنظر إلى الباب لكن لم يكن في نظرتها أي تعبير. لم يكن بإمكان فلورانس عندما شاهد ما تبقى من الشابة التي كان قد أحبها والتي كان قد أساء إليها بكل قسوة، أن يتمالك نفسه وكان قد ارتقى على مقعد إلى جانب سريرها أشبه بطفل وبدأ يقبل جبينها ويديها ما جعل دموعه تسيل على خديها.

كانت الخالة قد لحقت به بسرعة وأمسكت بذراعه بقوة وبدأت تسحبه إلى خارج الغرفة لكن المريضة قالت لها بصوت خافت:

"لا... لا... دعيه هنا... كنتُ بانتظار قدومه... كنتُ أعلم بأنه سوف يأتي إليّ وها هو هنا الآن."

ساد الصمت لبضع دقائق وكان فلورانس قد جلس إلى جانب السرير وهو يحاول السيطرة على مشاعره... بينما كانت الخالة والصديقة - بإشارة من المريضة - قد انسحبتا من الغرفة وبذلك بقيت المريضة بمفردها مع الشخص الذي أحبته والذي كان قد لعب بمشاعرها...

كان إدوين عندما أغلق الباب عليهما قد نظر إلى إديث وقد بدأ يشعر بالسكينة وقال لها بصوت يفيض بالحنان:

"حاولي أن تعيشي لأجلي."

لكن إجابتها كانت:

"ليس هنا... ليس في هذا العالم... فقد تحطمت الكأس الذهبية وتفتك الوثاق..."
قال فلورانس: "لاتقولي هذا إديث! دعيني أعيدك إلى الحياة. لا زال العالم جميلاً
وسوف يكون بإمكاننا أن نلقى السعادة معاً."

أجابت المريضة: "لا إدوين! انتهى تاريخ أيام حياتي هنا وها هي الملائكة على وشك
قطع ما يربطني بالحياة. أنا ذاهبة إلى المكان الذي لا يمكن أن يتسبب لي فيه أحد
بالحزن. كنت أرغب بأن أراك لمرة واحدة قبل أن أرحل عن العالم، وها أنت هنا الآن
وأنا سعيدة بذلك. كانت شمس حياتي قد غابت عندما أعرضت عني وكانت الزهرة
التي نشرت عطرها في الضوء قد ذبلت... ها قد عاد الضوء إلى حياتي لكن لم يعد
سواك بإمكانه أن يُعيد الانتعاش والجمال إلى القلب الذي ذبل."
قال فلورانس بلهفة:

"إديث أرجوك لا تقولي هذا! لتعيشي لأجلي... فليس لدي في قلبي سواك... سوف
تنتعش الزهرة التي ذبلت من جديد وسوف ترفع رأسها نحو الشمس عندما
ستزول الغيوم."

كانت إديث وهو يقول ذلك قد رفعت نفسها فجأة وألقت بنفسها على صدره
وكانت بعد لحظات قد فارقت الحياة.

كان إدوين بعد أن أرقدها من جديد في سريرها قد حدّق بذلك الوجه الذي فقد
الحياة، ثم أسرع بالخروج.

وبذلك كانت صفحة أخرى قد دُونت في سجل الذاكرة لكي تتم قراءتها بعد طوال
الحياة...

كم كان إدوين يتمنى أن يمحو تلك الصفحة من ذاكرته بأي ثمن لكن وأسفاه! لم
يكن بإمكانه ذلك.

لم يكن إدوين فريسة للحزن فقط، وإنما كان يشعر بتأنيب الضمير؛ لأنه حطّم قلب الفتاة التي وثقت به، ولأنه لم يكن قد تاب عما ارتكبه بحفها إلا بعد أن فات الأوان لإصلاح ما تم تدميره...

أما بالنسبة لِمَا قِيلَ وَلِمَا كان عليه موقف الآخرين تجاهه فلم يكن إدوين يأبه بذلك كثيرًا فقد كان لديه من الأسى ومن تعذيب الضمير ما يكفيه...

كان قد ابتعد عن المحيط الاجتماعي، وعاش لمدة ثلاثة أعوام حياة الناسك. لكن عزلته تلك لم تكن قد جلبت له السكينة أو السعادة؛ لأن الذكريات المؤلمة كانت معه دومًا. كان كل يوم تقريبًا يُطالع في سجل ذاكرته إحدى تلك الصفحات الكئيبة.

وكان إدوين بعد ثلاثة أعوام من وفاة إديث عندما بدأ يشفى إلى حدٍّ ما من التأثيرات المأساوية التي نجمت عن ذلك الحدث، قد تلقى دعوة للمشاركة بإحدى المناسبات الاجتماعية. كانت رغبته للعودة إلى المحيط الاجتماعي قد جعلته يستعيد رباطة جأشه لبعض الوقت ما يُشير إلى أن عزلته الإرادية لم تكن مُجدية لتغيير الماضي.

حدّث نفسه وهو يُحدّق في بطاقة الدعوة التي كانت بين يديه:

"الماضي مضى وفات... لن يكون بإمكانني أن أعود إليه أو لا أن أمحوه... كما ليس بإمكانني تغييره... من المؤكد أنني قد كفرت عنه تمامًا؛ لأن توبتي كانت لمدة طويلة كما أنها كانت توبة صادقة... لو كان بإمكان إديث أن تطلع على ما في قلبي لكانت روحها ستلقى السلام. ولكانت ستشعر بالكثير من الرضى وحتى لو لم يكن بإمكانها ذلك فقد أصبح عليّ الآن أن أعود للاختلاط بالمجتمع.

وكان فلورانس بناءً على ذلك قد ظهر في تلك المناسبة الاجتماعية لكنه كان قد شعر بأنه غريب عن تلك الأجواء؛ لأن التأثيرات والانفعالات السابقة كانت قد اجتاحت ذهنه من جديد. كان قد شاهد أمامه في كل ما ينظر إليه صور الماضي الذي مضى من زمن بعيد، وكان يُخيّل إليه وهو يسمع صدى الأصوات التي كانت تملأ الغرف أنه يسمع صوت إديث.

كم كانت ذاكرته تعود إلى الماضي!... كان قد حاول دون جدوى أن يُبعد عن ذهنه تلك الصور لكنها كانت تعود وتظهر في ذهنه من جديد. كانت تلك الصفحات تُفتح أمامه من جديد، ولم يكن بإمكانه ألا يقرأ ما كان مُدوّنًا فيها...
كان ذلك قد حدث تلك الأمسية لبعض الوقت إلى أن اقترب من الموجودين لكي يتحدث إلى من كان يُسرّ بصحبته سابقًا...

كانت بين المتواجدين في ذلك الحفل شابةٌ أتت من مدينة مجاورة. كانت تلك الشابة قد جلبت انتباه الجميع بشخصيتها اللطيفة وبأسلوب تصرفها. كانت الفتاة على الفور من دخول فلورانس إلى الغرفة قد نظرت إليه باهتمام وكان فلورانس أبطًا قد التفت عدة مرات وظلّ يُحدّق بها وكان بعد ساعة قد سأل أحد أصدقائه:
"من تكون تلك الشابة؟"

أجابه صديقه:

"تدعى الأنسة ويلدن وهي من ألباني."

قال فلورانس: "تبدو شخصية تستحق الاهتمام."

قال صديقه: "إنها بالفعل رائعة الجمال كما أنها ذكية جدًا."

ولم يكن قد مرّ وقت طويل إلا وكان قد تم التعارف بين الاثنين. كان حديث الشاب مع تلك الشابة ذات الذكاء والشخصية المتميزة قد جعله يستمتع بصحبته. لكنه كان أثناء تحدّثه معها قد لاحظ عدة مرات بأن هناك من يرقبهما باهتمام في الجهة المقابلة من الغرفة. لم يكن لذلك تأثيره عليه في البداية، لكنه كلما نظر إلى الجهة المقابلة من جديد كان يشاهد تلك العينين تنظران إليه نظرة بغیضة إلى أن أدرك بأن تلك المرأة هي خالة إديث والتر ما جعل قلبه يغوص بين أضلاعه.

وبذلك كانت المرأة السحرية للذاكرة قد ظهرت أمامه على الفور وكان قد شاهد فيها مشهد اللقاء الأخير مع إديث، وبذلك كان إدوين فلورانس بعد وقت قصير قد اختفى من صحبة تلك الرفقة اللطيفة...

أين كان؟...

كان جالسًا في غرفته وحيدًا منعزلًا مع ذكريات الماضي. كان يقرأ من جديد صفحات سجل حياته التي دوّن فيه تاريخ أحداث علاقته بإديث. كان يبدو له بأن ما كتب في ذلك السجل قد حدث في الأمس فقط. حاول أن يُغمض عينيه، وحاول أن يُحول نظره عنه، لكن ما سَطَّر في ذلك السجل كان أشبه بالسحر بحيث لم يكن بإمكانه سوى أن يستمر في قراءة ما كُتِب فيه.

همس لنفسه وهو يحاول أن يُحرّر نفسه من عبودية الماضي وما فيه من ذكريات: "نعم، أعلم بأن ذلك كان خطأ فادحًا! كان خطأ فادحًا بالفعل! لكن كيف يمكن لتصرف واحد أن يتسبب بشقاء المرء طوال حياته؟ ليت بإمكانني فقط أن أزيل كل ما سُجِّل في ذاكرتي! ليت بإمكانني أن أمسح ما تمت كتابته فيه! ألم تكن هناك أية فائدة من الحزن ومن التوبة؟ لكن الماضي انتهى إلى الأبد ولن يكون بإمكانني تغييره؟ لم عليّ أن أظلّ تعيسًا على الدوام؟ لم ليس بإمكانني أن أغيّره؟ لن يفيد هذا إديث! هي الآن سعيدة! هي الآن أكثر سعادة مما لو كانت على هذه الأرض المتعبة..."

لكنه على الرغم مما تفوه به من تلك الكلمات التي حاول بها جلب السكينة لنفسه، كان قد أدرك مقدار المعاناة التي تسبب بها لتلك الفتاة البائسة عندما أعرض عن محبتها له وأدرك بأنه كان قد حطم قلبها...
مرّت ساعات طويلة كان إدوين خلالها يلوم نفسه وهو يشعر بالمرارة ولم يكن قد تمكن من النوم إلى أن انتصف الليل.

الفصل الثالث

مرّ عدة أشهر قبل أن يتمكن إدوين فلورانس من المغامرة بالاختلاط بالمجتمع من جديد. كان أحد أصدقائه قد قال له ذات يوم:

"لِمَ تنعزل عن المجتمع بهذا الشكل؟ هذا ليس عدلاً بالنسبة لأصدقائك. سمعت الكثير ممن سأل عنك من الأصدقاء، كما أن حياة الناسك هذه قد تقودك إلى الجنون."

لم يكن ذلك الصديق يعلم شيئاً بالطبع عن تاريخ حياة إدوين فلورانس. كان إدوين قد أجاب:

"لستُ أعتقد بأن هناك بالفعل من يفتقدني."

أجابه صديقه: "أنت مخطئ في اعتقادك. هناك بالفعل من يفتقدك، سمعت ذلك على الأقل من إحدى الشابات. كانت قد سألتني عنك أكثر من مرة." سأله فلورانس بلهفة:

"أهذا صحيح؟ هل سألتك فتاة شابة عني؟"

"نعم، كما وهي أيضاً شابة جميلة جداً."

"ومن التي كان لها هذا الرأي الجيد عني؟"

"ألم تكن قد التقيت بالآنسة كلارا ويلدن؟"

"لمرة واحدة"

"لمرة واحدة فقط؟"

"نعم، هذا كل شيء."

"هي إذن حالة حب من النظرة الأولى، على الأقل من ناحية الشابة؛ لأن الآنسة ويلدن كانت قد سألت عنك بحسب معلوماتي ليس أقل من اثنتي عشرة مرة." قال فلورانس:

"لا شك أن علي أن أشعر بالإطراء بمثل هذا الاهتمام."

"حسنًا عليك أن تشعر بالفعل بالإطراء بذلك. وأن تعلم بأن أكثر من شاب على استعداد لبذل الكثير للحصول على مثل هذا الاهتمام من قبلها. لعلك أدركت الآن ما تخسره بالاحتجاب عن معارفك وبأنك لست أنت فقط الخاسر."

كان فلورانس قد شعر بالكثير من السرور وبأكثر ما كان يرغب بالتظاهر به، وكان بذلك قد وعد بالخروج من عزلته وبالاختلاط من جديد بالمجتمع، وكان ذلك ما فعله. كان قد أعيد إلى المحيط الاجتماعي نتيجة ما أبدته الأنسة والتر من اهتمام. كان إدوين فلورانس بعد مقابلته الثانية للأنسة والتر قد افتتن بها تمامًا، وكانت الأنسة والتر قد بادلتها أيضًا ذات الشعور. وكان كل منهما بعد بضعة مقابلات أخرى، قد تعلق بالآخر...

لكن فلورانس كان على الرغم من ذلك لا يزال قلقًا مضطربًا و بإمكاننا أن نقول بأن سبب قلقه السابق كان قد تجدد. كانت الأنسة والتر قد أحييت في ذاكرته ما حدث في الماضي مع الأنسة إديث والتر، ما جعله يجد بأن من المستحيل أن يُبعدها عن ذاكرته...

كان عندما يجلس إلى جانبها ويُصغي إلى صوتها يسمع صدى صوت إديث، وكان في كثير من الأحيان عندما ينظر إلى وجهها يشاهد أمامه وجه إديث، ما جعله يشعر في الفترة الأولى بالكثير من المعاناة خاصة عندما استمر ذلك لفترة كبيرة و إلى أن بدأ الأمر يُصبح أفضل بالتدريج، لكنه لم يكن قد تمكن مع ذلك من أن يتحرر تمامًا من الماضي.

ثم تكرر اللقاءات بين فلورانس والأنسة ويلدون ما جعل تقاربهما وتعلق كلٍّ منهما بالآخر يتزايد إلى أن كان فلورانس آخر الأمر قد تشجع على طلب يدها.

كان فلورانس عندما توصل إلى ذلك القرار قد تعرّض أيضًا للكثير من المعاناة ومن الصراع الداخلي وكان قد تعرض إلى ذات الانفعالات السابقة. كان قد استرجع الوقت الذي كان قد همس به بإذني إديث بوعوده التي نكت بها، ما جعله وهو في تلك الحالة من التوتر الاهتياج يقرر أكثر من مرة التخلي عن طلب يد الأنسة والدن،

والعودة من جديد إلى العزلة التي كان فيها، لكن عاطفته نحو تلك الشابة الجميلة كانت أقوى من أن يتمكن من التخلي عنها.
كان وهو يفكر بالتخلي عنها في حالة من الاضطراب والصراع النفسي قد حدث نفسه:

"لا، ليس بإمكانني أن أحيا في شقاء طوال حياتي... ما فائدة قيامي بتقليب صفحات الماضي البعيد من جديد... كنت قد أخطأت... كنت قد أخطأت وأثمت، لكن فات أوان التوبة. لِمَ عليّ أن أعيش في شقاء طوال حياتي لأجل خطأ واحد؟" ثم كانت ردّة الفعل الطبيعية قد جاءت أخيراً، وكان الهدوء قد حلّ العاصفة وكانت الذكرى قد نامت في ركن مظلم من الذاكرة. وبذلك كان فلورانس قد شعر بالكثير من الراحة وحدث نفسه بصوت مرتفع تقريباً:

"أنا حرّ... حرّ..."

كان فلورانس قد تقدم بطلب يد الأنسة ويلدون التي شعرت أيضاً بالكثير من السعادة، لكن لم يكن بإمكانها مع ذلك أن تعلن عن موافقتها إلى أن تستشير عمها الذي كان لعشر سنوات صديقها والوصيّ عليها وكانت بذلك قد طلبت منه مهلة للتفكير.

كان ذلك مختلفاً جداً عن توقعات فلورانس عندما تقدّم بطلب يد الأنسة ويلدون؛ لذا كان قد استغرب أن تكون كلارا قد بدت متحفظة في ردّها ما أعاد إلى ذاكرته رفض الأنسة ليمنور له والسبب الذي استندت إليه في رفض طلبه الزواج منها.
وكان عندما أصبح بمفرده قد حدث نفسه:

"تُرى هل سيتكرر من جديد ما حدث في الماضي؟ وهل سيلحقني ذلك الخطأ الوحيد الذي ارتكبته إلى الأبد؟ هل ستلاحقني نغمته طوال حياتي؟"
كانت الأنسة ويلدون على الفور من تلقيها عرض الزواج قد عادت إلى ألبانيا. كانت قبل مغادرتها قد أرسلت إلى فلورانس حاشية صغيرة أعلمته بموجبها بأنه سيتلقى أجابتها خلال بضعة أيام.

ثم مرّ أكثر من أسبوع ولم تكن الرسالة التي ينتظرها قد وصلت، كان قد أصبح من الجليّ بالنسبة إليه أن أصدقاء الشابة لديهم بعض المعلومات عن سيرة حياته، وبأن كلارا قد اطلعت على ذلك، وهذا ما سوف يعصف بكل ما لديه آمال. كان إدوين وهو في تلك الحالة من القلق قد التقى صدفة بخالة الآنسة إديث، وكانت الطريقة التي نظرت بها إليه قد أكدت له بأن حدسه كان صحيحًا.

كما كان أحد أصدقائه قد قال له بعد فترة:

"التقيت اليوم بالكولونيل ريتشارد."

سأله: "أهو عم الآنسة ويلدون؟"

"نعم. هل التقيت به؟"

"لا لم يسبق لي التعرف عليه."

"اعتقدت بأنك تعرفه؛ لأنني سمعته يذكر اسمك هذا الصباح."

"هل ذكر اسمي بالفعل؟"

"نعم"

"دعني أتذكر... كما سألني فيما إذا كنت أعرفك."

"حسنًا وماذا بعد؟"

"أعلمته بأنني أعرفك بالطبع وبأنك من الأشخاص الطيبين الأذكياء جدًّا، لكنك

مررت بفترة من الحزن وبأنك كنت قد اعتزلت عن المجتمع..."

كان وجه فلورانس قد اصطبغ بحمرة قانية.

قال صديقه حينذاك: "ماذا؟ ما هو الأمر؟ أووه... نعم... نعم أدركت الآن ما الأمر.

لكن ابنة أخيه الصغيرة هي إحدى المعجبات بك على ما يبدو. أصغِ إليّ عليك ألا تأخذ

الأمر بهذه الأهمية، لست أشك في ذلك. لم ألتق بكلارا منذ أسبوع أعتقد أنها عادت

إلى ألباني، أرجو ألا تكون قد أفزعتهَا بعرض للزواج. بالمناسبة، دعني أهمس لك

بما سوف يجلب لك بعض العزاء. سمعتها تقول بأنها لا تؤمن بما يدعى الحب من

النظرة الأولى، وبأن ما يُعرف عنك أنك كنت قبل ذلك قد حطمت قلوب ثلاث أو أربع

فتيات؛ لذا عليك أن تدرك بعدم وجود أي احتمال لأن يكون بإمكانك أن تُضيفها إلى رقم الفتيات اللواتي كنتَ على علاقة بهن.

كان كل ذلك مجرد مزاح. لكن تلك الكلمات كانت قد وقعت على أذني إدوين فلورانس بقوة الحقيقة.

قال صديقه عندما لاحظ تأثير ما قاله على فلورانس:

"لاشك أنني أخطأت بإعلامك ذلك. دعني أصطحبك إلى ترمونت لكي أعرفك على الكولونيل ريتشارد. لابد أنه سوف يسر بالتعرف عليك وبأنه على الأغلب سوف يوجه إليك الدعوة لزيارته في منزله لكي تمضي بضعة أيام هناك، وسوف يكون بإمكانك أن توثق علاقتك بابنة أخيه.

قال فلورانس:

"لست أرغب حاليًا في التعرف عليه، كما لا أعتقد بأنه يهتم بالتعرف عليّ بعد الفكرة الرفيعة التي أعطيتها له عن شخصيتي."

قال صديقه: "هذا سخف منك فلورانس. هل صدقتَ بأنني كنتُ قد أطلعتُه عمّا تحدثنا به معًا كانت تلك دعاية. ألسنَ تتقبل المزاح؟"

"قال فلورانس: "بلى بإمكانني أن أتقبل المزاح."

"لذا عليك أن تعتبر ما قلته الآن على سبيل الدعاية. على كافة الأحوال كان الكولونيل ريتشارد جادًا حينما سأل عنك، وقال بأنه يود التعرف عليك؛ لذا تعال معي ودعني أعرفك عليه."

قال فلورانس: "أنت بالفعل أغرب شخص عرفتُه."

كان الشابان قد افترقا وكان فلورانس قد شعر بالقلق أكثر من أي وقت مضى. كان الكولونيل ريتشارد يسأل عنه ولا بد أنه سيستمر بالسؤال عنه إلى أن يقوم أحدهم باطلاعه على قصة علاقته مع إديث والتر هذا طبيعي، وبذلك سوف تطلع كلارا على ذلك ولا بد أن تعرض عنه.

وشعر فلورانس بذلك بكثير من القهر.

مرّ أربعة أيام كان خلالها فلورانس في حالة من قلق التقرب. كان قد سمع عن الكولونيل ريتشارد من عدة أشخاص وكان كلما ورد ذكره يعلم بأنه كان قد سأل عنه.

كان قد قيل له ذات مرة عندما كان يكاد يصل إلى مرحلة الجنون لشدة الانفعال والترقب:

"بلغنا أن الأنسة ولدون سوف تتزوج عما قريب."

وكان قد أجبر نفسه على التظاهر بالهدوء وقال:

"آه! أتمنى أن تجد الزوج المناسب."

كما قال ذلك الشخص: "وهذا ما أتمناه؛ لأنها فتاة لطيفة جدًا. كنتُ على وشك الوقوع في حبها أنا أيضًا لو أنني علمتُ بأن لديّ فرصة للفوز بها."

سأله فلورانس: "ومن هو الشخص الذي ستتزوجه؟"

"لم أتمكن من معرفة ذلك. كانت قد تلقت ثلاث أو أربعة عروض للزواج؛ لذا عادت إلى ألبانيا؛ لكي تأخذ وقتها في التفكير قبل اتخاذ القرار. لابد أن الشخص الذي سوف تختاره سوف يكون محظوظًا. أتمنى أن يعيش بسعادة معًا!"

كانت تلك قطرة إضافية على كأس مرارة معاناة السيد فلورانس. وبذلك كان قد ذهب على الفور إلى مكتبه وبدأ يكتب رسالة

إلى الأنسة كلارا:

يبدو أنني لم أكن قد فسرتُ خطأ صمتك الذي استمر وتجاوز الوقت الذي اتفقنا عليه عندما افترقنا. لقد رفضتِ عرضي للزواج. حسنًا، ليكون ذلك. أتمنى لك السعادة مع الشخص الذي وجدته مناسبًا لك. وإن كنتُ لا أعتقد بأن بإمكانه أن يحبك بكل إخلاص أكثر مما أحببتُك، وبأن بإمكانه أن يخلص لك ويكرس نفسه لإسعادك أكثر مما كنتُ سأفعل. كنتُ سأشعر ببعض العزاء من الألم الذي تسبّب لي، ذلك لو أنك كنتِ قد رفضتِ عرضي بصراحة. لكن أن أشعر بأن الإنسانية التي

أحببتُها بكل صدق لم تجد بأنني أستحق منها مثل هذا الاهتمام يجعلني أشعر بالكثير من الإهانة. وداعاً أتمنى لك السعادة."

وكان فلورانس قد ألصق المغلف و أسرع برميهِ في مكتب البريد، وكان بعد أن فعل ذلك قد غرق في حالة العذاب النفسي ومن الحزن وخيبة الأمل. لم يكن قد مرّ بضع ساعات بعد على قيامه بذلك إلا وكانت شكوكه قد بدأت تعذبه. قد يكون قد تصرف بتسرع... قد تكون هناك أسباب أخرى لصمت الأنسة ويلدن... ولو كان الأمر كذلك فكم سيبدو تصرفه غريباً... لكن لم يكن هناك للتراجع عن تصرفه لأن البريد الذي يحمل رسالته أصبح في منتصف الطريق من نيويورك إلى ألباني. أمضى فلورانس ليلته بأرق وكان في باكورة صباح اليوم التالي قد تلقى رسالة من كلارا تحتوي على العبارات التالية:

عزيزي السيد فلورانس،

كنتُ مريضة، وقد استطعتُ اليوم فقط أن أجلس في سريري لكي أكتب لك بضعة أسطر. كان عمي في نيويورك لكنه لم يتمكن من التعرّف عليك ولا بالاجتماع بك.

المخلصة

كلارا ويلدون

كان فلورانس بعد أن قرأ الرسالة قد استقلَّ أول سفينة غادرت نيويورك إلى ألبانيا في ذلك اليوم. كانت الرسالة التي تلقّاها من كلارا قد كُتبتْ بالطبع قبل وصول رسالته إليها. كم كان قد شعر بالاضطراب والقلق عندما تذكر ما كتبه في تلك الرسالة! لم يكن قد فسّر خطأً فقط صمتها وعدم ردها السريع، وإنما كان قد اعتقد بأنها تقبلتْ عرضاً للزواج من شخص آخر وأكد على ذلك وكأنه كان يعلم

بأن هذا هو الموقف الذي اتخذته تجاهه. سوف تكون لتلك الطريقة التي تصرف بها الكثير من النتائج ذات الأهمية وقد تؤدي إلى رفض عرضه الزواج منها. وكان عندما وصل إلى ألباني قد بحث عن منزل الكولونيل ريتشارد. وكان عندما طرق الباب قد سأل:

"هل الكولونيل ريتشارد في المنزل؟"

وكان فلورانس عندما أعلم بالإيجاب قد أرسل بطاقته وطلب مقابلته. كان الكولونيل قد ظهر بعد وقت قصير وهو رجل طويل القامة يبدو من الأشخاص المهذبين الذين يراعون مشاعر الآخرين، وكان قد انحنى له لدى دخوله الغرفة. سأله فلورانس بلهفة لم يكن بإمكانه كبحها:

"كيف حال الأنسة ويلدون؟"

أجابه الكولونيل: "كانت كلارا قد أمضت ليلة سيئة؛ لذا فهي ليست بوضع جيد هذا الصباح."

فكر الشاب: "لا عجب من ذلك لابد أنها تلقت رسالتي."

أضاف الكولونيل: "ومع ذلك فهي قد نامت هذا الصباح وهذا مفيد جدًا لها."

قال فلورانس - ببعض التردد -: "أعتقد أنها تلقت رسالتي."

وكانت الإجابة: "كانت قد وصلتها بالفعل رسالة في الأمس، لكننا لم نسلمها تلك الرسالة؛ لأنها كانت متوعدة أكثر من العادة."

قال الشاب - وهو يشعر بالكثير من الارتياح -: "هذا بالفعل أفضل لها."

كان قد سُمح لفورانس بعد ساعة بالدخول إلى غرفة كلارا حيث كانت الأنسة ويلدون مستلقية في فراشها، وكانت نظرة واحدة ألقاها فلورانس على وجهها قد بدت كل ما كان لديه من قلق وشكوك. حدث نفسه: "يبدو أن لا أساس لما كنت قد عانيت من مخاوف خيالية كان ما سببها لي بالطبع هو ما أوحى لي به ضميري القلق."

كانت كافة الأمور قد سُوِّيت بينهما خلال ثلاث دقائق من لقائهما ما جعلهما في غاية السعادة.

الفصل الرابع

كانت كلارا بعد بضعة أيام قد تماثلت تمامًا للشفاء. وبذلك كان إدوين فلورانس عندما عاد إلى نيويورك وهو يشعر بسعادة لم يكن قد شعر بمثلها منذ سنوات. ربما كانت تلك السعادة ستدوم وتجعل صفحات الماضي تُغلق إلى الأبد لكن وأسفاه!... ففي الوقت الذي كان فيه فلورانس يسترجع صورة ذلك اللقاء الممتع مع محبوبته ويحاول شفاء نفسه من صور الماضي، كانت صورة الوجه الشاحب الحزين لتلك الراحلة قد ظهرت أمامه من جديد، وكان كل ما بذله من جهد لكي يُبعد ذهنه عن صورتها دون جدوى. ظلت صورتها ماثلة أمامه لبعض الوقت إلى أن بدأت تبهر شيئًا فشيئًا، لكنها كانت مع ذلك قد تركت قلبه حزينًا.

كان قد حدث نفسه: "وهو في تلك الحالة من الكآبة:

"يبدو أنك سوف تعودين إليّ دومًا يا إديث، ولن يكون هناك ما يمكن أن يزيل عن ذهني هذا الندم والاثام... إديث! إديث الغالية! ألسن الآن بين السعداء؟ ألسن الآن أكثر سعادة من الأحياء؟ لذا لم تعودي إليّ بتلك العينين المليئتين بالدموع وبذلك الوجه الكئيب وبظرة التأنيب هذه؟ ألم يكفي ما عانيتُ لتطهيري من الذنب الذي ارتكبتُه بحقك؟ ألسن أحصل قط على الغفران؟ وكان بعد جهد قد استطاع أن يُدير عينه عن صفحة الذكرى المفتوحة أمامه لكي يبحث عن نسيان ما كتب فيها. لكن كل شيء فيها كان يبدو وكأنه يتآمر عليه لكي ينعش ويجدد ذكريات الماضي. وبذلك كان كلما اقترب موعد زواجه بكلارا يشعر بأن الروابط بينهما قد بدأت تضعف.

كان زواج الأنسة ليمنور بأحد أصدقاء فلورانس قد تم بعد بضعة أسابيع من ارتباطه بكلارا، وبذلك لم يكن بإمكانه كأحد الأصدقاء المقربين إليه ألا يكون بين الحضور في مراسم الزواج. كان فلورانس عندما قابل العروس الشابة قد حاول طرد ذكرى جميع العلاقات السابقة من ذهنه، لكن ذكريات الوقت الذي مضى

كانت قد عادت إليه في اللحظة التي مثل أمام الأنسة ليمنور للضرورة، كانا قد تقابلا ببعض التحفظ وكان ذلك اللقاء بالنسبة إليه بغيضاً للغاية؛ لأنه كان قد أحيا أمامه ذاكرته مئات الذكريات الخاملة.

كان فلورانس بكثير من الجهد قد تمكن من إخفاء مشاعره لكن ذلك لم يكن خافياً عن عيون الآخرين، وكان لكي يفعل ذلك قد تظاهر أكثر من المعتاد بالبهجة، كما كان قد حاول عدة مرات أن يتعامل بعدم كلفة مع العروس، لكنه كان في اللحظة التي يقترب منها يلحظ نوعاً من الانكماش من قبلها وبأنها كانت عندما يقترب منها تصبح متجهمة ومُتحفظة. كان ذلك واضحاً بحيث لم يكن يخفي على باقي الحضور، وبذلك لم يعد بإمكان فلورانس أن يخفي مشاعره وكان قد انسحب من الحفل.

كان فلورانس بعد عدة أيام قد بدأ يشعر بالهدوء.

كان فلورانس قد التقى بعد أسبوع من حفل الزواج بصديقه الذي تزوج الأنسة ليمنور، وسأله صديقه الذي لم يكن يعرف شيئاً عن علاقته السابقة بزوجته: "لِمَ لَمْ تَأْتِ لزيارتنا بعد حفل الزفاف؟"

كان فلورانس قد اعتذر بقدر ما بإمكانه ذلك ووعد بزيارته خلال بضعة أيام، وكان صديقه بعد أسبوعين قد ذهب لزيارته من جديد وقال له: "أعتقد أننا لابد أن نراك الأسبوع المقبل رغم أنني لست متأكداً من أنك سوف تُسر بزيارتك لنا."

سأله فلورانس: "لِمَ لا؟"

"سوف تأتي لزيارتنا إحدى صديقاتنا وسوف تمضي بعض الوقت وهي شابة كنت قد عرفتُها أنت أيضاً على ما أعتقد."

سأله فلورانس بسرعة:

"من هي؟"

أجابه صديقه: "فتاة شابة من ألباني."

"أهي الأنسة ويلدون؟"

"إنها هي بالفعل."

قال فلورانس: "هل هي على علاقة صداقة بزوجتك؟"

"هي من صديقاتي القدامى وبذلك هي صديقة لزوجتي."

"هذا يعني بأنهما لم يجتمعا بعد."

"بلى كانتا قد اجتمعتا معًا في عدة مناسبات، وهما الآن على علاقة وثيقة جدًا؛ لذا

نحن نتطلع بسرور لزيارتها لنا... لكننا على ما يبدو لا نتوقع أنراك، هذا واضح."

"أعتقد أنكم بالأحرى سوف ترونني، هذا لو كانت زوجتك ستتقبل زيارتي كصديق

لك."

سأله صديقه ببعض الدهشة: "لمَ تقول هذا؟"

"أعتقد بأنها لم تكن قد رحبت بوجودي ليلة الاحتفال بزفافكما."

"وهل هذا هو السبب الذي جعلك تمتنع عن زيارتنا؟"

"بصراحة نعم هذا هو السبب."

"إدوين أشعر بالاستغراب لابدّ أن كل ذلك مجرد تخيلات. ما الذي يجعلك تعتقد

ذلك؟"

"قد يكون كل ذلك مجرد تخيلات، لكن ليس بإمكانني أن أمتنع عن الشعور بذلك.

على كافة الأحوال بإمكانك أن تتوقع زيارتي لكم وهذا أيضًا قبل قدوم الأنسة

ولدون."

ابتسم صديقه وقال:

"إن لم تأت لزيارتنا قبل ذلك فلن أكون متأكدًا من أننا سوف نراك بعد ذلك."

وكان السيد فلورانس قد ذهب لزيارتهم في مساء اليوم التالي. كانت عروس

صديقه قد حاولت نسيان الماضي؛ لكي تستقبله بكل ما يوحى بذلك، لكنها لم

تكن قد أفلحت في ذلك، وبذلك كانت زيارته مُحرجة جدًا، بالنسبة إليه.

وكان منذ ذلك الوقت وإلى وصول الأنسة ويلدون شعر بالقلق وبالتعاسة بأن تكون

السيدة هارتلي زوجة صديقه قد أشارت إلى كلارا أو أنها قد تكون قد لمّحت لها

ببعض الأحداث السابقة المتعلقة بحياته. كان لديه الكثير من الأسباب لكي يحشى ذلك؛ لأن ذلك سيعني أن آماله سوف تذهب هباء في الرياح. كانت الأنسة ويلدون قد وصلت في الموعد المحدد، وكان فلورانس عندما التقى بها قد شعر بحرج لم يسبق أن شعر به بوجودها، وكان يعلم جيدًا لماذا كان يشعر بذلك، كما كان في كل زيارة تلت ذلك يشعر بأكثر من الحرج، والأكثر من ذلك أنه كان بعد مرور أسبوع على زيارتها لصديقه قد بدأ يلحظ ببعض التعيير في موقف كلارا تجاهه...

لم تكن لديه أية شكوك بما يتعلق بسبب ذلك التغيير، فلا بد أن السيدة هارتلي قد أطلعته على بعض الأحداث المتعلقة بتاريخ حياته... كان ذلك قد استمر يومًا بعد يوم ولمدة ثلاثة أسابيع، كان المحبان خلالها يلتقيان تحت ذلك الضغط المخيف وبذلك كان الاثنان في غاية التعاسة.

وكان فلورانس ذات يوم عندما ذهب كالمعتاد لزيارة صديقه كالمعتاد قد أعلم بأن الأنسة كلارا عادت إلى ألباني.

كان الشاب قد قال للسيدة هارتلي:

"لكنها لم تكن قد أشارت إلى ذلك ليلة أمس."

قالت السيدة هارتلي:

"لقد اتخذت قرارها بعد مغادرتك."

قال السيد فلورانس - بمرارة لم يكن بإمكانه أن يخفيها :-

"وكنّت أنتِ دون شك منْ أشرتِ عليها بذلك."

سألته السيدة هارتلي:

"لِمَ تقول هذا؟"

قال الشاب - وقد قطّب حاجبيه :-

"كيف بإمكانني أن أفكر باحتمال آخر؟"

قالت السيدة هارتلي:

"عليك أن توضّح ما تقصده بذلك سيد فلورانس."

قال السيد فلورانس: "هل يحتاج ما قلته إلى توضيح؟"

أجابته السيدة هارتلي:

"بالتأكيد فليس بإمكانني أن أفهم معنى ما قلته."

قال فلورانس: "هناك بعض الأحداث التي مرت في حياتي في الماضي... وعليّ أن أقول

بأنني ندمتُ عليها بمرارة بحيث لم يكن بإمكانني أن أعلمها بها."

سألتها السيدة - بهدوء -: "وما هي تلك الأحداث."

وكان الألم قد ارتسم على محياه وهو يتذكر سجل الماضي، وقال:

"لمَ تحاولين جرح مشاعري بطرح مثل هذا السؤال؟"

أجابت السيد هارتلي:

"طرحْتُ عليك هذا السؤال دون أي سوء نية؛ لأنك اهتمتني بأمر غامض، أود أن

تفسر لي ما قصدته؛ لكي يكون بإمكانني أن أنكر أو أن أؤيد ما خطر ببالك."

قال فلورانس - بصوت خافت بعد لحظة من الصمت -:

"الأمر يتعلق بإديث ويلتون."

نظرت السيدة هارتلي بإمعان إلى وجهه الذي كانت كل عضلة فيه ترتجف، ثم

سألته - بصوت خافت وبذات الطريقة التي كان قد طرح عليها سؤاله -:

"وماذا عنها؟"

"أنت تعلمين ما جرى بيننا."

"حسنًا."

"لابدّ أنك بالطبع كنتِ قد قمتِ بالطبع دون مراعاة لمعاناتي بإعلام كلارا بذلك

السّر."

أجابت السيدة هارتلي بسرعة:

"لا؟ وأقسم بأنني لم أفعل ذلك."

كانت رعشة قد سرت في جسم فلورانس وسألها بسرعة:

"ألم تفعلي ذلك."

"لا سيد فلورانس. كنتُ قد احتفظتُ بالسّر في صدري ولم أتحدث عنه إلى كلارا."

قال فلورانس: "فمن الذي أعلمها به إذن؟"

"لا أحد."

"هل سمعت أحدهم يتحدث عن ذلك."

"لا"

"فلم كانت قد تغيرت تجاهي؟"

"لأنك كنت أنت الذي تغيرت تجاهها أولاً."

"أنا؟"

نعم، كانت منذ اليوم الأول لوصولها إلى نيويورك قد لاحظت في تصرفك بعض البرود

وكذلك بعض التحفظ الذي كان يتزايد في كل مقابلة بينكما..."

"أوه... لا..."

"هذه هي الحقيقة وهذا ما لمستّه أنا أيضاً."

كان فلورانس قد أصيب بصدمة، وسأل من جديد:

"هل كانت قد اشتكت إليك من برودي ومن التغيير في تصرفاتي."

"نعم، فعلت ذلك عدة مرات، ثم قررت الليلة الماضية أن تعود إلى ألبانيا لأنها

اعتقدت بأنك لم تعد تحبها."

قال فلورانس: "اعتقدت بأنني لم أعد أحبها وأنا الذي كان يعذبني أن أكون قد

أحببتها وأن أكون على وشك أن أفقدها وأن أفقد بذلك أغلى ما لدي في الحياة. أوه!

اكتبي لها لأجلي... اشرحي لها الأمر... ألن تكتبي إليها لأجلي؟"

"نعم"

"قولي لها أن قلبي لم يكف عن التعلق بها وبأن ما اعتقدته من برودي جعلني

أتعس رجل في العالم."

"سوف أفعل ذلك لكن لم لا تكتب إليها بنفسك؟"

"سوف يكون من الأفضل أن تفعلي أنت ذلك، اطلبي منها العودة فمن الأفضل أن

أقابلها هنا من أن يكون ذلك في بيت عمها.

أرجوك، اطلبي منها بإصرار أن تعود."

وكانت السيدة هارتلي قد وعدته بان تفعل ذلك.

ثم مرّ الموضوع دون أن تكون قد وردت أية إجابة من الأنسة كلارا ويلدون، كان الشاب خلالها في حالة من الاهتياج ومن القلق والحيرة.

ما جعله بعد ثلاثة أيام يذهب لزيارة صديقه للاستفسار عن الموضوع. كان بعد أن طلب الدخول قد جلس بانتظار السيدة هارتلي وهو في حالة من القلق الشديد، إلى أن فُتح الباب أخيراً ولدهشته كانت كلارا قد دخلت وعلى وجهها ابتسامة...

كان فلورانس قد وثب وأسرع لاستقبالها وأمسك بيدها وقبلها.

قالت كلارا: "من المستغرب أن يكون كلُّ منا قد أخطأ بحق الآخر. أمل ألا يحدث ذلك الخطأ في المستقبل الذي أتطلع إليه بكثير من الآمال المشرقة."

وكان فلورانس قد أجاب: "لا سمح الله!... لكننا نعيش في عالم من الأخطاء. ليت كان بإمكاننا أن نمضي حياتنا دون ارتكاب الأخطاء. لو لم يكن ثقل التوبة والندم يثقلان لفترة طويلة على قلوبنا لكان عالمنا أكثر سعادة." كم تمنّت كلارا وهي تنظر إلى الشاب بحنان:

"لاتكن جدياً بهذا الشكل. الخطأ من شيمة البشر، وليس هناك من لا يُخطئ. كم من مرّة كنت قد ندمت على أخطائي ومع ذلك لم يكن الحزن قد أفادني ما عدا أنه كان قد جعلني أكثر حذرًا في المستقبل."

قال فلورانس - وهو يشعر بالكثير من الراحة :-

"وهذا ما يكسبه المرء من وقوعه في الخطأ. ليس بإمكاننا أن نُصحّح الماضي أو أن نسترجعه، لكن بإمكاننا على الأقل أن نكون أكثر حرصًا في المستقبل، هذا ما كانت عليه تجربتي..."

لو كنا نأخذ بعين الاعتبار ما سيكون لتصرفاتنا في الوقت الحاضر من أثر على مستقبلنا لكنا أكثر حذرًا. صحيح أن تصرفاتنا التي تتم في الوقت الحاضر تُصبح منذ اللحظة التي نقوم بها من الماضي لكنها تُحفر في ذاكرتنا. لن يكون بإمكاننا أن نزيل ما سُجل في ذاكرتنا ولا بدّ أن يظلّ فيها لكي نراه في المستقبل."

كان ذلك الحوار الجدي قد تغيّر خلال وقت قصير، وكان المحبان قد نسيا كل شيء بتلك المصالحة بينهما وكانا قد ارتبطا بعد فترة برباط الزواج المقدس.

لكن إدوين فلورنس لم يكن قد عاش بسعادة وكان طيف وندم الماضي يتسبب له بالعذاب على الدوام، فلم يكن بإمكانه حتى أن يُمسك بيد كلارا بين يديه أو أن يهمس لها بالكلمات التي ربطت بينهما إلى الأبد دون أن يزوره طيف من حطم قلبها قبل سنوات. كان طيفها يأتيه في صمت وظلام الليل لكي يعنفه ما يجعله يتقاذف بنفسه على سريريه محاولاً النوم. كان ينهض من سريريه ويرى أمامه وجهها الشاحب وعينيها الياستين إلى أن كاد ذلك يقوده ذلك إلى الجنون...

كانت معه مع أول ضوء من إشراق الصباح، وكانت تتحرك إلى جانبه وتتنقل معه عندما يجتمع بأصدقائه. كانت بالقرب منه غير مرئية لأحد سواه حتى أنها كانت إلى جانبه وهو يؤدي القسم المقدس الذي ربط بينه وبين كلارا.

كانت تلك الرؤية قد بدأت مع مرور الأيام قد تبهت أكثر فأكثر لكنها لم تكن قد اختفت تماماً؛ لأن ما سَطَّر في ذاكرة الإنسان لا يمكن أن يُمحى مهما كان هناك من أسباب. كانت تلك الصفحة تفتح أمام فلورانس من جديد حتى بعد أن مرت سنوات طويلة على زواجه ما كان يجعله يشعر دوماً بالألم والندم...

هذه هي تأثيرات نعم أو لعنات تصرفاتنا الخاطئة على مستقبلنا ذلك؛ لأن كل تصرف نقوم به في حياتنا لابد أن يكون له تأثيره على الزمن القادم إما بالخير أو بالشر. ونحن نصنع قدرنا وفق ما نقوم به من تصرفات في وقتنا الحاضر. قد نعتبر أن الماضي قد فات ومضى لكن المستقبل سوف يعود علينا بما تم في ماضينا... حاضرننا لنا وسوف يتم تسجيل ما قمنا به من تصرفات في صفحة الماضي لكن لابد أن يكون لجميع تصرفاتنا تأثيرها على مستقبلنا. والحكيم من تصرف بحكمة في حاضره لكي يعيش مستقبله براحة وسكينة دون ندم أو تأنيب ضمير...

لمسة اليد الوديدة

لم أكن قد عرفتُ حتى ما هو اسم تلك الشابة لكنها ارتبطت بذهني بصفة (صاحبة لمسة اليد الوديدة)...

كم كان في لمستها من سحر! وكم كان ذلك رائعًا بالفعل! ربما ليس من الأهمية أن أروي الآن متى ولا أين كنت قد عرفتُها، فقد كان ذلك ذات يوم عندما كنتُ مارةً بمنطقة ريفية تقيم فيها جماعة صغيرة من الأشخاص، كان الليل قد حلَّ على حين غرة، وبما أنني كنتُ أقطع الطريق على قدمي لم يكن بإمكانني أن أصل إلى القرية التي كنتُ أتوجه إليها إلا في ساعة متأخرة من الليل ما جعلني أفضل البحث عن مأوى في أول مكان سأجده أمامي.

كان الغسق القاتم قد ألقى بظلاله عندما وجدتُ نفسي في منطقة مجاورة لأحد المنازل كان يظهر من أحد نوافذه ضوء يعدني بالحصول على مكان للراحة. كان ذلك المنزل قائمًا خلف سياج على مسافة بعيدة من الطريق التي كنتُ أسير فيها بقدمي المتعبتين. توجَّهتُ نحوه وكنتُ بعد أن تجاوزتُ السياج القديم المتداعي، واقتربتُ من المنزل، وأصبحتُ بالقرب من ممر صغير أمام المنزل قد وجدتُ بانتظاري فتاة شابة نحيلة القوام، يبدو أنها كانت قد لاحظتُ دخولي الممر. ولكن تلا ذلك بسرعة نباح خفي من أحد الكلاب كان أشبه بالصدى، ثم صوت إغلاق البوابة وكان قد انتصب أمامي فجأة شكل لكلب ضخم جدًا.

كنتُ قد أصبحتُ على مسافة جعلتني أتبين الشكل الوحشي لذلك الحيوان، وأدرك بأنه على وشك مهاجمتي، لكن وفي اللحظة التي كان فيها على وشك الانقضاض علي كنتُ قد شاهدتُ على ضوء المصباح يدًا تمسك برقبتة وتربت على رأسه برفق، ثم سمعتُ صوتًا موسيقيًا رقيقًا جدًا يقول:

"لا تخف فلن يتسبب لك بالأذى؟"

كنتُ حينئذ قد تقدّمتُ إلى الأمام رغم ما كان لديّ من بعض التشكيك في مقدرة تلك الفتاة على السيطرة على ذلك الحيوان التي كانت يدها الصغيرة لا تزال ممسكة

برقبته. لم يكن الكلب قد تقبل تماماً اقترابي من المنزل، وكان قد وأطلق نباحاً أعرب فيه عن استيائه، لكن تلك الفتاة قالت بعد ذلك - بنبرة لطيفة تدل على السيطرة بمن تتوقع أن يتم الامتثال لأوامرها :-
 "اذهب إلى الداخل تايغر"

وكان الكلب بذلك قد توجه على الفور إلى داخل المنزل.
 ظهر بعد ذلك أمام البوابة رجل ضخم البنية، وسمعتُ صوته الأجش وهو يسأل:
 "من هناك؟"

وأعاد الرجل السؤال:

"من هذا الرجل؟ وما الذي يريده؟"

كان في أسلوب حديث الرجل بعض القسوة والتحذير، لكن تلك الفتاة كانت قد وضعت يدها على ذراعه، واستندت إليه وهي تضغط على يده برفق.
 وبذلك كنتُ قد استطعتُ أن أسأل:

"كم تبعد قرية... عن هنا؟"

فلم أكن قد وجدتُ أفضل من توجيه ذلك السؤال؛ لأنني لم أرغب بأن أبين على الفور بأنني أبحث عن مكان أقيم فيه تلك الليلة.

قال الرجل - بصوت أجش ولكن بأقل من الحدة :- "تلك القرية تبعد بما لا يقل عن ستة أميال عن هذا المكان."

قلتُ: "هذه مسافة بعيدة وأنا غريب عن هذه المنطقة وليست لدي ركوبة فأنا أسير قدمي. سوف أكون شاكرًا لو كان بإمكانني الحصول على مكان للإقامة لهذه الليلة."

وكنْتُ قد شاهدتُ يد الفتاة تنتقل من ذراعه إلى كتفه، كما شاهدتها تقترب منه أكثر فأكثر وتستند إلى كتفه.

وكان ما أدهشني وما جعلني أستغرب هو أن يكون قد طرأ على الفور تغيير كبير على نبرة صوت الرجل وقال:

"ادخل إلى المنزل سوف أرى ما الذي سيكون بإمكانني أن أفعله لأجلك."

وكنْتُ عندما دخلتُ إلى غرفة واسعة تضطرم فيها نيران الموقد وتنشر الدفء. قد شاهدتُ طفلين جالسين على الأرضية يلعبان مع بعض القطط الصغيرة، كانا قد استدرا نحوي بنظرة لم يكن فيها الكثير من الترحيب، كما شاهدتُ سيدة في متوسط العمر كانت جالسة أمام المائدة.

قال الرجل الذي كان قد استقبلني بذلك الجفاء أمام البوابة:

"أمي! هذا رجل غريب، وهو يطلب السماح له بقضاء الليلة هنا"

نظرتُ إليَّ المرأة بتشكيك للحظات، ثم أجابت ببرود:

"ليس لدينا هنا نزلٌ للغرباء"

"أنا أدرك ذلك سيدتي، لكن الليل حلّ ولا تزال أمامي مسافة طويلة للوصول إلى تلك القرية."

حينئذ كان الرجل قد قال بلطف:

"وهي مسافة طويلة جدًّا بالنسبة لرجل يقطع الطريق على قدميه، لذا لا مجال لمناقشة الأمر. علينا أن نؤمن له الإقامة لهذه الليلة."

في تلك اللحظة كانت الفتاة قد توجّهتُ إلى جانب تلك المرأة. اقتربتُ منها وتلفّظتُ ببضع كلمات بصوت خافت. لم أكن قد سمعتُ ما قالتُه، وإنما كان ما استرعى انتباهي هو أنها عندما تكلمتُ مع تلك المرأة كانت قد وضعتُ يدها الصغيرة على يد المرأة وضغطتُ عليها برفق.

تساءلتُ: هل هناك شيء من السحر في تلك اللمسة؟ لأن الموقف والمظهر الراض والمنفر واضح، وبذلك كان قد تحوّل على الفور إلى ترحيب لطيف وبذلك قالت:

"نعم، لاشك أن المسافة طويلة من هنا إلى قرية... أعتقد أن بإمكاننا أن نؤمن له مكاناً لدينا."

ثم سألتني: "هل تناولتَ العشاء؟"

وكنْتُ قد أجابتها بالنفي.

وكانت المرأة دون أن تتفوه بأية كلمة أخرى قد سحبت من أمام الجدار طاولة من السنديان ووضعت عليها بعض اللحوم الباردة والخبز الطازج ووعاء من الحليب وبعض الزبدة.

وكنْتُ أثناء تلك الترتيبات قد وجدتُ بضع دقائق لمزيد من الملاحظة. فقد تبين لي أن هناك بعض التجانس الغريب بين الفتاة الشابة وباقي نزلاء الغرفة، ومع ذلك لم يكن هناك أي شبه بين الفتاة وتلك المرأة ذات البشرة الداكنة والملامح القاسية التي افترضتُ بأنها ربما كانت والدتها.

ثم كان قد طُلب مني بعد وقت قصير أن أتناول العشاء. كان الطفلان قد بدأ بالشجار. سمعتُ الرجل العجوز يقول لأحدهما - بصوت مرتفع أمر :-

"جون. اذهب إلى فراشك على الفور."

لكن الطفل لم يكن قد امتثل لأمر والده.

قال والده من جديد بغضب:

"هل سمعتَ ما طلبتُه منك؟ اذهب من هنا."

قال الطفل - وهو ينتحب :- "لا أريد الذهاب للنوم."

قال الوالد: "أقول لك اذهب على الفور للنوم."

لكن الطفل لم يكن مع ذلك قد تحرّك من مكانه وكان يبدو عليه العصيان. كنتُ قد توقعتُ حينئذٍ أن هناك عاصفة قد أصبحت وشيكة الحدوث، لكن الشقيقة كانت حينئذٍ - وقد افترضتُ أن تكون كذلك - كانت قد اجتازت الغرفة وانحنت وأخذت بيدي الطفل بين يديها. لم تكن قد تفوهت بأية كلمة لكن الطفل المتمرّد كان على الفور قد خضع ونهض غادر الغرفة، ولم أكن قد رأيته بعد ذلك طوال تلك الأمسية.

ثم كان أحد المقيمين في الجوار قد جاء لزيارتهم بعد الانتهاء من تناول العشاء بوقت قصير. كان نقاشٌ سياسيٌّ حاد قد احتدم بعد ذلك بين الرجلين، وكان كلُّ منهما قد عزز وجهة نظره بالكثير من الحجج والتأكيدات والإصرار. لم يكن

مُضيفي من الأشخاص المتوقديّ الذكاء، بينما كان خصمه من الأشخاص المخادعين الذين يجيدون الكلام، وكان ذلك ما جعل الأخير يتحمّس جدًّا و يبدأ يتوجه بعض العبارات القاسية لجاره بين فترة وأخرى. ثم بدأ الآخر بدوره يوجّه إليه بعض العبارات التي كانت أشبه بالصفعات وبذلك بدأ الجو يتوتر بينهما أكثر فأكثر.

كنتُ حينذاك قد لاحظتُ من جديد تلك اللمسة الودیعة ليد تلك الفتاة الشابة. لم أكن في البداية قد انتبهتُ إلى تحركها إلى جانب والدها وإنما كنتُ قد شاهدتها عندما أصبحتُ إلى جانبه وهي تضع إحدى يديها على صدغه بينما كانت باليد الأخرى تربتُ بلطف على شعر رأسه؛ ما جعل صوته المرتفع ينخفض بالتدريج، وما جعل العبارات التي كان يوجّهها لخصمه تصبح أقل قسوة وحقّدًا...

لكن النقاش بينهما كان قد ظل محتدمًا، وكنتُ ألاحظ أن يد الفتاة كانت تعود لتربت على رأس والدها كلما بدأ النقاش يحتدم بينهما وكلما بدأ صوت والدها الشديد الانفعال يعلو من جديد.

كان ذلك مشهدًا ممتعًا بالفعل. ولم يكن بإمكانني أن أمنع نفسي من أن أمعن النظر إلى تلك الفتاة، ومن أن أستغرب تأثير تلك اللمسة اللطيفة للغاية التي لا يكاد المرء يلحظها والتي كانت مع ذلك تحمل سحرًا غريبًا وتنفذ إلى قلوب من حولها. كانت تلك الفتاة وهي تقف هناك أشبه بملاك السلام الذي أرسل لتلك العائلة ولكي يهدئ من زخم المياهِ الهائجة لانفعالات جميع الأشخاص المحيطين بها. لم يكن بإمكانني أن أمنع نفسي من الاستغراب من تصرفها وهي التي تعيش وسط ذلك المحيط البدائي، لكن من الذين يحتاجون أكثر إلى مثل تلك اليد الرفیقة ذات التأثير الإنساني المهدئ؟

كنتُ طوال تلك الليلة قد لاحظتُ ذلك التأثير وتلك القدرة السحرية للمسة اليد تلك ولفعالية ذلك الصوت الرقيق على جميع من حولها...

وكنتُ في صباح اليوم التالي بعد الانتهاء من تناول وجبة الإفطار عندما قد بدأتُ أستعد للمغادرة وكان الرجل العجوز قد قال لي بأنه يودّ أن أنتظره لنصف ساعة؛

لأنه سوف يقلّني بركوبته إلى تلك القرية بما أن لديه بعض الأعمال التي تتطلب سفره إليها. وكنتُ قد تقبّلتُ ذلك العرض السخي بكل سرور، ثم أصبحتُ عربية المزارع جاهزة بعد وقت قصير وانطلقنا في طريقنا. كنتُ ونحن في طريقنا إلى القرية قد قلت لمضيفي:

"كم تبدو رائعة تلك القدرة التي تمتلكها ابنتك الشابة على كل من حولها؟" كان ذلك الرجل قد نظر إلي باستغراب لبعض الوقت ثم أشرقتُ ملامحه، وقال: "الأمر في غاية البساطة، لابنتي ذلك التأثير لأنها فتاة طيبة رقيقة؛ لذا فكل من حولها وكل من يراها لابد أن يحبها ويتجاوب معها."

أما بالنسبة إليّ فلازلت أتساءل هل كان ذلك بالفعل سرّ تلك المقدرة السحرية لدى تلك الفتاة؟ هل كان في لمسة يدها ما ينبع من روحها النقية وما يخترق القلوب القاسية؟

كان تفسير والدها ما ضاعف ما كنت أفكر به، ومع ذلك فقد عجبتُ ولا زلتُ أعجب من فعالية ومن نفوذ لمسة اليد السحرية لتلك الفتاة، تلك اللمسة التي تتراءى بالمحبة والطيبة التي تكمن في نفسها النقية؛ لذا فإن أفضل ما أطلقه عليها هو تعبير "لمسة اليد الوديدة".

كم للكلمة اللطيفة واللمسة الرقيقة الوديدة من تأثير علينا؟ وكم لها من قوة حتى لو كانت تتم بمجرد نظرة أو بمجرد همسة! أليس في هذا درسًا لكل منا؟...

تأثير الكلام على الآخرين

قالت خالتي بحماس:

"أنا أرى بأن من التفاهة أن تجرح مشاعر المرء بمجرد كلمة عابرة واحدة، فهذا يعني أن يكون من العسير على المرء أن يتفوّه بكلمة واحدة دون أن يخشى أن يتسبب ذلك بجرح مشاعر أحدهم. وكنت قد أجبْتُ:

"لكن الكلمات تُعتَبَر من الأمور ذات الأهمية!"

قالت خالتي:

"بل هي أمور بسيطة! ولا بدّ أن يكون الشخص بالفعل في غاية الرقة كي تجرحه مجرد كلمة أو ملاحظة عابرة."

أجبت: "لا. لكن كلمة واحدة بسيطة بإمكانها أن تجرح لو أنها وقعت في موقع حساس... مثلها مثل جميع الأشياء."

قالت خالتي: "لكنني في الواقع لا أميل على الإطلاق للتعامل مع الأشخاص الذين لديهم مثل تلك الأحاسيس المرفهة وإلى ذلك الحدّ المبالغ فيه. بالنسبة إليّ لا يمكن أن تُجرح مشاعري بما قد يقوله أحدهم!... فهل سيكون على المرء بذلك أن يتكلّف في كل ما يقوله وأن يحرص دومًا في حديثه على اختيار كل كلمة يتفوّه بها خشية أن يكون فيها ما قد يجرح مشاعر أحدهم؟... لا، ليس بإمكانني أن أحتمل مثل هذا التعقيد."

قلتُ: "خالتي! أعتقد أن الأمور يجب أن تكون على الشكل التالي:

هناك أشخاص لديهم إحساس مرفه، وبذلك ليس بإمكانهم إلا أن يتفاعلوا مع أية كلمة قد تجرح إحساسهم ومشاعرهم، ومادام الأمر كذلك، علينا أن نضع في اعتبارنا هذا الضعف، هذا لو أردتِ أن تعتبريه ضعفًا، فمن الصعب على المرء أن

يحتمل كل من الألم الجسدي ومن الألم النفسي على السواء؛ لذا يجب ألا نتسبب للآخرين بالأذى بعدم مراعاة أحاسيسهم.

"لكن الأشخاص الذين هم بمثل تلك الحساسية يصبحون أكثر انفعالية بحيث يصعب التعامل معهم؛ لذا فمن الأفضل لهم أن يلتزموا منازلهم وأن يغلقوا أبوابهم وألا يتعاملوا مع الأشخاص العاقلين ذوي المزاج الجيد. لو تعلّق الأمر بي فبإمكاني أن أقول لهم بكل صراحة بأنني لن أقوم بانتقاء كل كلمة أتحدث بها في كل جملة أقولها، كما لو أن عليّ أن أستخرج البذور من الزبيب؛ لذا دعهم يكسرونها بأسنانهم إن لم يتمكنوا من ابتلاعها بكاملها..."

وكانت خالتي قد استمرت بذلك الأسلوب بالحديث إلى أقصى مدى. كانت خالتي بشكل عام سيدة طيبة نقية النفس، وكان بإمكانني أن أدرك بأن خالتي كانت تشعر بالأسف؛ لأنها كانت قد جرحت إحساس ماري لين، لكنها لم تكن ترغب بالاعتراف بأنها كانت مخطئة؛ لأن في ذلك ما قد يُقلّل كثيراً مما لديها من اعتزاز بنفسها. وبما أنني كنتُ أعلم طباعها جيداً فقد وجدتُ بأن من الأفضل ألا أستمر بذلك النقاش حول أهمية الكلمات وبذلك قمتُ بتغيير الموضوع الذي كنا نتحدث به. لكن خالتي كانت من حين لآخر تعود إلى التطرق لذات الموضوع وكانت في كل مرة تزداد ليناً تجاه ماري إلى أن قالت أخيراً:

"كان الأمر في غاية البساطة، كان بإمكان ماري أن تدرك بأنني لم أكن على الإطلاق أقصد ما يُسيء إليها."

أجبتها: "خالتي! لكن هناك بعض أمور ليس بإمكان المرء أن يحتمل أقل إشارة ضمنية أو حتى أي تلميح إليها ولا أية صلة بها. كما أن أية إشارة مفاجئة إليها قد تضع المرء خارج الحماية وفي وضع دفاعي... كان ما قلته لماري - بجميع الاحتمالات - قد لمس بعض نقاط الضعف في شخصيتها، أو ربما كان قد تقصّى عن جرح لم يكن الوقت كافياً لجعله يندمل. كنتُ أعلم على الدوام بأنها فتاة حساسة للغاية وبأنها لا يمكن أن تتسبب بأي إزعاج لأصدقائها."

قالت خالتي: "حسنًا... حسنًا، ما أريد أن أفوله هو أنني - كما كنتُ دومًا أقول - لا أميل للتعامل مع الأشخاص الذين لديهم نقاط ضعف بحيث تُجرح مشاعرهم بمجرد كلمة، كما لو أن الكلمات كانت أشبه بالسيوف، أو كما لو أنها من الأمور التي لا تتوافق مع التعاطف تجاه الآخرين."

قلتُ: "خالتي! لكن لدى كلِّ منا مع ذلك نقاط ضعف، وحتى أنك أنت أيضًا لست خالية من ذلك؟"

قالت خالتي - بكبرياءٍ وتعالٍ -: "أنا؟... أنا؟..."

أجبتها: "كما أن أية إشارة إلى ذلك قد تجعلك تعانين كثيرًا."

قالت خالتي: "رجاءً..."

وكانت قد تأثرتُ بالفعل بما قلته رغم أنها لم تكن موجّهة إليها.

قالت خالتي: "لتعلميني إذن أين تقع نقاط الضعف التي أشرت إليها."

أجبتها: "أرجو المعذرة خالتي! قد يكون ما قلته من غير المناسب على الإطلاق، لكنني كنتُ بذلك قد أبديتُ ملاحظة حول أمر عام ينطبق على كلِّ منا."

وكانت علامات الضيق الشديد قد بدتُ على خالتي؛ لأنني كنتُ بذلك قد لمستُ ما يشير إلى نقطة ضعف في شخصيتها؛ لأن ما قلته كان قد ألمها.

كان ذلك الضعف في تقييمها لنفسها بشكل خاص... لم يكن فيه ما يسيء إليها؛ لأنها لم تكن تدرك ذلك سابقًا... كانت كلماتي تُعبّر - بشكل عام - عن حقيقة واقعة هي بأن لدينا جميعًا نقاط ضعفنا، وبأن ذلك يشملها هي أيضًا، لكنها اعتقدتُ بأنني كنتُ أشير إلى عيب في شخصيتها وهذا ما أثبت لي بأن كلماتي قد جرحتُ مشاعرها.

وكانت خالتي قد ظلتُ لمدة يومًا أو يومين أكثر جدية من عاداتها. كنتُ أعلم السبب، لكنني لم أكن قد حاولتُ أن أزيل عن نفسها أي أثر كانت قد تركته كلماتي عليها.

بعد مرور أسبوع كنت قد قلتُ لها ذات يوم:

"خالتي! التقيتُ هذا الصباح والدّة ماري لين."

نظرت إليّ السيدة العجوز، وكان كل ما قالته هو: "آه..."

أضفتُ: "لستُ أستغرب بأن تكون كلماتك قد جرحتُ مشاعر تلك الفتاة البائسة." سألتني خالتي بسرعة: "لماذا؟ ما الذي كان فيما قلته ما من شأنه أن يجرح مشاعرها؟"

أجبتُ: "قلتُ لها بأنها امرأة ناكثة العهد."

أجابت خالتي: "لكن ذلك لم يكن سوى دعاية، وكان عليها أن تعلم ذلك، فلم أكن أقصد بالفعل أي شيء من ذلك. أنا أستغرب جدًا بالفعل أن تكون ماري بهذا الخبل."

وكانت إجابتي: "أعتقد بأنك لن تستغربي الأمر لو علمتِ بكل التفاصيل."

بدتُ خالتي بغاية الاهتمام، وقالت:

"التفاصيل؟ وما هي تلك التفاصيل؟ أكرّر ما قلته بأنني لم أكن أقصد جرح مشاعر تلك الفتاة البائسة."

قلتُ: "أنا لا ألومكِ خالتي، كما أن ماري تعلم بأنكِ لم تكوني تقصدين ذلك." قالت خالتي: "لكن لمَ كانت قد أخذتُ تلك العبارة بمثل ذلك الاهتمام وتأثرتُ بها. لابد أن في ذلك الكثير من الحقيقة وأكثر مما افترضتُ." قلتُ: "هل علمتِ بأن ماري كانت قد رفضتُ الأسبوع الماضي عرضاً للزواج من والتر غرين."

"لم فعلتُ ذلك! هذا ليس ممكناً! هل رفضتُ بالفعل الشاب والتر غرين؟ كانا على تواصل وتوافق لمدة طويلة."

"أعلم ذلك."

"لابد أنها كانت قد شجعتُه على ذلك."

"أعتقد بأن هذا من المؤكد."

"هتفت خالتي: "هل يُعقل هذا؟ فإن لمَ كانت قد تخلّت عن ذلك الشاب ونقضتُ عهداً معه؟"

أجبتُها: "هذا ما قيل عنها، لكن بحسب ما بلغني من معلومات كانت ماري بالفعل متعلقة بذلك الشاب، وقد تسبّب رفضها لعرضه بالكثير من الألم. لكن بصفتها

فتاة تتميز بالحكمة تعتبر الزواج من أهم الأمور في الحياة كانت قد رفضت الارتباط بشخص لا يتحلّى بالمبادئ الأخلاقية التي يمكن أن يجعلها توليه ثقتها التامة."

قالت خالتي - بحماس - "لكن كان عليها ألا تُشجّعه إن لم تكن تنوي الزواج به." قلتُ: "كانت قد شجّعته طوال الفترة التي كانت تعتقد خلالها بأنه أهل لثقتها لكنها بعد أن تعرّفت عليه عن قرب استطاعت أن تكتشف بعض النقاط المخفية في شخصيته، إلا أنها مع الأسف وإلى أن اكتشفت تلك النقاط في شخصيته كانت قد ارتبطت به عاطفياً إلى حد كبير. ومع ذلك - وبصفتها امرأة صادقة - فقد رفضت الآن عرضه للزواج رغم ما تسبب لها ذلك من ألم..."

ليس هناك في تصرف ماري لين أيُّ خزي، فلم يكن بإمكانها أن تبدّد الوقت أكثر من ذلك مع شخص لا تتفق معه لأنها تعتبر ذلك جريمة... لذا بإمكانك أن تدركي كم كان من المؤلم أن تسمع من يطلق عليها صفة (ناكثة للعهد). للكلمات في بعض الأحيان أثرها الكبير على النفس بأكثر من ضرب السيوف. هل فهمت الآن الموقف خالتي؟"

أجابت السيدة العجوز:

"نعم! نعم. بإمكانني الآن أن أفهم موقفها وسوف أكون في المستقبل أكثر تحفظاً بما أوجهه من كلمات للآخرين. ربما كان الوقت تأخراً بالنسبة إليّ لكي أتعلم من الحياة هذا الدرس، لكن الوقت لم يفت بعد لأن أتعلّم من الحياة ما هو مفيد... مسكينة ماري! يؤلمني أن أكون قد تسببتُ بجرح مشاعرها إلى هذا الحدّ." أجبتُ: "نعم! للكلمات في كثير من الأحيان بها وقْعُها المؤلم على النفوس أشبه بضرب السيوف، وبما أننا قد لا نتمكن من منع أنفسنا من التفوّه بها؛ لذا علينا أن نفكر مرتين قبل أن نتحدّث... قد يكون هذا تافهاً وهذا ما علينا أن نعلمه أيضاً لأولادنا، لكننا مع ذلك وبكل أسف قد لا نقوم - في كثير من الأحيان - بتطبيقه على أنفسنا..."

كُنْ حَلِيمًا

كان ذلك في الساعة الثامنة من مساء يوم السبت. كانت السيدة ماري غراي قد أنهت للتو كيّ آخر مجموعة من الملابس وكانت قد نظفت غرفتها الصغيرة المتواضعة التي تفتقر حتى إلى الأثاث، وأشعلت النار في الموقد، ووضعت عليه إباء الماء، ثم جلست إلى جانبه تنتظر... لم تكن لدى ماري الكثير من الفرص للجلوس هكذا؛ لأنها كانت تعمل طوال اليوم لكي تُعيل نفسها ولكي تساعد ولدها الوحيد. والسيدة ماري امرأة نحيلة رقيقة الإحساس في حوالي الخامسة والثلاثين، توحى ملامح وجهها الشاحب بقلق الشخص الذي تُضنيه الهموم، وتشير ملابسها إلى الفقر، لكنها مع ذلك تبدو دومًا نظيفة ومرتبّة بشكل مُلفت للنظر.

كان الوقت قد بدأ يتأخر، نظرت ماري بقلق إلى الباب وأخذت تُصغي باهتمام وكأنها تتوقع اقتراب شخص ما من باب المنزل، كانت على أهبة الاستعداد لأن تثب على قدميها فورًا لكي تفتح الباب، إلى أن سمعت أخيرًا ما يُشير إلى اقتراب وقع أقدام من المنزل تلا ذلك طرقة خفيفة على الباب. وكان وجه ماري الشاحب قد أشرق عندما دخل من الباب فتى جميل الطلعة في حوالي الثلاثة عشر، استقبلته والدته بسرور بالغ بالقول:

"أهذا أنت ستيفن، تأخرت هذه الليلة أكثر من المعتاد."

لم يجب ستيفن وكان قد خلع معطفه وجلس على المقعد الوحيد الذي كانت والدته ماري قد تركته له.

قالت ماري بقلق:

"ما بالك ستيفن؟ تبدو كأنك لست بخير، هل هناك ما يضايقك؟"
أجاب الفتى: "أنا بخير أُمي... أنا بخير لكن دعيني الآن أتناول عشاءي فأنا جائع و بانتظار ذلك."

وكان ستيفن وهو يُجيبها قد تجنّب نظرة والدته القلقة المتسائلة دون أن يتفوّه بكلمة أخرى، لكن ماري كانت وهي تُعدّ له وجبته قد أدركت على الفور بأن هناك ما يُضايق ستيفن وبأنه لا يرغب بأن تسأله عن ذلك وبذلك التزمت الصمت... كان ستيفن أثناء ذلك قد وضع رأسه بين يديه وبدأت الدموع تسيل من بين أصابعه على خديه، لكنه أسرع بتجفيف دموعه كما لو أنه كان قد شعر بالحياء، ثم بدت على وجهه الشاحب علامات الضيق الشديد، وقال بلهجة تدلّ على الاستياء:

"أمي! لن أعود إليه... لم يعد بإمكانني الاحتمال أكثر من ذلك!..."

دُهِشت ماري لما سمعته وتركت مكانها وجلست إلى جانب ستيفن، وقالت وهي تحاول التحدّث بهدوء:

"كم من مرّة كنت قد اتخذت مثل هذا القرار! ولكن ما الأمر الآن؟ هل لديك مشكلة جديدة؟ ألا تريد أن تُعلمني بها؟"

كان ستيفن قد رفع خصلات شعره الجعد عينيها التي بدا عليها ما يشير إلى تعرّضه إلى سوء المعاملة.

هتفت ماري وقد بدأت الدموع تطفر من عينيها:

"ولدي المسكين! هل يمكن أن يكون هذا الرجل بمثل هذه القسوة؟"

قال الفتى - وقد شعر بالأسف لأنه تسبّب ببكاء والدته :-

"هذا لا يهم أمي... لست أهتم بالأمر... كان تصرّفه نتيجة ثورة غضب وقد شعر بالأسف بعد ذلك."

"ولكن بُني، ما الذي فعلته لكي تجعله يغضب منك إلى هذا الحد؟"

قال ستيفن: "كنت أبيع نصف رزمة من ورق الكتابة لإحدى السيدات، وكان عندما قام بتعداد الأوراق التي كنت سأعطيها لتلك السيدة، قد وجد بأنها ثلاث عشرة ورقة بدلاً من أن تكون اثنتي عشرة ورقة؛ لأن الأوراق التصق بعضها ببعض؛ ما جعلني أتناول ورقتين بدلاً من ورقة، وقد حاولت أن أشرح له الأمر لكنه استشاط غضباً وصفعني. كانت تلك السيدة قد أدلت بملاحظة حول تصرفه غير اللائق،

لكنه قال لها بأنني لستُ سوى نذل مُهمل طائش أستحق العقاب وبأنه لم يعد يحتملني.

أمي!... كان ذلك قد جرح مشاعري أكثر بكثير من تلك الصفحة. كان ذلك اتهامًا باطلاً، وهو يعرف ذلك جيداً، لكنه أراد بذلك أن يُبرّر فعلته، وقد شعرتُ حينذاك بالكثير من الألم وبالغضب، لكنني تذكرتُ ما تقولينه لي دومًا من أن عليّ أن أكون حليمًا؛ وبذلك كبحتُ مشاعر الغضب التي انتابتني والتزمتُ الصمت. أنا أعلم بأنه ندم بعد ذلك على الطريقة التي تحدث بها إليّ رغم أنه لم يُصرّح بذلك." قالت ماري: "ستيفن! ولدي الحبيب! لاشك لديّ بأنه أسف على فعلته، ولا بدّ أنه قد تألم أيضًا لسوء تصرفه تجاهي أكثر مما تألمتُ، كما لا بدّ أنه شعر بالغيظ لأنه فقد أعصابه أمام تلك السيدة، وأسف لأنه كذب وجرح مشاعرك في الوقت الذي كنتُ فيه قد تمالكتُ نفسك واحتملتُ ما فعله بحلم."

"نعم أمي! لكن ذلك لم يجعل الأمر أكثر سهولة بالنسبة إليّ، فقد سبق واحتملتُ ثورة غضبه أكثر من مرة خلال هذا العام وكان ذلك لأجلك فقط، لكن لم يعد بإمكانني الآن الاحتمال أكثر من ذلك. أنا على يقين بأن بإمكانني أن أحصل على عمل آخر، فأنا قوي البنية وبصحة جيدة كما أنني على استعداد للقيام بأي عمل آخر." هزّت ماري رأسها، وظلّت لبعض الوقت صامتة مستغرقة بالتفكير، ثم قالت أخيرًا - وبأسلوب رزين وبجدية جعلتُ ستيفن يشعر بالرغبة في البكاء :-

"ستيفن! أنت تقول بأنك فعلتَ هذا لأجلي، وأنا أعلم بأنك احتملتَ مثل ذلك التصرف السيئ لمدة عام لأجلي، ولأجلي فقط. وأنا الآن أطلب منك أن تحتمله لمدة أطول، فلا بد أن يكون لصبرك مكافأته في النهاية..."

أنت تعلم بأنني منذ توفي والدك وأنت لا تزال طفلًا في المهد، قد عملتَ ليلَ نهارٍ؛ لكي أوّمن لك الغذاء والكساء ولكي أدفع تكاليف تدريبك على صنعة ما. كما أنك تعلم بأنني أحتمل هذا العبء على أمل أن أراك ذات يوم شخصًا له مكانته في هذا العالم. أنت فتى طيّب صادق مخلص وأمين، كما أنك تتعامل مع والدتك بطيبة؛ لذا لا بدّ أن يُكافئك الله على ذلك، لكن هذا إن لم تستعجل الأمور، وإن لم تكن قليل الصبر...

أنت تعلم كم كان من العسير عليّ أن أحصل لك على هذا العمل! وبأنك قد لا تتمكن من الحصول على عمل آخر؛ لذا عليك ألا تترك عملك الآن، وألا توقف تدريبك على تلك المهنة. يجب أن تكون حليماً وأكثر جدية في عملك. يعلم الله بأنني أشعر بالكثير من الألم بأن يكون عليك أن تعاني، لكنني أرجو أن تحتل ذلك. احتل ذلك لأجلي ستيفن!... احتلمه لأجلي لبضع سنوات أطول!..."

بدأ ستيفن يبكي، كما كانت دموع والدته تسيل بغزارة على خديها وهي تقبله وتمسح دموعه بقبلاتها، لكن مناشدة ماري ولدها لم تكن دون جدوى كان ستيفن قد بدأ يبتسم من بين دموعه، ثم قال:

"حسناً أُمي، أنت تعرفين كيف بإمكانك إقناعي. كنتُ في غاية التأثر عندما عدتُ الليلة إلى المنزل، وقد عزمْتُ على ألا أعود من جديد إلى ذلك المتجر، لكنني أعدك الآن بأن أكون أكثر حليماً وأكثر مثابرة في عملي، فأنا أعتبر هذا قليلاً جداً بالمقارنة مع كل ما فعلته لأجلي... كل ما أتمناه عندما سيصبح لديّ متجرٍ الخاص بي هو أن أجعلك تعيشين حياة سيدة نبيلة. سوف أثق بما قلته لي بأنني لابد أن أحصل ذات يوم على ما أريد لو أنني تحليتُ بالصبر والحلم، ولو أنني عملتُ بأكثر من المثابرة، رغم أنني لستُ أدري كيف سيكون بإمكانني أن أفعل ذلك... لن يكون الأمر سيئاً إلى ذلك الحدِّ ومهما كان صاحب المتجر سيئاً فهناك شيء واحد يُعزيني هو أنه يسمح لي بأن أمضي أيام السبت والأحد معك... حسناً، أشعر الآن بأنني أكثر سعادة، سوف أتناول الآن عشاءي فقد نسيْتُ كل شيء عنه."

وكان ستيفن قد حافظ على وعده لوالدته وكان يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر قد ازداد حليماً ومثابرة...

تبع ذلك الكثير من المحن التي كان على ذلك الفتى البائس أن يحتملها. كان صاحب المتجر بائع قرطاسية متواضع في تلك المدينة الكبيرة وكان ستيفن قد ارتبط معه بعقد عمل لمدة خمس سنوات وبأجر زهيد لا يكاد يكفي لتغطية ثمن ملابسه. كان ذلك الرجل حادّ الملامح يبدو شخصاً أنهكه التوتر والغضب، وكان يثور باستمرار ويجد الخطأ في كل ما يفعله الآخرون، وعلى الرغم من أنه كان قد توقف بعد تلك

الحادثة عن الغضب من ستيفن كما أنه لم يعد يضربه، لكن كان لديه دومًا ما يعترض عليه وهذا ما جعل ستيفن يتعرّض دومًا لما يتسبب به مزاجه السيئ...
كان ستيفن في كثير من الأحيان على وشك أن يفقد أعصابه، لكنه كان يتمكن دومًا من ضبط نفسه، ويتذكر عبارات والدته حول الحلم. وكان ما يُعزّيه وما يمنحه العزم والصبر وما يُقوّي إيمانه ويرفع من معنوياته على الدوام هو أنه كان يمضي وقتًا سعيدًا مع والدته أيام السبت والأحد...

ولكن ما الذي كانت تأمله تلك الأرملة من ذلك الاستعباد المؤلم الذي كان فيه ولدها؟ هذا ما لم تكن تعلمه، ومع ذلك كان لديها إيمان راسخ بحسب معتقداتها، بأنه لابد أن يكون للصبر والمثابرة مكافأتهما...

كانت جميع مؤشرات الوضع الذي كان فيه ولدها تُشير إلى أن نظريتها خاطئة، لكنها ظلت على إيمانها على الرغم من أنها كانت تجهل ما ينتظر ولدها ولا تعلم كيف سيكون بإمكانه أن يحصل على مكافأته على كل ما يُبديه من حلم وصبر.

ثم مرّ ما يقارب الأربع سنوات على الحديث الذي تم بين الأم وولدها حول الموضوع. كان ستيفن أثناء تلك السنوات قد أصبح شابًا وسيماً طويل القامة، وكانت ملامحه توحى بالرزانة وبالجدية، كما كانت ماري قد أصبحت أكثر نحولاً وأكثر شحوبًا وأكثر قلقًا أيضًا، وكان القلق لا زال يبدو في ذلك الوقت على الاثنين.

قال ستيفن لولده ذات يوم - وهو يتنهد -:

"أعتقد بأنه ليس هناك ما يمكن أن يأمل به المرء من ذلك الرجل. ها قد خدمته بكل إخلاص لمدة خمس سنوات واحتملتُ بصبر مزاجه السيئ، ولم أكن أتغيب لحظة عن عملي، لكنه على الرغم من كل ذلك لم يوجّه إليّ يومًا حتى كلمة شكر أو حتى نظرة لطيفة. لابدّ أنه يعلم بأن مدة عقد عملي. تنتهي يوم الثلاثاء القادم ومع ذلك فهو لم يوجّه إليّ حتى كلمة واحدة حول هذا الأمر، وأعتقد بأنني سوف أترك العمل لديه دون أن يفعل ذلك."

قالت ماري: "عليك أن تتحدّث إليه بُنيّ! لا يمكن أن تترك عملك دون أن تقول له شيئًا. عليك أن تشرح له وضعك. ولا أعتقد بأنه قد يرفض تقديم المساعدة إليك..."

قال ستيفن: "أمي، من السهل أن تطلبي مني أن أتحدث إليه، لكن الأمر ليس بهذه السهولة. فكّرتُ كثيرًا بأن أتحدث إليه وبأن أعلمه كم نُعاني من الفقر، وأن أرجوه أن يرفع لي أجري قليلًا، لكنني كنتُ كلما أحاول ذلك أحجم عن الموضوع خشية أن يرفض وأشعر بأن كبريائي تمنعني من أن أطلب منه تلك الخدمة، لكن عليّ الآن أن أفعل ذلك. لو كان بإمكانني لمّا طلبتُ منه ذلك، فأنا على استعداد لأن أفعل أي شيء ما عدا أن أطلب منه خدمة. لكن عليه أيضًا أن يفعل شيئًا لأجلي فليس لديّ من يمكن أن يقدم إليّ أية مساعدة؛ لذا سوف أتحدث إليه يوم الاثنين."

حلّ مساء الاثنين... كان ستيفن طوال ذلك اليوم يحاول أن يتحلّى بالشجاعة للقيام بتلك المهمة العسيرة. لم يكن بإمكانه بالطبع أن يتحدث مع ذلك الرجل الجلف الطباع أثناء وجودهما في المتجر لانشغالهما بالعمل، كما أنهما في موعد الغداء كانا قد افترقا؛ لأنهما يتناولان وجبتهما بالتناوب لكي لا يبقى المتجر بدون إشراف.

وكان معلم الحرفة والمتدرب بعد انتهت أوقات العمل وتم وضع جميع الأمور في نصابها، قد انسحبوا إلى الردهة الخلفية لتناول الشاي. كان من عادتهما أن يتناولوا الشاي بمفردهما، ذلك لأن بائع القرطاسية كان عازبًا - وربما هذا ما كان السبب في سوء مزاجه - وكان كل منهما يذهب بعد ذلك على الفور إلى فراشه.

سكب أستاذ ستيفن كأسًا من الشاي وناولته إلى ستيفن دون أن ينظر إليه ثم بدأ يرتشف الشاي ببطء. لكن ستيفن كان قد وضع كأس الشاي جانبًا ونظر بحياء إلى أستاذه ثم سحب نفسًا عميقًا واصطبغ وجهه بالحمرة وبدأ بالتحدث قال:

"من فضلك سيدي! أود التحدث إليك."

استدار إليه أستاذه وثبّت نظره عليه. لم تكن قد بدت عليه الدهشة لكنه قال بحدّة:

"حسنًا تكلم."

كان ستيفن قد قرر عدم التراجع، وبذلك بدأ يتكلم رغم أن صوته كان قد ارتجف في البداية لكنه استمر في حديثه بكل بلاغة. تحدث بجرأة كان هو نفسه قد دُهِش منها، وقد نسي بأنه يتحدث إلى أستاذه فقد كان كل ما يفكر به والدته فقط...

أَعْلَمَه عن فقرها وعن كفاحها طوال تلك السنوات لكسب العيش، وعن سلوكياته هو طوال فترة التدريب. كان يتحدث بحماس ولكن بتواضع، ثم أنهى حديثه بأن طلب من أستاذه مساعدته في الحصول على عمل؛ لأن ليس لديه أصدقاء أو مال أو نفوذ...

أصغى إليه أستاذه إلى أن أنهى حديثه. ثم حوّل بصره عن وجه ستيفن القلق وترك مكانه واقترب من مكتبه وبدأ يفتش بين الأوراق، وظهره إلى ستيفن. ثم مرّ بعض الوقت على توقف ستيفن عن الكلام دون أن يكون أستاذه قد أجاب ولو بكلمة واحدة إلى أن بدأ بعد ذلك يتحدث دون أن يستدير إليه. بدأ حديثه بنوع من الهمهمة ثم قال:

"كانت والدتك طوال تلك السنوات تكسب عيشها من عملها في الكيّ أليس كذلك؟ وقد اعتقدتُ بأنها لو تمكنتُ من تعليمك صنعة... حرفة... سوف تكون قد ضمنتُ لك مستقبلك، وبأنها لو علمتْك أن تتصرف بشكل جيد فسوف تجد أمامك فرصة أفضل. سوف تكون حرّاً اعتباراً من الغد، وبإمكانك أن تذهب إليها لكي تقول لها بأنها كانت مخطئة في قلقها عليك... ها هو عقدك وهذا هو الراتب الذي يحق لك. وبإمكانك أن تذهب الآن إلى فراشك..."

وكان وهو يتحدث قد أخرج العقد والمال من مكتبه. شعر ستيفن بألم في صدره أخذ منه نسخة العقد والمال، وكان على وشك التفوّه بما ينفجر في صدره من الاستياء الذي شعر به، لكنه غادر الغرفة قبل أن يتمكن من النطق بكلمة واحدة. ولم يكن ذلك الشاب البائس عندما ذهب إلى غرفته قد تمكّن من النوم إلى أن اقترب الفجر. كان يشعر بخيبة الأمل وبالقهر وبالإنذال لأنه اضطر إلى يطلب تلك الخدمة من مثل ذلك الرجل.

وكان في صباح الثلاثاء وبعد انتهاء وقت العمل قد حزم أمتعته، وتساءل: هل عليه أن يودع مُعلمه؟ نعم!... لن يتصرّف بدون لباقة في آخر يوم له معه..."

فتح الباب ووقف وبيده أمتعته. كان مُعلمه جالساً بمفرده أمام المائدة.

قال ستيفن: "أنا ذاهب. وداعاً سيدي."

وأجابه أستاذه دون أن ينظر إليه: "وداعًا" ثم افترقا.

وكان ستيفن قد روى لوالدته بعد ذلك ما حصل مع معلمه، وأمضيا تلك الأمسية بصمت، كان في قلب كل منهما من الأسى ما يمنعهما حتى من الكلام. لكن حزن ماري كان أكبر لأنها كانت قد أملت أكثر. جلست تحتضن خيبة أملها وبدأت دموع المرارة تسيل على خديها، بينما كان ستيفن يبدو أكثر هدوءًا؛ لأن ذهنه كان منشغلًا بالتفكير بما عليه أن يخطّطه للمستقبل، وكيف أن عليه أن يجد وظيفة أخرى إلخ...

عندما حان وقت النوم نهض الاثنان، كان ستيفن قد قبّل والدته وحاول أن يقول شيئًا لكن كل ما قاله:

"لا تقلقي أُمي! سوف تكون الأمور على ما يرام"

ثم سمعا فجأة طرقة مرتفعة على الباب.

صاح ستيفن: "من هناك؟"

وكانت الإجابة: "هناك رسالة لكما."

اعتقد ستيفن بأن هناك خطأ ما، لكنه عندما فتح الباب كان هناك من سلّمه تلك الرسالة وغادر على الفور... دُهِش ستيفن وأسرع إلى جانب المصباح، وكان عندما قرأ ما كُتب على المغلف قد ظلّ صامتًا لبعض الوقت.

كانت تلك الرسالة موجهة إلى السيدة غراي أي لوالدته. خُيّل إليه بأنه يعرف ذلك الخطّ فهو يُشبه كثيرًا خطّ مُعلّمه. كان وجه ماري كان قد أشرق بالأمل. لكن لم يكن بإمكانها أن تقرأ... هيا ستيفن... يجب أن تقرأ الرسالة ستيفن... فتح ستيفن الرسالة، كان فيها ما يُشبه الورقة المالية ما جعله قلبه وقلب والدته يخفقا بشدة، كانت تلك ورقة مالية بخمسة جنيهات. ولكن ما الذي يعنيه ذلك؟... وكانت هناك حاشية صغيرة مرفقة بتلك الورقة المالية تُفسّر الأمر. ارتجفت أصابع ستيفن وهو يفتح الحاشية، لم تكن تحتوي على الكثير من الكلام لكنها كانت تُفسّر الأمر تمامًا. قرأها ستيفن لنفسه أولاً قبل أن يقرأها لوالدته بصوت مرتفع، وكان وجهه وهو يقرأها قد اصطبغ بحمرة قانية وكأنه يلتهب! لم تفهم

ماري معنى تلك الدموع وذلك الوجه الملتهب الذي كان مع ذلك يوحي بالبهجة وبذلك هتفت:

"ستيفن! ما الذي تنتظره؟ اقرأ لي الرسالة."

ثم قرأ ستيفن هذه الكلمات بصوت متهدج لكثرة ما بذله من جهد لكي يمتنع عن البكاء:

سيدتي،

عليك الآن أن تضعي جانباً مكواة الثياب. كان ولدك يستحق أن تفعلي ذلك لأجله، لكن حان الوقت الآن لأن تستريحي. الورقة المالية المرفقة هي لسدّ احتياجاتك الحالية، وسوف يكون بإمكان ولدك أن يؤمّن لك جميع احتياجاتك في المستقبل. كنت قد تركته يعود إليك هذه الليلة، لكنني لم أكن أقصد بذلك أن أجعله يترك العمل لديّ، هذا لو أراد العودة. فأنا أرى بأنني لن أستطيع الاستغناء عنه، لكنني مع ذلك، لن أرغمه على العودة إن كان سيشعر بالسعادة في مكان آخر. كما أنني أعلم بأن هناك الكثير من الأشخاص الذين سبقَتْ لهم معرفته أثناء عمله في متجري، ممن لاحظوا مقدار ما يتحلى به من أخلاق حميدة، من سوف يُسعدهم أن يكون بينهم، فليس من السهل على المرء أن يجد من هو بمثل أخلاقه الحميدة بين الشبان...

لو أراد ولدك العودة إليّ فلن يندم؛ لأنه سيكون بمثابة الابن لي فأنا ليس لديّ أولاد. هو يعرفني جيداً، ويعلم بأن لديّ طريقة غريبة في التصرف، لكن ليس بإمكانني مع الأسف أن امتنع عن ذلك. أرجو أن تُعلميه بأنني سوف أكون سعيداً لو اختار العودة إليّ اعتباراً من صباح الغد...

المخلص

ج.و.

كانت ماري قد هتفتُ بلهجة المنتصر: "كنتُ أعلم ذلك!... أليس هذا ما كنتُ أقوله لك دوماً!... كنتُ أعلم بأنك سوف تحصل على هذا العمل!..."

وبذلك كان ستيفن قد عاد للعمل لدى ذلك الرجل الغريب الأطوار، لكنه لم يكن قد ندم؛ لأنه بذلك كان قد حصل على عمل تجاوز تطلعات وآمال والدته، ومع مرور

السنوات كان ذلك المتجر قد أصبح ملكًا له، وبذلك أصبح تاجرًا يحترمه الجميع وعاش حياة سعيدة ورفاهية...
ليس علينا أن نُضيف بأن والدته لم تعد بحاجة للعمل في كيّ الملابس وبأنها كانت سعيدة وفخورة بالولد الذي أنشأته على مكارم الأخلاق وعلى التحليّ بالحلم...
وأودّ أيها القاري أن أضيف الحكمة التالية:
اللهم علمني أن الحلم هو أكبر مراتب القوة، وبأن اليأس هو أقوى مظاهر الضعف...

الكلمة الطيبة

يتحدث المرء دومًا عن أهمية وعن الحكمة في حسن التعامل بين الأشخاص، مع أن من السهل جدًا على الفرد أن يُبرهن على لطف التعامل وأن يتجنب الفظاظة بأن يُبهج ويُسعد من حوله وجميع من له تأثيره عليهم؛ لذا فإن ما يدعو بالفعل إلى الاستغراب أن نجد أن بعض الأشخاص يسلكون الطريق المعاكس في التعامل.

ومن المستغرب أيضًا أن يكون هناك بين صغار النفوس المئات ممن يستمتعون بالتسبب بالتعاسة للآخرين وممن قد يُبهجهم أن يكونوا رُسل الأنباء المزعجة. مثل أولئك الأشخاص هم إما ممن يشعرون بالحسد أو ممن لديهم أحقادهم المخفية تجاه الآخرين، ما يجعلهم ذلك في الحالتين يبتهجون بإيقاع الأذى وبالتسبب بجرح مشاعر الآخرين...

كما أن هناك، منذ القدم وحتى يومنا هذا ولدى جميع الأمم، كراهية ونفور ممن ينعون كالغربان وبمن يُطلق عليهم تعبير "رسل الشياطين" لأنهم يحملون الأنباء السيئة.

ومع ذلك علينا أن نُقرّ بأن هناك بعض الأشخاص الذين يجدون متعة بمساهمتهم في شقاء الآخرين، وأن هناك من يسعون إلى ترويج الشائعات والافتراءات أو إلى إحياء ما طواه النسيان من أخطاء الآخرين بما يؤدي إلى تشويه سمعتهم أو بما قد يتسبب في بعض الأحيان في تدميرهم...

لذا أليس من الأفضل أن يتبع المرء سياسة اللين والكرم والشهامة؟...

لِمَ لا نقوم بإسعاد غيرنا من المخلوقات؟...

لِمَ لا نمتنع عن البحث عن نقاط ضعفهم؟...

لِمَ لا نمتنع عن تهيج جروحهم التي قد تكون قاربت من الشفاء؟...

لِمَ لا نمتنع عن صدم مشاعرهم وعن مضاعفة شعورهم بالمرارة؟...

فنادراً ما يكون سحر الكلمة الطيبة وما يكون الأسلوب اللطيف في التعامل عديمي الجدوى، وعلينا أن ندرك بأن لدى إخوتنا في الإنسانية من الإحساس أكثر مما قد

نتوقع، وبأن هناك العديد من الأشخاص الذين ظلت ذكراهم في الأذهان لسنوات بسبب سلوكهم الراقى في التعامل.

يقول الفلاسفة بأن العبارات التي تصدر عن المرء في حالة الغضب أشبه بالوقود الذي يزيد من اشتعال النار فهي تُضاعف من ثورة الغضب وتجعلها تتصاعد وتُصبح أكثر ضراوة، ذلك لأن هناك دوماً قدر كبير من الاندفاع في الكلمات القاسية التي قد تصدر عن المرء في حالة الغضب؛ لذا علينا أن نحرص على أن يكون كل ما نتفوه به في مختلف المواقف وعلى الرغم من جميع الانفعالات التي قد تعترينا من الكلمات اللطيفة.

وبإمكاننا أن نقول أخيراً بأن تأثير الكلمة الطيبة هو التالي:

- للكلمة الطيبة تأثيرها الكبير على النفوس رغم أنها لا تكلف كثيراً، فهي تُعزز حسن التصرف لدى المرء، ذلك لأن الشخص الذي يعتاد على التصرف بسلوكية معينة لابد أن يتخلى عما قد يكون في طبيعته من فظاظة أو عناد.

- الكلمة الطيبة الرقيقة تنعكس صورتها على النفوس فهي تُهدئ وتُلطف وتُريح وتُعزي من يسمعها، كما أنها تصقل النفوس كما يُصقل المعدن الثمين. فعندما يعتاد الشخص على التحدث دوماً بأسلوب لطيف مهذب فلا بد أن يجعله ذلك يمتنع عن الاستسلام لثورة الغضب ولسوء المزاج.

- الكلمة الطيبة تنعكس على الآخرين وتجعلهم يتصرفون بأسلوب مماثل بينما تؤدي الكلمات السيئة إلى تبدل أحاسيسهم.

- الكلمة الطيبة تجعل من يسمعها يشعر بالخجل من مزاجه النكد أو من فسادِه وقسوة مشاعره وتجعله يتصرف بطيبة.

- أما الكلمات الجارحة القاسية فهي تؤلم وتجرح وتتسبب بتوتر الأعصاب، وتجعل الآخرين يصبحون أكثر عناداً.

لذا فمن الأفضل لنا دوماً أن نمنح الكلمة الطيبة فرصتها...

أثر التعامل الحسن

كان توم الصغير ذات يوم يلعب مع رفاقه وإذا بوالده يناديه بنبرة الشخص المتسلط:

توم تعال إلى هنا!..."

لكن توم لم يكن قد التفت إلى والده ولم يترك رفاقه.

قال الأب بنبرة أكثر قسوة من المرة الأولى:

"توم هل تسمعني؟ تعال على الفور."

وبذلك كان توم قد ترك رفاقه بوجه بائس وبخطى مترددة واقترب من والده.

قال الأخير بغضب:

"تعال بسرعة، ألا تفهم بأن عليك أن تطيع أوامري على الفور؟ لمَ تمشي الهوينا هكذا؟ كست وجهه أشبه بحلزون. تناول هذه الرسالة واذهب لتسليمها إلى السيد سميث، واحرص على ألا تتسكع في الطريق. اركض الآن إليه بأسرع ما بإمكانك ذلك."

تناول الصبي الرسالة وقد كست وجهه نظرة حزن ثم غادر ولكن بخطى بطيئة.

وكان والده عندما شاهده يمشي بخطى بطيئة قد ناداه من جديد:

"هيه... أنت توم!... أهذا ما طلبته منك؟ أهذا هو الإسراع في المشي؟ لتعلم بأنني

سوف أعاقبك إن لم تعد خلال نصف ساعة من الآن."

لكن لم يكن لتلك الكلمات سوى القليل من التأثير على الفتى. كانت مشاعره قد

جُرحت من الطريقة القاسية التي تعامل بها والده معه، وكان قد شعر بالظلم من

أن يتعرض لسوء المعاملة من أقرب الأقرباء إليه...

وبما أن توم كان بطبيعته، مثل والده، من النوع العنيد المتكبر، يقوله ودائماً يُطلق

العنان لنفسه لعصيان والده ولم يكن يُبالي بما يقوله وبما يطلبه منه ولم يكن

يخشى النتائج.

كان والده بعد ذهاب توم قد قال لصديق كان يتحدث إليه كان قد شاهد ما حدث بينهما:

"هل رأيت قطّ مثل هذا الفتى، يبدو أن كلماتي لم يكن لها أقل تأثير عليه." قال صديقه: "لكنك تحدثتَ إليه بقسوة أما الكلمة الطيبة يا صديقي فلا بدّ أن يكون لها تأثيرها الأكبر على المرء."

كان والد توم قد نظر إليه استغراب، وكان تابع صديقه حديثه بأن قال: "لتعلم يا صديقي، بأن الكلمة الطيبة أشبه بالمطر اللطيف وبالندى الرطب، بينما يكون وقع الكلمة القاسية على النفس أشبه بعاصفة هوجاء تُحطم النفس؛ لذا فإن الشيء الأول الذي عليك أن تُنمّيه وأن تُعزّزه في ولدك هو المحبة والمودة، كما أن تعاملك معه بهذه الطريقة القاسية سوف يُفسده ويجرح مشاعره كما أن من شأنه أن يُدمّره. حاول يا صديقي، أن تتعامل معه بلطف وأن تطلب منه ما تريده بعبارات لطيفة، وسوف ترى بأن ذلك سوف يكون له تأثيره الجيد عليه أكثر بألف مرة."

كان ذلك التأنيب اللطيف قد جرح مشاعر ذلك الوالد القاسي، لكنه كان بذات الوقت قد جعله يُفكر ملياً بفحوى ما سمعه من صديقه.

ثم مرّت ساعة دون أن يكون الفتى قد عاد من مهمته ما جعل غضب والده من تأخره يتصاعد وبذلك بدأ يُفكر بالعقوبة التي سيوقعها عليه عندما سيعود... لكن كلمات صديقه كانت لا تزال ترنّ في أذنيه وبذلك قرّر أن يعمل بها.

كان الفتى قد عاد أخيراً وهو يمشي ببطء يبدو عليه الضيق فقد كان يتوقع أن يتعرض للعقاب، لأنه استغرق الكثير في الوقت في أداء مهمته لكنه كان مع ذلك ينتظر ذلك العقاب بكل تحدّ. لكن لدهشته كان والده بدلاً من أن يُعنفه قد بادره بعبارة:

"جيد جداً بُني. بإمكانك أن تعود إلى اللعب مع رفاقك."

عاد الفتى للعب مع رفاقه، لكنه لم يكن قد شعر بالسعادة وإنما كان قد شعر بالندم؛ لأنه كان قد خالف رغبة والده وعصى أوامره عن قصد، و بذلك لم يعد يتذكّر

الكلمات القاسية التي سمعها من والده، وكان شعور الندم قد بدأ يُعذبه ما جعله يترك رفاقه ويعود إلى المنزل.

جلس توم في هدوء ورّقة وهو يشعر بالأسف لعصيانه والده، إلى أن سمع والده يناديه. كان قال له برّقة:

"توماس بُني"

وثب توماس وكان خلال لحظة قد مثّل أمام والده وقال:

"هل كنتَ تنادينني أبي؟"

قال والده: "نعم بُني! هل بإمكانك أن تُسلّم هذه الرزمة للسيد لونغ؟"

ولم يتردد الابن هذه المرّة على الإطلاق وإنما بدت عليه علامات السرور بأن يكون والده قد طلب منه تلك الخدمة بمثل ذلك اللطف، وبذلك كان قد تناول الرزمة وذهب لتسليمها إلى السيد لونغ وعاد بسرعة تبدو عليه علامات السرور وقال:

"هل هناك ما يمكن أن أؤديه لك أيضاً أبي؟"

وكان الوالد قد حدّث نفسه بعد ذهاب الفتى:

"يبدو أن هذا هو بالفعل تأثير الكلمة الطيبة".

نعم، هناك تأثير كبير للكلمة الطيبة فعالية وهي أكثر فعالية، أما ما تفعله عاصفة الغضب فهي أنها تُدمر وتقهر وتُخضع بشكل قسري، لكن للمحبة واللطف قوة تأثير أكثر فعالية فهي أشبه بالمطر الذي يروي الحقول العطشى وبالشمس التي تُنير النفوس...

هناك جانب جيّد لدى الجميع

نعم!... هناك جانب جيّد لدى الجميع.

علينا جميعاً أن نؤمن بذلك، فليس بإمكان أي منا، مهما كان في أعماق نفسه من غرور وكبرياء إلا أن يوافق على هذه الحقيقة المطلقة. لكن ألسنا جميعاً بذات الوقت نناقض إيماننا بهذا المبدأ من الناحية العملية وفي كل ساعة وفي كل يوم؟...

فلو شاهد أحدنا الرجل أحد المتسوّلين يقول:

"لهذا الرجل شكل مريب! وقد يمتنع بذلك عن الإحسان إليه.

ولو سرق ذلك المتسوّل لأنه تصوّر من الجوع فسوف يقول من جديد:

"كنت أعلم بأنه شخص سيء علينا احتجازه في السجن لعله يصبح رجلاً فاضلاً."

لكن ذلك المتسوّل قد لا يصبح مع ذلك أفضل مما كان عليه حتى في تلك المدرسة التي من المفترض أن تُصلحه.

وبذلك سوف يقول المسؤول عن السجن:

"هذا الرجل بالفعل شخص سيء تماماً ولا أمل في إصلاحه."

وقد يستمر ذلك الرجل في ارتكاب جرائمه إلى أن يصل أخيراً إلى أدنى مرحلة من الانحطاط، ويكون بذلك قد أكّد صواب الحكم المتخذ بشأنه ما يجعلنا نقول:

"لا عجب في ذلك، فلم يكن لديه يوماً ما هو سويّ"

فلتعلم أيها الإنسان أنك بذلك قد تكون بعيداً عن الإنصاف، وبأنك قد تكون مُتَحَجِّر القلب، مُخَادِعاً زائفاً. نعم!... فقد نكون جميعاً بعيدين عن الإنصاف؛ لذا على كل منا أن يدرك بأن هناك بذرة من فطرة الخير في طبيعة كل إنسان. قد لا تكون تلك البذرة سوى شيء هزيل باهت لكنها تظلّ مُضطربة في نفسه على الدوام، وقد يكون في تلك الآلة الإنسانية نغمة موسيقية بإمكانها أن تجعل كل شيء يتناغم في النفس، وربما كان كل ما يلزم لإظهارها هو أستاذ لطيف حليم يلمس أوتارها برفق.

فعندما يتعرض أحدنا للخداع قد يُشير إلى العالم ويقول:

"ليس هناك أي خير في هذا العالم."

لكن علينا أن تعلم بأن هناك شعلة من الخير في قلب كل منا، وبأن تلك الشعلة هي التي تُرشدنا إلى مَنبع الضياء، وبأنها لو اضطرمت وتوهجت في جو من النقاء، فسوف تُسعدنا وتُدفئنا. أما لو أنها اضطرمت تحت تأثير الغرور فسوف تنطفئ وسوف يصبح لدينا بسرعة سبب جيّد لكي نهزم ذلك الشعاع من الخير في نفوسنا...

علينا أن نُؤمن بأن هناك خير في جميع بني البشر، وبأن هناك في كل منهم بصمة إلهية، ومن لا يؤمن بذلك يكون مُلحدًا مُشككًا بنفسه وبجنسه البشري... ليس من العسير على المرء أن يكتشف ذلك الجانب الخيّر الجيّد في نفوس من حوله. كل ما علينا هو أن نبحث عما يَكُمُن في نفس كل شخص من أفضل الخصال الحميدة، وأن نعمل على تعزيزها وعلى تنميتها وتشجيعها، وأن نأخذ بعين الاعتبار ظروف من حولنا.

كم سيكون الإيمان بهذا المبدأ رائعاً بالممارسة الصحيحة!

وكم ستصبح مهام رجال القانون بذلك أكثر سهولة!

وكم ستكون مهام رجال الإحسان أكثر سهولة عندما سيتم تعزيز الجانب الخيّر لدى كل شخص وعندما يتم القضاء على التكبر في نفوس الجميع! لابد لنا عندما نُؤمن بهذه الحقيقة أن نعمل بسرعة على البحث، حتى في الظلام، عن جوهر وعن ذهب المحبة الذي هو الجانب الخيّر في كل العالم.

لِمَ علينا أن نسنّ كل تلك القوانين القاسية المُجحفة؟

لِمَ علينا أن نسجن ونُقيد ونُعذب ونحتجز الأشخاص؟

فقد نُدين لبعض الأشخاص الذين أحبونا، رغم الشرور التي تكُمُن في نفوسهم، بالقليل من الجانب الجيّد لديهم. ألسنا نُدين لمن قاموا باحتضان وبتعزيز بذرة الخير في نفوسنا بابتساماتهم وبدموعهم وبدعواتهم...

نحن في الحقيقة لا ندرك في كثير من الأحيان كم نُشبه أولئك الذين نذريهم، وكم ما قد يكون في القلوب النقية ما يقود المرء إلى الدمار.

هناك جانب جيّد في الجميع!...

قد يكون الحداد رجلاً أفضل منا جميعاً، وقد يمتنع القاتل عن أن يطأ بقدمه نملة.

كل المطلوب من المجتمع هو إصلاح أولئك الأشخاص، وجعلهم غير مؤذنين؛ ذلك لأن بذرة الخير في نفوس البشر لا يمكن أن تموت موتاً طبيعياً دون أن تتعرض لأية مؤثرات خارجية.

هناك فكرة تتردّد كثيراً في أذهاننا لكننا نعتبرها فكرة تافهة مما يجعلنا لا نعمل بها على الإطلاق:

ألا هي أن أكبر الشرور تُعزّزها أكبر الفضائل.

فهل سنترك المجال لذلك؟

فلو حدث وخدعنا بشخص ما فلنعلم بأن هذا الخداع ليس نهاية كل ما هو جيّد في هذا العالم ...

ولو خدعنا أي شخص فهذا لا يعني بأن الجميع مخادعون، علينا أن ننظر دوماً إلى الجانب الجيّد في كل من حولنا!...

لو عوملنا أو تعاملنا بازدراء تجاه الآخرين فهذا لا يعني أن العالم بكامله قد أصبح مظلماً قاتماً!...

لو تلقينا من أحد الأشخاص الأضعف منا ضربة فليس علينا أن نتوقف عن الإيمان بجميع الأشخاص، ولنعلم بأن ما يمكن أن يُنقذ جنسنا البشري هو أن يتقارب جميع بني البشر في نقطة ما، وبأن ينحني الأكثر غروراً للأكثر تواضعاً...

هناك جانب جيد لدى الجميع وبإمكان كل منا أن يكتشفه؛ لذا دعونا فقط أن نُظهر نُقُتنا بالآخرين.

دعونا نوّمن بأن هناك شيء جيّد لدى كل شخص من أية طبقة اجتماعية كان، وبأن هناك شيء جميل في أكثر الأشخاص تواضعاً كما هو في أكثرهم رفعة بصرف النظر عن أية منزلة اجتماعية.

لنحاول أن ننظر دومًا إلى الجانب الجيّد لدى من حولنا، فربما كان لدى الأشخاص الذين تكثرُ عيوبهم جانب الكثير من الخير، فلم لا نمنحهم الفرصة لإظهار ذلك؟... فلو عملنا على ذلك فسوف نجد بأننا قد أصبحنا أداة للخير في كل مكان... نحن جميعنا نتشابه فقد جمعتنا شمس واحدة.

الثروة

أكثر الأخطاء ضرراً بالمرء أن كون هدفه الوحيد والأكثر أهمية هو السعي للحصول على الثروة بأية وسيلة، وبأن يعتبر الثروة أفضل شيء في الوجود، وبأن يعتقد بأن الأثرياء يلقون الاحترام ممن حولهم، وبأنهم يصلون إلى أعلى المراتب ويعيشون في رفاهية وأمان؛ لذا فمن المتوقع أن يغبطهم جميع أفراد جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى وأن ينظرون للأثرياء بعين الحسد.

وفي الواقع فإن الأمر غير الملائم الذي يرتبط ويتراقب بالثروة هو تلك المنزلة الاجتماعية التي تُمنح للأثرياء، وذلك التقدير والولاء والمقام الرفيع والإجلال الذي يخصهم به باقي أفراد المجتمع...

فمن المؤسف أن يميل الجميع للمبالغة بما في الثروة من إغراء مما يُثير في نفوس من لهم مواردهم المحدودة تلك اللهفة وذلك التلهّف للحصول على الثروة بأي ثمن...

ومن الملاحظ في مجتمعات العصر الحالي أن الحصول على الثروة قد أصبح أقصى ما يسعى إليه الناس وبأنه الهدف الأكثر أهمية في الحياة، ما يجعل جميع الأهداف الأخرى تصبح في المرتبة الثانية وتخضع لها؛ ذلك لأن النظرة إلى المال قد أصبحت كالتالي:

- المال هو الذي يُعلي من شأن الأشخاص الوضيعين وبأنه الذي يُضيف الاحترام والشرف للأقوياء المحظوظين...

- المال الذي هو يجعل الآثام والأخطاء صلاحاً، والذي يجعل العفة تصبح فساداً...

- المال هو الذي يجعل المرء يصمت عن التحدث عن الشر والردائل والذي يجعل الأفواه تنطلق بالمديح لمن يرتكبها...

- المال هو الذي يجعل من يمتلكه يُنصب حاكماً حكيماً يُصغى إلى حكمه جميع من تنشأ بينهم الخلافات...

- المال هو الذي يُطهر من الخطيئة والذي يغفر الذنوب والأخطاء...

- المال هو الذي يجعل المجرم يُعفى من العقاب...

- المال هو الذي يمنح السن المتقدمة احتراماً والذي يجلب الأمان والاسم الطيب لمن هم في سنّ الشباب...

- المال هو الذي يجعل من التشوّه جمالاً...

وبذلك تكون التساؤلات التي تشغل تفكير من يسعى إليه كيف سيتم الحصول على المال؟ وكيف سيتم وضع الخطط لجمعه؟ وبأية تضحيات سيتم الحصول عليه؟... هذه هي التساؤلات التي تستغرق أدهان بني البشر، والتي تؤدي إلى خسارتهم حياتهم والتي تحتاج إلى إجابة عملية...

ومن المؤسف أن يكون التخطيط لجمع المال في كثير من الأحيان باللجوء إلى الخداع والغش، أو بالتضحية وبخسارة أرفع القيم، وبتدمير وتدنيس أنقى المشاعر الإنسانية، وبإهمال الحياة الداخلية للمرء، وبالتزييف وبالانحراف عن الأهداف الحقيقية للحياة...

فكثيراً ما يتم السعي لاكتساب الثروة بإذلال النفس، أو يما يؤدي إلى التأثير على مصداقية الأحكام...

وكل ذلك هي النتائج الحتمية لتثمين الثروة بأكثر من قيمتها وبأكثر مما تستحق. فقد أصبحت الثروة نظراً لما لها من تأثير كبير للغاية على شخصية الفرد الهدف الأساسي في الحياة لبني البشر...

فعندما يتم تثمين الثروة بتلك الطريقة وعندما يتم احترام وتقدير الأثرياء بمثل هذا الأسلوب، فلا بد أن يصبح للأثرياء تأثيرهم الكبير على المجتمع ما يؤدي ذلك إلى أن يخسر بني البشر راحتهم بالسعي إلى الثروة بالعمل الشاق وبالتضحية بالكثير من المباهج الاجتماعية، وبالتخلي عن المبادئ والقيم...

وعندما يصبح المال ليس فقط وسيلة العيش وإنما الهدف الأساسي في الحياة، فسوف يتم إهمال جميع الغايات النبيلة الأخرى من خلال الحماس والسعي الحثيث للحصول على الثروة بحيث لن يتبقى للشخص أية مساعي رفيعة

المستوى، وبحيث لا يتبقى لديه ما يرغب التوصل إليه أكثر من الحصول على المزيد والمزيد من الثروة...

وعندما يصبح الشخص الثري في جميع الأوساط هو الشخص الأكثر تقديرًا وتصبح الرِّفعة في الأذهان هي المرادف للثروة، وتصبح الثروة في المقام الأول من تطلعات المرء لأنه يعتبرها الصفة الأنبل للرجولة، وبأن ليس هناك ما يعادل مدى ما يمتلكه المرء من ممتلكات فسوف يكون المرء قد خسر نفسه...

هناك غنى في النفس أكثر وأفضل بكثير من غنى المال...

هناك ما يُزيّن النفس داخليًا بما هو أجمل من ذلك المظهر الخارجي الذي يترافق بالمال... منى أراد كل منا أن يدرك بأن هناك صفاء ونقاء في الحياة المستقيمة يفوق جمال وتألق الماس؛ لأن الغنى الحقيقي للمرء يكمن في نفسه، ولأن المرء يجد سعادته الحقيقية كلما ارتقى بنفسه وسما بها...

- من يعتقد أن في المال سعادة فليسأل خزائن الحديد كم من الثقل تحمل جدرانها وكم من الحسد ينصب عليها من عيون جائعة ومن نفوس متعطشة...

السبيل إلى الشعور بالسعادة

السيد كليفلاند أرمل عجوز غريب الأطوار يعيش بمفرده في مستعمرة للزنوج - كما يُقال عنه - ذلك لأنه الرجل الأبيض الوحيد في المنطقة، ولأن لديه العديد من الخدم الزنوج. السيد كليفلاند في أعماقه طيب القلب رقيق المشاعر لكن لديه بذات الوقت نزواته ودوافعه الغريبة وتصرفاته الفظة؛ لذا عليك أن تترك له دومًا حرية التصرف بطريقته الخاصة الشاذة، فلو أنك حاولت أن تُملي عليه أحد الأمور فقط، أو حتى أن تقترح عليه طريقة سلوك معينة، فلتكن على يقين بأنك سوف تهزم حتى لو كانت مقترحاتك صائبة وحتى لو كانت آرائك حكيمة.

كانت روح المعارضة تسيطر عليه ما يبدو إلى حد كبير، ما جعله في كثير من الأحيان يُدير ظهره إلى ما تقوله ويسارع بعرض ما يخالف أفكارك ثم يبدأ بالدفاع عن صواب تلك الآراء بكل حماس وعناد حتى لو كان ذلك لمجرد أن شخصًا آخرًا قد تجرّأ على محاولة إثباتها.

كان السيد كليفلاند في تلك الليلة الشديدة البرودة جالسًا في مقعده المريح أمام الموقد. كان هناك ما ينذر باقتراب عاصفة قوية، كانت الريح تهبّ وتعصف وتُدوّي من خلال الأشجار الضخمة التي تُحيط بالمنزل، ثم تخدم بكآبة وبصدى يُشبه الأنين. كانت أوراق الأشجار المتساقطة تضرب الألواح الزجاجية للنوافذ، أما الطيور التي جثمت هناك فلم تعد تقوى على الرفرفة بأجنحتها وتحاول بصعوبة أن تحافظ على توازنها في تلك الرياح الضارية...

شعر السيد كليفلاند بالقلق والتوتر، رمى الكتاب الذي كان يطلعه وضرب بقدمه أحد مساند النار المشتعلة ما جعل كامل المساند تنقلب ثم نادى خادمه توم بصوت يدلّ على نفاذ الصبر.

أطل توم برأسه من الباب بسرعة وقال: "ها أنا هنا سيدي."

قال السيد كليفلاند: "أنت هنا بالفعل، ولكن ما هذه الطريقة في إشعال النار؟"

قال توم: "أعتقد بأنها انقلبت لأنك ضربتها بقدمك سيدي."

"ماذا؟... حسنًا!.. لنفترض أنني ضربتها بقدمي، لو كنت قد أعددتها بالشكل المناسب لَمَا كانت ستتداعى. عليك تثبيتها في الحال!"
قال توم على الفور - وهو يتلمّس طريقه نحو الموقد -:
"سوف أقوم بتثبيتها على الفور، سيدي."
قال السيد كليفلاند:

"حسنًا! عليك تثبيتها دون أن تُكثر من التعليقات، كل ما عليك هو أن تعمل أكثر وأن تتحدث أقل."

أجاب توم: "نعم سيدي."

ثم قال السيد كليفلاند من جديد:

"يبدو أنك سوف تستمر بالردّ على كل ما أقوله. أود أن تكون عصاي إلى جانبي لكي أضربك بها على رأسك."

قال توم وهو يناوله العصا:

"ها هي عصاك سيدي."

قال السيد كليفلاند:

"ضعها جانبًا على الفور. كيف تجرأت على لمس عصاي دون إذن مني؟"

قال توم: "اعتقدتُ بأنك كنت تريدُها سيدي."

قال السيد كليفلاند:

"من الأفضل لك أن تفكر بعملك وأن تتوقف عن الردّ على كلامي، وإلا فسوف أجد الطريقة التي ستجعلك تفعل ذلك. أحضِر المزيد من الحطب وأشعل النار وأغلق مصاريع النوافذ جيدًا. هل تسمع ما أقوله؟"

أجاب توم: "نعم سيدي."

قال السيد كليفلاند:

"حسنًا، إن كنت تسمع ما أقوله فلم لَمْ تُجبني؟ كيف سيكون بإمكانني أن أتبيّن أنك سمعتَ ما قلته إن لم تجبني؟"

قال توم: "اعتقدتُ بأنك طلبتَ مني ألا أجيبك سيدي."

قال السيد كليفلاند وهو يتناول عصاه:

"كنت أقول بأن عليك ألا تجبني إن لم تكن هناك ضرورة لذلك."

قال توم - وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويخرج من الغرفة -:

"كما تريد سيدي."

كان السيد كليفلاند بشكل عام طيباً جداً، رغم ما في طباعه من نفاذ صبر ومن تسرع. كانا هو وتوم يتشاحنان على الدوام، ومع ذلك فلم يكن بإمكان أحدهما أن يستغني عن الآخر، ذلك لأن توم كان بطبيعته من النوع الذي يميل إلى الهزل وهو الأمر الذي كان يتلاءم تماماً مع مزاج سيده المتقلب الغريب. وهو الأمر الذي كان يجعله أيضاً كثيراً ما يواجه ذلك الاهتياج السريع والمفطر لسيدته بابتسامةٍ لسيدته العصبي المتقلب؛ لذا كان بالتأكيد بمثابة صمام الأمان للمزاج. كان السيد كليفلاند في تلك الليلة بمزاج سيء جداً، فعلى الرغم من أنه كان في أعماقه نفسه كريماً طيب القلب - كما سبق وأشرنا - لكنه كان نتيجة لما تعرّض إليه في مطلع حياته من الكثير من المعاناة، وبسبب ما مرّ به من خيبات أمل، قد اختار أن يعيش حياته في عزلة تامة وهو ما جعله يعاني جداً من نقص الحنان، فلم تكن مشاعره مُشبعة كما لم تكن موظفة أيضاً. كان قلبه المُعذب يفتقد إلى حدّ كبير إلى التعاطف، وبذلك أصبح مُشاكساً على الرغم من أنه من النوع الرقيق الإحساس وإلى حدّ كبير...

نهض السيد كليفلاند وبدأ يتجول في الغرفة ثم فتح النافذة وأخذ ينظر منها إلى تلك الليلة العاصفة. غمغم بتذمر:

"ما هذا الطقس اللعين! من شأن مثل هذا الطقس أن يُفقد المرء صوابه! ومع ذلك لا مجال للهرب من كل ذلك، تعبتُ من هذه الحياة، فلستُ أدري لِمَ أعيش؟ وما هو الشيء الذي أعيش لأجله؟ فمن الذي سوف يذرف الدموع لأجلي لو كنت سأموت غداً؟"

ثم همس لنفسه: "هذه غلطتك أنت. لا حاجة لأن يشعر الرجل باليأس لأن ليس لديه من سيحمل اسمه في هذا العالم، أو لأن ليس لديه من هو من دمه. جميع البشر أخوة، على الرغم من أن البعض منهم من عرق إنساني أكثر رفعة من

الآخرين... لكن ما الذي فعلته أنت لمساعدة من هم حولك من الفقراء والمُعوزين والمُعذبين؟ ألن يقول لك الله - تعالى - يوم الحساب:

"كنتُ جائعاً ولم تطعمني، كنتُ ظمئاً ولم تُسقني، كنتُ مُتشرّداً ولم تمنحني المأوى، كنتُ عارياً ولم تكسني، وكنتُ مريضاً وفي سجن ولم تُزرنني وترعاني. فأنت لم تكن قد فعلت ذلك لأجلي لأنك لم تفعل ذلك لأي من إخوتك في الإنسانية.

كان ما حدّث به نفسه السيد كليفلاند أشبه بابتهاال توجّه به إلى الله - تعالى - وبذلك لم يكن قد مرّ دون أن يترك أثره في توجيهه إلى ما عليه أن يفعله. لكنه كان قد غمغم لنفسه من جديد:

"حسناً. ولكن كيف سيكون بإمكانني أن أمتنع عن التقصير في ذلك؟ يعلم الله بأن تقصيري لم يكن بسبب عدم ميلي إلى فعل الخير، وبأنني كنتُ دوماً على استعداد لأن أمدّ يدي إلى جيبِي كلما كانت هناك حاجة للإحسان. ولكن كيف سيكون بإمكانني أن أعرف مَنْ الفقراء والمحتاجين إن لم يطلب مني أحد ذلك."

ثم حدّثه صوت ضميره من جديد:

"أنت تحاول خداع نفسك. لكن لن يكون بإمكانك أن تخدعني وأن تجعلني أصمت. أنت تعلم بأن هناك الكثير من الفقراء والكثير من المُعذبين في هذا العالم. وبأن غطرستك هي ما منعتك من المبادرة إلى مساعدتهم. أهكذا يكون الأسياد؟ أليس على المؤمن أن يبحث عمن يُعانون لكي يساعدهم؟

أليس عليه أن يتقاسم طعامه مع الفقراء؟

هل عليه أن يكتفي بالجلوس هنا وبالنظر من النافذة في مثل هذه الليلة العاصفة دون أن يفكر بمن يتعرّضون الآن لمرارة العيش؟

هل من المطلوب أن يخفق قلب المرء لنفسه فقط في الوقت الذي يكون فيه عليه التفكير بالآلاف البؤساء الذين يُناشدون العون والفرج من الله - تعالى -؟

عليك الآن أن تُقرر قبل أن تستلقي على وسادتك المريحة هذه، ومع بزوغ فجر الغد، أن تنطلق في طريق مساعدة الفقراء."

واستمر السيد كليفلاند في الهمس لنفسه:

"لكن كم من المتعب ومن المؤلم أن تستمر مثل هذه الأفكار في التطفل عليّ. فهذه الأفكار على ما يبدو لن تدعني بعد الآن أشعر بالسكينة في حياتي..."
ثم حدّث نفسه من جديد:

"عليك أن تكبّح هذه الأفكار كلما أتت إليك بأضعاف القوة التي تقتحم بها ذهنك. فليس من صالح المرء أن يكون فقيرًا. كنت ذات يوم فقيرًا ومع ذلك لم يكن قد خطر ببال أحدهم أن يساعدني وأن يُحسن إليّ... كان عليّ أن أساعد نفسي بنفسي في هذه الحياة بقدر ما كان بإمكانني ذلك. أنا أكره الفقراء، كما أنني أكره التعساء... وفي الحقيقة. ولتفند ذلك! أنا أكره العالم بكامله وأكره كل شخص فيه..."

ثم أجابه الصوت الهادئ الرقيق للجانب الجيد في نفسه:

"يا للعار، سيد كليفلاند يا للعار!... لو تركت المجال لهذا الضوء القاتم للتسلل إلى نفسك وللسيطرة عليها فسوف تُفسد نفسك. أنت تعلم ذلك أكثر من أي شخص آخر، وأنت الآن تأثم بحق نفسك... أنت ترغب بأن تكون سعيدًا. حسنًا، قد تكون كذلك لديك الكثير من الفرص لتأدية ما عليك من واجبات. بحق الله! لم لا تبدأ بالتصرف كشخص سوي؟ ما تقوله الآن حول قيامك بمساعدة نفسك صحيح تمامًا، وأنت تستحق التقدير لأجله، وعليك أن تتذكر بأن غالبية الفقراء هم حاليًا بحاجة إلى الاستفادة مما لديك... لديك ثروتك ولديك هذه الشركة التي تعمل بشكل جيد. وكانت لديك، في مطلع حياتك، آلاف الفرص التي تُتيح لك مساعدة الآخرين وكان بإمكانك أن تصبح فعّالًا ومُبادرًا. كنت قد حصلت على التعليم المناسب وكان القدر قد ساعدك على تطوير نفسك. بالإضافة إلى ذلك أريد أن أسألك من جديد ألن يسألك الله - تعالى - عما كان يُعانيه إخوتك في البشرية من شقاء قبل أن يُسعفهم برحمته؟ عليك أن تبعد عن هذه السياسة الأنانية غير الإنسانية! عليك أن تستجيب لباعث الشهامة، وأن تتبع ما يُمليه عليك قلبك وإلا فلن يكون بإمكانك الحصول قطً على السكينة، كل ما عليك هو أن تتبع تعاليم الله تعالى وهو الذي سوف يُنير لك طريق الهداية والصلاح..."

أغلق السيد كليفلاند، ثم أطلق تنهيدة عميقة وحدّث نفسه من جديد:
 "أعتقد أن كل ما أشرتُ إليه في غاية الصّحة. نعم! كنتُ أحمقٌ بغيضًا. سوف أقلع
 عن ذلك وسوف أعيش حياتي بطريقة مختلفة وليكن الله في عونِي! لديّ الثروة
 وليس لديّ أي أطفال ولا حتى صوص صغير أنفق عليه المال، كما ليس لديّ من
 أترك لهم المال عندما سأموت؛ لذا فسوف أنفق المال على أعمال الخير. لكن ليتني
 أجد فقط الطريقة الأفضل لذلك. هذا هو الإشكال. لكن لا بأس سوف أجد الطريقة
 لذلك."

ثم ضرب الجرس لاستدعاء توم.

ظهر توم على الفور وقال - كعادته -: "ها أنا ذا سيدي."

قال السيد كليفلاند: "توم، عليك أن تُذكّرني صباح الغد بإرسال شحنة من الحطب
 للسيدة بيترز."

قال توم: "نعم سيدي، ومن الأفضل أن ترسل إليها أيضًا بعض اللحم المقدد؛ لأنني
 سمعتُ الصغيرة ماكس بيترز تقول لوالدتها بأنها لم تتذوق طعم اللحم المقدد منذ
 مدة طويلة."

قال السيد كليفلاند: "عليك أن تهتم بأمورك الخاصة فقط، لا أريدك أن تتدخل بما
 لا يُعنيك. سوف أرسل إليهم ما أرغب بإرساله. متى كنتُ أطلب منك النصيحة؟ ثم
 همس لنفسه:

"الحقيقة أنني كنتُ أرغب بإرسال بعض اللحم المقدد لتلك المرأة، لكنني لو فعلتُ
 ذلك الآن، فسوف يعتقد هذا الرجل الصفيق بأنني فعلتُ ذلك بناء على نصيحته.
 لكنني - على كافة الأحوال - لن أرسل إليها اللحم المقدد، بل سأرسل إليها بعض
 لحوم العجل والضأن."

وكان الباب قد طُرق في هذه اللحظة بالذات، عندما فتحه كان السائس ديك قد
 دخل بسرعة وهو يلهث.

سأله السيد كليفلاند: "أهذا أنت ديك؟ ما الذي تريده في مثل هذه الساعة من الليل؟"
 أجاب ديك بأسلوبه الخاص بالنطق الكلام بجمل متقطعة:

"هناك رجل في الأسفل. هو ينتظر الدخول. هو يبدو مضطرباً جداً. هو يقول بأن هناك مُخيم على بعد نصف ميل من هنا، وبأن الأشجار تسقط تحت وطأة العاصفة. الأمر سيء جداً. هو يخشى أن يموت الجميع هناك. هو يسأل فيما إذا كان بإمكانك أن تتكرم بإيوائهم في منزلك إلى صباح الغد." قال السيد كليفلاند: "مُخيم؟ وفي مثل هذه الليلة العاصفة؟ ليكن الله في عونهم! ما هو عددهم ديك؟"

أجاب ديك: "هو وزوجته وستة أطفال صغار السن سيدي." سأل السيد كليفلاند: "وهم ليسوا من الزوج أليس كذلك؟" أجاب ديك: "لا سيدي، ليسوا من الزوج، كما لا يبدو عليهم أنهم من الفقراء، لكنني أرى بأن الأفضل أن تمنحهم المأوى هذه الليلة وإلا فقد يموتون جميعاً تحت الأشجار التي تتساقط."

كان توم يعلم جيداً بأن سيده يكره تلقّي النصيحة من الآخرين، وبذلك خشي من أن يكون ديك، بما اقترحه عليه، قد تسبّب في عدم تلبية طلب ذلك الرجل البائس؛ لذا تدخل في الحديث قائلاً:

"سيدي، لو كنت مكانك لَمَا منحتهم المأوى على الإطلاق." هتف السيد كليفلاند: "ما الذي تعنيه؟ لابد أنك فقدت عقلك. ديك! عليك أن تُحطّم رأس هذا الفتى. لن يكون بإمكانني تحمّل مثل هذه الوقاحة أكثر من ذلك." ثم التفت إلى توم وقال:

"لا تقف أمامي وأنت تبتسم بهذه البلاهة."

قال توم - وهو يتوارى وراء ديك الذي كان والده - "لن أفعل ذلك سيدي."

قال السيد كليفلاند بعد ذلك: "دع الرجل يأتي إلى هنا."

وكان السيد كليفلاند عندما مثّل الرجل أمامه قد صُنع بمظهره الشاحب المنهك وقال له على الفور:

"اجلس أيها الرجل."

أجابه الغريب: "أشكرك سيدي! لكن عليّ العودة إلى عائلتي بأسرع ممكن... هل بإمكانك أن تمنحنا الإقامة في منزلك لهذه الليلة فقط؟"
 أجاب السيد كليفلاند: "بالتأكيد، هل لديك وسيلة نقل لاصطحاب عائلتك إلى هنا؟
 قيل لي بأن لديك ستة أطفال صغار السن."

أجاب الغريب: "سوف يكون عليهم السير على الأقدام سيدي؛ لأن الحصان الوحيد الذي كان لدينا قُتل إثر سقوط إحدى الأشجار الكبيرة عليه، لكنني لست أعتزّ الآن على ذلك فقد يكون ما حدث له قد حدث لزوجتي أو لأحد أطفالي على الرغم من أنني فقير الحال ولن أتمكن من تأمين حصان آخر لهم."

وبما أن مشاعر السيد كليفلاند في ذلك الوقت في حالة من التأجج، فقد نهض واستدار بسرعة نحو المكتبة لكي يخفي شدة تأثره بما سمعه، ولكي يمسح الدموع التي سقطت على خديه ويتمتم لنفسه كما كان من عادته:
 "الحقيقة أن هذا الأمر مؤثر للغاية."

ثم استدار نحو الغريب الذي كان على وشك مغادرة الغرفة وقال:
 "لو انتظرت لبضع دقائق فسوف أنقل زوجتك وأطفالك في عربتي فليس من المعقول أن يقطعوا كل هذه المسافة على أقدامهم وفي مثل هذه الليلة العاصفة."
 قال الغريب بصوت مرتجف:

"ليباركك الله سيدي! لكنني أشعر بالقلق في البقاء هنا ولو للحظة أطول."
 قال السيد كليفلاند: "حسنًا، اذهب إليهم وسوف تلحق بك العربة وسوف أكون أنا من يقودها."

غادر الغريب دون أن يقول شيئًا. بينما كان ديك وتوم في ذلك الوقت يتبادلان نظرات الاستغراب من هذه النوبة غير المألوفة والمفاجئة من الشعور الإنساني لدى سيدهما. كان توم قد شعر أيضًا بأن أولئك البؤساء قد حصلوا على هذه الفرصة بفضل حكمته ونتيجة تدخله فقط وبدون أي شك.

كانت العربة قد أصبحت جاهزة بعد وقت قصير، وبذلك انطلق بها السيد كليفلاند نحو مكان وجودهم، ولدى وصوله وجد تلك العائلة مُجمعة حول الحصان الميت.

كان الجميع يندبون، بينما كان الوالد الذي وصل لتوه يتحدث إليهم بإسهاب عن حسن الاستقبال الذي لقيه من السيد كليفلاند.

استغرق منهم صعود إلى العربة بعض الوقت، وكان على السيد كليفلاند أن يحمل اثنين من الأطفال المكتنزين على ركبتيه... نعم، ها هو يقود العربة في تلك العاصفة الهوجاء مواجهًا خطر الأشجار التي كانت تسقط من حوله، وإلى جانبه طفل تحمله والدته بين ذراعيها وهو يصرخ بأعلى صوته لشدة الخوف، وعلى كل ركبة من ركبتيه طفل مكتنز، وهو يكاد يُعصر بين الأشخاص التسعة الذين كان يُقلّهم. لكنه كان مع ذلك يشعر بالكثير من السعادة!... حتى أنه كان أكثر سعادة مما كان عليه منذ وقت طويل!...

ذلك لأن العمل الصالح ومساعدة الآخرين لابد أن يكون لهما جزاءهما وثوابهما.

لم يكن السيد كليفلاند لدى وصولهم إلى المنزل قد أسكن تلك العائلة في أحد الأجنحة الخارجية من المنزل، كما طلب منه ذلك الرجل البائس، وإنما قام بتأمين إقامتهم في غرفة مريحة تحت سقف منزله.

وفي تلك الليلة كان السيد كليفلاند عندما وضع رأسه على الوسادة، قد استغرب مقدار ما يشعر به من سعادة غامرة وبذلك أخذ يناجي نفسه:

"إن كنت سأشعر دومًا بما أشعر به الآن من سعادة، فسوف أستمّر في الطريق التي سلكتها هذه الليلة... أصبحت الآن رجلًا جديدًا ولن أعود من جديد للتفكير بالانتحار."

كان السيد كليفلاند في تلك الليلة قد نام بكل راحة وسكينة، كما كان عندما استيقظ في صباح اليوم التالي يتمتع بروح مُبتهجة مريحة وقد امتلأ قلبه بنور السعادة والسلام.

كان أول ما أولى له اهتمامه هو أن روى لتلك العائلة قصة كل ما مرّ به أثناء حياته من نوائب ومن محن. كانت تلك قصة طويلة محزنة، وبذلك كان على السيد كليفلاند أن يتظاهر أكثر من مرة بأن عليه الردّ على مكالمات هاتفية في الغرفة

الأخرى لكي يُخفي عنهم ما كان فيه من شدة الانفعال. لكن تلك القصة لم تكن قد رويت لتلك العائلة عبثاً فهم حتى اليوم يوردون ذكر السيد كليفلاند وفي عيونهم دموع الشعور بالامتنان والتعبير عن المحبة والاحترام، كما أنهم كلما طلبوا لأنفسهم الرحمة من الله

- تعالى - لا ينسون مُطلقاً الدعاء لذلك المُحسن الكبير السيد كليفلاند ما جعل اسمه يشتهر في كل مكان قريب وبعيد وما جعل الجميع يكونون له المحبة والاحترام. أيها القراء! إن كنتم تشعرون بالحزن وبالعزلة؟ فقد تحمل لكم هذه القصة العلاج لنفوسكم ولكل ما قد تواجهونه من نوائب... تأملوا في حياة من عانوا أكثر مما عانى منه أي منكم، و كل ما عليكم كلما اشتدت معاناتكم من الأحزان أن تتذكروا ما قدمه لكم الآخرون من أعمال حسنة، وكل ما عليكم أن تسيروا على خطى هذا الشخص الذي اكتشف سرّ السعادة الحقيقية...

- كلنا ننشد السعادة لكن السعادة لا تأتينا من محيطنا وإنما تنبع من داخل أنفسنا...

- السعادة لا تكون إلا بالعطاء...

- السعيد الحقيقي هو من يُسعد الآخرين...

الأسلوب الأفضل لمساعدة الفقراء

قال السيد جونس وهو يقتحم متجر زميله بريسكوت:
"أقوم الآن بمهمة الاستجداء لصالح عائلة مُعوزة جدًّا، وبما أنك من الأشخاص المحسنين، أمل أن أحصل منك على خمسة دولارات على الأقل لمساعدة تلك العائلة. فقد علمت زوجتي أمس بظروفهم؛ ما جعلنا نشعر بالكثير من التعاطف نحوهم ولو بالقليل مما اطلعنا عليه عن وضعهم؛ لذا فأنا أقوم الآن بمهمة جمع التبرعات لتأمين بعض الموارد المالية لأجلهم. أرجو أن أتمكن من جمع مبلغ يكفي لشراء بعض الاحتياجات الضرورية الفورية لهم: طن من الفحم، وكيس طحين، وكيس من البطاطا، وكمية من بعض الخضار، وغير ذلك من الاحتياجات اليومية الضرورية."

سأله السيد بريسكوت ببعض البرود:
"هل تعلم شيئًا عن العائلة التي تقترح جمع التبرعات لأجلها؟"
قال السيد جونس ببعض الانفعال:
"كل ما أعرفه أنهم في حالة شديدة من الفقر، وبأن الواجب الإنساني الأول للمرء أن يُقدّم المساعدة لمن يحتاج إليها."
قال السيد بريسكوت: "لستُ أسأل عن مثل هذا الاستنتاج، لاشك أن مساعدة المحتاجين من إخواننا في الإنسانية واجب كل منا، لكن هناك موضوع هام علينا أن نأخذه بعين الاعتبار بما يتعلق بمفهوم الفقر وبما علينا أن نقوم به لمساعدة الفقراء."

كان السيد جونس قد بدأ يشعر بالكثير من الغيظ من تلك الإجابة المثبطة لحماسه لفعل الخير وبذلك قال:
"ما الذي تعنيه بحق الله؟"
قال السيد بريسكوت: "وكيف سيتم ذلك."

أجاب السيد جونس مُستشهدًا بما ورد في الكتب المقدسة: "إن كان هناك من هو جائع فليمنحه القوت. وإن كان هناك من هو عارٍ فليمنحه الكساء. لا أعتقد أن هناك مجال للشك أو للتساؤل في مثل هذا الأمر. فبحسب ما تم إعلامي به، تفتقر هذه العائلة إلى كل مستلزمات الحياة، وبإمكاني أن أدرك بوضوح بأن الواجب يقتضي تقديم المساعدة لها بتأمين احتياجاتها."

سأله السيد بريسكوت:

"كم يبلغ عدد أفراد تلك العائلة؟"

"هناك رجل وزوجته وثلاثة أو أربعة أولاد."

"هل الرجل من النوع المُجد والمُتزن؟"

"لست أعرف شيئًا عنه، وليس لدي الوقت للاستعلام عن ذلك. كل ما أعرفه أنهم"

"يشكون من البرد والجوع، أو أنهم كانوا أمس يشكون من البرد والجوع."

"هذا يعني بأنك كنت قد قدمت إليهم بعض المساعدة أمس."

"نعم، كنت قد منحتهم بعض المساعدة المؤقتة، فلم يكن بإمكانني أن أنام ليلة"

"الأمس، بعد ما عرفته عنهم، دون أن أرسل إليهم على الأقل بعض الوقود وبعض"

"المؤن."

قال السيد جونس: "أنا أقدر لك جدًا طيبة قلبك. لقد تصرفت بالشكل الصحيح،"

لكنني على الرغم من إيماني بالإنسانية وبحكمة ما تعتزم القيام به، أرى بأن"

الطريقة الحقيقية لمساعدة الفقراء هي بأن نتيح لهم فرصة مساعدة أنفسهم،"

أما أن يكتفي المرء بمجرد منحهم الهبات والصدقات فأنا أرى بأن مثل هذا الأمر"

قد يكون له، في كثير من الأحيان أثرًا سلبيًا عليهم بأن يُشجّعهم على البطالة وعلى"

الرزيلة أو على التخاذل والتواكل على الآخرين وعلى عدم احترام الذات...

لدى كل شخص قوة داخلية فطرية علينا أن نبحث عن تنميتها وعلى دعمها، بدلًا"

من أن نكتفي بتقديم بعض المساعدة المؤقتة له؛ لأن في ذلك ما سيجعله يتخاذل"

من جديد بمجرد توقفنا عن تقديم العون له؛ لذا فأنا أرى بأن ما تسعى إليه،"

بمجرد جمع التبرعات لهم ليس بالإحسان الحقيقي لهم...

كما أن لدى كل شخص إمكانية العمل في خدمة المجتمع، ولا بد أن يحصل لقاء تلك الخدمة على الموارد التي تؤمن له سُبُل العيش الكريم."

قال السيد جونز: "لكن لنفترض أن هذا الرجل ليس بإمكانه أن يعمل فكيف سيكون بإمكانه أن يخدم المجتمع لأجل الحصول على الأجر."

قال السيد بريسكوت:

"يجب أن يكون الإحسان الحقيقي للفقراء بتأمين العمل لهم وليس بالاكتفاء بمنحهم الصدقات."

"ولكن ماذا إن لم يكن بالإمكان تأمين العمل لهم؟"

"أنت تجعل من الأمر حالة ميؤوس منها تمامًا. هناك في هذه المدينة الكثير من الأعمال ولكل من يرغب بالعمل."

"أنا على استعداد تام للقبول بهذه النظرية..."

"حسنًا. لن نتعامل مع الأمر على أساس الفرضيات والعموميات؛ لأن بإمكان المرء أن يقبل أو أن يرفض أي أمر، لكن دعنا نؤمن النظر في هذه الحالة بالذات؛ لكي نُحدّد واجبنا تجاه تأمين احتياجات تلك العائلة، ولكي نُحدّد ما هو الأفضل بالنسبة إليهم علينا أن نسأل أنفسنا:

"هل سيكون ذلك بأن تتم مساعدتهم بالطريقة التي اقترحتها، أم بأن يتم تشجيعهم على مساعدة أنفسهم؟..."

قال السيد جونز الذي كان قد بدأ يشعر بالضيق إلى حدّ كبير:

"كل ما أعرفه عنهم في الوقت الحاضر أنهم يُعانون من نقص المستلزمات والاحتياجات الضرورية للحياة. من السهل جدًّا أن نطلب من المرء أن يُساعد نفسه، ولكن ماذا لو كانت يدّ ذلك الرجل مشلولة؟ لا بد أنه سيموت من الجوع لو تعاملنا معه بهذا الأسلوب من الإحسان..."

علينا أن نطعم الجائع ونكسو العاري قبل أن نطلب منه أن يعمل لكي يساعد نفسه، هذا لو كانت لديه القدرة على العمل والرغبة في العمل."

قال السيد بريسكوت:

"ومع ذلك فأنا لا أرى في ذلك المعنى الحقيقي أو المفيد للإحسان كما قد يبدو لك. وعلى كافة الأحوال لا فائدة من مناقشتنا لهذا الأمر الآن خلال ساعات العمل، فلكل من وقتك ووقتي قيمته؛ لذا لا داعٍ من إضاعة وقتنا بمناقشات عقيمة. ليس بإمكانني أن أتفهم ما قلته و يؤسفني أن أخيب ظنك في مثل هذا الأمر."

قال السيد جونس وهو يُحييه ببرود ويخرج من المتجر:

"فإذن عمت صباحًا سيد بريسكوت..."

أجاب السيد بريسكوت: "عمت صباحًا..."

حدّث السيد جونس نفسه - وهو يتوجه بسرعة إلى خارج المتجر -:

"كلُّ ما قاله ليس سوى حُجة مأكرة كيلا يُساهم بالمساعدة. لستُ أوّمن كثيرًا بنزعة الخير لدى أمثال هؤلاء الرجال الذين لديهم الكثير من التساؤلات حول لمّ وأين وكيف ومتى... فهو يخشى من أن يمنح دولارًا واحدًا لفقير يتضوّر من الجوع، بحجة أن في ذلك ما سيشجعه على البطالة وعلى السير في طريق الرذيلة."

ولكن صادم أن كانت للشخص الآخر الذي مرّ به السيد جونس بعد ذلك، ذات الطريقة في التفكير حول الموضوع. كما صادم أن كان ذلك الشخص على اطلاع على بعض الأمور المتعلقة بتلك العائلة التي كان السيد جونس يطلب لها المساعدة. وبذلك كان ما قاله عندما أطلعه على مهمته:

"ليسوا سوى جماعة من الكسالى المتشردين!... وهم يُفضّلون الحاجة على العمل. بإمكانهم أن يموتوا جوعًا، فلن أمنحهم شلنًا واحدًا."

سأله السيد جونس بدهشة: "أهذا صحيح؟"

"بالتأكيد، هذا هو الواقع! كنتُ سابقًا قد علمتُ بوضعهم، ولكثرة ما شعرتُ نحوهم بالإشفاق ذهبتُ إليهم على الفور وأنا أحمل بعض المؤن رغم أنها كانت ليلة شديدة البرودة كان المطر يتساقط فيها بغزارة، ولكن ما الذي استنتجتُه من تلك الزيارة؟... لن أضيف شيئًا؛ لأنني لا أريد ذلك... دعهم يعملون..."

سأله السيد جونس:

"لكن هل بإمكان ذلك الرجل أن يحصل على عمل."

"لابد أن بإمكانه أن يحصل على عمل مثله مثل غيره من الرجال الفقراء ممن تعتمد عليهم عائلاتهم، فعندما تكون هناك إرادة لابد أن تكون هناك طريقة... الكسل هو المرض في جميع الحالات المماثلة، والعلاج الأفضل والأكثر فائدة لمثل هؤلاء هو بعض الجوع الصحي المفيد."

وبذلك كان السيد جونس قد عاد إلى متجره وهو في حالة من الغيظ، فقد تم إخماد كل ما كان يشعر به من مشاعر التعاطف ومن النزعة إلى الخير. وكان قد شعر بالغضب أيضًا تجاه تلك العائلة الفقيرة، وكذلك بالغضب من نفسه؛ لأنه كان ذلك المخبول الذي تدخل بما لا يعنيه. حدّث نفسه بسخط:

"لن أقوم بمثل هذه المهمة ثانية، ولن أقوم بأي عمل مفيد بعد الآن وطوال حياتي." وفي الوقت الذي كان فيه يُحدّث نفسه دخل إلى متجره جاره السيد بريسكوت وسأله:

"أين تقيم تلك العائلة الفقيرة التي كنت تتحدث عنها؟" أجاب السيد جونس بغضب: "لا تسألني عنهم، لقد اكتشفتُ للتو كل شيء عنهم، وعلمتُ بأنهم جماعة من الكسالى المتشردين." "هل أنت متأكد من ذلك؟"

"كل التأكيد. السيد كادي يعرف كل شيء عنهم ومعرفة جيدة تمامًا. من الأفضل لهم أن يبحثوا عن عمل. بالنسبة إليّ، لقد اقتنعتُ بما قاله بأن من الأفضل لهم أن يتضوّروا جوعًا؛ لأن هذا الأمر سيعود عليهم بالفائدة."

لكن السيد بريسكوت كان قد سجّل مذكرة بالمعلومات عن الشارع وعن رقم المبنى الذي تعيش فيه تلك العائلة دون أن يلتفت إلى تلك الإفادة المثبّطة للهمة، ثم قال لزميله قبل مغادرته متجره:

"علمت للتو أن هناك حاجة لخدمات رجل قوي البنية وقد يرغب السيد غاردين - كما سميتّه - بالحصول على هذا العمل."

"أجابه السيد جونس الذي كان ذهنه قد شُحن ضدّ ذلك الرجل:

"لن يرغب بالعمل، هذا ما علمته عنه."

قال السيد بريسكوت:

"من الأفضل للمرء أن يكسب دولارًا واحدًا من عمله، من أن يحصل على دولارين من يد الإحسان؛ لأنه بذلك سوف يشعر بأن المبلغ الذي حصل عليه من حقه وبأن له الحق باقتنائه. كما أن في ذلك ما يرفع من قيمته الأخلاقية وما يجعله يشعر بالاحترام لنفسه وما يشجعه على بذل المزيد من الجهد. أما ما يحصل عليه المرء عن طريق الإحسان فلا بد أن يؤدي إلى إضعاف معنوياته وإلى إفساده؛ لأنه لا بد أن يتسبب في تلبد إحساسه وبعدم احترامه لنفسه من جهة، كما أنه من جهة أخرى سوف يُعزّز لديه التواكل والبطالة، وقد يقوده أيضًا إلى طريق الرذيلة... الإحسان الحقيقي إلى الفقراء يكون بمساعدتهم على مساعدة أنفسهم. كنتُ قد أمعنتُ التفكير بهذا الأمر بعد مغادرتك متجري، وعندما وجدت بأن هناك حاجة إلى رجل قوي البنية، كما سبق وأعلمتُك، فقد وجدتُ أن أمرّ بك لكي أعلمك بذلك لأجل السيد غاردينر. سوف تكون بهذه الطريقة قد أحسنتُ إليه وقدمتُ له خدمة حقيقية." أجاب السيد جونز بقناعة تامة:

"لن تكون هناك أية فائدة من ذلك، فهو رجل تافه كسول لا يصلح لشيء ولن أتعامل معه."

لم يُصِرّ السيد بريسكوت على الأمر؛ لأنه أدرك بأنه لم تعد هناك فائدة من ذلك؛ لذا كان وهو في طريقه إلى متجره قد مرّ بنفسه بالسيد غاردينر.

كان السيد بريسكوت عندما دخل إلى ذلك المكان قد شاهد رجلًا وزوجته ومعهما ثلاثة أطفال في منزل يتألف من غرفتين فقط يوحي بالفقر الشديد، والأسوأ من ذلك أن المكان كان في غاية القذارة والفوضى. كانت المرأة والأطفال الثلاثة بالتأكيد بصحة جيدة، لكن الرجل كان على ما يبدو يُعاني من مرض تسبب له بهزال شديد. كان نحيلًا شاحب الوجه تُحيط بعينيهِ الهالات السوداء، وبذلك كان بعيدًا كل البعد عن أن يكون أهلًا لعمل يحتاج إلى بنية قوية كما كانت توقعات السيد بريسكوت.

لدى دخول السيد بريسكوت إلى تلك الغرفة المثيرة للشفقة التي تجمعت فيها تلك العائلة البائسة، كانت وجوه الجميع قد أشرقت بفرحة الأمل، لكن نظراتهم كانت مع ذلك مشوبة بظلال من المعاناة الطويلة الصامتة...

وبما أنه كان من النوع الدقيق الملاحظة، فقد لاحظ وبنظرة واحدة ما يمكن أن يثيره ذلك التوسل على وجه كل منهم من التعاطف مع ظروفهم البائسة.

ناولته المرأة كرسياً بعد أن نظفت الغبار عنه بطرف ثوبها. جلس عليه وقال:

"تبدو عليكم مظاهر الفقر والبؤس."

أجابت المرأة بصوت أشبه بالنحيب:

"هذا هو الوضع سيدي، نحن في غاية البؤس، لم يعمل جون منذ أكثر من ثلاثة أشهر، و..."

قاطعها السيد بريسكوت بالقول: "لماذا؟"

قال الرجل: "لأن وضعي الصحي سيء جداً فأنا أعاني كثيراً من ألم في ظهري وفي جنبي وأشعر بالضعف بحيث ليس بإمكانني حتى أن أزحف."

قال السيد بريسكوت - وهو يتفحص وجوه كل من المرأة والأطفال -:

"هذا بالتأكيد أمر مؤسف، ومؤسف جداً." ثم سألها: "هل يقوم هذا الفتى بأي عمل؟"

أحابت الأم: "لا سيدي، لازال صغير السن جداً لكي يصلح لأي عمل."

"بإمكاني أن أتوقع بالنظر إليه بأنه في حوالي الثالثة عشر."

"هو أكبر سنّاً بقليل."

"هل يذهب إلى المدرسة؟"

"لا سيدي، ليس لديه من الملابس ما يليق بذهابه إلى المدرسة."

قال السيد بريسكوت: "هذا مؤسف بالفعل ومع ذلك بإمكان هذا الفتى أن يحصل

على دولارين في الأسبوع، بدلاً من أن يبقى عاطلاً عن العمل ما قد يؤدي به إلى

الفساد."

بدا على السيد غاردينر بعض الارتباك على إثر سماعه هذه الملاحظة، وهذا ما كان أيضاً من زوجته التي لم تشعر بالراحة تماماً أمام النظرة المتفحّصة التي ألقتها عليها السيد بريسكوت والذي قال بعد ذلك :

"تبدین بصحة جيدة سيدة غاردينر."

أجابت المرأة: "نعم سيدي، شكرًا لله على هذا الأمر. لست أدري كيف كنتُ سأتدبر الأمور لولا ذلك، فقد أصبح كل شيء على كاهلي منذ إصابة جون بهذا المرض..."

ثم نظر السيد بريسكوت حول الغرفة، وقال على سبيل الدعابة:

"لكنك كما أرى لا تستفيدين جيداً من مقدرتك ومن صحتك الجيدة."

فهمت المرأة ما قصده بتلك الملاحظة واصطبغ وجهها بالحمرة.

ثم قال الضيف بأكثر من جدية:

"كما أنه ليس هناك أي مبرر لهذه القذارة ولهذه الفوضى المنتشرة هنا. كنتُ ذات مرّة قد زرتُ سيدة أرملة كانت في حالة صحية سيئة جداً؛ ما يجعلها تضطر إلى البقاء في الفراش نصف الوقت، لكنها مع ذلك كانت تكسب عيشها مع طفليها الصغيرين بأعمال التطريز التي تقوم بها طوال اليوم وحتى وهي في فراشها. كما أنني لم أكن قطّ قد شاهدت غرفة بمثل تلك الغرفة من ناحية النظافة والترتيب. كما أن أولادها كانوا في غاية الترتيب والنظافة رغم تواضع ملابسهم. كم يبدو الأمر مختلفاً هنا! فقد وجدْتُكم جميعاً عندما دخلت إلى هذه الغرفة جالسين في هذه الفوضى، ويجب أن أقول بكل صراحة، وفي هذه القذارة..."

كانت المرأة التي ازداد احمرار وجهها قد نهضت على الفور وبدأت تُزيل الغبار وتُعيد الترتيب في أركان الغرفة، وبذلك كانت الغرفة قد بدأت تبدو خلال لحظات أقل قذارة وفوضى مما كانت عليه. كان ذلك بالطبع نتيجة تعنيف الضيف الذي وجد في ذلك الأسلوب الأفضل لمساعدتهم وكان السيد بريسكوت عندما عادت المرأة إلى مقعدها قد قال لها:

"دعيني الآن أعلمك بهذه الحكمة عن تعريف الفقر:

بإمكان كل فقير أن يُقلّل من فقره كما أنه قد يتخلص تمامًا من حالة الفقر ذلك لأن الله - تعالى - يُساعد من يُساعدون أنفسهم. ولكي أكون صريحًا تمامًا، فأنا أرى بكل وضوح بأنكم لا تحاولون مساعدة أنفسكم، وبما أن الأمر بهذا الشكل، فليس عليكم أن تتوقعوا الحصول على المساعدة دون مبرر. علمتُ منذ قليل بأنكم كنتم مساء الأمس قد حصلتم على بعض الوقود وعلى بعض المؤن من أحد المحسنين وبأنه وعدكم بالمرور اليوم وبتأمين المزيد من هذه المساعدات. لكنكم لم تسمعوا منه بعد أليس كذلك؟ والأكثر من ذلك عليّ أن أعلمكم بأن عليكم ألا تتوقعوا قدومه بعد الآن، فقد صادف أن كان أحد الأشخاص الذين طلب منهم المساهمة بتقديم المساعدات لكم، على علم بوضعكم أكثر مما كان يعرفه، وكان ذلك الشخص قد أطلق عليكم بكل وضوح صفة (جماعة من المُشردين من العاطلين عن العمل)! فكّروا فقط بمعنى هذه التسمية!... لذا كان الرجل قد عن الأمر على الفور ولن تحصلوا منه على أية مساعدة بعد الآن، وكنتُ أيضًا أحد من طلب منهم المساهمة...

والآن، إن كنتم على استعداد لمساعدة أنفسكم فسوف أحاول تقديم العون لكم والوقوف إلى جانبكم بصفة صديق، وإلا فلن تكون لي أية صلة بكم بعد الآن. أنا أتحذّر إليكم بكل وضوح، هذا من الأفضل لكم وسوف يكون أقل خطورة من شرّ مُرتقب. على هذا الولد الأكبر أن يعمل لكي يكسب بعض المال، كما أن بإمكان ابنتك أن تقوم بالأعمال المنزلية بينما تقومين أنت بالعمل في غسيل الملابس أو في أعمال التنظيف لدى إحدى العائلات، وسوف تحصلين بذلك على دولارين أو على ثلاثة دولارات في الأسبوع. وبهذا الدخل لن تكون هناك أية خطورة من تعرّضكم جميعًا إلى التضرّر جوعًا كما أنكم بذلك ستأكلون مما تكسبونه من عملكم دون أن يكون لأحدكم أية تبعية للآخرين. وقد يكون بإمكان السيد غاردينر أيضًا أن يساعد في شيء ما، ولستُ أشك مطلقًا بذلك."

ثم نظر بتساؤل إلى السيد غاردينر.

قال السيد غاردينر - بنوع من التخاذل :-

"هذا لو كنت فقط قوي البنية."

"وحتى لو لم تكن قوِي البنية، فهناك مع ذلك الكثير من الأشياء التي بإمكانك القيام بها لكي تحصل على دولارين أو على ثلاثة دولارات في الأسبوع. وسوف يكون ذلك أفضل من جلوسك هكذا عاطلاً عن العمل."

سوف يكون دخلكم الأسبوعي بالدولارين اللذين ستحصل عليهما زوجتك كل أسبوع، بالإضافة إلى الدولارين اللذين سيحصل عليهما ابنك، والثلاثة دولارات التي سوف تحصل عليها أنت سبعة دولارات أسبوعياً. وأعتقد بأنكم لا تحصلون حالياً بالاستجداء على نصف هذا المبلغ أليس كذلك؟..."

قالت المرأة: "هذا صحيح سيدي. ما تقوله هو الواقع والحقيقة." "جيد جداً، أصبح من الواضح بالنسبة إليكم الآن بأن العمل أفضل من البطالة ومن الاستجداء."

قالت المرأة من جديد: "لكن لا أعتقد بأنه سيكون بإمكاننا أن نحصل على العمل؟" "لا أصدق كلمة واحدة مما قلت. بإمكانني أن أعلمك على الفور عن كيفية الحصول على نصف دولار يومياً خلال الأيام الخمس المقبلة، وسوف تكون تلك هي البداية بالنسبة إليك، سوف تكون البداية التي ستضعك على طريق العمل المفيد، ولن تجدي أية صعوبة بعد ذلك."

سألته المرأة: "وما هو نوع هذا العمل، سيدي؟" "نحن بصدد الانتقال إلى منزل جديد وقد بدأت زوجتي بتنظيف المنزل لكنها سوف تكون بحاجة إلى المساعدة، فهل ترغبين المجيء لمساعدتها؟" سألته المرأة عن عنوان المنزل ووعده بقبول العرض.

قال السيد بريسكوت بسرور:

"سوف تشعرين بالراحة بالعمل لدينا. سوف أدفع لك أجرك في نهاية كل يوم عمل، كما أنك سوف تحصلين على جميع وجباتك لدينا وستجدين متعة حقيقية في ذلك. كوني على يقين بأن رغبتي واحداً نحصل عليه بجهدنا أشهى من أفضل طعام قد يحصل عليه المرء من يد الإحسان كما أنه أيضاً أكثر فائدة للصحة."

قال غاردينر الذي كان ذهنه الخامل قد أصبح أكثر توقدًا:

وماذا عن الفتى سيدي؟"

قال السيد بريسكوت - وهو يبتسم -:

"كل شيء في وقته. فكما تعلم لم يتم بناء روما في يوم واحد... دعنا الآن نؤمن لزوجتك البداية، لو جاءت زوجتك غداً فسوف أفكر بالأمر، لأنها سوف تثبت لي بذلك بأنها قررت مساعدة نفسها وبأنها تستحق مساعدة الآخرين. سوف يأتي الباقي في الوقت المناسب وبالتدريج، لكن بإمكانك أن تتأكد بأنها إن لم تأت لكي تعمل غداً فسوف يكون ذلك نهاية علاقتنا معاً. والآن عِمتم مساء."

وكانت السيدة غاردينر قد جاءت بالفعل إلى منزل عائلة بريسكوت بوقت مبكر من صباح اليوم التالي، كما أنها كانت تبدو أكثر ترتيباً مما كانت عليه في اليوم السابق. وبما أنها سيدة قوية البنية وبدينة تعلم كيف تنظف الأرضية وتزيل عنها آثار الطلاء، فقد عملت بكل همة ونشاط ما جعل السيدة بريسكوت تشعر بالرضى وبذلك كانت قد منحتها الأجر المستحق لها (نصف دولار). كما كانت السيدة غاردينر، قد جاءت من جديد في اليوم التالي لكي تعمل وتحصل على الأجر. وبذلك كان السيد بريسكوت في مساء اليوم الثالث قد شعر بأن الوقت قد حان لزيارته عائلة غاردينر.

كان لدى دخوله المنزل قد لاحظ على الفور من إلقائه نظرة سريعة على الغرفة بأنها لم تعد تُشبه الغرفة التي كان قد شاهدها في زيارته الأولى لهم منذ ثلاثة أيام وبذلك قال لهم بسرور:

"حسنًا، هذا يدعو للتفاؤل."

كان كل شيء في الغرفة نظيفاً وفي مكانه المناسب، وكان جميع من في المنزل في غاية الترتيب والنظافة. كانت السيدة غاردينر جالسة أمام طاولة ترتق الثياب بينما كانت ابنتها تُنظف أطباق العشاء، وكان السيد غاردينر جالساً إلى جانب ابنه الأصغر يُلقنه كيفية لفظ الكلمات.

كان وجه الجميع قد أشرق لدى سماعهم العبارة التي صدرت عن السيد بريسكوت، وشعروا بسرور لم يسبق أن شعروا بمثله منذ زمن طويل، ذلك لأن شعلة احترام الذات والاعتماد على الذات كانت قد اضطربت في قلوبهم من جديد. استأنف السيد بريسكوت حديثه بالقول:

"أشعر بالكثير من السرور؛ لأنكم خطوتم الآن خطوة ثابتة باتجاه الطريق الصحيح. عليكم أن تستمروا في هذا الطريق بثبات وشجاعة ودون تَوَانٍ، وسوف يكون بانتظاركم الكثير من الراحة والسعادة."

ثم قال: "أعتقد بأنني حصلت لابنكم على العمل المناسب. سوف يحصل على دولار ونصف في الأسبوع. هذا في البداية فقط لكنه لو أثبت جدارته فسوف يحصل بعد بضعة أشهر على دولارين أسبوعياً، كما أن العمل الذي سيقوم به سهل وهناك فرصة كبيرة للتقدم فيه."

ثم التفت إلى السيد غاردينر وقال:

"أعتقد أن هناك فرصة جيدة بالنسبة إليك أيضاً سيد غاردينر. هو عمل سهل ولن يكون لأكثر من خمس أو ست ساعات في اليوم، وسوف تحصل لقاء ذلك على أربعة دولارات في الأسبوع، وهذا أيضاً في البداية، وفي حال إثباتك جدارتك سوف يتم رفع الأجر إلى ستة أو سبعة دولارات في الأسبوع. ما رأيك؟"

قال الرجل الفقير الذي كانت كرامته واستقلاليته قد عادت إليه من جديد:

"إن كنت ستفعل ذلك لأجلي فسوف تكون قد أحسنت إليّ بالفعل."

قال السيد بريسكوت كوت بإيجابية:

"سوف أفعل ذلك. ألم أكن قد وعدتُك بذلك. ألم أقل لك بأن الله يساعد من يساعدون أنفسهم؟ وبأن كل من هو على استعداد للعمل لابد أن يلقى السعادة لأن ما يكسبه المرء بالعمل الشريف يشتري له ألدّ القوت."

ولكي تستمر تلك العائلة في سيرها في طريق الصلاح، كان لابد من أن تكون هناك بعض الرقابة والمتابعة والإرشاد من قبل كل من السيد بريسكوت وزوجته، ذلك لأن العادات القديمة والميول السابقة المتأصلة في النفوس لابد أن يكون لها تأثيرها

على المرء، وبذلك فليس من السهل التخلص منها. ولولا تلك الرقابة لكانت البطالة والاعتماد على الآخرين قد انتصرا عليهم من جديد...

سوف يُدهش القارئ عندما سيعلم بأنه خلال ثلاث أو أربع سنوات كانت عائلة غاردينر قد انتقلت إلى بيت صغير متواضع خاص بها، وبأن كل منهم كان مسرورًا سعيدًا بما يقوم به من عمل. كما أن صحة السيد غاردينر كانت قد تحسّنت بدلًا من أن تكون قد تراجعت نتيجة قلة الحركة والنشاط.

وهكذا نرى بأن أسلوب السيد بريسكوت في مساعدة تلك العائلة الفقيرة كان هو الأسلوب السليم القويم، ذلك لأنه ساعدهم على الاعتماد على أنفسهم، وبأن منح المساعدات الخيرية ليس سوى مساعدة مؤقتة تحرم المرء من استقلاليتها.

علينا أن ندرك بأن السليم لمساعدة الفقراء يكون بمساعدتهم على الوقوف على أقدامهم وعلى شقّ طريقهم في الحياة بالاعتماد على أنفسهم، وبأن هذا هو أيضاً ما يحافظ لهم على كرامتهم...

هل يستحق الأمر العناء؟

قال السيد سميث لدى دخوله إلى متجر جاره السيد جونس:

"أود أن أشغل ساعة من وقتك هذا الصباح."

سأله السيد جونس على سبيل الدعابة هو يبتسم:

"هل هناك فائدة من ذلك؟"

أجابه السيد سميث: "ليس هناك الكثير من الفائدة من الناحية المادية."

هز السيد جونس كتفيه وقوس حاجيه وقال:

"أنت تعلم بأن الوقت من ذهب."

"لكن المال ليس كل شيء في الحياة. هناك شيء آخر أكثر أهمية في هذا العالم إلى

جانب الدولارات."

"هذا صحيح، لكن الرجل الذي يمتلك الدولارات بإمكانه أن يحصل على الشيء الآخر

الذي أشرت إليه وكلما رغب بذلك."

أجاب السيد سميث: "لست متأكدًا من ذلك، وبإمكاني أن أعلمك عن شيء ليس

بإمكان المال أن يجلبه للمرء."

"فإذن لتعلمني بذلك."

"نفس مطمئنة."

أجاب السيد جونس:

"بالنسبة إليّ فأنا لا أهتم كثيرًا بمثل هذا الأمر، ولكن ما هو الأمر الذي سوف تضيع

لأجله ساعة من وقتي؟"

قال السيد سميث:

"هل تتذكر السيد لويد الذي كان أحد رجال الأعمال في الميناء؟"

"نعم؟ ماذا بشأنه؟ اعتقدت بأنه توفي في نيو أورلينز منذ أكثر من عام."

"نعم، لقد توفي!"

"وهو على كافة الأحوال لم يكن يُساوي أكثر من دولار واحد."

"ربما كنتُ أنا أيضًا أعتقد بأنه لا يساوي دولارًا وأنه أنهى الكثير من الدولارات؛ لأنه لم يكن يومًا من الأشخاص الدُّهاة بكل ما يتعلق بأمور التجارة رغم أنه كان شريفًا جدًا وطيب القلب؛ لذا لم يكن قد وُفِّق أيضًا في أعماله بعد مغادرته البلدة." أجابه السيد جونس بازدراء:

"كان شريفًا وطيب القلب! هناك الكثير من مثل أولئك الرجال. بإمكانني أن أشير إلى العشرات منهم في كل شارع من شوارع هذه المدينة، لكن لا يستحق الأمر أن يكون المرء على صلة وثيقة بهم؛ لأنه سوف يصبح عرضة للمعاونة بسبب ما فيهم من ضعف مُحِبِّب."

سأله السيد سميث:

"أكان هذا نتيجة لخبرتك ولتجربتك الشخصية؟"

قال السيد جونس:

"ليس لديّ شخصيًا الكثير من الخبرة في هذا المجال، لكنني أعرف بعض من عانوا لهذا السبب."

"لكنني كنتُ أتحدث الآن عن السيد لويد."

"أعلم ذلك، ولكن ماذا بشأنه؟"

"علمتُ هذا الصباح بأن أرملته وصلت أمس إلى البلدة، وبأنها بحاجة إلى العون والمشورة. أعتقد بأنه ليس من المناسب لمن سبق وكان على معرفة بتلك العائلة في السابق أن يتعامل معها الآن بعدم مبالاة؛ لذا اقترح أن نقوم بزيارتها لكي نسأل عن احتياجاتها وأريدك أن ترافقني في هذه الزيارة."

أجاب السيد جونس على الفور:

"ليس بإمكانني أن أفعل ذلك،"

"لِمَ لا؟"

"لا وقت لديّ، وأعتقد بأن الأمر لا يستحق العناء."

قال السيد سميث:

"لستُ أتوقع أن تكون لهذه الزيارة فائدتها من الناحية التجارية أو من الناحية المادية، لكن من المؤكد أن للاعتبارات الإنسانية أيضًا مكانها."

"الاعتبارات الإنسانية! سيد سميث! أرى أن الاعتبارات الإنسانية لا تستحق ذلك. هذه هي تجربتي الشخصية. كنتُ سابقًا قد قدمتُ المساعدة لاثنين أو ثلاثة أشخاص لاعتبارات إنسانية و باعتقادك ما الذي ما تلقَّيته منهم بالمقابل؟"

"الشعور الممتع لمن يُقدم خدمة جيّدة لأحد جيرانه."

"لا هذا، ولا حتى أقل قدر من ذلك... وإنما كنتُ فقط قد أضعتُ مالي لكي أعاني ولكي يصبح لي العديد من الأعداء، وكان كل ما حصلتُ عليه عندما طالبتُ بما يخصني من تلك الصفقة هو الإهانة... هذه هي تجربتي سيد سميث، وهي تجربة تسع وتسعين من المائة ممن استجابوا لِمَا يُسمى (الدواعي أو الاعتبارات الإنسانية)؛ لذا وكما قلتُ لك سابقًا لا يستحق الأمر العناء."

"أنت إذن لا تنوي مرافقتي لزيارة السيدة لويد؟"

"لا سيدي، لن تطلب مني أن أذهب للبحث عن التجار المفلسين. دعهم يلجؤون إلى أصدقائهم. لو كنتُ سأقحم نفسي بمثل هذه الأمور، فسوف يصبح لديّ عما قريب الكثير من المشاغل التي لا تعود علي بأية فائدة."

قال السيد سميث:

"أعتقد بأنه لم تعد هناك أية فائدة من التحدث معك عن هذا الأمر."

أجابه السيد جونز - وهو يضحك -:

"وهذا رأيي تمامًا، ما لم يكن بإمكانني إقناعك بأن تعدل عن مساعيك الحميدة لأجل السيدة لويد وأن تعتمد على الاهتمام بشؤونك الخاصة كرجل عاقل."

قال السيد سميث: "عمت صباحًا."

أجاب السيد جونز: "عمت صباحًا، وسوف أكون بانتظار سماع تقريرك عن نتيجة مهمتك لدى تلك الأرملة خلال أسبوع أو أسبوعين من الآن."

قال السيد سميث - وهو يغادر المتجر -:

"سوف يكون لهذه المهمة فائدتها، وأنا أوكد لك ذلك."

تمتم السيد جونس:

"ستكون لها فائدتها!... سوف يدفع ثمن ذلك، وبشكل باهظ أيضاً، ما لم يُحالفه الحظّ بالحصول على أكثر ما يستحقه."

بعد مغادرة السيد سميث بقليل، دخل إلى متجر السيد جونس رجل شاحب اللون حاد الملامح قلق النظرة.

قال له السيد جونس بعدم كُلفة:

"أهذا أنت سيد بيركنز؟ أهنك اليوم أمر يستحق الاهتمام؟"

"حسنًا، نعم هناك أمر ما، لديّ صفقة تستحق الاهتمام."

قال السيد سميث: "صديقي بيركنز، هل هناك فائدة من ذلك بالفعل؟ هذا هو الأمر الهام بالنسبة إليّ. دعني أجد فيها ما يعود بالفائدة وسوف أتعامل معك."

"بإمكاني أن أحصل لك على خمسين حصّة من أسهم مؤسسة ريفرلاند للسكك الحديدية وبسعر واحد وثمانين دولارًا فقط للسهم الواحد."

أشرق وجه السيد جونس وسأله:

"هل سيكون بإمكانك ذلك بالفعل؟"

"بإمكاني ذلك."

"حسنًا، سوف أشتريها."

"أعطني كمبيالة صالحة الدفع لستين يومًا وسوف أجعلهم يحولون الأسهم لصالحك."

وكان السيد بيركنز قد خرج بعد خمس دقائق من متجر السيد جونس وبيده أربعة آلاف دولار. وبما أن قيمة أسهم مؤسسة ريفرلاند للسكك الحديدية كانت قد ارتفعت بشكل مُطرد في الأشهر الأخيرة، فلم يكن لدى السيد جونس أدنى شكّ من أنه خلال فترة قصيرة سوف يحصل على ما يُضاعف ثمنها. كان قد اشترى سابقًا البعض منها وبأسعار أخفض من الثمانين دولارًا؛ لذا فقد بدت له تلك المضاربة آمنة تمامًا، وبأنها تستحق العناية؛ لأنها سوف تعود عليه بفائدة كبيرة...

حدّث السيد جونس نفسه - وهو يذرع المتجر جيئةً وذهاباً، ويفرك يديه بغبطة كبيرة :-

"أعتقد أن هذا الأمر يستحقّ العناية أكثر بكثير من الركض وراء أرامل التجار المُفلسين. لو كنتُ ذهبتُ برفقة السيد سميث بتلك المهمة السخيفة، لكنتُ سأخسر مثل هذه الصفقة. مثل هذه الصفقات لا تسنح فرصتها دومًا للمرء، مثل هذه الفرص تضيع بسرعة، لكن هذا الرجل سميث لا يعرف جيدًا أين تكمن مصالحه." ولم يكن قد مر وقت طويل على خروج السيد بيركنز إلى أن دخل إلى متجر السيد جونس تاجر جملة متواضع يدعى آرمور وقال:

"لديّ بعض البضائع التي أودّ بيعها هذا الصباح، فهل لديك الرغبة بشرائها؟"
سأله السيد جونس: "ما الذي لديك هنا؟"

"عشرة صناديق من التبغ. خمسون صندوق من اللحوم، عشر علب سيجار من نوع هافانا، بعض الأرز إلخ..."

كانت تلك بالذات هي الأصناف التي كان السيد جونس بحاجة إليها وكان عليه تأمينها خلال يوم أو يومين على الأكثر، لكنه تظاهر بعدم الاكتراث واستفسر عن الأسعار. قام السيد آرمور بإعلامه بالسعر الرائج لتلك البضائع في السوق. لكن السيد جونس أجابه بفتور:

"لستُ أرغب بها."

قال البائع: "لكن هذه البضائع من الأصناف الممتازة، وليس بإمكانك الحصول على أفضل منها في الأسواق."
أجاب السيد جونس:

"إن كنتُ بحاجة إليها على الفور فسوف أقدم إليك عرضًا بأسعار جديدة..."
سأله البائع ببعض الاهتمام:

"ما هو المبلغ الذي بإمكانك أن تعرضه لأجلها؟ لديّ اليوم العديد من الالتزامات المادية؛ لذا قد أقايض وأتنازل قليلاً لكي أحصل على المال."
استغرق السيد جونس بالتفكير لبعض الوقت...

فلم يكن متأكدًا من أنه سوف يحصل من ذلك البائع الذي يحتاج إلى المال، على عرض أفضل من ذلك. ثم قال أخيرًا: "عليك أن تعلمني بأدنى سعر توافق عليه وسوف أعلمك أنا على الفور فيما إذا كنت سأشتري منك جميع هذه الأصناف. وكما قلت سابقًا لديّ مخزون كبير من مثل هذا البضائع."

كم قد يتخلى بعض الرجال عن مبادئ الصدق والشرف لأجل تحصيل قدر ضئيل من الربح!...

وبما أن البائع كان عليه أن يُسدّد في ذلك اليوم قيمة بعض السندات المالية للمصرف؛ لذا لم يجد أمامه طريقة للحصول على المال الذي يحتاجه سوى بهذا البيع الجبري وبأقل من سعر السوق وبذلك اضطر - لكي يتأكد من أن عملية البيع ستتم - لأن يقدم للسيد جونس عرضًا بأسعار أخفض بكثير من السعر الراجح في السوق وحتى بأقل من سعر التكلفة.

وكان السيد جونس الذي هو شخص داهية ماهر جدًا قد تقبل ذلك العرض على اثنين أو ثلاثة من تلك الأصناف لكنه تظاهر بعدم الاهتمام بالأصناف الأخرى لكي يحصل على المزيد من التخفيض في الأسعار، أما الأمر الأهم في الموضوع. فهو أن تلك الصفقة كانت قد تمت أخيرًا، وبأن السيد جونس كان قد باع تلك البضائع على الفور بالسعر الأعلى، وكان قد حقق ربحًا قدره مائتي دولار، بينما خسر التاجر الذي باعه البضائع ذات المبلغ نظرًا لما كان فيه من حاجة ماسة إلى المال.

كان السيد جونس قد هنا نفسه بعد ذلك بهذه العبارة:

"هذا هو الأمر الذي يستحق الاهتمام!... أتمنى لو تتكرر مثل هذه الصفقة عشر مرات قبل نهاية اليوم بدلًا من أن أذهب لزيارة تلك الأرملة." سوف نرى الآن ما الذي حدث بعد ذلك.

كان السيد سميث بعد مغادرته متجر زميله قد توجه إلى الفندق الذي علم بأن السيدة لويد تُقيم فيه وسأل عنها. بعد وقت قصير دخلت إلى قاعة استقبال الفندق

سيدة بثياب الحداد وبرفقتها ابنتيها، إحداهما فتاة جميلة جدًا لا تتجاوز العشرين من العمر، أما الأخرى فكانت في حوالي الإثني عشر عامًا من عمرها. قال السيد سميث: "السيدة لويد على ما أعتقد!" انحنى له السيدة بتهذيب، بعد أن جلس الجميع قال السيد سميث: "أدعى سميث. كنتُ على صلة وثيقة بزوجك عندما كنتم تقيمون في هذه المدينة. اسمحي لي بأن أقدم لك أحرّ التعازي وأن أعرب لك عن تعاطفي مع الألم الذي عانيتَه بفقدانه."

تلا ذلك فترة تردّد، استأنف السيد سميث حديثه بالقول: "عندما علمتُ بعودتك إلى هذه المدينة، وجدتُ أن عليّ أن أزورك؛ لكي أعبر لك عن استعدادي لتقديم أية خدمات قد تحتاجينها. فإن كانت لديك أية مشاريع بالنسبة للمستقبل، وإن كنت بحاجة إلى المشورة أرجو ألا ترددي في طلب ذلك مني بكل حرية، ذلك لأن احترامي لذكرى زوجك وتقديري الرفيع له يجعلني أحرص على راحة وسعادة أرملة وأولاده."

لم تكن في نيّة السيد سميث، عندما قدّم لزيارة تلك الأرملة، أن يعرض مثل هذا العرض السخيّ لتقديم الخدمات، ولكن كان هناك في سيّماء تلك السيدة الرقيقة ما أوحى له بأنها تتمتع بالاستقلالية والعزم، وبذلك لن يكون عليه أن يخشى من استغلالها لكرم أخلاقه وطيبته.

كانت السيدة قد تأثرت بذلك العرض غير المتوقع ما جعلها تستغرق بعض الوقت للسيطرة على مشاعرها ثم أجابت:

"أشكرك سيدي باسم زوجي الراحل على هذا العرض الكريم غير المتوقع. في الواقع أنا أجد نفسي غريبة بعض الشيء عن هذه المدينة رغم أنني كنتُ قد عشتُ فيها في السابق لسنوات. كنتُ يوم أمس قد سألتُ عن السيد دوار هانتر، وهو أحد الأصدقاء القدامى المقربين لزوجي، وقد تأملتُ وأسفتُ جدًا عندما علمتُ بأنه توفي." "نعم سيدتي، توفي السيد هانتر بالفعل، ومنذ حوالي الشهرين."

"كنتُ أنوي استشارته حول الطريقة التي سأصرف بها في المستقبل، لكن وفاته جعلتني أشعر بأنه لم يعد لديّ في هذه المدينة من بإمكانني اللجوء إليه لكي أحصل على المشورة حول ما عليّ أن أفعله."

قال السيد سميث بلطف: "كان السيد هانتر رجلاً نبيلًا شريفًا، وقد حزنًا جميعًا لفقده. لكن هناك آخرون في هذه المدينة من لديهم الاستعداد للاستجابة للمطالب الإنسانية، هناك آخرون مثله ممن يفكرون بالآخرين وبمساعدهم." استأنفت السيدة لويد بالقول:

"في الواقع كان الهدف من عودتي إلى هذه المدينة هو افتتاح مشروع تجاري مأمون ومعتدل الربح. كنتُ قبل وفاة زوجي بوقت قصير، قد ورثت عن طريق قريب بعيد، قطعة أرض صغيرة في نيو أورلينز، وقد قمتُ مؤخرًا ببيعها، عملاً بنصيحة وكيل أعماله هناك، لكي أستثمر قيمتها بشراء خمسين سهمًا في شركة ريفرلاند للسكك الحديدية. وقد تم إعلامي بأنه بإمكانني بيعها هنا ببعض الربح. هذه الأسهم الآن بيد سمسار يُدعى بيركنز وقد فوّضته ببيعها بواحد وثمانين دولارًا للسهم الواحد."

قال السيد سميث: "لن يجد صعوبة في ذلك سيدتي كنتُ سأشتريها منك بخمسة وثمانين دولارًا."

وعندما كان الحديث قد وصل إلى هذه النقطة بالذات، كان السيد بيركنز قد دخل إلى قاعة استقبال الفندق وقال:

"أهذا أنت هنا سيد سميث، مررتُ بمتجرك هذا الصباح لكنني لم أجدك هناك مع الأسف. كان لديّ خمسون سهمًا من أسهم شركة ريفرلاند باسم السيدة لويد وقد اعتقدتُ بأنك قد ترغب بشرائها."

"لم تكن مُخطئًا في اعتقادك، ولكن هل بعتَ الأسهم؟"

"نعم. كنتُ عندما لم أجدك في متجرك قد شاهدتُ السيد جونز الذي اشتراها مني على الفور."

"بأي ثمن؟"

"واحد وثمانين دولارًا. لديّ هنا شيكًا مؤجلًا لستين يومًا بالمبلغ، وهو أمر جيد جدًا كما تعلم. لستُ أعتقد أن على السيدة لويد أن تتردد في قبول مثل هذا العرض إن كانت بحاجة إلى المال وبإمكاني أن أمنحها المبلغ نقدًا على الفور." نهض وأضاف: "سأتركك الآن سيدة لويد. الأمر يستحق منك الاهتمام وسوف يسرني المرور بك في صباح الغد."

كان السيد سميث عندما استأذن للمغادرة قد لاحظ على وجه الابنة الأكبر سنًا ابتسامة حياء تنم عن الامتنان عبّرت عنه بنظرة ظلت في ذهنه لساعات. وعندما عاد إلى متجره بعد بضع ساعات استقبله صديقه السيد جونز بعبارات: "أعتقد أن الأمر لم يكن يستحق منك العناء."

قال الأخير: "ما الذي تُشير إليه؟"

"كنتُ أقصد الإشارة إلى زيارتك للأرملة السيدة لويد."

"لِمَ تقول هذا؟"

"لأنك خسرتَ بغيابك عن المتجر صفقة كانت بين يديك، وقد حصلتُ عليها وبإمكاني أن أحقق بها ربحًا قدره مائة دولار." وما هي تلك الصفقة؟

"كان لدى السمسار بيركنز خمسون سهمًا من أسهم مؤسسة ريفرلاند للسكك الحديدية كُلف ببيعها بواحد وثمانين دولارًا، وكان قد مرّ بك قبل مروره بي، ولم يجدك في مكتبك؛ لذا عرضها عليّ وبذلك حصلتُ عليها. ألم أقل لك بأن زيارتك للسيدة ريفرلاند لا تستحق العناء وبأنها لن تعود عليك بأية فائدة يا صديقي." أجاب السيد سميث: "كانت لزيارتي فائدتها مع ذلك ولكن ليس حسب توقعاتك." هل كانت كذلك؟

"نعم"

"ومن أية ناحية."

لكن السيد سميث لم يكن على استعداد للكشف عما في جعبته، وبذلك تهرب من الإجابة بشكل مباشر على السؤال، كان يعلم بأن جاره العديم الرحمة قد يُسيء

التصرف لو تفوّه بأية كلمة تُعبّر عن سروره بتلك الزيارة وعما فعله أو لو أنه تطرّق إلى وصف شعور الامتنان الذي لقيه من الأرملة وابنتها... نعم، كانت لتلك الزيارة فائدتها لكنه وعلى كافة الأحوال لن يطلع زميله التاجر على ذلك...

بعد مرور ثلاثة أيام، وبينما كان السيد جونس في مكتبه مستغرقاً بحسابات الربح والخسارة ما جعله لا يشعر بدخول السمسار بيركنز الذي حصل بواسطته على أسهم السيدة لويد إلى المتجر. سأله السمسار على الفور بطريقة جعلت السيد جونس يشعر بالخوف:

"ما هو عدد ما لديك من أسهم شركة كليفلاند؟"

كانت إجابته السريعة: "مائة سهم. ولكن لمّ تسأل عن ذلك؟"

"عليّ أن أعذر لأن الربح المتوقع عليها لم يعد اليوم كما اعتقدنا."

حدّق به السيد جونس وقد شحب وجهه وبدأ يرتجف وهتف: "ماذا؟"

قال السمسار: "يقولون أن هناك ما هو خطأ في أعمال الشركة، وقد انخفض سعر السهم إلى أقل من خمس وثلاثين دولارًا. لو أردت معرفة رأيي فإن من الأفضل لك أن تبيع هذه الأسهم. فأنا أرى - استنادًا إلى خبرتي الشخصية - بأن الخسارة الأولى أفضل مما قد يليها من خسائر."

كان من الجليّ أن الصفقة خسرت وبكل ما فيها من أحلام ذهبية بتحقيق الربح. وهي الصفقة التي لم تكن ستؤثر على السيد جونس لو أنه عمل بنصيحة صديقه السيد سميث ورافقه لزيارة السيدة لويد... وبذلك كانت الأسهم الخمسين التي اعتقد بأنه حصل عليها بضربة حظ سوف تصبح على الأغلب ملكًا لشخص آخر. ولم يكن قد مرّ على ذلك أسبوع إلى أن أدرك السيد جونس بأن أعماله قد تعرضت أيضًا للخسارة في صفقة أخرى. كانت شاحنة بحمولة من القهوة والسكر قد وصلت إلى المدينة ذات صباح، وكان السيد جونس متأكدًا من أنه سوف يحصل على حمولتها، لكنه لم يكن قد علم بما جرى إلى أن قابل قبطان السفينة في الشارع. هتف السيد جونس وهو يصافح القبطان بحرارة:

"كابتن جاكسون! كيف حالك؟ لم أكن أتوقع أن أحظى بسرور مقابلتك اليوم." لكن لم تكن علامات السرور قد بدت على القبطان بلقائه السيد جونس. وإنما كان قد صافحه ببرود وقابل ترحيبه بابتسامة فاترة.

سأله السيد جونس: "متى وصلت؟"

"هذا الصباح."

"حقًا! لَمْ يَمْ يَمْ يتم إعلامي بذلك. كنتُ بانتظار قدومك منذ أسبوع."

وكان كل ما فعله القبطان أن التزم الصمت.

سأله السيد جونس: "ألن تمر بمكتبي بعد ظهر اليوم؟"

"لستُ أعتقد ذلك..."

تلا ذلك فترة صمت شعر خلالها السيد جونس بالإحراج ثم قال:

"ألا تنوي بيعي حمولة سفينتك؟"

أجاب القبطان على الفور وبكل صرامة:

"لا سيدي. أعطيتها اليوم إلى السيد آرمر!"

هتف السيد جونس بدهشة: "هل أعطيتها بالفعل إلى السيد آرمر؟"

قال القبطان: "نعم فهو هو رجل مستقيم جدًّا، أليس كذلك؟"

"أوه... نعم، لستُ أشك بأنه رجل مستقيم، وسوف يعطيك حَقَّك دون شكّ، لكن

لابد من أن أشعر بخيبة الأمل، اعتقدتُ بأنك كنتَ مسرورًا بأسلوب التعامل بيننا في

الصفقة الأخيرة."

قال القبطان جاكسون: "ليس تمامًا سيد جونس، كنتُ حريّفاً وقاسياً معي بعض

الشيء، أو بالأحرى كنتُ متلهفاً لتحصيل أكثر ما بإمكانك من الربح و للاستفادة

من تلك الصفقة دون أية مراعاة لمصلحتي. في الحقيقة كان هذا انطباعي عن

التعامل بيننا كما أنني تأكدتُ أيضاً من ذلك منذ وصولي صباح اليوم."

قال السيد جونس: "هذا اتهام خطير أيها القبطان. عليك أن توضح لي ما قصده

بذلك."

قال القبطان بجديّة: "سيدي، أنا رجل مستقيم كما أنني ممن يتحدثون بكل وضوح وصراحة، الحقيقة وكما قلتُ أعتقد بأنك كنتَ قد استغلّيتني في المرة السابقة. ولكن كنتُ مع ذلك قد قررتُ أن أحاول التعامل معك مرة أخرى لكي أتأكد من تصرفاتك، لكن ما حدث هو أنني عندما كنتُ في طريقي إلى متجرك هذا الصباح، التقيتُ بصديق قديم يعمل هنا وسألتُهُ عن رأيه بك وبمدى صدقك في التعامل وكانت إجابته:

"إنه ممن يستغلّون حاجة الآخرين."

وعندما قلتُ: "لا أعتقد أنه قد يستغلّني لكي يحصل على فائدة مُفرطة. قال لي صديقي:

"عليّ أن أقول - مع كل أسف - بأن فكرتك عن الربح الذي يستحقه التاجر والبائع لا تتناسب مع فكرة السيد جونس عن هذا الأمر."

ثم روى لي كيف كنتُ قد استغلّيت حاجة أرمور للمال في الأسبوع الماضي بأن أخذت منه كمية كبيرة من البضائع بأقل من ثمنها الحقيقي بمائتي دولار وبذلك ذهبتُ بعد ذلك لمقابلة أرمور، وعندما أكّد لي ما حصل، أعطيتُهُ شحنة سفينتي. وسوف يكون بإمكانه بذلك أن يُعوّض خسائره، بما سيحصل عليه من عمولات في الصفقة التي تمت معك، كما سيحصل بالإضافة إلى ذلك على بعض الربح بمئات الدولارات. أنا لا أحب التعامل مع الأشخاص الذين يستغلّون الآخرين. هل اكتفيت بهذا التفسير؟"

قال السيد جونس - وهو ينصرف -: "لا بأس عمتَ صباحًا."

انحنى له القبطان وأجاب: "عمتَ صباحًا". ثم ذهب كلٌّ من الرجلين في طريقه. همهم السيد جونس وهو يصّر على أسنانه - مستخدمًا عبارته الاعتيادية حتى وهو في حالة الخزي التي كان فيها -:

"لم تستحق تلك الصفقة العناء، ولم أحصل على أية فائدة."

في الحقيقة نعم، ليست هناك أية فائدة من مثل هذا النوع من الصفقات، فقد تبدو من النوع الذي يُحقق الربح لكن النتيجة تكون الخسارة... فإن لم يكن ذلك

بخسارة المال فسوف يكون ذلك بخسارة ما يجب أن تكون له قيمة أثنى من جميع ثروات العالم، وهو:

خسارة المرء لاستقامته ولاحترامه لذاته ولاحترام الآخرين له...

و في مساء ذلك اليوم كان هناك في منزل السيد سميث اجتماع بهيج لمجموعة من الأشخاص مؤلفة من السيدة لويد وابنتيها. كانت السيدة لويد بناء على نصيحة السيد سميث وبيع بعض المساعدة من قبله، قد تمكنت من شراء منزل بسعر جيد بمبلغ ثلاثة آلاف دولار، وكان الطابق الأول من المنزل قد خُصص للمتجر الذي كانت السيدة لويد تعتزم افتتاحه لكي تستثمر فيه أموالها.

وكان قد تبين أيضاً من خلال المقابلات التي تمت بين السيد سميث والابنة الأكبر سناً للسيدة لويد، أن هناك الكثير من التوافق بينهما في الطباع انتهى بارتباطهما، كان السيد سميث عندما شاهد ما كانت فيه تلك العائلة من سعادة بعد استقرارها، و بما لمسها منها من شعور بالامتنان، قد شعر بارتياح لم يسبق أن شعر بمثله، وهو شعور رضى الرجل الذي يجد المكسب الحقيقي بمقدار ما يقدمه للآخرين بصفاء نية وغيرية هو شعور النفس مطمئنة.

هل يستحق الأمر العناء؟ هل سيعود عليّ بالفائدة؟ فهذا هو السؤال الذي نسمعه. لكن السؤال الذي لابد أن يطرح نفسه بعد ذلك: "هل كان الأمر قد استحق بالفعل العناء؟..."

أعظم لذة يعرفها الإنسان هو أن يفعل الخير خلصة ويجده يظهر علانية.

انظر إلى الجانب الآخر

قال السيد جونس: "لستُ أميل على الإطلاق للسيد مونتو."
أضافت السيدة لي: "أعتقد بأنه الرجل الأكثر تقلبًا وبأنه أغرب شخص عرفتُه حتى الآن."

قال السيد جونس:

"أهو فقط الرجل الأكثر تقلبًا؟ لا...! بل هو أسوأ من ذلك. قد يكون بإمكان المرء أن يتسامح على تقلب الطباع وأن يعتبر ذلك من العيوب الفطرية الغريبة، لكنه كما قلتُ أسوأ بكثير من شخص مُتقلّب الطباع."

ثم قالت السيدة ميبري:

"أتعلمون ما سمعته عنه الأسبوع الماضي؟"

قال السيد جونس: "ما الذي علمته؟"

وسألت السيدة لي: "ما الذي علمته عنه؟ أعلمينا بذلك."

"أتعرفون السيد باركر؟"

"نعم أعرفه جيدًا"

"هو بالفعل الرجل الأكثر تهذيبًا على وجه الأرض."

"حسنًا، وماذا بشأنه؟"

"كان الأسبوع الماضي في متجر السيد مونتو، وصادف أن قال شيئًا لم يعجب ذلك

الرجل ما جعله يُهينه بكل فظاظة."

"حقًا!..."

"هذا ما حدث. وقد أعلمني السيد باركر نفسه بذلك، كما قال بأنه لم يسبق أن

جرح أحد كرامته بمثل تلك الطريقة."

"وهو الأمر الذي جعله بالطبع يترك العمل في المتجر."

"نعم، كان قد استدار على عقبه وخرج على الفور بسيطًا، وأقسم ألا يدخل متجر

مونتو ثانية."

قالت السيدة لي: "ما أسوأ تلك العادة لدى السيد مونتو، فهو يعتمد دومًا إهانة الآخرين وأنا أعرف عدة أشخاص سبق وأهينوا من قبله."

ثم قال السيد جونز:

"لو كان هذا هو العيب الوحيد لديه لكان الأمر بسيطًا، لكن تصرفه تجاه ذلك الشاب كان قد تعدّى الحدود وهو أمر لا يُغتفر."

قالت السيدة لي: "ما الذي حدث؟ لم أسمع بذلك؟"

"كان قد تولى رعاية فتى يتيم منذ كان طفلًا، ويُقال بأن ذلك الفتى كان مخلصًا له على الدوام، لكن الفتى كان قد أصبح مؤخرًا مُتهوّرًا بعض الشيء نتيجة اختلاطه ببعض رفاق السوء. ومع ذلك فأنا أعتقد بأن مونتو لو كان قد تعامل مع الأمر بصراحة وحلم لما كان ذلك الفتى قد ارتكب الأخطاء، لكن سرعة الغضب ونفاذ الصبر الذي تعامل بهما معه جعلاه يتمادى بسوء تصرفه. كان مونتو قد تعامل معه بأسلوب فظّ بسبب ما ارتكبه من بعض الأخطاء التي لم تكن في الواقع بحاجة سوى لبعض التأنيب اللطيف. وهذا ما جعل طباع ذلك الشاب تُصبح أكثر فأكثر سوءًا، إلى أن تم إيقافه لمخالفته القوانين ولسوء سلوكه..."

وعندما طلب المحامي من مونتو أن يدفع له الغرامة لكي يتم إخلاء سبيله لكان قد رفض ذلك رفضًا قاطعًا، وبذلك رُمي الفتى في السجن لمدة أربعة أشهر ثم أطلق سراحه. وبما أن الفتى كان قد شعر بأنه قد أهين من قبل ربيبه مونتو، فقد التحق بالجيش على الفور من إطلاق سراحه وذهب إلى الهند الشرقية. أليس هذا مُحزنًا؟ لقد دُمّر الفتى بسبب مونتو!"

قالت السيدة ميري:

"أمر مُروّع!... أليس كذلك؟ تخيل أن تتم معاملة ابني أو ابنك بمثل هذه الطريقة القاسية!... لو لم يكن هذا الرجل شيطانًا على شكل إنسان لما كان سيتصرف بهذه الطريقة."

وأضافت السيدة لي:

"سوف يلقي ذات يوم ما يستحقه من جزاء، فأنا أوّمن بأن المرء لابد أن يلقي جزاء ما يفعله. لا يمكن لرجل ارتكب مثل هذه الأمور أن يفلت من العقاب، ستذكرون ذات يوم ما أقوله الآن، سوف يندم مونتو حتمًا على ذلك قبل موته."

"قال السيد جونس: "إنه الرجل الأكثر وضاعة في هذا العالم، وأعتقد بأنه أيضًا ليس على استعداد لأن ينفق دولارًا واحدًا لأجل أعمال البرّ."

استمر الحديث بينهم إلى أن قال شخص آخر لم يكن قد أدلى برأيه سابقًا:

"لكنك قد تكون مُخطئًا في ذلك."

قال السيد جونس - بتصميم -:

"سيد بيري، بودي لو أن بإمكان أحدهم أن يحصي عملاً جيدًا واحدًا قام به السيد مونتو."

قال السيد بيري: "قد يكون بإمكاننا ذلك لو نظرنا إلى الجانب الآخر من طباع الآخرين، ولو فكرنا مليًا قبل تكوين رأينا السلبي عنهم. لو كان بإمكاننا أن ننظر إليهم من الناحية الايجابية كما ننظر إليهم من الناحية السلبية، فقد نجد فيهم ما نمتدحه أكثر مما قد ننتقده..."

سوف أروي لكم الآن ما حدث معي عندما كنتُ صبيًا:

كان والدي قد منحني بنسًا، وكنتُ على وشك أن أشتري به تفاحة كانت تبدو كبيرة شهيةً، لكن شقيقي الأكبر قال لي مُحذّرًا:

"انظر إليها من الجهة الأخرى."

وكنتُ عندما نظرتُ إليها من الجهة الأخرى قد وجدتُ بأنها كانت بالفعل فاسدة. وبذلك فأنا حتى عندما أصبحتُ رجلًا أتذكر دومًا الدرس الذي لقّنه لي شقيقي؛ لذا قررتُ بأن عليّ ألا أُخدع بالمظاهر الخارجية الكاذبة، وأن أكون حذرًا يقظًا وبأن أنظر دومًا إلى الجانب الآخر لكي أكتشف ما قد يكون فيه من عيوب، وقد رأيتُ طوال حياتي ما يكفي لإثبات صحة هذه النظرية حتى لدى أفضل الرجال ما جعلني أشمئز من جميع البشر، لكنني بعد عدّة سنوات تمكنتُ من تغيير عاداتي في مراقبة الناس، وبدأتُ أنظر إليهم دومًا من الجانب الآخر وأحاول معرفة الجانب

الجيد فيهم. نعم، وقد دُهِشْتُ وسعدتُ لتلك النتيجة؛ لأنني استطعتُ بذلك أن أكتشف الكثير من الخير في البشر وبأكثر مما توقعتُ، فحتى الأسوأ من بينهم كانت لديه بعض الصفات الحميدة التعويضية."

قال السيد لي: "لكنك لن تجد الكثير منها لدى السيد مونتو."

سأله السيد بيرى: "هل تُشاهد الرجل الذي يمرّ الآن في الجهة الأخرى من الشارع؟" "من؟ أهو ميلر؟"

"نعم، هذا هو من قصدت الإشارة إليه، سوف أستدعيه إن لم يكن لديكم أي اعتراض لكي أوجه إليه سؤالاً أو سؤالين. أعتقد أن بإمكانه أن يزودنا ببعض المعلومات عن الموضوع الذي نتحدث عنه."

وبذلك كان قد تم استدعاء الرجل إلى متجر السيد جونز الذي كان ذلك النقاش يدور فيه.

قال بيرى: "عِمتَ صباحاً سيد ميلر؟ كيف حالك اليوم؟"

"عِمتَ صباحاً سيد بيرى! يبدو أن لديك هنا شبه احتفال، هم جميعاً من الأصدقاء كما أرى..."

"كنا قد تقابلنا سابقاً على ما أذكر. كيف تسير الأمور معك الآن؟ علمتُ بأنك كنتَ قد مررتَ بالكثير من الصعوبات."

"نعم، ولكن شكراً لله! لقد خرجتُ منها سليماً."

"هذا أمر يستحق تهنئتك عليه بالتأكيد، لا بأس فنحن نحن جميعاً نتعرّض في مسيرة حياتنا إلى بعض المشكلات."

"نعم بالفعل، قد تُعاكسنا الظروف أحياناً بشكل قاسٍ، لكن ذلك يجعلنا بذات الوقت نمتحن أصدقاءنا. كان الأمر هكذا بالنسبة إليّ. كنتُ أعتقد بأن لديّ العديد من الأصدقاء إلى أن تعرّضت لتلك المشكلات، لكن القليل منهم كان من وقف إلى جانبي عندما كنتُ في أمس الحاجة لمساندتهم."

"لكنك مع ذلك كنتَ قد قابلتَ بعض الأصدقاء الحقيقيين؟"

"نعم، كانوا بالفعل من الأصدقاء الحقيقيين."

"تمامًا، أيضًا بأنهم كانوا ممن ليست لديهم أية مصالح شخصية، وممن لم يكن لك عليهم أية حقوق."

"تمامًا، كان الأمر هكذا بالنسبة إليّ ومع شخص مُحدد. وسوف أروي لكم ما حدث معي:

ما حدث أنني كنتُ بسبب الأخطاء التي ارتكبتها - وهو الأمر الذي جعل أعمالي التجارية تتراجع وما جعل الديون تراكم عليّ - كنتُ قد ضحيْتُ بعرض القليل مما أملكه للبيع، لكنه لم يكن كافيًا لتغطية ديوني ولسدّ احتياجاتي، كما كنتُ أملًا بالنجاة من تلك المحنة؛ لذا انتقلتُ من المتجر الفخم الذي كنتُ أشغله إلى متجر بنصف القيمة الإيجارية؛ لكي أقتصد في المصروفات في كل من مجال العمل وفي المصروفات العائلية أيضًا، لكنني رغم ما بذلته من الكثير من الجهد لم أتمكن من سداد ما عليّ من ديون ومن تغطية احتياجاتي العائلية.

كنتُ أمضي نصف اليوم في الشارع وأنا أقوم ببعض العمليات التجارية العَرَضية للحصول على بعض المال، إلى أن أرهقتُ إلى درجة الموت وأنا في سعي اليومي لتجنب الإفلاس.

وكنتُ وأنا في ذلك الموقف المحزن أحاول الحصول على بعض المساعدة من الأصدقاء الذين تتوفر جميع الإمكانيات المادية لمساعدتي وهو أمر كنتُ أعرفه جيدًا، لكنهم جميعًا أبدوا خشيَتهم من المجازفة بإقراضي أي مبلغ من المال...

كنتُ ذات يوم قد خرجتُ للعمل من التاسعة صباحًا حتى الساعة الثانية وأنا أبذل أقصى ما بإمكانني للحصول على ما يكفي من مال أسدّد به ما عليّ من ديون، فقد كان عليّ أن أسدّد ألف دولار في ذات اليوم، ولم يكن لديّ سوى خمسمائة دولار. قصدتُ كل شخص يمكن أن أقترض منه المال ولكن لم يقبل أحد مساعدتي. كنتُ مُحَبَطًا ومُتَوَجِّسًا من ذلك الوضع المحفوف بالمخاطر التي تواجهني. عدتُ إلى متجري لكي أختلي بنفسي وأحاول التفكير بما عليّ أن أفعله. فكرتُ مُجددًا باللجوء إلى من أعرفهم في مجال عملي ولم يكن هناك من لم أكن قد قصدته؛ لذا فكرتُ بأن أطلب قرضًا بفائدة. كانت الأمور سيئة جدًّا، وكان الوقت يمرّ ولم يكن ذلك في

صالحي. كان عليّ أن أفعل شيئاً، وأن أجد أية طريقة لتأمين الخمسمائة دولار وإلا فسوف يتم إعلان إفلاسي وسوف تصبح صفحتي سوداء في عالم الأعمال خلال أقل من الساعة...

فكرتُ وفكرتُ إلى أن كدتُ أفقد صوابي. ثم خطر ببالي أن ألجأ إلى رجل لم أكن قد أحببته يوماً. كنتُ أعرف ذلك الرجل معرفة بسيطة لكنني كنتُ أميل لأن أفترض بأن لديه الإمكانية لإقراضي ما أحταجه من مال. لم أكن في بداية الأمر قد تقبّلتُ فكرة اللجوء إليه، لكن الأمور كانت في غاية الخطورة وبذلك قررتُ أخيراً الذهاب لمقابلته وأنا أحدث نفسي:

"سوف أحاول، لكنه لابد أن يرفض طلبي."

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية أي أن ساعات العمل كانت قد انتهت، كنت عندما قابلته أمام مكتبه قد قلتُ له على نحو مفاجئ:

"أنا أعلم بأن الساعة تجاوزت الثانية لكنني بحاجة إلى خمسمائة دولار فهل بإمكانك أن تقرضني هذا المبلغ لبضعة أيام؟"

كنتُ أتوقع بالطبع أن يرفض ذلك لكنه، لشدة دهشتي قال على الفور:

"بإمكاني أن أفعل ذلك بالطبع وبكل سرور."

لم أكد أصدق ما سمعته لكنه ناولني على الفور شيكاً بالمبلغ الذي طلبته. لستُ أذكر فيما إذا كنتُ قد وقفتُ لكي أشكره لكثرة ما كنتُ فيه من بهجة ولكثرة ما شعرتُ به من راحة ومن فرج.

ثم كنتُ بعد مرور ثلاثة أيام قد ذهبتُ إليه من جديد لكي أعيد إليه المبلغ الذي اقترضته. لكنه قال لي:

"بإمكانك الاحتفاظ به لمدة أطول إن رغبتَ بذلك، فلستُ بحاجة إليه في الوقت الحاضر."

لم أكن أعلم فيما إذا كان بإمكانني أن أثق بما قاله، لكن الحاجة لها مبرراتها؛ لذا أجبتُه:

"إن كان بإمكانك بالفعل أن تستغني عن المبلغ لفترة أطول فسوف يكون ذلك مفيداً جداً لي؛ لأن عليّ الكثير من الدفعات خلال الأيام العشرة المقبلة." قال لي بلطف: "على الرحب والسعة، بإمكانك الاحتفاظ به بقدر ما تشاء..." وكان بعد قليل قد بدأ يستفسر مني عن سير الأمور وعن سبب ما حدث معي، لكنه كان قد فعل ذلك بكل لطف واهتمام ما جعلني أروي له كل ما أتعرض إليه من مشكلات في أعمالي...

وكان بعد أن أصغى إلي بكل اهتمام قد طرح عليّ بعض الأسئلة عن طبيعة وعن أرباح أعمالي، ولم أكن قد أخفيت عنه أي شيء يتعلق بسير الأمور في أعمالي، ثم قال لي: "سيد ميلير! أنت الآن بالفعل بحاجة إلى المساعدة. لديّ بضعة آلاف من الدولارات في المصرف وهي حالياً غير مستثمرة، بإمكانني أن أمنحك المبلغ الذي تحتاجه لكي تُسدّد به ما عليك من ديون. لن يكون عليك بعد الآن أن تقترض المزيد من المال بالفائدة، ولا أن تُضيع وقتك بأعمال عَرَضِيَّة للبحث عن الموارد. كل ما عليك الآن أن تُركّز اهتمامك وجهودك على أعمالك وسوف تجد بأنك خلال بضعة أشهر سوف تتحرّر من جميع ما لديك من مشكلات... وكان ذلك الرجل على حقّ!" قال السيد جونز: "لابد أنه رجل نبيل جداً، ومن المؤسف ألا يكون هناك الكثيرون ممن هم مثله."

وقالت السيدة مييري: "الأمر بالفعل كذلك، لابدّ أن هذا الرجل ينتمي إلى فئة أخرى من البشر وليس مثل مونتو."

سألها ميلير: "من تقصدين بذلك؟"

قال السيد مييري: "كنا قبل مجيئك نتحدث عن مونتو، وكان لأصدقائنا رأي سيء عنه."

"ماذا؟ أكان لكم رأي سيء عن السيد مونتو؟ حقاً؟ لكنه الرجل الذي كنتُ أحدثكم عنه."

قالت السيدة لي بارتباك: "أكنتُ تتحدث عن السيد مونتو؟" بالتأكيد فهو الشخص الذي ساعدني بمثل تلك الشهامة.

وقالت السيدة مييري: "هذا مستحيل!"

"لا، أبداً، بل هذا هو الواقع. لم أكن قد أخطأتُ بحق شخص كما أخطأتُ بحق السيد مونتو. صحيح أن لديه عيوبه وأغلاطه كما أن لدى كل منا عيوبه، وبأنه ربما كان سريع الغضب وضيق الصدر، وهذا ما يتسبب بأن يكون له الكثير من الأعداء."

قالت السيدة مييري:

"من الواضح أنه كان طيباً جداً معك. لكنني مع ذلك لا أثق به كثيراً. انظر إلى الطريقة التي تعامل بها مع ذلك الشاب الذي كان قد تولى رعايته منذ كان طفلاً. هذه هي طباعه الحقيقية، وهذا ما يُثبت بأنه من النوع القاسي الحقود." قال السيد بيري: "لكن لا بد أن هناك جانب آخر في تلك القصة دون أي شك." قال السيد ميلير: "هذا هو الأمر؛ لذا علينا أن ننظر إلى الأمر من الجانب الآخر. كان مونتو يعرف ذلك الشاب أكثر بكثير مما نعرفه أنا وأنت أو أيّ منا، وكان قد احتمل طباعه غير السويّة وتصرفه السيئ لسنوات كما لو أنه أحد أولاده، وأكثر مما يمكن لأي شخص أن يحتمل ذلك."

قال السيد جونس: "كانت له دون شكّ طريقته الخاصة في الاحتمال فليس بإمكانه أن يحتمل أحد."

قال ميلير: "هل ستحكمون على الشخص بالاستناد إلى ما ليس بإمكانه أن يمتنع عنه."

"لست أدري لمَ ليس علينا أن نفعل ذلك."

"من الواضح أنه ليس علينا أن نفعل ذلك؛ لأن ما نطلبه سوف يكون من المستحيل. السيد مونتو، كما نعرفه جميعاً من النوع السريع الانفعال. فهل أخذتم ذلك بعين الاعتبار؟ كان قد تبني ذلك الفتى مذ كان طفلاً وتولى تدريسه وتدريبه على مهنة التجارة، لكن الفتى عندما نشأ كان قد بدأ يستغل الثقة التي أولاها له الشخص الذي أحسن إليه، وبدأ يُهمل عمله ويرافق أصدقاء السوء ثم بدأ بسرقة أمواله..."

كان مونتو يحتمله على أمل أن يتغير. لكنه أصبح أسوأ فأسوأ إلى تم أخيراً - وبعد عدة اختلاسات - الحكم عليه بالسجن .

كنتُ بالصدفة في متجر مونتو عندما جاء إليه المحامي لكي يطلب منه دفع الغرامة والكفالة لأجل ذلك الفتى. وكان قد قال لذلك المحامي:

"لن أفعل ذلك، فمن الأفضل له بكثير أن يكون في السجن من أن يكون خارج السجن."

وكان مونتو عندما غادر المحامي قد التفت إليّ وقال:

"سيد ميلير، أنا الآن أتألم جداً لرفض دفع الكفالة وأكثر مما كنتُ قد تألمتُ طوال حياتي، ومع ذلك فسوف أكون قد أخطأتُ بحقه لو دفعتُ له الكفالة؛ لأن العتاب اللطيف والتأنيب القاسي والتعنيف الغاضب لم يُفلحاً معه؛ لذا سوف أتركه الآن يلقي جزاء أفعاله على أمل أن تكون النتائج مفيدة، ولو فشل ذلك في إصلاحه فلن يكون هناك أي أمل آخر بالنسبة إليه..."

كان الأمر قد تم بذلك الشكل. لم يكن مونتو قد حضر المحاكمة لكنه أرسل من يُعلمه بالإجراءات التي تمت. كما كان قد شعر بالكثير من السعادة عندما تم إخلاء سبيل الفتى وتوقع أن يعود الشاب للعيش معه وبأن يكون قد تغير وندم وتاب، لكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة وحزن جداً عندما علم بتطوّعه في الجيش وقد آلمه ذلك جداً...

ولو كان ذلك الفتى قد ندم على سلوكه لكان الحكم على مونتو خاطئاً. كان مونتو يريد له الخير ولستُ أعتقد بأنه أخطأ بحق ذلك الشاب فهو لا يصلح إلا لمثل العمل الذي يشغله الآن وبذلك كان هذا من الأفضل له."

عندما توقف ميلير عن التحدث قال السيد بير:

"أترون؟ هذا هو الأمر وهذا ما نكتشفه عندما ننظر إلى الجانب الآخر في الأشخاص."

قال السيد ميلير: "هذا هو الواقع. نعم، هناك دوماً جانب جيّد في كل شخص... هناك دوماً جانب آخر..."

علينا أن ننظر دومًا إلى الجانب الجيد لدى الأشخاص، بدلًا من أن ننظر فقط إلى الجانب السيئ فيهم؛ لكي نكون بذلك قد فكرنا بالبشر بأكثر من إيجابية...

السيطرة على النفس

كنتُ ذات صباح قد جلستُ في غرفتي وأنا في حالة من التوتر الشديد لعدة أمور، وإذا بالطفلة اليتيمة التي كنت أتولى رعايتها في منزلي تقتحم عليّ الغرفة، وبيدها كأسًا مُحطمة، وتقول - وقد شحب وجهها الطفولي وارتجفت شفاتها -: "سيدة غراهام! انظري ما حدث معي، كنتُ قد ذهبتُ لجلب كأسٍ من الماء لأجل أنا لكن الكأس سقطت من يدي وتحطمت، أنا آسفة لذلك."

وبما أنني كنتُ حتى قبل مجيء تلك الطفلة في مزاج نكد جدًّا، فقد جعلني ظهورها وهي تحمل بيدها تلك الكأس المُحطمة أزداد توترًا. كانت الطفلة حزينة جدًّا لتحطم الكأس، ولابدَّ أنها كانت بحاجة إلى أن تسمع مني بضع كلمات طيبة تُهدئ من روعها لكنها مع الأسف كانت قد أتت إليّ في الوقت غير المناسب.

كنتُ قد قلتُ لها بصرامة - وأنا أتناول من بين يديها المرتجفتين قطع الزجاج المُحطم -:

"أنت فتاة مُهملة جدًّا!... لست سوى فتاة صغيرة طائشة ومهملة وأنا مُستاءة منك جدًّا!..."

لم أكن قد تفوهتُ بأكثر من ذلك، لكن ملامح وجهي كانت تحمل تعنيفًا أشدَّ مما عبّرتُ عنه تلك الكلمات. وقفت الطفلة إلى جانبي لبعض الوقت، ثم أسرعَت بالخروج من الغرفة.

كنتُ بعد لحظات قد شعرتُ بالأسف؛ لأنني سمحتُ لنفسي بالتحدث بمثل ذلك الأسلوب القاسي مع تلك الطفلة البائسة، فلم يكن هناك ما يستدعي ذلك. أدركتُ بأن كلماتي كان لها تأثيرًا كبيرًا في نفسها، وبأنني تسببتُ بالتعاسة لتلك الطفلة دون أي سبب وجيه؛ لأن تحطُّم الكأس أمر يمكن أن يحدث مع أي شخص؛ لذا لم يكن هناك ما يستدعي تعبيرتي عن كل ذلك الاستياء...

الحقيقة أنني كنت أشعر بالتعاسة قبل دخول جين إلى الغرفة وكان تصر في تجاهها قد جعلني أكثر تعاسة... أخذتُ ألوم نفسي وشعرتُ بالحزن لأجل الطفلة لكن ذلك لم يكن من شأنه أن يُصلح ما حدث.

كانت جين بعد وقت قصير قد دخلت إلى الغرفة بسرعة تحمل بين يديها ويلى طفلي الصغير ذا الوجه الملائكي. كان طفلي نائمًا وكانت جين مع ذلك قد حملته وصعدت به السلالم بكل ما لديها من عزم.

لم تكن جين قد رفعت نظرها إليّ وإنما كانت قد توجهت بحملها على الفور نحو السرير. وضعت الطفل فيه بكل عناية وحنان، ثم جلست إلى جانب السرير وقد أشاحت بوجهها عني وأخذت تذري بالمرحة لكي تطرد الذباب عن وجه الطفل ولكي تُرطب بشرته الناعمة.

كان في ملامح وجه جين ما يكفي لأن يجعلني أدرك بأنها في غاية الحزن والأسى، وبأنني كنتُ من تسبّب بذلك بتلك الكلمات القاسية التي تفوّهتُ بها والتي جعلت سحابة الحزن تلك تبدو على وجهها الطفولي!...

حدثتُ نفسي: "لقد حدث ذلك لأنني تركتُ لنفسي العنان للاستسلام لمزاجي النكد المُشاكس. عليّ أن أحرص في المستقبل على ألا تُؤدي حالتي النفسية إلى توجيه تصرفاتي تجاه الآخرين، فليس من حقي أن أجعل الآخرين يعانون من سوء حالتي النفسية."

ظلتُ جين جالسة إلى جانب ويلى تذري بالمروحة، وكانت تصل إلى مسامعي من وقت لآخر صوت تنهيدة خافتة تنطلق من أعماق صدر تلك الصغيرة رغمًا عنها، وعلى الرغم من أنها كانت تحاول إخفاءها وكان ذلك ما أصابني في أعماق قلبي. وإحدى الصديقات قد جاءت لزيارتي بعد وقت قصير. ذهبتُ لاستقبالها في الردهة وأمضيتُ بعض الوقت بصحبتها، لكنني كنتُ طوال الوقت أشعر بثقل على قلبي. حاولتُ جاهدة أن أكون مرحة، لكنني كنتُ بكل وضوح أشعر بالأسف من أن تكون الآن هناك إنسانة... طفلة يتيمة الأبوين، تُعاني بسبب قسوتي نحوها، وكان ضميري يُعذّبني ويُلقِي بثقل المعاناة على روحي.

بعد أن غادرت صديقتي كنتُ قد حدثتُ نفسي، وأنا أحاول أن ألقى وراء ظهري ذلك الشعور بالقلق:

"كان هذا كله نتيجة ضعفي وعدم سيطرتي على نفسي."

لم يكن الحديث الذي دار بيني وبين صديقتي قد أفلح في تغيير وضعي النفسي، وكانت صورة الوجه البائس الحزين للصغيرة جين لا تزال أمام عيني تعذبني وتجعلني أشعر بالأسف.

فكرتُ بأن كل ما عليّ أن أفعله كي أشعر بالراحة ولكي تشعر جين أيضاً بالراحة، هو أن أقول لتلك الصغيرة بأن تلك الكأس لا قيمة لها وأن تحطمها ليس بالأمر الهام. لكن ذلك كان من شأنه أن يجعلني أعترف بأنني أخطأتُ بحقها وبأنني تصرفتُ تجاهها بشكل سيء؛ لذا جعلني اعتزازي بنفسي وكبريائي أقلع عن ذلك. تنهدتُ: "يا إلهي!... لِمَ سمحتُ لنفسي بالتصرف بتلك الطريقة الفظة غير المسؤولة؟... كم قد يكون السبب في تحطيم سكينه نفوسنا واهياً ودون أهمية! كم قد يكون لكلمة واحدة نتفوه بها من تأثير سيء أو جيد على نفوس الآخرين!..."

وتذكرتُ حينئذُ بأنني عندما كنتُ طفلة كنتُ قد تعرّضتُ ممن كنتُ أرغب بنيل رضاهم إلى اللوم بمثل تلك الطريقة القاسية، وبأن ذلك قد جعلني أشعر حينذاك بأن للكلمات في بعض الأحيان وقعٌ أكثر إيلاماً حتى من الصفعات... وكان هذا ما جعلني أتفهّم أكثر فأكثر شعور تلك الطفلة وأتعاطف معها إلى حدّ كبير..

كانت جين طوال ذلك اليوم تتحرك في المنزل بسكون أكثر من المعتاد، وعندما كنتُ أتحدث إليها حول أمر ما، وهذا ما كنتُ أفعله بلهجة رقيقة بأكثر من المعتاد، كانت تنظر إلي وجهي بنوع من الجدّة ما جعلني أخجل من نفسي.

كنتُ مساءً ذلك اليوم قد طلبتُ من جين أن تجلب لي إبريقاً من الماء مع كأس على صينية. وكانت جين قد ذهبت وعادت إلي وهي تحمل الصينية، كانت تبذل جهداً أكثر من المعتاد في الحرص على ألا تسقط من بين يديها، لكن قدّمتها كانت قد تعثرت بشيء على الأرض. حاولت جين جاهدة أن تمنع سقوط الصينية لكنها فقدت

توازنها وسقطت على الأرض وبذلك تحطم الإبريق والكأس وانسكبت المياه على ثوبي.

كان وجه الطفلة البائسة قد شَحِبَ إلى حدٍّ كبير، وكانت قد أَلَقَتْ إليّ نظرة فزع لن أنساها ما حييت، وحاولت أن تتكلم لكنها عجزت عن النطق بأية كلمة. أما بالنسبة إليّ فكان الدرس الذي تلقيتُه صباح ذلك اليوم قد جعلني أشعر بضرورة ضبط أعصابي والسيطرة على نفسي وبذلك قلتُ لها على الفور بصوت هادي جدًا:

"لا بأس جين، أعلم بأن ما حدث كان رغبًا عنك. كان عليّ أن أصلح طرف السجادة الذي تسبب في تعثُّرك. كنتُ أنا أيضًا على وشك التعثر به هذا الصباح. اذهبي الآن وأحضري قطعة من القماش لكي تُجففي بها الماء الذي انسكب وسوف أقوم أنا بجمع قطع الزجاج المحطم."

وكان اللون قد عاد إلى وجه جين، وكانت بعد أن أَلَقَتْ إليّ نظرة عرفان لن أنساها ما حييتُ قد أسرعَت لكي تفعل ما طلبته منها. وكانت عندما عادت جين قد بدأت تلوم نفسها وتعتذر وتُبدي أسفها لِمَا حدث؛ لأنها لم تكن أكثر حذرًا، ثم وعدتني مرّة بعد مرّة بأنها سوف تكون أكثر حذرًا في المستقبل...

كان هناك بالطبع اختلاف كبير بين مشاعري في تلك اللحظة وبين مشاعري في ذلك الصباح. كنتُ قد شعرتُ بسعادة أكبر لأنني تصرفت بإنصاف ولأنني كبحْتُ مشاعري وسيطرتُ على غضبي، وبذلك لم يكن على تلك الطفلة الصغيرة أن تتعرض أكثر من ذلك للمعاناة نتيجة لومي وقسوتي. وقلتُ لنفسي: "هذا أفضل بكثير..."

علينا في هذه الحياة وفي علاقاتنا مع الآخرين أن نحافظ على هدوءنا، وألا نتحدث إليهم بقسوة، كما علينا بشكل خاص، ألا نتعامل بقسوة مع من هم من مرتبة اجتماعية أدنى منا؛ لأن كلمات الغضب من شأنها أن تتسبب بجرح مُضاعف لمشاعرهم، فهي عدا عن أنها تجرحهم لابد أن تترك وراءها لسعة وألمًا أكثر من أي شيء آخر...

علينا أن نحترس من المزاج المتقلب، وألا نترك المجال لما يُغيظنا للتحكم بمشاعرنا،
وبألا نسمح لأنفسنا بالاستسلام للغضب فقد لا يكون من السهل علينا بعد ذلك
أن نُصلح ما أفسدناه بسوء تصرفنا...

علاج الشعور بالإحباط

كنتُ ذات يوم لسبب من الأسباب - ربما كان ذلك لسبب واضح أو لسبب مبهم - أشعر بالكثير من الإحباط. كان كل شيء من حولي يبدو كئيبيًا. لم يكن بإمكانني أن أبتسم كعادتي ولم يكن بإمكانني أن أتحدث بنبرة صوت تنم عن البهجة والسعادة، وكانت إشراقة ملامح وجهي قد زالت نتيجة طبيعية لذلك الشعور بالإحباط... كان زوجي قد ظلَّ هادئاً فلم يكن لديه الكثير مما يقوله، لكن أولادي كانوا ينظرون إليَّ باستغراب عندما كنتُ أجيب على تساؤلاتهم دون مبالاة، وحتى أن خدمي الذين لاحظوا غرابة مزاجي في ذلك اليوم كانوا يتحركون في المنزل بسكون، وبذلك كانوا عندما يوجهون الحديث إليَّ يفعلون ذلك بلهجة أكثر تحفظاً من المعتاد.

لكن ردة الفعل تلك من كل من حولي كانت قد أدت إلى ازدياد شعوري بالإحباط وبالاكتئاب الذي كان يكتنفني. كنتُ أدرك كل ذلك كما كنتُ أعلم بأن السبب الجوهري لشعوري بالاكتئاب، لكن ذلك السبب لم يكن بحد ذاته كافياً لِمَا كان في تصرفي من غرابة...

كنتُ وأنا في تلك الحالة النفسية أبذل كل ما بإمكانني كي أتمالك نفسي ولكن دون جدوى. كان كل ما كنتُ أفعله هو أنني كنتُ أغرق أكثر فأكثر في تلك الكآبة التي ألقت بظلالها على نفسي وعلى روحي.

عندما عاد زوجي إلى المنزل في موعد العشاء في تلك الليلة، كنتُ قد حاولتُ أن أستقبله بابتسامة لكنني شعرت بأن ابتسامتي كانت باهتة وبأنها لم تدم طويلاً. نظر إليَّ زوجي بقلق، ثم سألني بأسلوبه اللطيف فيما إذا كنتُ أشعر بأنني بوضع أفضل، وكان يتظاهر بأنه يعتقد بأن علاجي يكمن في جسدي وليس في روحي وفي نفسي...

كنتُ بالكاد قد أجبتُهُ رغم أن كان بإمكانني أن أدرك بأن إجابتي المُقتضبة قد جرحته شعوره، وهذا ما جعلني أشعر بالمزيد من البؤس...

هل كان بإمكانني أن أنسحب إلى غرفتي وأن اترك لقلبي المجال - وأنا بمفردي - للتنفيس عن كآبتي بأن أسكب فيضاً من الدموع، لو كان في ذلك من شأنه أن يمحني السكينة؟ ... لكن لا... لم يكن بإمكانني أن أفعل ذلك...

وبينما كنتُ جالسة أمام المائدة وأنا أرغم نفسي على ابتلاع الطعام لمجرد التظاهر بأنني أتناول العشاء مع أفراد عائلتي قال لي زوجي:

"هل تذكرين إدوار ذلك الشاب اللطيف الذي كان يعمل في متجرنا منذ مدة؟"

أومأت برأسي فقط فلم يكن السؤال قد أثار في نفسي أقل اهتمام.

قال زوجي من جديد:

"لم يظهر هذا الشاب في المتجر منذ عدة أيام، وقد أرسلتُ صباح اليوم من يستفسر عن وضعه وكان أن أعلمتني والدته بأنه مريض جداً..."

كان ردّة فعلي الوحيدة بأن قلتُ بلا مبالاة:

"حقاً، أهذا صحيح؟"

لو كنتُ قد عبّرتُ عما في يجول في ذهني لكنتُ قلتُ:

"أشعر بالأسف لأجله."

لكن لم يكن بإمكانني أن أفعل ذلك، كما لم أكن في تلك اللحظة قد شعرتُ بأقل اهتمام بذلك الفتى.

أضاف زوجي: "نعم، كما أن الشخص الذي زاره لكي يستفسر عن وضعه قد أعلمني بأنه يعتقد بأن إدوار قد لا يشفى من مرضه بعد الآن..."

حينئذ سألتُ: "ما الذي يشكو منه؟"

"لم أفهم جيداً، وما علمتُه أنه كان قد أصيب منذ عدة أيام بنوع من الحمى. أعتقد بأنك تذكرين والدته جيداً؟"

"نعم بالطبع. أنت تعلم بأنها عملتُ لديّ لفترة، وأعتقد بأن إدوار ولدها الوحيد."

"نعم. وسوف تكون خسارتها له بمثابة خسارتها لكل شيء في العالم."

سألتُ وقد بدأتُ أشعر بنوع من الاهتمام:

"هل هو بوضع خطر إلى هذا الحد؟"

"أعتقد بأنه ليس من المتوقع أن يعيش."
 قلت: "يا للمرأة البائسة! لابد أنها في غاية اليأس. أتساءل كيف هو وضعها حالياً،
 كما أنها عندما عملتُ لدي كانت تبدو فقيرة جداً..."
 "وهي لا تزال فقيرة جداً. هذا ما علمته، كما أنها مرضتُ مؤخراً وبذلك لم تعد
 تعمل. أعتقد أن يكون دخلها الوحيد ما كان يحصل عليه إدوار من أجر، وبأنها
 مؤخراً قد عانت كثيراً ولم يعد لديها ما يكفي من مال لتأمين أقل الاحتياجات
 الضرورية لذلك الفتى المريض. أليس بإمكانك أن تذهبي إليها بعد ظهر اليوم لكي
 تطلعي على وضعهما؟"

هزئتُ رأسي على الفور بالنفي، فلم يكن تعاطفي تجاه الآخرين قوياً في ذلك الوقت
 لكي يحل محل الأنانية التي كان يتسبب بها ما أعانيه من شعور بالكآبة...
 أجاب زوجي: "عليّ إذن أن أذهب إليهم بنفسي اليوم قبل عودتي من المتجر، على
 الرغم من أن لدي الكثير من المشاغل التي تجعل تواجدي فيه ضرورياً جداً، فليس
 من المناسب أن نعمد إلى إهمال الفتى ووالدته في مثل هذه الظروف القاسية."
 شعرتُ حينئذ بأن هناك نوع من العتاب بما قاله؛ لذا أرغمتُ نفسي على القول:
 "لا بأس سوف أذهب إليهم بنفسي."

أجاب زوجي: "سوف يكون من الأفضل بكثير أن ترينهم أنت من أن أزورهم أنا.
 سوف يكون بإمكانك الاطلاع على احتياجاتهم وبذلك ستكون زيارتك أكثر
 فعالية... أريدك أن تؤمّني لهم كل ما يحتاجونه من مساعدات."

كنتُ بحاجة لأن أبذل الكثير من الجهد للاستعداد لزيارتهم، لكن كان عليّ أن أفعل
 ذلك مادمتُ قد وعدتُ زوجي. لكنني عندما بدأتُ أستعد للخروج كنتُ قد بدأتُ
 أشعر بأنني بوضع أفضل. كانت المهمة التي سوف أؤديها قد بدأتُ تُبدد بعض
 الغيوم التي تُثقل على روحي، وكانت أفكارني عندما بدأتُ تلك الغيوم تنقشع، قد
 بدأتُ تتجه نحو الاهتمام بالأمر الذي يشغل ذهن زوجي.

كان كل شيء ساكناً في المنزل المتواضع الذي ذهبتُ إليه. طرقتُ الباب برفق وكانت
 والدّة إدوار خلال لحظات قد فتحت الباب. كانت تبدو شاحبة قلقة سألتها:

“سيدة إيليس، كيف حال ولدك الآن؟”
أجابت: “إنه بوضع سيء جدًا سيدتي.”
“أمل ألا يكون وضعه خطيرًا.”
“انخفضت حرارته حاليًا، لكنه واهن جدًا أشبه بطفل صغير وقد خسر كل ما لديه من طاقة.”
“لا تقلقي سيدة إيليس، لابد أن التغذية الجيدة سوف تُعيد إليه طاقته وصحته ما دام قد شفي من مرضه.”
“يقول الأطباء ذلك لكنني أخشى أن يكون قد فات الأوان لذلك، فهو يتراجع ساعة بعد ساعة، هل ترغبين بمرافقتي لرؤيته سيدتي؟”
تبعَتُ السيدة إيليس إلى الغرفة التي كان فيها الفتى المريض، وكنتُ عندما شاهدت وجه إدوار النحيل والهالات التي تُحيط بعينه اللتين فقدتا تقريبًا أي تعبير إنساني، قد أدركتُ بأن والدته لم تكن قد بالغت بما أبدته من قلقها عليه، حتى أن الفتى لم يكدهم يلحظ دخولي إلى الغرفة.
تنهدت والدته وقالت: “كان هذا الفتى المسكين قد أصيب منذ قليل بنوبة قاسية من السعال أنهكت قواه.”
كان ما قالتها قد أيقظ اهتمامي على الفور، وأجبت وأنا أضع يدي على جبين الفتى الشاحب الذي كانت الحمى قد أنهكت قواه:
“لابد أنه كان مريضًا جدًا بالفعل! هل تمنحينه ما يكفي من الغذاء؟”
“هو بالكاد يشرب القليل من الماء.”
“ألم يصف له الطبيب تناول بعض العصائر؟”
أجابت السيدة إيليس بتردد:
“نعم سيدتي. قال الطبيب بأن كأسين من العصير يوميًا سوف يُفيده كثيرًا.”
“ألم تفعل ذلك؟”
“لا سيدتي.”

"ما رأيك أن تذهبي إلى منزلنا لكي تطلبي من الخادمة أليس إعطائك البعض منها، وسوف أبقى أنا إلى جانب إدوار إلى أن تعودتي." أشرق وجه المرأة لدى سماعها ما قلتُ، ثم قالت: "أنت طيبة جدًا سيدتي، لكن قد يكون من الكثير أن أطلب منك البقاء مع ولدي إلى أن أعود."

أجبتها - وأنا أبتسم -: "سيدة إيليس! أنت لم تطلبي مني ذلك وإنما أنا التي عرضتُ عليك البقاء هنا إلى جانبه؛ لذا فلتذهبي بسرعة لجلب العصائر؛ لأن إدوار بحاجة ماسة إليها."

لم أكن بحاجة لقول المزيد فقد كانت السيدة إيليس خلال لحظات قد أسرع بالذهاب، وبذلك أصبحت بمفردي مع الفتى المريض الذي كان مُمدًا على سريره بسكون بعينين نصف مغمضتين، أشبه بشخص ميت.

كنتُ خلال النصف ساعة التي مكثتُ خلالها في تلك الغرفة الساكنة، قد أدركتُ مدى معاناة تلك الأم البائسة وهي تشاهد ولدها الوحيد مُمدًا يلهث ويكاد يموت، وبذلك استيقظت في نفسي مشاعر التعاطف نحوها...

عادت السيدة إيليس بعد قليل تحمل معها العصائر، وعندما أدنت والدته إلى شفتيه كأس العصير كان الفتى الظمىء قد تجرعه بالكامل دفعة واحدة وعلى الفور. قلتُ بحماس - وقد شعرت بقلبي يُشرق بالسعادة -:

"أعتقد أنه سيستفيد من العصير."

ثم جلسنا معًا وأخذنا ننظر بصمت إلى وجه الفتى الذي بدأ اللون يعود إليه، وكنتُ عندما وضعت يدي على جبينه للمرة الثانية بعد قليل، قد وجدتُ أن البرودة والتعرق قد زالا عنه.

وكنْتُ بعد أن انتظرتُ لساعة أخرى قد جعلته يشرب كأسًا أخرى من العصير، وكان تأثيره جيدًا عليه كالسابق.

غادرتُ منزل المريض ووالدته، ووعدتهما بالمرور بهما في صباح الغد.

وكنْتُ عندما أصبحتُ في الشارع قد عدتُ من جديد بأفكاري إلى وضعي النفسي وإلى كآبتي، لكنني وجدتُ بأن تغييرًا كبيرًا قد طرأ عليّ، وبأن الغيوم قد بدأت تنقشع عن ناظري، وبأن ذلك الثقل الذي كان يُثقل قلبي قد زال وبذلك أخذت أمشي بخطى أكثر خفة...

وكنْتُ عندما عدت إلى منزلي قد وجدته مُشرقًا دافئًا. قمتُ على الفور بإعداد سلّة من المُن لأجل تلك الأرملة البائسة وولدها المريض وأنا أدندن بكل سعادة. وعندما عاد زوجي إلى المنزل مساء ذلك اليوم وجدني أنجز بعض الأعمال المنزلية بكل سعادة وعلى وجهي ابتسامة رضى.. وأودّ أن أضيف ما يلي:

- لابدّ للإحسان للآخرين والتعاطف معهم، وما يبذله المرء من جهود فعّالة لمساعدتهم، أن يطرد جميع الشرور من القلوب ويجعل السكينة والسلام يحلّان فيها وهو ما يُزيل الظلمة عن الروح ويجعل نور الأمل يُشرق فيها وينعكس على الآخرين...

- خير لك أن تشعل مصباحًا صغيرًا يُضيء حياة الآخرين من أن تمضي وقتك وأنت تلعن الظلام...

ذكريات رجل مسن حول بصمات الزمن

قال لي صديقي ذات يوم: "أنا لست متقدماً جداً بالسن رغم الشيب الذي تغلغل في رأسي وفي شعر لحيتي..."

لكنني أصبحت في كثير من الأحيان أضطر للتوقف في زوايا الشوارع لبعض الوقت لكي أرتاح. وكثيراً ما أجد - أثناء تجوالي على غير هدى في هذه المدينة - بأن خطواتي تتجه بي نحو الضاحية. لاشك أن الكثير من التغيير قد طرأ عليها ما يجعلني أشعر بالحنين إلى الغابات وإلى الحقول وإلى ما كان لدي في الماضي في سنوات حياتي الأولى من أصدقاء، وإلى الطريقة التي كنتُ أمضي بها أكثر ساعات أيام الصيف.

ظهرت الآن في المدينة بالطبع الكثير من المباني الضخمة المرتفعة والمساكن الجميلة، لكنني أجد نفسي مع ذلك مدفوعاً بقوة سحرية إلى المكان الذي كنتُ أعيش فيه في الماضي... كنتُ أقتطف الفاكهة من الأغصان وأستلقي فوق العشب وبين نباتات القمح الناضجة وأشعر بكثير من الراحة. أما الآن فهناك الكثير مما حدث من تغييرات في هذه المدينة. تغييرات وضعت بصمتها على هذه المدينة مع مرور السنوات. هناك الكثير ممن رحل عن هذا العالم من أولئك الرفاق الطيبين، والكثير ممن ثبت لهم بأن كل ما كان لديهم من آمال ومن طموحات في سنوات حياتهم الأولى كان غير مُجدٍ تافهاً وعقيماً...

ربما كانت كل تلك التغيرات خارجية بحيث لا تُثير سوى القليل من الاهتمام، كما أنها قد لا تعيد إلى الذاكرة الكثير لكنها مع ذلك تُشير إلى غيرها من التغييرات الأكثر أهمية، ألا وهي التغييرات التي طرأت على الأشخاص وحتى على المشاعر الإنسانية فقد أخذت شكلاً جديداً غريباً وهي مع كل أسف ليست بمؤشراتٍ إلى السعادة.

ظهر الرخاء والرفاهية في كل مكان في المعامل وفي المؤسسات الخاصة، لكن كم عدد من تبقى ممن كانوا يعيشون حياة الرفاهية ومن الأثرياء عندما كنتُ أنا أيضاً في الأوج؟...

كم كان عدد العائلات التي كانت تملأ الأوساط الاجتماعية والتي تركت تلك الأوساط لكي تواكب الأوساط البراقة الجديدة التي ظهرت في الوقت الحاضر؟... لم تتوقف دورة الثروة في ثورتها ولو لبعض الوقت، وإنما تبعثرت الآمال التي كانت تنشر البهجة في الأجواء بفعل رياح المحن.

هناك في كل مدينة وقرية حياة بشرية بكل ما فيها من مشاعر شريرة ومن عواطف نبيلة وهناك قصص تجرح القلوب وتكشف النقاب عن ينابيع من الدموع.

يقال أن الحقيقة ليست أكثر غرابة من الخيال ولكن ليس هناك ما هو أكثر صدقاً مما تعبر عنه المشاعر...

كنت قد قرأت عن ذلك لكن الأمر الأكثر غرابة هو ما قابل نظري وما ترك أثره العميق في نفسي من بعض الأحداث الحقيقية التي مرّت به الحياة العائلية لبعض الأشخاص. بإمكان أي شخص، فنحن نكون في سن التأمل والملاحظة، أن يؤكد على ما أشهد به، وعلى الظروف التي حدثت بها تلك الأحداث، وعلى أن واقع الزمن الحاضر الذي نعيشه قد يُقلّل لأسباب كثيرة من دهشتنا من تلك الأحداث ويجعلنا نميل إلى التفكير بأقل من انفعال بما يحدث حولنا. وبالإضافة إلى ذلك فنحن عادة لا نرى سوى المظهر الخارجي للمجتمع...

الشخص الذي يؤلف الروايات يكشف النقاب عن ما يدور في نفوس أبطال أحداث رواياته ما يجعلنا نتطلع على أفكارهم ونشعر بانفعالاتهم، لكن لو كان بإمكاننا أن ننظر في قلوب من نقابلهم يومياً وأن نشعر بآمالهم وانفعالاتهم وبمخاوفهم فسوف نرى لدى كل من هم حولنا الكثير من القصص الحيّة عن المعاناة وعن مشاعر إنسانية تُثير الكثير من التعاطف تجاههم...

ومع ذلك فإن مثل تلك الأمور تكون عادة مَخفية عن أعيننا ومستورة بحيث يُسمح لنا أن نرفع عنها الحجاب، عندما يصبح الحاضر من الماضي فقط، لكي ننظر إلى ما يكمن تحته...

كان ذلك الحديث قد دار بيني وبين ورفيقي ونحن جالسين جانب النوافذ التي تُشرف على أحد الشوارع الرئيسية في المدينة. سمعنا ضجة بسيطة، وكان رفيقي قد قال فجأة بعد أن حدّق في الشارع لبضع دقائق وبلهجة تنم عن الكثير من التعاطف:

"ها هي هنا من جديد! يا البائسة!... فلورا!... كم أشعر بالبائسة التي..."

سألته: "من تقصد؟"

"هل تشاهد تلك المخلوقة البائسة التي تتحرك ببطء في الطرف المقابل من الشارع تمامًا؟"

"نعم"

"لم تكن هناك في هذه المدينة من عشرين عامًا مضت أية فتاة أكثر بهجة منها ولم تكن هناك أية شابة كان قد أحبها الجميع مثلها."

سألته: "أتقصد تلك المرأة؟"

أجاب: "نعم، كما لم تكن هناك من كانت لديها من الطموحات والآمال المشرقة أكثر منها."

أطلقت تنهيدة رغم إرادتي كانت قد أثارتها فكرة خطرت ببالي. وكنتُ على الفور من إلقاء نظرة سريعة على طرف وجهها الذي بدت عليه آثار الحزن والمرض والذي كان لا يزال من الوجوه المألوفة التي تحمل مسحة من جمال لا يمكن ألا يلحظه أحد قد قلت:

"لابد أن الأمل قد سخر منها!"

قال رفيقي العجوز بعد أن حدّق من النافذة:

"مسيكة فلورا!... لم تكن حياتها سوى سلسلة من خيبات الأمل ومن المشاعر المسحوقة. كان الدرس الذي تلقته قاسيًا جدًا بالطبع بالنسبة لشابة بريئة طائشة غرّة مثلها."

سألته: "من تكون؟"

قال: "هل تذكر ذلك المنزل القديم الذي يقع في شارع... هناك؟"
"نعم"

"أصبح ذلك البيت نزلاً بغد أن كان أيام شبابي أحد أرقى مباني المدينة. لم يكن أي منزل في المدينة يحتوي على ما كان فيه من المفروشات ذات السمة الأرستوقراطية الباهظة الثمن والأنيقة. كان كل ما فيه قد استورد من مدينة باريس وبأعلى تكلفة.

"كما لم يكن هناك مجال لمقارنة الطريقة التي تم بها ترتيب تلك المفروشات في منزل السيد "ت" بأي منزل في المدينة ذلك الوقت."
سألته بدهشة: "هل هذه السيدة ابنة ذلك الشخص؟"
قال الرجل العجوز بصوت ينم عن الكثير من الحزن:
"نعم، تلك الفتاة هي فلورا ت..."

"هل كنت تعرفها في أيامها الأفضل؟"
"نعم، كنت أعرفها كما أعرف شقيقتي. كانت ألطف وأرق فتاة من بنات جنسها بحيث لم يكن بإمكان أي شاب يقابلها ألا يقع في حبها."
"هل كانت قد تزوجت زواجاً تيسياً؟"

"نعم، وهذا هو سرّ ما هي فيه الآن من وضع سيء. يا للأسف!... كم كان عدد من عرفتهن أثناء حياتي من فتيات رقيقات جميلات ساءت بهنّ الظروف وجعلتهن يُصبحن في الحضيض نتيجة الزواج من شخص شقي سيء لا يستحق حتى لقب الرجولة..."

لم تكن أية عائلة ثرية في مدينتنا لم حدث وتعرضت لمثل هذه الإساءة، بأن دنس حياتها مثل ذلك الرجل الذي دمر حياة الكثيرين والذي نشر الشقاء حوله...
أما بالنسبة إلى فلورا فهي الحالة الأسوأ؛ لأن زوجها كان مدمناً على الشراب، كما أن وضع عائلتها الاجتماعي والمالي كان قد تراجع نتيجة للظروف، ثم تلا ذلك وفاة كل أفراد عائلتها كما كان كل من تبقى لديها في العالم قد أصبحوا من المعوزين...
لكن الأمر الأسوأ في قصة حياتها البائسة أن فلورا ذاتها كانت قد بدأت تنحدر

بشكل سريع وكانت قد خسرت براءتها التي كانت الصفة المميزة لشخصيتها المحببة للجميع، وبذلك لم يكن زوجها قد تسبب فقط في انحدارها وإنما كان قد تسبب في إفساد نفسيتها إلى أن أصبحت هذه الشابة الشقية البائسة.

قلت بعد بضع دقائق:

"كم من العائلات - كما أشرت - كانت قد دمرت وهدمت سعادتها نتيجة زواج ابنة محبة ثرية من شخص ليس أهلاً للعاطفة الصادقة التي منحت له بسخاء."

قال العجوز بأسف:

"ينتج الشقاء عادة عن السبب، وهذا أمر لا يمكن أن يحتسب له المرء ولم يكن ذلك قد تجلّى فقط بالتغيرات التي طرأت على فلورا، فبإمكاني أن أروي لك أيضاً العديد من المآسي التي تعرضت إليها عدة عائلات نبيلة ثرية كانت نتيجة لوقوع ابنتها في براثن شاب لا يمتلك أية أخلاقيات ما جعل الفتاة تعاني يوماً بعد يوم، أسبوعاً بعد أسبوع، شهراً بعد شهر، عاماً بعد عام، إلى أن أصبحت تتمنى أن تحين الساعة التي سترحل فيها عن الحياة لكي تجد الراحة.

ثم تابع العجوز حديثه بالقول:

"لو نظرنا إلى التغيرات التي حدثت خلال العشرين عاماً الأخيرة، أو حتى خلال الثلاثين أو الأربعين عاماً الأخيرة، فلن نجد فيها ما حقق الآمال التي ضاعت مع الرياح. أشعر بالحزن لكن عليّ مع ذلك أن أتقبل كل هذا التغير ولو بخيبة أمل... هناك أيضاً مما يجرح القلوب، وسأروي لك واقعة أخرى:

"كان لأحد أصدقائي المقربين الذي كان من كبار التجار ثلاث بنات، وكُنّ قد منحن أفضل الفرص لتلقي التعليم، لكن ذلك الرجل كان بعد أن أصبحت أكبرهن سنّاً في العشرين وأصغرهن سنّاً في الرابعة عشرة، قد خسر كل ما لديه من أموال في عملية تجارية... نعم، كان قد خسر كل شيء يمتلكه، وأصبح بدون أية موارد. وبما أنه كان قد تقدم بالسن؛ فلم يكن قد وجد الشجاعة لإعلام بناته بوضعه وبالتغيير الذي سيطرأ على حياتهن. لكن بناته كنّ يُحببن والدهن جداً وهذا ما جعلهن يشعرن بأن هناك ما حدث. كانت أكبرهن سنّاً عندما ساورهن الشك بالأمر

وأدرك أنه قد خسر أمواله كانت ابنته الأكبر سنًا دون علم والدها، قد زارت أحد موظفيه للاستفسار عن حقيقة ما تعرض إليه والدها، ورجته أن يطلعها عما حدث وبألا يُخفي عنها شيئًا من الحقيقة. كان ذلك الشخص قد زوّدها بالطبع بتقرير كامل عما يمر به والدها وبخسارته لأمواله وبوضعه المالي الحالي إلخ... أدركت الفتاة بأن ما حدث قد تسبب بتحطيم العائلة، وبذلك كانت بعد أن عادت إلى المنزل قد أعلمت شقيقاتها الأصغر بالنبأ المحزن، ثم عرضت عليهن ما لديها من خطة لإنقاذ تلك العائلة من الضياع، كما اتفقت معهن على أن يتم إخفاء الأمر عن والدهن إلى أن تصبح تلك الخطة نافذة.

وذات مساء وبعد مرور عشرة أيام كانت الابنة الأكبر سنًا بعد تناولهم العشاء قد اقتربت من والدها وأحاطته بذراعيها وقالت:

"والدي العزيز! لا داعي للقلق. نحن قد اطلعنا على كل ما حدث، ونحن على استعداد تام لتحمل أسوأ الظروف وللوقوف إلى جانبك."
سألها الوالد بدهشة: "كيف حدث ذلك يا ابنتي؟"
أجابت:

"علمنا من أحد العاملين لديك بأن وضعك المادي قد تغير. لكن اطمئن فسوف نتأقلم مع الأمر بكل شجاعة ومن كل قلوبنا."

وكانت عينا الفتاة قد اغرورقتا بالدموع وهي تقول ذلك لكن تلك الدموع لم تكن أسفًا على ما حدث من تغيير في حياتهن وإنما لما رآته من دموع والدها التي كانت قد بدأت تسيل على خديه. ثم اقتربت منه الابنتان الأصغر سنًا أيضًا وقالتا:

"والدنا الحبيب! نحن أيضًا على استعداد للتأقلم مع أي ظرف مهما كان قاسيًا."
وكان ذلك الوالد البائس قد همس وصوته مخنوق بالعبرات:

"ليباركُن الله يا بناتي! لكنكن لا تعرفن كم ساء وضعنا وإلى أي حد أصبحت الآن فقيرًا لقد أصبحت متسولًا."

ابتسمت الابنة الكبرى وقالت:

"ليس تمامًا يا والدي! فقد عقدنا العزم على أن نقوم الآن بدورنا. وهذا ما جعلنا ولمدة أسبوع نتصل بأصدقائنا للتباحث معهم حول ما لدينا من خطط للعمل، وقد حصلنا على أربعين طالبة للمدرسة التي قررنا أن نفتتحها، سوف نقوم بتدريس الموسيقى واللغة الفرنسية والرسم إلخ... أنت لست متسولاً يا أبي الغالي! ولن تكون كذلك قطّ، ما دامت لديك بناتك الثلاث اللاتي يحبينك!..."

كان ذلك الوالد العجوز قد بدأ يبكي كالأطفال فلم يكن بإمكانه أن يعترض بالطبع على اقتراح ابنته. وكانت تلك المدرسة قد أفتتحت على الفور ولا تزال حتى الآن تُدار من قبل الابنتين الأصغر سنّاً...

قد يعتبر بعض الآباء أن مساهمة أولادهم بإعالة العائلة من الأمور المهيينة لكرامتهم، لكن ما أثبتته تلك الفتيات بمحبتهن لوالدهن كان العزاء له. وكان ما أنقذ تلك العائلة من الدمار.

الرضى والقناعة أفضل من الثروة

"لا فائدة من الإلحاح روبرت!... عليّ أن أنطلق في هذا العالم. ليس أمامي سوى هذا الخيار، لو بقيتُ هنا سوف أموت من الكسل والتراخي."
"لكنك لستَ مجبراً على أن تكون كسولاً أو مُتراخياً، هناك الكثير مما يُمكن أن تؤدّيه من أعمال. فأنا على سبيل المثال لا أشعر مُطلقاً بأنني من العاطلين عن العمل."

"هل عليّ أن أكتفي بتكريس نفسي لما أقوم به الآن من عمل تافه وأن أبقى في مكاني؟ ولأجل ماذا؟ لا... لا... روبرت. لديّ من الطموح ما يتجاوز العيش في مثل هذا الكوخ في وادٍ ظليل، فأنا أتوق إلى شيء أكثر من بعض العشب ومن ماء الغدير، وقد عقدتُ العزم على الحصول على الثروة. عندما يتمتع المرء بإرادة قوية لا بدّ له من أن يجد الوسيلة لتحقيق ما يأمل به."

قال شقيقه: "لكن الرضى والقناعة أفضل من الثروة."

"أنا أعرف جيداً هذا المثل السائر الذي لا يؤمن به سوى الحكماء والأشخاص العاديين، لكنه ليس المثل الذي أؤمن به فمن المستحيل عليّ أن أقتنع بأن أكون مجرد شخص فقير كادح في هذا العالم. أرجوك روبرت! لا تُلح عليّ. سوف أنطلق في هذا العالم للبحث عن الثروة، ولن أعود إلى أن أحقق هديّتي."

"ولكن ماذا عن هيلين؟"

استدار الشاب نحو شقيقه وقد بدت عليه علامات الاضطراب. ثبتّ نظره عليه لفترة، ثم قال وهو يُشدّد على كلماته:

"أنت تعلم بأنني أحبها قدر محبتي للحياة."

"ويليم! أريد أن أسألك هل تحب الثروة أكثر من حياتك؟"

"روبرت ما الذي تقوله!..."

"إن كنت تحب هيلين بالفعل كما تحب الحياة ومع ذلك فأنت تعتزم أن تتركها للبحث عن الثراء فهذا يعني أنك تحب المال أكثر من حياتك."
 "أرجوك روبرت، لا تتحدث إليّ بمثل هذا الأسلوب. أنا أحب هيلين جدًا وبصدق؛ لذا فأنا أنوي السعي للأفضل ليس لأجلي فقط وإنما لأجلها أيضًا، فهي التي سوف تُشاركني في كل ما أسعى الحصول عليه من ثروة."

"ألن تجتمع بها قبل مغادرتك؟"

"لا، لست أرغب بالتسبّب لها ولا لنفسي بالألم بمثل هذا اللقاء الوداعي، لكنني سأطلب منك أن ترسل إليها هذه الرسالة وهذا الخاتم."
 وكان الشقيقان بعد بضع ساعات يقفان قبالة بعضيهما ينظر كل منهما إلى وجه الآخر. قال ويليم:

"وداعًا روبرت."

"وداعًا ويليم. عليك أن تعلم بأن هذا المسكن القديم هو بيتك على الرغم من أنه ملكي بحسب توزيع الميراث بيننا. لكم بإمكانك أن تعتبره دومًا ملكًا لك أيضًا، ولو حدث أن اكتشفت بأن الثروة قد خذلتك وفكرت بالعودة، فلتعلم بأن لك منزلًا بإمكانك أن تعود إليه من جديد، وبأنك سوف تجد أبوابه مفتوحة أمامك وبأنك سوف تلقى فيه دومًا كل ما تنشده من دفء المحبة كما في السابق. وداعًا!..."

ثم افترق الشقيقان. انطلق أحدهما في هذا العالم الكبير باحثًا بلهفة عما فيه من ثروة ومن مظاهر الرفعة، وانطلق الثاني لكي يستمر في عمله في الأماكن الممتعة التي يحبها والتي ترتبط بطفولته دون أي تواكل أو كسل، فلم يكن ذكر النحل الذي يتقبّل أن يُصبح عالة في مجتمع خلية النحل.

في مساء ذلك اليوم كان هناك شابتان جالستان كل منهما في غرفتها الخاصة. كانت إحدهما متوهجة الخدين تلمع عيناها بإشراقة الأمل والسعادة، بينما كانت الأخرى شاحبة الوجه تتساقط الدموع من عينيها بغزارة.

كانت تلك الشابة الحزينة تحمل بين يديها رسالة كُتبت بأرق العبارات لكن من كتبها كان على ما يبدو يحب الثروة أكثر من محبته لخطيبته؛ لذا انطلق في العالم للبحث عن معشوقة روحه التي فضّلها عليها وهي الثروة... فهو يقول في رسالته بأنه "سوف يعود"، ولكن متى؟ أه... كم يحتجب المستقبل الذي يَعُدّها به وراء قدر مجهول!... يا لبؤس تلك الشابة!...

أما الشابة الثانية الذي كان خداهما يتوهجان بحمرة الفرح فكانت تحمل أيضاً بيدها رسالة من شقيق ذلك الشاب الساعي وراء الثروة، رسالة تفيض بعبارات الحب يقول فيها بأنه سوف يأتي في الغد لكي يصطحب عروسه إلى بيتهم، بيت الزوجية السعيد! بالسعادة تلك الشابة!...

دعونا نرى الآن وبعد أن مرّت سنوات عشر على ذلك المشهد، ما آل إليه أمر الذي ذهب للبحث عن الثروة، فهل حصل يا تُرى على تلك الغنيمة البرّاقة التي يسعى إليها؟ وما الذي آل إليه أمر تلك الشابة الشاحبة الوجه التي تركها مع دموعها؟ هل عاد إليها كما وعدها؟ هل شاركها بما حصل عليه من ثروة ومن مكانة؟ لا... فلم تكن قد وصلتها حتى كلمة واحدة من ذلك الشاب الهائم على وجهه منذ اليوم الذي غادر فيه منزل طفولته، وبذلك اعتبره جميع من تركهم خلفه أشبه بشخص غادر العالم وهو لا يزال بين الأحياء.

كان هناك في مكان بعيد جداً منزل فخم في منطقة ذات مناخ لطيف، منزل أشبه بلوحة فنية، لكنك عندما تدخل إليه عبر الردهة الواسعة وتمرّ بالغرف الواسعة الفخمة المترفة سوف تجد نفسك مُحاطاً بجو من الصمت والكآبة!... سوف تُشاهد في إحدى الغرف عدد قليل من الأشخاص حول سرير امرأة تبدو وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، وسوف تُشاهد إلى جانبها شكل رجل ستكتشف عندما تُمعن النظر إليه بأنه ذلك التائه الهائم على وجهه الباحث عن الثروة...

ما الذي يفعله هنا؟ وما الذي تعني له تلك المرأة التي تموت؟ إنها زوجته!... تتساءل هل نسي تلك الشابة الرقيقة التي تركها تبكي وهي تقرأ كلمات الوداع في رسالته الأخيرة إليها؟...

بإمكاننا أن نقول بأنه في الواقع لم يكن قد نسيها لكنه أخطأ بحققها، وبأنه أثناء سعيه المتواصل وبحته المحموم عن الثروة، نسي وعده لها وكان أن تزوج من امرأة ثرية...

ثم مرت السنوات وظلّت أوهامه وآماله بالحصول على الثروة تخدعه وتجعله يتمسك بها. وها هو الآن يقف على أهبة الاستعداد للإمساك بيده بما كان يهدف إليه من ثروة...

كان شبح الغد والسعي لأجل تحقيق طموحه بالحصول على الثروة قد جعله في ساعة مشؤومة يتنازل عن رجولته وينحدر إلى الحضيض بأن يتخذ لنفسه تلك الزوجة لأجل ثروتها فقط... كانت تلك المرأة ثرية بأموال والدها كانت من النواحي الأخرى أكثر فقرًا من أية متسولة. كم كان قد عانى منها! وكم كانت معاناته مؤلمة ومستمرة! كان كلما حاول التقرب إليها، كلما تسببت له بالألم إلى أن انتهى الأمر به من خلال تكرار معاناته النفسية إلى أن يُبعدها عنه عاطفيًا تمامًا.

عاشا معًا بتلك الطريقة خمس سنوات. فما هو الشيء الوحيد الجيد الذي يمكن أن يُعوّضه بعد الآن؟ لابد أنه سوف يحصل الآن على ما كان يتوق إليه من ثروة ومن مركز وشهرة...

كان ويليم قد تزوج الابنة الوحيدة لرجل تُقدّر ثروته بالملايين، لكنه أخفق في كسب ثقة وفي موافقة والدها على زواجهما. كان الرجل العجوز الصارم قد اعتبره دومًا مُرتزقًا مُتطفلاً وكان يعامله دومًا على هذا الأساس. وبذلك كان الندم والغيبز يأكله وهو يجد نفسه يعيش بين القضبان الذهبية لذلك السجن. كم من مرة كان قلبه يحنّ إلى محبوبته، وإلى منزله العزيز القديم، وإلى من أحبه ومن أمضى بينهم أسعد السنوات الأولى من حياته!... وكم من مرة كان الوجه اللطيف المحبب لمن لم يخلص لها قد حجب عنه وجه زوجته ذات الملامح الباردة التي يكاد يكرهها!... كم مرة كان قد تذكّر عينيها الزرقاوين وصوتها الرقيق الذي كان أشبه بنسمة من الهواء العليل!...

كانت تلك القيود قد بدأت تزداد أكثر فأكثر مرارة وتُصبح أكثر إذلاً مع مرور السنوات وتحول بينه وبين متعة الحياة.

هذا ما كان عليه وضعه بعد عشر سنوات من الزواج، وهكذا نجده الآن منتظراً موتها لكي يتحرّر من القيد الذي كبّل به نفسه لسنوات. سوف يُصبح حرّاً من جديد. لم يتبقّ في كأس معاناته سوى رشفة واحدة...

ولكن، لم يكد قد مرّ أسبوع على ذلك إلا وكان والد الزوجة المتوفاة قد بادره بقسوة بهذه الكلمات:

"أنت لم تكن تعني لي شيئاً عندما كانت ابنتي على قيد الحياة، وأنت الآن لا تعني لي شيئاً على الإطلاق، أنا أعلم بأنك لم تكن قد أحببت ابنتي يوماً وإنما كنت طامعاً بثروتي، وها قد توفيت الآن وقد أصبحنا غرباء تماماً."

وبذلك كان ذلك الباحث عن الثروة قد خرج من ذلك المنزل الفخم قبل غروب شمس اليوم التالي لكي يهيم على وجهه من جديد فقيراً ذليلاً مُحطم الكرامة والنفس! وهكذا كانت تطلعاته وآماله إلى الثروة قد خدعته كما كان العقاب الذي عانى منه رهيباً!

كانت المعاناة والكفاح الضاري والسعي خلف إغراء الثروة قد حطّما نفسه الآثمة وجعلوا شعلة الحماس في صدره تنطفئ.

لكن شعاعاً جديداً من الأمل أشرق فجأة في ظلمة نفسه. حدّث نفسه:

"كان شقيقي على حقّ:

(الرضى والقناعة أفضل من الثروة)

آه يا شقيقي العزيز!... ويا منزلي القديم المحبب!... آه يا هيلين الرقيقة!... لم تركتُ كل ذلك؟ لقد فات الأوان! فات الأوان!... كان كأس الحياة بين شفتي لكنني أشحّت برأسي عنه وسعيت إلى ما هو أكثر إغراء وإثارة. أكاد أشاهد أمامي الآن مشهد الوداع الذي كان بيننا! كنت أنظر إلى وجه شقيقي وأنا أشعر بيده تمسك بقوة بيدي. لا يزال صوته في أذني. شقيقي الحبيب!... لازلْتُ أذكر الكلمات التي

قالها لي يوم وداعنا وأنا الآن أكاد أسمعها ولكن باهتمام أكثر من اهتمامي بها عندما سمعتها منه للمرة الأولى:

(إن خدعتك الثروة ذات يوم فلتعدّ إلينا... لتعدّ إلى بيتك من جديد. سوف تجد أبوابه مفتوحة أمامك، وسوف تُدفئك نار موقده كالسابق...)

آه!... ترى ألا تزال النار مشتعلة هناك؟ كم عدد السنوات التي مرت على مغادرتي منزلي وعلى انفصالي عن هيلين؟ ولكن لن يكون بإمكانني - حتى لو كانت لا تزال على قيد الحياة، وحتى لو لم تكن مشاعرها نحوي قد تغيّرت - أن أضع تحت قدميها هذا القلب المخادع. لو حدث ذلك فسوف تصدمني نظرة المحبة في عينيها أكثر من لدغة عقرب."

كان الزمن قد مرّ بخُطى أكثر لطفًا على الطريق الوردي لمن كانت القناعة بالنسبة إليهم نعمة أكبر من المال. ومع ذلك كانت قد طرأت بعض التغييرات على منزل العائلة. كان كل منهم عندما يطلّ من نافذة كوخه وينظر برضى إلى محيط عائلته الذي اتسع بشيء جميل أضيف إليه، اتسع بأطفال أشبه بالملائكة. لم تكن زوجة روبرت اللطيفة قد نغّصت حياته بأي أمر، وإنما كان كل منهما يزداد قربًا من الآخر مع مرور الزمن وبذلك كان منزلهما مثالا للجنة على الأرض.

ومساء أحد أيام الصيف الحارة بينما كان أفراد تلك العائلة السعيدة مجتمعين حول المائدة لتناول وجبة العشاء مساء، دخل إلى المنزل شخص غريب. كان أسلوبه في التحدث إليهم غامضًا مُبهَمًا، كما كان شكله يبدو غريبًا بعض الشيء. اختلس كل منهم النظر إلى الآخر.

سأل الغريب بدهشة وفي صوته نبرة الإعجاب:

"أهؤلاء أولادكم؟"

"نعم، شكرًا لله، هم جميعًا أولادنا."

أشاح الغريب بنظره لكي يُخفي ما اعتراه من مشاعر الأسف والاضطراب، وهمس لنفسه:

"(الرضى والقناعة أفضل من الثروة) هذه هي الحقيقة التي فهمتها الآن."

لكنه كان قد نطق بتلك الكلمات بصوت واضح، وبذلك وصلت تلك العبارة إلى مسامع روبرت وبذلك عرف على الفور بأن ذلك الغريب هو شقيقه التائه الذي اعتبر ميتاً من زمن طويل وقال:

"أهذا أنت ويليم؟"

وقف الشقيقان أمام بعضهما، حدق كل منهما بالآخر للحظات، ثم تعانقا بحنان: "ويليم!"

كم كان ذلك الغريب مشدوهاً وكم كان يرتعش! كان قد شاهد في تلك الشابة الهادئة التي كانت تتحرك أمامه وتعتني بالأطفال، صورة الشابة التي فارقها من سنوات طويلة. تلك الشابة التي لم يكن قد أخلص لها على الإطلاق. لكن نبرة صوتها فاجأته فهو لا يزال يذكر ذلك الصوت الذي عرفه في الماضي. هتف دون أن يشعر: "هيلين!"

كانت تلك لحظة من السلوان لكل ما مرّ به خلال السنوات التي مضت. ها قد عاد من جديد إلى المكان الذي وقف فيه عندما غادر منزله لاهتاً خلف طموحه وخلف إغراءات الثروة والمال وابتعد عن حبه الوحيد.

كان من الجيد بالنسبة إليه وبالنسبة لتلك الشابة المخلصة ألا يكون بإمكانه أن ينسى الماضي وأن يركض إلى هيلين كي يُعانقها ويضمها إلى صدره، لكنه لن يتمكن من أن يفعل ذلك؛ لأنه سوف يكشف عما يعترّيه من الندم ومن عذاب الضمير على خيانتها لها...

سوف نتركهم هنا أيها القارئ...

نعم (الرضى والقناعة أفضل من الثروة).

كما ثبت لكم من هذه التجربة المريرة التي بإمكانكم أن تتجنبوا التعرّض لمثلها! فمن الأفضل بكثير للمرء أن يدرك الحقيقة وأن يجعلها القاعدة في تصرفه في الحياة من أن يتأكد من صحتها في حياة شديدة المعاناة... ولكن وللأسف. فإن القليل فقط من بإمكانهم أن يتوصلوا إلى إدراك ذلك!...

هل تُعاني أكثر من جيرانك؟

"من لديه من الأحزان قدر ما لديّ؟..."
هذه هي لغة النفوس المُحطّمة... هذا هو الانفجار العاطفي للنفوس عندما تعصف بها الأحزان وتنشر ظلمتها على إشراقة الأمل فيها...
سوف تصرخ روح المعاناة لديه بالصديق الطيّب الذي يحاول جاهداً أن يغمره ببلسم المواساة والسلوى:
"رجاء!... لا تحاول أن تُعزّيني، فلستُ أعتقد بأنك سبق وعانيت مثلي من مثل هذا الألم اللاذع ومن مثل هذه المرارة"
وسوف تكون الإجابة:

"لكنني أؤكد لك بأنني كنتُ قد مررتُ أيضاً بما هو أسوأ من ذلك."
"أهذا صحيح؟... هل سبق ومررتُ بما هو أسوأ! لا أبداً... أبداً... وعلى الإطلاق!...
فليس بإمكان أحد أن يُعاني أكثر مما أعانيه الآن أو أن يعيش ما أعيشه الآن..."
وعبثاً ما قد يحاول ذلك الصديق أن يُعزّيه، بما يورده من حُجج ومُبررات، ذلك لأن الحزن والأسى لا بدّ أن يكون مُمتزجاً دوماً بالأنانية؛ لذا فهو يمتص جميع المشاعر الأخرى ويجعل المرء يُكرّس نفسه للدموع وللنواح فقط؛ ما يجعل الشخص الذي يتحدث إليه يقتنع أيضاً بأنه بالفعل شخص وحيد تماماً في العالم، وبأنه منبوذ من كل الجنس البشري.

لاشكّ بأنّ كلّاً منا على دراية بما يعتلج قلبه من يأس ومرارة، وبأنّ هناك شيئاً من الألم المكبوت في كل قلب. البعض منا أشبه بنبتة زاوية على وشك السقوط من الساق التي تحملها، بينما يُزهر البعض الآخر ويتفتح رغم ما قد يُصيبه جذوره من تلف.

ما الذي يمنحك الحق بأن تقول بأن جارك أقلّ معاناة منك؟... أهذا لأنك تشعر بالقنوط وبفتور الهمة، أهذا لأن هذا ما يبدو عليه من شكله الخارجي ومن قامته المنتصبّة؟... وما هو الإثبات الذي لديك؟...

ألأنك تُعاني عليك أن تقول بأن لدى جارك من النعم أكثر مما لديك، وبأنه أكثر سعادة واطمئناناً منك...!

لِمَ سيتولّد لديك شعور مُبهم، وأنت تسير في الشوارع الجميلة وتنظر إلى المباني الفخمة البهيجة، بأن السعادة الدائمة، وبأن الراحة والاطمئنان لابدّ أن يرتبطا بمثل هذا البهاء وبمثل هذه الفخامة؟...

كم أنت مخطئ بذلك! وكم أرثي لحالك...!

فلتعلم إذن بأن المرض المميت يَكْمُن خلف تلك الستائر الذهبية والقرمزية، وبأن الحزن يُغْلَف هنا كل شيء، وبأن الأسى يَكْمُن خلف مصاريع هذه النوافذ، وبأن الحب يكافح دون جدوى للظهور من صدور تملأها المرارة...

يوجد هنا سلوك محزن لطفل مُتمرد... هنا الإهمال البغيض من زوج سيء أو ربما من زوج غير مُحب... توجد هنا أخطاء متكررة ومقصودة من زوجة غير مخلصة... هنا يَكْمُن الخوف من الإفلاس ومن تلوّث السمعة ومن العار... هنا يَكْمُن الحقد المرير الذي يضغط على الأعصاب... هنا ينشب الصمت والمرض المخفي مخالبه في القلوب... هنا يَكْمُن الندم في صدر شخص أساء إلى أرملة وإلى المحرومين من الأبوة... هنا المُعاناة من أن يكون المرء عرضة لتشويه السمعة وللافتراء... هنا الحماقة والانتقام الخانق... وهنا لدى كل من العروس ومن الصديقة الحسنة ما تحمله في قلبها من حزن و من مرارة...

فهل لديك من الأحزان أكثر مما لدى جارك؟

أنت تعتقد ذلك لأنك فقدت طفلك الوحيد الذي لا زال في عمر الزهور، لكن جارك فقد سبعة من أولاده، وهو بذلك قد جرح سبع مرات. لا زالت جراحه تنزف ولم يَعدْ لديه أي أمل يمنحه المقدرة على الصبر، بينما أنت كشخص مؤمن تستمد قوتك من إيمانك برحمة الله - تعالى - .

هل لديك من المشكلات أكثر من جارك...؟

هل خسرت كل شيء...؟ لا... لا تقل هذا... فلتعلم بأن جارك كان قد خسر الكثير من المنازل ومن الأراضي كما أنه خسر أيضاً صحته، ففي الوقت الذي أنت تتمتع

فيه أنت بالصحة يرقد جارك على فراش المرض والمعاناة، وعليه أن ينتظر أن يقوم أحد الخدم المخلصين بتحضير وجبته الضئيلة وأن ينتظر أن تقوم يد شخص موثوق بإطعامه...

هل تعاني أكثر من جارك...؟

قد لا يكون لديك من المال سوى بالقدر الذي يُغطي احتياجاتك الضرورية في الحياة. ربما كانت ملابس أولادك رثة. ربما كان منزلك متواضعًا، وربما لم تكن تعلم فيما إذا كنت ستحافظ على عملك في الأسبوع المقبل، بينما لا يعلم جارك شيئًا عن الحاجة التي أنت فيها فليد المنزلة والزوجة والأولاد والمال الوفير وهو يعيش بترف بحيث يمكن أن تُعتبر حظيرته أشبه بالقصر بالمقارنة بمطبخك، وربما لو أنك دخلت إلى ردهة منزله فسوف تدعوك المقاعد الفخمة المريحة للجلوس عليها، وهذا ما يجعلك تطلق من أعماق قلبك تنهيدة حسد، ولكن ماذا لو سمعت فجأة جرس الباب يُقرع بشدة ثم يندفع منه ابن ذلك الرجل، شاب تبدو في نظرة عينيه الحمراويين شر وعنف، شخص سيء مُسرف مُقامر يشرب الخمر، شخص دمره الفسوق...

فهل ترغب بأن تكون والدًا لمثل هذا الابن...؟

عليك أن تعود إلى أولادك الشرفاء، عليك عندما تنظر إلى وجوههم المشرقة الطاهرة أن تشكر الله - تعالى -.

وعليك أن تشكر الله أيضًا؛ لأنك لستَ تحمل ثقل المال الذي قد يُفسد أولادك؛ لذا لا تقل من جديد بأنك تُعاني أكثر من جارك.

وأنت أيتها الفتاة الشابة هل تبذلين من الجهد ما يفوق طاقتك؟ هل تعملين من الصباح وحتى منتصف الليل لقاء القليل من المال الذي قد يُمنح لك على مَضَض رغم أن ما تحصلين عليه لا يكاد يكفيك حتى لتأمين احتياجاتك اليومية من طعام وكساء، وأنت بذات الوقت تشاهدين أمامك زوجة ربّ العمل التي تُمضي ساعات طوال أمام طاولة زينة من الرخام، أو أنها قد تُمضي اليوم بكامله بالتسكّع أمام نافذة منزلها...؟

هل تشعرين بالغيرة وتحسدين جارتك الأكثر ثراء منك عندما تشاهدين ما في مَخدعها من ملابس حريرية باهظة الثمن ومن تماثيل ومن لوحات تملأ الجدران...؟

كل ما عليك هو أن تسألها عن تُعتبرها الأكثر سعادة بينكما، وسوف تجدين بأنها سوف تشير إليك بإصبعها الذي تزينه المجوهرات دون أن تتكلم؛ لأنها لو تكلمت بصدق ل قالت بأنها على استعداد للتخلي عن كل ما لديها من ثروة لقاء ما تنعمين به أنت من راحة نفسية، وبأن دار الأوبرا التي تصدح فيها الأصوات الجميلة الرائعة ليلة بعد ليلة ليست بالنسبة إليها بالترف؛ لأن متعة الإصغاء إلى ذات الألحان لابد أن تبهرت مع التكرار؛ لذا حافظي على استقامتك ولا حاجة لأن تشعرين بالغيرة منها أو من زوجة رئيسك في العمل.

وأنت أيتها الأم التي أرهقها التعب والعمل المتواصل والتضحيات، هل تنظرين إلى جارتك التي تمتلك أكثر منك من الإمكانيات وتتمنين لو كان نصيبك في الحياة مثلها؟ هل يخطر ببالك في كثير من الأحيان بأنك تتحملين أكثر من طاقتك؟ فلتعلمي إذن بما قالته لي مؤخرًا إحدى الأمهات:

"قولي للأمهات اللواتي ينعمن بوجود أولادهن حولهن، بأنهم يعيشن أسعد أيام حياتهن، وسوف يأتي الوقت الذي سوف يُدركن فيه ذلك..."

قولي لهن بأن عليهن أن يشكرن الله كل صباح على ما يبذلن من جهد متواصل في عملهن وأن يعتبرن ذلك من أسباب السعادة، فلم يعد بإمكانني بعد فقدت أولادي سوى أن أجتو لكي أحاول أن أشاهد ولو بمخيلتي فقط القبور البعيدة التي يرقد فيها أطفال الذين فقدتهم...

لو كان بإمكانني أن أكون معهم من جديد فلن أتوانى عن بذل كل ما لدي من طاقة لأجلهم... أنا على استعداد للعمل الآن كما لو كنت عبدة في خدمتهم دون أن أشعر بأنني أتحمّل الكثير من الأعباء، وسوف يكفيني أن ألقى مكافأتي على ذلك بابتسامتهم وبمحببتهم."

لذا عليك أيها القارئ، وفي أي وضع كنت عليه، أن تتذكر بأن هناك دومًا، وفي أي مسكن إلى جانب مسكنك، قدرًا من المعاناة، لو قُورنتُ بمعاناتك، فلن تكون سوى أشبه بهمسة بالمقارنة بهدير الرعد...

دعونا نُعزّي أنفسنا دومًا بعبارة:

(هناك دومًا في هذا العالم من يعانون أكثر منا)، وبأن نشعر أيضًا من خلال كأس الحزن التي قد تكون قد وصلت بنا إلى حدّ الامتلاء، بأنه قد يمكن أن تُضاف إليها قطرة إضافية من المرارة، وبأن علينا ألا نتفوّه أبدًا بعبارة:

“لا يوجد في هذا العالم من لديه قدر ما لديّ من المعاناة والأحزان...”

مجموعة القصص والمقالات حول أسس السعادة العائلية والسعادة الزوجية

رسائل من سيدة متزوجة إلى زوجة شابة

الرسالة الأولى

عزيزتي ليزي!

وصلتني للتو رسالتك التي تحمل النبأ السار المتعلق بزواجك من شاب وقع اختيارك عليه؛ لأنك شعرتِ بأنه أفضل من يستحق ثقتك ومحبتك...
لاشك أنك سعيدة جدًا بهذا الزواج، فليس هناك سعادة أكبر من أن تخص امرأة شابة محبة مثلك شخصًا واحدًا بكل ما لديها من أرقى المشاعر، وأن تشعر بأن قدرها ومستقبلها قد ارتبط به، وبأن تصبح جزءًا لا يتجزأ من حياته.
قد يبدو لك بما سأورده لك في رسالتي هذه يا فتاتي العزيزة بأنه ليس من المناسب أن ألقى الآن أقل ظلّ أو أن أشير إلى أي أمر قد يُكدر سماء سعادتك المشرقة في هذا الوقت بالذات، لكن ليس بإمكانني أن أمتنع عن تزويدك وأنت في مستهلّ حياتك الجديدة ببعض النصائح التي أرى بأنه ربما سيكون لها فائدتها الكبيرة في الحفاظ على ما أنت فيه من سعادة...

ليزي العزيزة!

أنت الآن بالطبع تتطلعين إلى المستقبل بكل ثقة، كما أنك تعتقدين دون شك بأن البحر الذي أبحرت فيه سوف يظل على الدوام هادئًا ساكنًا وخاليًا من أية عواصف كما هو في الوقت الحاضر... وبأن حياتك سوف تستمر بهذا الشكل إلى الأبد بكل بهجة وسعادة بعيدًا عن أية مُنغصات أو أحزان...

لكن عليك أن تتذكري يا عزيزتي بأن السماء المشرقة لابد أن تتخللها من وقت لآخر بعض السحب، وبأن أمواج البحر لا يمكن أن تظل هادئة على الدوام... عليك أن تُدركي وأن تتوقعي أن تتعرض حياتك لبعض الهموم والإضرابات وإلى بعض المحن التي لم يسبق لك أن تعرضت إليها... لذا عليك أن تُهيئي نفسك وأن تتحصني بالمقدرة على مواجهتها.

أنت حتى الآن بالنسبة لزوجك المرأة المثالية التي كنتِ قبل زواجكما. المرأة التي ليست لديها أية عيوب. كما أن زوجك لا زال حتى الآن يعتبر حماقاتك وهفواتك مُبهجة؛ لأنك حاليًا قد تربعتِ على قاعدة تمثال لكل ما هو جيد مثالي، لكن صدقيني! سوف يكون عليك عما قريب النزول من فوقه لكي تأخذي مكانك بين الأحياء؛ لذا سوف يكون من الجيد أن تفعلي ذلك، بقدر ما بإمكانك من كياسة ولباقة...

صدقيني يا غاليتي! ليس لدي أي نية لجعلك تشعرين بالحزن، لكنني أود أن أهيئك لِمَا قد يعترض حياتك من محن ومن اختبارات لابد أن تأتي لكي لا تُربك في حياتك الجديدة.

يجب أن تعتادي وأن تتقبلي أن يتم انتقاد أخطائك وعيوبك واحدة واحدة، وعليك أن تكوني حليمة وصبورة تجاه العتاب اللوم... يجب أن تتعلمي كيفية اعتبار ما قد يوجه إليك من انتقادات من الدعابة وبأنها ليست سوى هراء...

يجب أن تتعلمي بأن عليك الخضوع حتى عندما يبدو لك بأنك على حق، وبأن عليك التنازل عن رغبتك حتى لو كان زوجك سيبدو لك عنيدًا وغير منطقي... يجب أن تتقبلي أن يتم تعنيفك عندما كنت تتوقعين أن يوجه إليك المديح، وبأن يتم اعتبار ما تقدمينه، من أكثر الجهود والتضحيات، مجرد البعض من الواجبات العادية للزوجة...

لا داعي أن تشعرني الآن بالخيبة بسبب هذا الجانب المظلم من الصورة، لكنك ستكونين أسعد حالًا على الرغم من كل هذه الاختبارات وأكثر مما كنتِ طوال

حياتك، لو أنك قررت فقط أن تكوني ثابتة صامدة في طريق الواجب، وبأن تبذلي جهدك للتصرف دومًا بشكل جيّد، و بأن يكون ردّك لطيفًا حتى على أية كلمة جافة قاسية قد توجه إليك...

بجب أن تتعلمي قبل كل شيء أن تضبطي أعصابك، وإن كان ذلك قد يبدو لك مستحيلًا، في كثير من الأوقات. لكن تذكري دومًا بأن كلمة واحدة قد تصدر عنك ساعة الغضب قد تؤثر زوجك وبذلك سوف تليها كلمات أخرى ثم أخرى، ما سيفقد الجوهر الجميل للمحبة الزوجية بينكما بكل ما كان فيه من بريق إلى أن يبدو لك بأن ذلك الذهب البراق لم يكن سوى نحاسًا مَطليًا...

المودة والمحبة هما أكثر الصفات الحيدة أهمية في الحياة الزوجية، وهما من أحب المزايا في الزوجة، وربما كانا أيضًا الصفتين اللتين من الأصعب الحفاظ عليها من بين جميع الصفات الأخرى...

لذا عليك أن تبتهلي إلى الله - تعالى - بأن يكون بإمكانك التحلي بروح الخضوع، وعليك أيضًا أن تُعزّزي ما لديك من دوافع نبيلة ولتتركي ما تبقى لربّ السموات... سوف أكتب إليك ثانية لو رغبت بذلك، فأنت تعلمين بأنني تزوجت منذ وقت طويل بحيث أصبحت لديّ الكثير من التجربة ومن الخبرة حول أسس نجاح الحياة الزوجية، ولو أردت الاستفادة منها فسوف أكون على استعداد لذلك بكل ترحيب. وداعًا الآن.

صديقتك المخلصة دومًا

الرسالة الثانية

عزيزتي ليزي!

لست أدري تمامًا فيما إذا كان السرور أم الألم هو ما شعرت به أكثر عندما قرأت الآن إجابتك على رسالتي الأخيرة. فقد لمستُ بأن هناك بعض خيبة أمل قد بدأت تغزو قلبك الذي لا زال شابًا، وبأنه ليس بالقلب السعيد على الرغم من أنك تتحدثين

بشكل إيجابي عن واجباتك الجديدة كزوجة. لكنني لم ألمس ذلك اللون الزاهي في وصفك الحالي لما كان يُلوّن ما كنتِ تتوقعينه للمستقبل... يبدو أنك قد بدأت بالفعل تشعرين بأن عالم اهتمامات زوجك يختلف عن عالمك، وبأن بإمكانه أن يشعر بالسعادة حتى لو كنتِ بوضع لا يُمكنك مشاركته سعادته تلك. أليس كذلك؟

ليزي الغالية!

لستِ أول من انتابها مثل هذا الشعور ولستِ أول من استيقظت فجأة من أحلام الحب المثالي. لا ... لذا لا داعي لأن تشعرني بأي ندم ولا داعي لأن تتبدد آمالك؛ ما سوف يزيد من حزنك، وإنما عليك أن تفكري بعقلانية. فكّري بمقدار ما على كاهل زوجك من التزامات ومن متطلبات ومن واجبات تجاه المجتمع... وبأن عليه الكثير من الالتزامات التي يجب أن يؤديها بالشكل المناسب لو أراد الحفاظ على مركزه الحالي في المجتمع...

كنتِ قبل زواجكما - بالطبع - كل ما يشغل وما يستحوذ على تفكيره، وكل ما تتوقف عليه سعادته. كان لديه كل ما في الكون من حماس في سعيه للحصول عليك كزوجة له، وهو ما كان قد جعله يبتعد من وقت لآخر عن التفكير بأية التزامات و بأية متاع أخرى قد تتدخل أو تُعيق ذلك الهدف الهامّ الذي كان يسعى إليه... لكن عليك أن تدركي بأن كل ذلك قد انتهى في الوقت الحاضر، وبأن عليه مثله مثل الآخرين أن يستمر في تقدّمه، وأن يتطلع إلى أمور أخرى عليه أن يُحقّقها وأن يسعى لنيلها...

أنتِ تقولين بأنه عندما تركك بمفردك ذات مساء، كنتِ قد عاقبتِه عندما عاد بأن أظهرتِ له استيائك الشديد.

والآن - ليزي العزيزة! - هل كانت تلك الطريقة المناسبة لجعله يُقلع عن ذلك؟ هل سيكون عليه ألا يختلط بالمجتمع؟ هل عليك لكي تعترضي أن تجعلِي من نفسك زوجة سيئة الطباع لكي يشعر زوجك باستيائك؟ هل سيفضّل زوجك بذلك في المرة المقبلة عدم التأخّر في العودة إلى المنزل؟

فكّري من جديد بما كتبتّه لك! وعليك عندما قد يكون زوجك مُجبرًا على تركك بمفردك من جديد ألا تُظهري استيائك، وألا تنظري إليه بكآبة، وإنما استقبليه بابتسامة وبكلمات طيبة، ومن جهة أخرى عليك أن تحاولي أن تشغلي نفسك أثناء غيابه بالمطالعة أو بالموسيقى أو بأي عمل يدوي...

اجعلي كل شيء في المنزل يبدو له بهيجًا لدى عودته وصدّقيني بأن زوجك سوف يُقدّر - كثيرًا - ذلك التصرف البعيد عن الأنانية.

يجب أن يكون منزل الزوجية مُشرقًا ومشعًا بالسعادة على الدوام، وأن تكون مهمة الزوجة أن تُبعد عن نفس زوجها - دومًا - كل ما يشعره بعدم الرضى وكل نكد وتبرّم ومُشاكسة... فذلك الأسلوب الذي تتبعه بعض الزوجات في معاقبة أزواجهن ينعكس دومًا عليهن بأضعاف مضاعفة...

أيّ رجل - مهما ظهر مُشاكسًا - لابد أن يتأثر بالكلمات الطيبة التي لها دومًا تأثيرها المُضاعف، وليس هناك أي رجل مهما كان مُحبًا ومُخلصًا لا يجعله الوجه المُتجهم ونظرات الاستياء يبتعد تدريجيًا عن عش الزوجية...

ابنتي العزيزة!

لا تدعي مشاعر الحزن هذه تزداد لديك وتُسيطر على تصرفاتك. صدّقيني بأن بإمكانك أن تتغلبى عليها وأن تتخلصي منها بكل سهولة لو أردت ذلك بالفعل. وقد حان الوقت الآن لكي تبذلي كل ما لديك من مقدرة للسيطرة عليها.

كنتُ أعلم بأن هناك الكثير مما قد يجعل امرأة شابة تزوجت حديثًا تشعر بالأسف قبل أن تمر عدة أيام على زواجها، وهو الأمر الذي سيجعلها تُدرك ذلك الفارق بين الحبيب وبين الزوج المُحب. لاشك أنها سوف تفتقد في البداية ذلك التكريس الكامل منه لكل ما كان لديها نزوات ومن رغبات، ولما كان لها من تأثير عليه، وبما كانت تتلقاه منه من إطراء... ولاشك بأنه كان من الممتع جدًّا أن تحظى كل كلمة كانت تقولها بالاهتمام، وبأن يتم تنفيذ جميع رغباتها، وهذا ما قد يجعلها بعد زواجها تشعر بأنها بائسة مُهملة.

قد يكون ذلك متعباً بالنسبة لشابة لديها مثل ما لديك من إحساس مرهف، لكنك لو حاولت أن تتعاملي مع الأمر بعقلانية، فسوف تكوني أكثر سعادة، وهو ما سيجعلك تحافظين على إخلاص زوجك المحب... أعلم بأنه قد يكون من العسير عليك تصديق ذلك، لكنك لو فكرت - ملياً - أكثر بالأمر فسوق تجدينه من الحكمة.

لو فرضنا أن زوجك سيظل كما كان قبل زواجكما وبأنه سوف يتخلى عن جميع علاقاته الاجتماعية، وبأنه سوف يكرر لك باستمرار عبارات الحب، وبأن سيكون حولك بشكل دائم يرقب كل خطواتك... فهل تخالفيني بالرأي بأن ذلك سوف يصبح مُتعباً ومُملًا عد فترة؟... ألن تشعري بالملل من ذلك التكريس ومن ذلك العرض المستمر للعواطف؟... وهل بإمكانك أن تشعري بالفخر بزواج لا يتقدم في المجال الاجتماعي وفي العمل حتى لو كان ذلك لأجلك؟... لا!... لا با عزيزتي!... فكري من جديد بالأمر. أمعني التفكير وسوف تجدين بأن من الأفضل ألا يتخلى زوجك عن الاختلاط بأصدقائه من حين لآخر؛ لذا لا تستقبليه بوجه مُتجهم عندما يعود...

عزيزتي ليزي!

حاولي تجربة هذه الطريقة عندما سيتركك زوجك في المرة القادمة بمفردك، واكتبي إليّ عن نتيجة ذلك. والآن وداعاً مؤقتاً يا صديقتي العزيزة.

الرسالة الثالثة

عزيزتي ليزي!

كانت وعكة صحية شديدة قد منعتني - لبضعة أسابيع - من الإجابة على رسالتك اللطيفة الأخيرة. لكنني أشعر الآن بأنني أصبحت بوضع جيد، وأنا أطلع من جديد إلى الاستمرار في هذا التواصل وإلى تبادل هذه الرسائل اللطيفة بيننا دون انقطاع.

قرأتُ رسالتك الأخيرة مرات ومرات، ويجب أن أعترف بأن ذلك كان ليس ببعض الريبة والقلق بأن تكوني قد اتخذتِ حتى لو خطوة واحدة فقط لإفساد سعادة حياتك الزوجية التي هي الآن مثلاً للجمال. أنت تتحدثين عن الأسلوب المفعم بالعاطفة لصديقة كنت قد قابلتها والتي كانت بطيبتها قد نالت محبتك وامتنانك وبأنك كنتِ قد فتحتِ قلبك لها وحدثتها عن حياتك...

ليزي العزيزة!

هل ترين بأن من المناسب أن يكون كل ما في قلبك الصغير الذي هو أشبه بكنز ثمين قد فُتح أمام صديقة تعرفت عليها منذ فترة قصيرة فقط؛ لأنها كانت قد نالت ثقتك ببضع كلمات لطيفة طيبة؟

كنتِ قد منحتِ قلبك لزوجك؛ لذا دعيه يكون له فقط وعيه يحافظ عليه ويعلم خباياه هو فقط. عليك تفتحي أمامه فقط كل صفحة من صفحاته لكي يطلع عليها لكي تتيحي له المجال لتصحيح ما قد يجد فيه من أخطاء...

صديقيني عزيزتي ليزي! بأنك لن تجدي من هو أكثر صدقاً وإخلاصاً واهتماماً بكل ما يعتلج قلبك من زوجك الذي كنتِ قد رهنتِ له قلبك...

لا تعتقدي بأنني بذلك أطلب منك الابتعاد عن إقامة أية علاقة صداقة مع بنات جنسك. لا بالطبع!... فبالنسبة إليّ ليس هناك ما هو مُحِبُّ أكثر من اتحاد روحيين متجانستين بصداقة وبرابطة بعيدة عن الأنانية، لكنني لا أحبّ تلك العلاقات التي تنشأ بسرعة وعلى الفور باسم الصداقة، والتي تغتصب في كثير من الأحيان اسمها ومكانها...

قد تلتقي فتاة بأخرى في اجتماع وتعجب بتصرفاتها، وتعتقد بأنها ودودة لأنها تبتسم كثيراً، وقد تعتقد بأنها ذكية لأنها تتحاور بسهولة، وما قد يجعلها تحوز على إعجابها أكثر أنها أولتها بعض الاهتمام، وبذلك تصبح الاثنتان فيما بعد صديقتان. لكنهما بعد مرور بضعة أسابيع فقط قد تكتشفان بأنهما غبر متوافقتين كما كان قد خيّل إليهما وبذلك تنتهي تلك الصداقة؛ لذا على المرء ألا

يخدع بالمظاهر التي قد تبدو برّاقة في البداية، لكنها تكون أشبه بجوهرة مزيفة يزول بريقها عندما يزول عنها الطلاء.

هناك أمر آخر - أيضًا - في رسالتك جعلني أشعر بالكثير من القلق عليك. كنت بعد وصفك المثير لذلك الحفل الذي شاركت فيه، قد قلت بأنك كنت قد أثرت إعجاب الجميع بجمالك وبأنك التقيت هناك بفرانك الذي كان من أكثر المعجبين بك سابقًا والذي كان شديد التعلق لك...

ليزي!... ليزي عزيزتي!...

ليس عليك أن تفكري بهذه الطريقة، ولا أن تتصرفي بهذه الطريقة، ولا أن تُشيري بمثل هذا الأسلوب إلى مثل هذا الأمر. تذكّري بأنك زوجة وبأنك مرتبطة برباط مقدس بزوجك ما يتطلب منك الحفاظ، بكل ما لديك من عزم، على إخلاص لا يتزعزع لزوجك. دعيني أحدث إليك بصدق عزيزتي... أعلم بأنك كنت دومًا تحبين نيل إعجاب كل من حولك، لكن هذا الأمر يُعتبر من أخطر العيوب في زوجة. عليك أن تضبطي نفسك وأن تتخلصي من هذا التطلع لنيل إعجاب من يحيطون بك قبل أن يقود ذلك زوجك إلى شرك قد يقوّض سعادتك الزوجية...

ولو شعرت بأنه من المستحيل عليك أن تتخلصي من ذلك الشعور بشكل نهائي، حاولي تركيز اهتمامك على زوجك وفكري بأن يكون مظهرك وجمالك لكي ترضيه هو، وبأن تكون ملابسك بالشكل الذي يتلاءم مع ذوقه هو، وبأن تجعله يشعر هو فقط ويعجب هو فقط بما لديك من فتنة ومن جمال ولياقة، فهذا هو ما يتلاءم مع تصرف أية امرأة متزوجة...

حاولي أن تهيئي له دومًا أسباب الراحة في المنزل فليس هناك ما له تأثيره على الزوج أكثر من أن يشعر بأنك تفكرين به أثناء غيابه وبأنك تبحثين عما كل ما يُهيء له أسباب السعادة...

استقبله دومًا بابتسامة لطيفة وبوجه مُشرق واجعلي من منزلكما منزلًا يفيض بدفء المحبة والحنان، وبذلك سوف تكون حياتك الزوجية سعيدة وسوف تحصلين على زوج مخلص ومحِب.

سُرتُ جدًّا لأنك حاولت تجربة ما كنتُ قد أشرتُ به عليك، وبأن كان لذلك أثره الجيد، استفيدني مما حصلت عليه من بهجة ولا تدعي الشكوك تُخيم عليك وسوف تحصلين دومًا من زوجك على الإخلاص والمحبة كما ستنعمين براحة الضمير. وداعًا الآن...

الرسالة الرابعة

عزيزتي ليزي!

قرأتُ رسالتك مرات ومرات، وكنتُ في كل مرة أعيد قراءتها أشعر بالمزيد من السعادة لأجلك. كما استعدتُ مرارًا ما ورد في هذه الرسالة الرائعة، رسالة الزوجة يفيض قلبها بالحنان وبالشعور بالرضى، رسالة تخلو من أية نزعة من الأنانية ما أثار في قلبي فيضًا من إحساس دافئ بالراحة.

ها قد أصبحت على الطريق القويم يا عزيزتي، وأرجو الله ألا تحيدي عنه بعد الآن. استمري كما بدأتِ، وصدّقيني بأنك حصلت على الأثمن من السعادة الزوجية الآن أكثر مما كنتِ قد حلمتِ. ليس هناك في هذا العالم ما هو أثمن ولا أرفع من سعادة امرأة تكنّ لزوجها أصدق مشاعر الإخلاص والمحبة والثقة، ذلك لأن الرابطة التي تُوحّد بين الزوجين يجب أن تُصان وأن تتم حمايتها والدفاع عنها بشكل جيد، وإلا فسوف تتفكك وسوف يكون حينئذ من المستحيل أن يتم إعادتها كما كانت في البداية...

حافظي وعزّزي ما لدى زوجك من محبة تملأ قلبه لك في الوقت الحاضر، بأن تحترمي وتهتمي بكل ما يمكن أن يُضيف إلى هذه السعادة. عليك مراعاة كل رغباته واهتماماته وعاداته في كل تصرفاتك. لا تخدعيه قط وكوني دومًا على استعداد لاستقباله بقلب مخلص وبعين محبة...

قد تجدي بعض هذه النصائح تافهة لكن الحياة تتكوّن من التوافه التي قد تكون لها الأثر الأكبر في جعل الحياة الزوجية سعيدة...

عليّ الآن أن أقول وداعًا يا عزيزتي ليزي، وأريدك أن تتأكدي بأنني أفكر بك كثيرًا
وبأنني أدعو بكل حرارة أن تتمكني من أداء واجباتك الزوجية لكي تحافظي على
سعادة زواجك ولكي تكوني رمزًا لجميع بنات جنسك من المتزوجات...
صديقتك إلى الأبد.

من هو الأكثر سعادة؟

قالت السيدة آيكن وهي تنظر بقلق إلى زوجها الذي كان جالسًا بصمت وبمزاج سيء وقد ثبتت نظره على الأرض بينما كان أولاده الأصحاء يلهون حول الغرفة بكل بهجة:

"ما الذي يُضايقك ويليم؟"

كان الوقت مساء وكان السيد آيكن وهو رجل يكسب معيشته بجهد - أو كما يُقال بعرق جبينه - قد عاد منذ وقت قصير من عمله اليومي المرهق. لم يجبها السيد آيكن. وبذلك كانت زوجته بعد بضع دقائق قد سألته من جديد: "هل هناك ما يضايقك ويليم؟"

كانت إجابته: "ليس أكثر من المعتاد! هناك دومًا ما هو خطأ. في الواقع أنا أشعر بالقهر."

صاحت زوجته: "ما هذا ويليم!..."

ثم اقتربت من زوجها ووضعت يدها على كتفه برفق.

كان الحسد وعدم الرضى قد سيطرا على قلب ذلك الرجل البائس، وهو الأمر الذي أدركته زوجته تمامًا فهي كثيرًا ما كانت تشاهده في ذلك الوضع النفسي.

قال الرجل: "أليست لدي ذات مؤهلات فريمان أم أنني لست كذلك؟"

أجابت السيدة آيكن: "نعم بالطبع، كما أنك أفضل منه بكثير."

قال زوجها: "لكنه مع ذلك يرفل في الثراء بينما لا أكاد أتمكن من الحفاظ على أقل

مستوى من المعيشة رغم أنني أكدح من الصباح إلى المساء..."

قالت زوجته: "اصمت ويليم! لا يجوز أن تتحدث بهذه الطريقة، هذا ليس جيدًا.

لدينا منزلنا المريح ولدينا ما يكفينا من قوت ومن كساء. دعنا نرضى بما لدينا

ونشكر الله على ذلك."

قال السيد آيكن: "هل علينا أن نشعر بالرضى بهذا الكوخ المتواضع! وبهذه الملابس

الخشنة والعمل الشاق؟"

قالت زوجته: "ليس هناك من هم أكثر سعادة ممن يعملون، وممن يتمتعون بالصحة، ومن بإمكانهم أن يحصلوا على ما يكفيهم من قوت. هل أويتَ يوماً إلى فراشك وأنت جائع؟"

"لا. بالطبع."

"هل يرتجف أولادك من البرد في الشتاء لأن ليس لديهم ما يكسوهم من ملابس تُدفئهم؟"

"لا. ولكن..."

"ويليم! لا تنظر بحسد إلى ما منحه الله - تعالى - للآخرين. عليك أن تعلم بأن المرء يحصل ما يختاره له الله تعالى وأن هذا يكون دوماً لصالحه، فقد لا نكون سعداء كما نحن الآن لو كان لدينا أكثر مما نحتاجه."

"هذا يعني أن على المرء أن يرضى ببقائه فقير الحال طوال حياته."

"لم أقل هذا ويليم. وأنا أؤمن بأن على كل شخص في هذه الحياة أن يبحث عن تحسين أوضاعه، لكن على المرء مع ذلك أن يشعر دوماً بالرضى بنصيبه في هذه الحياة؛ لأن السعادة تكون بالرضى فقط. على كل من فقير وغني أن يشكر الله - تعالى - على تلك النعمة، كما أنني أعتقد بأن الفقير يحظى على قدر أكبر من بركة الله - تعالى - . فأنت على سبيل المثال أكثر سعادة في حياتك من السيد فريمان."

"لست متأكداً من ذلك."

"لكنني متأكدة من ذلك. انظر إلى وجهه، ألا يوحي لك بشيء ما؟ هل أنت على استعداد لأن تبادل حياتك بحياته من جميع النواحي؟"

"لا، لا. بالطبع... ليس من جميع النواحي. لكنني أتمنى أن يكون لدي ما لديه من أموال."

هزت السيدة آيكن رأسها بأسف وقالت:

"ويليم، ويليم! كن حذراً، فأنت بذلك تجعل قلبك يمتلأ بالشور. حاول أن تستمتع بما لديك وسوف تكون أكثر سعادة من السيد فريمان، وستتمكن أيضاً من النوم بكل عمق وهناء."

"أعلم ذلك. لابدّ لرجل يكدح طوال اليوم كما أفعل أن ينام بعمق لشدة التعب."
 "هذا يعني أن العمل يعتبر أبضاً لهذا السبب من أكبر النعم... سوف أروي لك ما
 حدث معي صباح اليوم عندما ذهبت لتسليم السيدة فريمان الملابس التي قمت
 بحياكتها لها:

كنتُ عندما نظرتُ إليها قد لاحظتُ شدّة شحوب وجهها وبأنها تبدو قلقة جدًّا
 ومتوترة للغاية؛ لذا سألتها فيما إذا كانت مريضة، وكان هذا ما قالته لي:
 "ليس هذا تمامًا لكنني في الفترة الأخيرة فقدتُ الكثير من وزني وهذا ما يجعلني
 أشعر بأنني منهكة القوى."

"لم أجد من المناسب أن أسالها عن سبب ذلك. لكنها كانت بعد فترة صمت قد قالت
 لي:

"السيد فريمان متعب للغاية في عمله، وهو لا يكاد ينام ثلاث ساعات خلال الأربع
 وعشرين ساعة، كما أنه لم يعد يهتم لا بالطعام ولا بالشراب، حتى أنه لم يعد
 يفكر بالعناية بمظهره الخارجي وبملابسه لولا عنايتي به. لا يمكن أن يمرّ يوم
 إلا وتكون أعماله قد تعرّضت إلى المشكلات: فإما أن يترك بعض العمال العمل، أو
 أن تنخفض الأسعار أكثر مما كان يتوقعه، أو أن ثبت له عدم أمانة العملاء إلخ...
 في الواقع هناك مئات الأمور التي تحدث خلافًا لتوقعاته، والتي تتسبّب له بالكثير
 من خيبة الأمل."

"صدّقيني سيّدة أيكن، بأننا كنا أكثر سعادة عندما كنا فقراء الحال... كانت هناك
 أوقات سعيدة في حياتنا... كانت هناك في حياتنا أيام مشرقة!... كم أتذكر تلك الأيام
 السعيدة بندم على الرغم من أن دخل السيد فريمان لم يكن أكثر من اثني عشر
 دولارًا في الأسبوع، وعلى الرغم من أننا كنا نعيش في غرفتين فقط، ومن أنني كنتُ
 أتولى القيام بكافة الأعمال المنزلية بنفسني، لم تكن لدي حينذاك سوى القليل من
 المتطلبات ومع ذلك كنتُ أكثر سعادة مما أنا الآن ومما أتوقع أن أكون بعد الآن وإلى
 نهاية حياتي."

ثم سمعا فجأة صوت صرخة من الشارع.

هتف السيد أيكن: "هل سمعت؟"

وكان الصوت الصامّ الذي صدر عن تلك الصرخة قد ارتفع وأصبح أكثر وضوحًا:
"حريق! حريق! حريق!..."

وثب السيد أيكن إلى النافذة، فتحتها على مصراعيها وكان بعد أن نظر منها قد قال:
"إنه مبنى المصنع الجديد العائد للسيد فريمان."

ثم أغلق النافذة وتناول قبعته وغادر المنزل بسرعة.

شاهدت السيدة أيكن من النافذة ذلك المصنع الكبير الجديد الذي كان ذلك الرجل
الثري قد شيّده مؤخرًا يحترق بكامله. كانت النيران الضارية قد بددتته بالكامل وقد
باءت بالفشل جميع الجهود الجبارة التي بذلها رجال الإطفاء لإخماد الحريق
ولإنقاذ المبنى، فقد طوّقت النيران كامل المبنى دورًا بعد دور إلى أن احترق بكامله.
وبذلك كان مبلغ الخمسين ألف دولار تكلفة ذلك المصنع قد ذهب هباءً وأصبح
المصنع كومة من الرماد ومن البقايا المتفحّمة...

عاد السيد أيكن إلى منزله المتواضع بعد حوالي الساعة. كان مبلّلاً تمامًا يكسوه
الرماد نتيجة الجهد الذي بذله لإنقاذ ملكية جاره من الدمار، وكان على الفور من
دخوله المنزل قد قال لزوجته بصدق وتعاطف:

"مسكين فريمان! أشعر بالأسف لأجله من كل قلبي!"
سألته السيدة أيكن:

"أليس لدى السيد فريمان أي تأمين على الملكية؟"
أجاب السيد أيكن:

"لديه بالطبع مثل هذا التأمين الجزئي، لكن حتى لو كان ذلك التأمين تأمينًا شاملاً
وعلى كل الملكية فلن يُعوّض ذلك سوى جزء ضئيل من تلك الخسارة. كان العمل في
ذلك المصنع الجميل الجديد بما فيه من تجهيزات مُتطوّرة سيبدأ خلال أقل من
أسبوعين، وكان بإمكان السيد فريمان أن يحصل على مبلغ كبير من الأرباح مع
أول إنتاج له نظرًا للارتفاع الذي طرأ مؤخرًا على ثمن البضائع... لابد أن هذا الأمر

بالنسبة إليه قد خيب كل ما كانت لديه آمال، لم يسبق لي أن شاهدت رجلاً بمثل هذا الوضع البائس.

قالت زوجته: "وأنا أيضاً أشعر بالأسف لحال ذلك الرجل البائس. لابد أنه لن يتمكن من النوم براحة كما ستفعل أنت الليلة ويليم!..."

قال زوجها: "هذا صحيح بالفعل، أعتقد أن السيد فيرمان لن يتمكن من النوم هذه الليلة على الإطلاق."

قالت زوجته: "كما أنه - رغم كل ما لديه من ثروة - لن يكون غداً بمثل سعادتك أنت."

قال السيد آيكن: "لو كنت ثرياً مثله لما كنت سأحزن لتلك الخسارة إلى هذه الدرجة. سأكون راضياً بما تبقى لدي من الثروة الكبيرة التي أمتلكها." هزت السيدة رأسها بأسف. وقالت:

"لست أعتقد ذلك ويليم!... أنا أعلم بأن هذا الشعور بعدم الراحة وبعدم الرضى سوف يلزمك دوماً مهما تحسّن وضعك. كان السيد فيرمان في السابق فقير الحال ثم أصبح ثرياً، فهل تعتقد بأنه الآن أسعد حالاً بما لديه من ثروة؟ هل تعتقد بأنه يستمتع بحياته الآن أكثر من ذي قبل؟ هل حرّرت الثروة من الهموم؟ هل جعلت نومه هنيئاً أكثر؟ الأمر بعيد كل البعد عن كل ذلك. كل ما فعلته تلك الثروة أنها أدت إلى ازدياد أسباب عدم شعوره بالراحة والاطمئنان."

قال السيد آيكن: "ليس لمثل هذا الأمر دوماً مثل هذه النتيجة الحتمية، فلو كان السيد فيرمان يُحوّل النعم إلى نقمة فهذا ولا بدّ بسبب عيب في شخصيته."

قالت زوجته: "ويليم! هناك القليلون ممن ليست لديهم أية عيوب في هذا العالم الفاني المليء بالشور، لو كان السعي للحصول على الثروة لغايات غير أنانية فسوف تجعل الثروة من يملكها سعيداً، لكن القليلون من يبحثون عن الثروة لأجل ذلك! صدّقني بأن كل الشور تكمن هنا."

كانت السيدة آيكن تتحدث بجديّة وكان هناك بعض الحقيقة بما تقوله مما كان له تأثيره على زوجها. ثم ابتسمت واستأنفت حديثها:

"أتذكر قصة ذلك الرجل الثري في نيويورك، عندما قال لرجل شعر بأنه ينظر إليه بحسد وإلى ما يمتلكه من ثروة:

"هل لديك الاستعداد على تحمّل كل القلق والمتاعب التي تنجم عن إدارة ما لديّ من أملاك ومن مشاريع لقاء طعامك ولباسك فقط؟"

وكانت إجابة ذلك الشخص على الفور:

"في الواقع... لو كان الأمر كذلك فأنا لست على استعداد لأن أفعل ذلك."

وكان الرجل الثري قد قال بعد ذلك بجديّة:

"عليك أن تعلم إذن بأنني لا أستفيد من ثروتي بأكثر من ذلك..."

"نعم ويليم! تلك هي الحقيقة، فمن يصبحون أثرياء في هذا العالم لابد أن يتعرضوا باستمرار إلى القلق وإلى المتاعب. قد يُخيّل لنا بأنهم يتمتعون بكل ما في العالم من أسباب السعادة لكنهم في الحقيقة لا يستمتعون سوى بقدر قليل من السعادة، فكل ما يحصلون عليه هو طعام أفضل ولباس أفضل. كنتُ قد عملتُ في السابق لصالح العديد من السيدات الثريات ولست أذكر بأنني وجدتُ من هي أكثر سعادة مني وأنا أشعر الآن بالأسف إن لم تكن تجربتك في الحياة بمثل غنى تجربتي!..."

وكان السيد أيكن بعد بضعة أيام، عندما عاد إلى منزله ذات مساء قد وجد زوجته وأولاده بانتظاره بلهفة. نظرت إليه زوجته بابتسامة ترحيب بهيجة وهرع إليه أولاده وتجمّعوا حوله تملأً موسيقى أصواتهم السعيدة أذنيه. أحاط الوالد أولاده بذراعيه الواحد تلو الآخر وجلس بينهم وقد امتلأ قلبه بشعاع من دفء السعادة، وكانت زوجته تلك الملاك الطيب المتواضع، قد أعدت بعد قليل وجبة عشاء لذيذة بنفسها.

نظر السيد أيكن حوله وشاهد الابتسامة المرتسمة على وجوه أولاده الأصحاء، تلك الابتسامة التي تعكس ما في قلوبهم من طيبة، ثم نظر إلى والدتهم السعيدة ذات المزاج اللطيف، ما جعله يشعر بأن لديه الكثير جدًّا من النعم التي يجب أن يشكر الله عليها.

وكان عندما أصبح بمفرده مع زوجته قد قال لها:

"رأيتُ اليوم مشهدًا لن أتمكن من نسيانه بسرعة."

سألتُه زوجته: "ما هو الأمر ويليم؟"

قال السيد آيكن: "مررتُ اليوم بمنزل عائلة السيد آيلدر لإنجاز بعض الأعمال، والسيد آيلدر كما تعلمين رجل ثري جدًا كنتُ أحسده على الدوام، لكن أتعلمين؟ لن أفعل ذلك بعد الآن... وجدته بمفرده في غرفة الجلوس يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا تبدو عليه علامات التوتر الشديد. وكان عندما دخلتُ وأشرتُ إلى ما أريده منه، قد نظر إليّ بتوتر وقال لي بفضاظة:

"ليس لديّ الوقت الآن للتفكير بهذا الأمر."

وعندما كنتُ على وشك المغادرة فُتح باب الغرفة ودخلتُ زوجته مع طفلين.

لكن السيد آيلدر قال لها على الفور بصوت مضطرب شبه غاضب:

"أريدك أن تأخذي هؤلاء الأولاد إلى غرفتهم، فلستُ الآن بمزاج يجعلني أحتمل إزعاجهم."

لن أنسى طوال حياتي النظرة التي ألقاها أولئك الصغار الأبرياء على والدهم بينما كانت والدتهم تدفع بهم إلى خارج الغرفة. ثم تذكرتُ وأنا أغادر ذلك المنزل بأن سوق الأوراق المالية كانت قد تعرّضت اليوم إلى خسارة كبيرة ويُقال بأن السيد آيلدر قد خسر بذلك ما يقارب العشرة آلاف دولار وهو ما يُشكل عشرون بالمائة من ثروته..."

ثم قال لزوجته: "ماري! أنا أشعر هذه الليلة بأنني أكثر سعادة من أي وقت مضى." أجابته زوجته: "وسوف تكون أكثر سعادة من أي وقت مضى لو أنك التفتت فقط إلى الأزهار التي تتفتح في طريقك لكي تأخذ منها العسل الذي تحتويه كما يفعل النحل، ولو تذكرتُ دومًا بأن الله - تعالى - يعلم ما هو الأفضل لنا وبأنه من يُقدّر لنا إما الثراء وإما الفقر، وبأنك لو كنتَ متواضعًا وراضيًا بما لديك، فسوف تجد بأن ما قدّره الله - تعالى - لك من أكبر النعم سواء أكان ذلك الفقر أم أنه كان الثراء..."

الخطأ الفادح

قالت مارغريت إيبير بتوتر وعلى وجهها نظرة تنمّ على الكثير من الازدراء: "كلينتون! أرجوك ليزي، لا تُحدثيني عنه؛ لأن مجرد إيراد اسمه أمامي يُضايقني!"

قالت صديقتها بصوت هادئ وباهتمام:

"لكنه سوف يتواجد بالطبع في حفل هذه الليلة، ولا بدّ أن يبادرك بعبارات الإطراء ويحاول التودد إليك. الحقيقة أنني رغم كل ما تقولينه حول كراهيتك له، لا أزال أعتقد بأنك بعيدة كل البعد عن عدم الاهتمام بالسيد كلينتون وبأنك تتظاهرين بالنفور منه لإخفاء مشاعرك الحقيقية نحوه."

أجابت الأنسة إيبير:

"ليزي! سوف تضايقيني لو استمررت بالتحدّث بهذه الطريقة. قلت لك بأنني أجده بغيضاً."

قالت ليزي إدغار:

"لاشكّ أنك أدري بمشاعرك نحوه، ولو كان ما تقولينه صحيحاً فسوف أترف بأنني لم أكن دقيقة الملاحظة، لكن عليّ أيضاً أن أكتشف بنفسي صحّة ما قلته من أن السيد كلينتون بغيضاً بحيث يجعلك تشعرين بالكثير من النفور؛ لأنني كنتُ أجده دوماً رجلاً محترماً."

قالت الأنسة إيبير: "ليزي! عليك إذن أنت تحاولي أن تكوني لطيفة معه وأن تتقبلي تودده."

أجابت تلك الفتاة ذات التفكير المنطقي السليم:

"أنا أحاول أن أتعامل مع الجميع بلطف؛ لأنني أعتبر أن من واجبي أن أكون لطيفة تجاه من أكون بصحبته."

سألته الأنسة إيبير: "أتفعلين ذلك سواء أكنت تميلين إليهم أم لا؟"

"هذا ما أفعله دوماً؛ لأنه لم يسبق لي أن أحببت شخصاً كان عليّ أن أسيء معاملته."

قالت الأنسة إيبير: "أما أنا فليس بإمكانني أن أتعامل مع الأشخاص الذين لا أمل إليهم."

أجابتها صديقتها: "لسنا بحاجة لأن نتعامل بالكثير من الحميمية والألفة مع الأشخاص الذين لا نميل إليهم، لكن علينا على الأقلّ عندما نجتمع بهم أن نتصرف بتهذيب وكياسة؟"

قالت الأنسة إيبير: "قد يكون بإمكانك أن تخفي مشاعرك الحقيقية أما أنا فليس بإمكانني أن أفعل ذلك؛ لأنّ مشاعري لابدّ أن تظهر فوراً على وجهي وحتى في نبرة صوتي. وبذلك كل من يراني لابدّ أن يعرفني فوراً على حقيقتي."

لكن مارغريت إيبير رغم كل تلك التأكيدات لم تكن قد عبّرت عن مشاعرها الحقيقية تجاه السيد كلينتون. كانت صديقتها ليزي إدغار على حق عندما قالت بأنها كانت بالفعل تهتم بالسيد كلينتون، وإنما كان تظاهرها بالنفور منه عبارة عن قناع وكان ما تبديه تجاه السيد كلينتون من نفور وتحفّظ نتيجة ما لديها من تكبر ومن غرور أنثوي، لكن الحقيقة كانت بأنه كان قد ملك قلبها دون أن تشعر بذلك. كان قد أسرها بمظهره الرجولي وكان بكياسته وذكائه اللامع قد استولى على مشاعرها وأيقظ في نفسها شعوراً مبهمًا من الكثير من الاهتمام ومن الميل إليه قبل أن تكون قد أدركت بأنها أصبحت في خطر... كان الشاب قد لاحظ اهتمامها به وبذلك كان قد بدأ ينجذب إليها بدوره. لكن مارغريت كانت عندما بدأ فيليب كلينتون يُبدي اهتمامه بها قد تغيّرت على الفور؛ لأنها أدركت بما لديها من غرور أنثوي بأنها قد تهوّرت بما أظهرته من اهتمام به، وبذلك كان التحفّظ والكبرياء وحتى التعالي قد أصبح يميّز تصرفاتها اللاحقة تجاه السيد كلينتون وحتى تجاه من أشاروا إلى إعجابه ومحبته لها.

كانت تُجيب على كل من يبدي أية ملاحظة حول الموضوع بطريقة مماثلة تقريبًا لما قالته أثناء حديثها مع صديقتها ليزي إدغار، وهو ما يُشير بالطبع إلى ضعف تفكيرها و إلى غرورها.

كانت مارغريت ترغب بأن يكون الشخص الذي ستختاره قد تقرب منها بالكثير من الإلحاح والمناشدة، قبل أن يتمكن من كسب محبتها. كان تلك هي طريقتهما في التفكير وكان ذلك هو المنطق الذي كانت به تُحدث به نفسها:

"على من يحبها أن يأتي راکعًا إليها أشبه بفرسان الزمن الغابر وأن يتوسل إليها ويطلب رضاها..."

كان كلينتون قد لاحظ بالطبع ذلك التغيير في تصرفاتها، وكان من حسن حظه أنه لم يكن مُغرماً بها إلى حدٍ كبير لكي يشعر بالتعاسة على نحو خطير. صحيح أنه كان قد أعجب بجمالها وبثقافتها وبكياسة تصرفاتها، والأكثر من ذلك أنه كان قد بدأ يشعر بالفعل بالميل إليها، لكن الفتنة التي امتلكتها بها كانت قد تلاشت على الفور من التغيير الذي طرأ على طريقة تصرفها تجاهه...

لم يكن السيد كلينتون من الرجال الذين يندفعون وراء عواطفهم أو بنزواتهم، وبذلك كانت عواطفه دوماً تحت سيطرة العقل؛ ما يجعله يتمتع بالقدرة على الحكم على الأمور بالشكل الصحيح، وهذا ما جعله الشخص الأخير في العالم الذي يُناسب التجربة التي كانت مارغريت إيير تقوم بها.

كان كلينتون في البداية قد اعتقد بأنه على خطأ في نظرته للأمر، وبذلك كان قد استمر بالتودد للآنسة مارغريت بكل تهذيب، لكنها كانت تتقبل ذلك ببرود وتجاهل، ما جعله يظهر لها أكثر مما كان يحمله لها من مشاعر، ويتودد إليها بشكل خاص لكي يتبين تمامًا فيما إذا كان مخطئًا في شعوره بأنها لا تشعر بالميل إليه وبأنها تزدرية.

لكن هناك شيئاً واحداً لم يكن السيد كلينتون قد أدركه في البداية وهو أن مارغريت كانت معجبة به جداً...

وهذا ما كان قد لاحظته بعد ذلك. وما جعله يدرك ذلك هو أنه كان كلما التفت إليها فجأة وهو يتبادل الحديث مع أشخاص آخرين، يجدها تنظر إليه بإعجاب يدل على اهتمامها به. كان ذلك قد حدث عدة مرات ما يتسبب لها بالارتباك لأنها بذلك كانت قد أظهرت حقيقة مشاعرها نحوه.

لكن ذلك التصرف كان قد جعل كلينتون يشعر بالازدراء نحو مارغريت ويعتبر تصرفها عبارة عن استعراض ومن النفاق، وبذلك لم يكن اختبار مارغريت لمشاعره بتلك الطريقة قد زاد من رقة قوّة ومن مشاعره تجاه تلك الجميلة... كان كلينتون ممن يؤمنون بالصراحة وبالوضوح والصدق وبالإخلاص المتبادل بين المحبين، وكان يكره الادّعاء والتظاهر والتكلف والدلال والعبث بالمشاعر، وبذلك لم تكن لعبة الأنسة إيبيير قد دامت لفترة طويلة.

كان هناك ذات ليلة حفل راقص. وكانت الصديقتان قد أمضتا اليوم مع الموجودين لإعداد التحضيرات لذلك الحفل، وبذلك كانت الشابتان بكامل زينتهما، عندما حلّ المساء. وكانت كل منهما تنتظر إثارة إعجاب الموجودين. كانت مارغريت قد اختارت ملابسها بعناية. ارتدت ثوباً طويلاً من الساتان المطرّز ما جعل قامتها النحيلة تبدو أكثر جمالاً، وكانت تتطلع إلى إثارة الكثير من الإعجاب.

كان السيد إيبيير قد رافق الشابتين إلى الحفل في الوقت المحدد، وكانت مارغريت على الفور من دخولها إلى قاعة الاحتفال قد بدأت تبحث بنظرها عن السيد كلينتون، ولم يمض وقت طويل إلا واكتشفت وجوده، وكان نظر كلينتون قد وقع أيضاً عليها.

حدّث الشاب نفسه: "سوف أتأكد الآن مما لديّ من شكوك بأنها ربما كانت تحاول أن تلعب دور عدم المبالاة تجاهي، وإن صدقت ظنوني فسوف ينتهي أداؤها لهذا الدور هذه الليلة وللأبد."

وكان قد توجّه على الفور إلى المكان الذي تقف فيه الشابتان، وألقى عليهما التحية. كانت ليزا قد ردّت التحية بلطف وكياسة، لكن مارغريت كانت قد أجابت على إطرائه وعلى تعليقاته ببرود وبأسلوب رسمي مُقتضب ثم التفتت إلى شخص آخر. مكث كلينتون مع الشابتين لوقت قصير ثم تركهما وانضم إلى باقي المدعوين في ركن آخر من تلك القاعة الكبيرة، وكان خلال الساعة التي تلت يختلس النظر إلى مارغريت كلما سنحت له الفرصة ويجدها تلاحقه بنظرها. وبذلك حدّث نفسه:

"سوف أحاول للمرة الأخيرة"، ثم توجه إلى المكان الذي كانت تقف فيه برفقة أحد الضيوف وقال:

"هل لي أن أحظى بأن أكون رفيقك في الرقصة القادمة؟"

لكن مارغريت كانت قد أجابته بكبرياء:

"آسفة، سبق وارتبطتُ برفيق آخر."

وبذلك كان كلينتون قد انحنى بلباقة وانسحب، التفت إلى شابة أخرى وهكذا كان قدر تلك الشابة قد تحدّد تلك الليلة.

نعم ... كانت قد بالغت إلى حدّ كبير بمحاولة إثارة إعجابه بها...

كان الشاب وهو في طريقه للانضمام إلى رفاقه قد لمح الأنسة ليزي إدغار. كانت تلك الفتاة جالسة بمفردها في ركن من الغرفة، يبدو على وجهها الاهتمام بما تشاهده من ملابس فاخرة ومما يُزين تلك القاعة الكبيرة من لوحات رائعة تبدو أشبه بمنظر طبيعي في غاية الروعة.

وقف كلينتون أمام تلك الفتاة الودودة ذات الطباع الهادئة وقال: "أأنت بمفردك؟" أجابته وهي تنقل نظرها من وجهه إلى وجوه المدعوين وقد أشرقت ملامحها بابتسامة لطيفة:

"لا يمكن أن يكون المرء بمفرده وهو ينظر إلى مثل هذا المشهد الرائع."

سألها كلينتون: "ألم ترقصي الليلة؟"

أجابت ليزي: "رقصتُ لمرة واحدة"

"هل ارتبطتِ برفيق للرقصة التالية؟"

"لا، سيدي."

"إذن، هل بإمكانني أن أطلب مرافقتك في تلك الرقصة؟"

أجابت ليزي وهي تبتسم:

"سوف يكون ذلك من دواعي سروري."

كان كلينتون وهو يُراقص صديقة مارغريت المقربة ليزي، قد لاحظ بأن وجه مارغريت قد أصبح أكثر توهجاً عندما نظرت إليهما، لكن غرورها جعلها مع ذلك

تتظاهر بالتعالي وبعدم الاكتراث. لم تكن مارغريت قد أدركت مع الأسف بأن تصرفها لم يكن قد أثار في نفس السيد كلينتون الرغبة الجامحة لكسب محبة تلك الجميلة المتعالية، وإنما على العكس من ذلك.

وكانت مارغريت بعد ذلك قد حاولت دون جدوى إثارة اهتمام كلينتون لكي يطلب منها أن تكون رفيقته في الرقصة التالية، لكنه ظلّ واقفًا إلى جانب الأنسة إدغار إلى أن طلب منها شخص آخر أن ترافقه في الرقصة التالية.

كان كلينتون قد بدأ يشعر أكثر فأكثر بالإعجاب بتلك الفتاة الهادئة الرقيقة أكثر من أي وقت مضى، وبذلك اضطرت تلك الفتاة البائسة مارغريت التي خاب أملها، للتخلي عن ذلك التكبر البارد الذي كانت تتظاهر به منذ دخولها قاعة الاحتفال، وبدأت تحاول استمالة كلينتون من جديد. لكن جهودها باءت بالفشل...

ذلك لأن كلينتون كما أشرنا قد بدأ يشعر بالميل إلى تلك الفتاة البعيدة عن التظاهر ووجد بأنها أرق وأنقى وأكثر جاذبية من مارغريت، وبذلك لم تعد لديه أية رغبة بالعودة إلى الفتاة التي كان برودها قد جعله ينفّر منها والتي جعله تعاليها يشعر بالكثير من الإهانة.

عندما زارت ليزا صديققتها في اليوم التالي وجدتها بحالة نفسية سيئة جدًا. كانت مارغريت قد انتقدت الحفل وانتقدت الأشخاص الذين شاركوا به بشكل مبالغ به، كما كانت كلما ورد ذكر كلينتون تتحدث عنه باستخفاف وسخرية...

لم يكن بإمكان ليزي أن تجد الطريقة الأنسب للتعامل مع ذلك الأمر، فلم يكن بإمكانها أن تفهم ماهية السبب الذي يجعل مارغريت تجد ذلك الشاب بغضبًا إلى ذلك الحد، وهذا ما جعلها تستنتج بأنها كانت مخطئة باعتقادها بأن يكون لدى مارغريت أي اهتمام بالسيد كلينتون.

ثم كان السيد كلينتون بعد بضعة أيام قد جاء لزيارة الأنسة إدغار، ثم أصبحت زيارته لها متواترة إلى أن تقدم إليها بطلب الزواج وهو الأمر الذي قبلته الأنسة إدغار بكل سرور.

أما الآنسة مارغريت إيبير فكانت خلال الخمسة أو الستة أشهر التي تلت بداية اهتمام السيد كلينتون بالآنسة إدغار، وإلى أن أعلن عن رغبته بالزواج منها، قد مرت بفترة من المحاولة الضارية المستمرة للتغلب على عواطفها. كانت قد أدركت لكن بعد فوات الأوان ما ارتكبته من خطأ بتصرفها الأحمق ما جعلها تأسف لذلك كثيراً. وبذلك كانت قد ناضلت بكل ما لديها من مقدرة لاستعادة اهتمام وحب السيد كلينتون لها، لكن محاولاتها لاستعادته كانت قد باءت بالفشل.

كانت ليزي أثناء ذلك تُحدثها دوماً عن تودّد كلينتون لها دون أن تُدرك بأن وقع كل كلمة تقولها كان أشبه بضربة مؤلمة كانت تصيب صديقتها في الصميم. كانت ليزا تلاحظ بأن مارغريت لم تعد سعيدة وتطلب منها دوماً أن تُعلمها عن سبب ذلك القنوط، لكنها لم تكن تتخيل مطلقاً طبيعة الألم الذي تعاني منه صديقتها.

وكانت ذات يوم قد أعلمت مارغريت أخيراً، وقد توهج وجهها لشدة السعادة، بأن كلينتون اعترف لها بحبه وطلب الزواج منها.

لم تتمكن مارغريت لبعض الوقت من الإدلاء بأية ملاحظة. كان قلبها قد بدأ يضرب بشدة، لكنها تماكنت نفسها وأخفت مشاعرهما وبادرت إلى تهنئة ليزي بكل حرارة. وهذا ما جعل ليزي تُخدع على الرغم من أنها لاحظت أن في طريقة تصرف صديقتها شيئاً غريباً لم يكن بإمكانها تفسيره.

ثم كانت الفتاة السعيدة بعد فترة شهرين قد بادرت صديقتها بالقول:

"أريدك أن تكوني إشبينة العروس في حفل الزفاف."

سألته مارغريت: "لِمَ لَمْ تختاري فتاة أخرى؟"

أجابته ليزي وهي تعانقها وتقبلها:

"لأنني أحبك أكثر من جميع صديقاتي."

سُرت رعشة في مارغريت وحدثت نفسها بما ليس بإمكانها أن تُفصح عنه، وبما

ليس لعيني صديقتها أن تكشفها عنه من ألم دفين كان يُمزق قلبها:

"لا.. لا هذا مستحيل ليس بإمكانني أن أفعل ذلك!."

لكنها كانت مع ذلك قد أجابتها:

"سوف أفعل ما ترغبين به بكل سرور."

وكانت ليزي قد لاحظت اضطرابها وقالت لها على سبيل الدعابة:

"لِمَ أراك مضطربة؟ هل أسأت فهم ما قصدته؟ فأنا كنتُ أقصد بذلك زواجي وليس مآثمي."

كانت تلك الدعابة قد جعلت مارغريت تتمالك نفسها بسرعة وتبادر إلى تقبيل ليزي وإلى تهنئتها بكل حرارة... ولم تكن مارغريت منذ ذلك اليوم والى أن حلّ يوم زفاف صديقتها، قد نطقت بأية كلمة قد تكشف عما يعتلج قلبها.

كانت معاناتها في غاية القسوة، فقد أدركت - رغم فقدانها كل أمل - بأنها تحب كلينتون إلى درجة الهيام، لكن كبرياءها وقوة إرادتها مكّناها من إخفاء ذلك السرّ دون أن يجعلها تنسى تلك العاطفة، إلى أن حلّت ليلة زفاف ليزي إدغار التي دُعي إليه حشد كبير من المدعوين.

كانت مارغريت قد استيقظت صبيحة ذلك اليوم بوقت مبكر. كانت تشعر بالكآبة وبالكثير من حزن، أخذت تبكي وتبكي وهي تتمنى أن تموت. لا زال أمامها الكثير من الوقت للتفكير بالطريقة التي كانت قد صدّت شخص تشعر تجاهه بذلك القدر الكبير من المحبة. كانت قد صدته بأسلوب أحق إلى أن جعلت عودته إليها مستحيلة. جعلتها المعاناة تندم لكنها كانت أيضاً قد طهرت نفسها من التكبر رغم ما كان في قلبها من نبضات الألم.

وكانت مارغريت عندما اقترب الوقت الذي كان عليها فيه أن تكون إلى جانب صديقتها وأن تستمع إلى عهود المحبة الدائمة بين العروسين، وهو ما كانت على استعداد لأن تهب العالم بكامله لكي يكون لأجلها، قد أسرعَت إليها وهي تشعر بأنها سوف تتعرض لامتحان ليس بمقدورها أن تحتمله، لكن لم يكن هناك مفر أو أي مجال للانسحاب.

وعندما بدأت مراسم الزفاف كان قد بدأ بذلك الامتحان بالنسبة إلى مارغريت. كانت تشعر وهي تقف إلى جانب صديقتها أمام الكاهن بأن قواها قد بدأت تخور، لكنها

كانت قاومت ذلك بكل ما لديها من مقدرة، واستطاعت أن تحافظ على هدوئها وأن تسيطر على نفسها خشية أن تكون المعاناة قد بدت عليها، إلى أن كان الكاهن بعد نهاية مراسم الزواج قد أعلن بصوته المؤثر:

"أصبحتما الآن زوجًا وزوجة"

كانت مارغريت حينئذ قد ارتعشت وشعرت بأن قواها قد خارت تمامًا وكادت تسقط على الأرض لولا أن كان الكاهن قد أمسك بيدها وأنقذها في الوقت المناسب. مرّ عشرون عامًا على تلك الليلة التعيسة ولم تكن مارغريت قد تزوجت، وكانت قد استغرقت وقتًا طويلًا كي تُشفى من الألم الذي كان يُلهب قلبها، لكنها إلى استطاعت أن تفعل ذلك أخيرًا، كان جميع ما لديها من عواطف وأحاسيس قد خمد في قلبها إلى الأبد....

الرومانسية والواقع

كان إدوار فينيوك وهو شاب توحى ملامح وجهه بالكثير من الذكاء ومن الملكات الفكرية غير العادية قد قال لصديقه ذات يوم:

"قابلتُ مساء أمس أروع فتاة في العالم."

وكان صديقه قد سأله باختصار: "من هي؟"

"شابة تدعى أدليد ميرتون. هل سبق لك التعرف عليها؟"

"لا، لكنني سمعتُ من يتحدث عن تلك الشابة."

"أكان ما قيل عنها بأنها أكثر من الفتاة التي تتمتع بذكاء لامع؟"

"نعم بالفعل. هل تذكر القصائد الشعرية الرائعة التي تنشر في صحيفة غازيت تحت اسم أدليد؟"

"أذكر ذلك جيداً. كان بعض تلك القصائد رائعاً بالفعل ويوحى بإحساس مرهف. هل كانت من كتبت تلك القصائد؟"

"هذا ما قيل عنها"

"أنا على أتم الاستعداد لتصديق ذلك، فلم يسبق أن قابلتُ امرأة تتمتع بمثل ذلك الذكاء اللامع. لديها قدرة غير محدودة على التعبير عن المشهد الذي تصفه. فهي لو تكتب عن منظر طبيعي لا يمكن أن تُغفل إيراد أية تفاصيل ثانوية بحيث تضعك تمامًا في صورة ذلك المشهد. وهذا بالنسبة لجميع الأمور الأخرى سواء أكان ذلك بما يتعلق بأرقى الأمور الفكرية أو بما يتعلق بالأشياء العادية. وبالنسبة إليّ عليّ أن أعترف بأنني أعجبت جدًا بما تتمتع به من ذكاء ومن العديد من الصفات الرفيعة الأخرى. أعتقد أن تلك الشابة سوف تلمع أشبه بنجمة في المجتمع الأدبي."

كان شارل فينيوك الذي عبّر عن إعجابه بالشابة أدليد ميرتون كما أسلفنا، شاب لامع الذكاء لكن نظرته إلى الحياة كانت خاطئة لأن كانت تطلعاته كانت مُشبعة بحب الظهور والتميّز.

كانت لشارل محاولات أدبية كانت قد لقيت بعض المديح المبالغ فيه، ما أدى إلى شعوره بأن لديه من المؤهلات من مستوى أرفع من أي مجال من مجالات العمل، أو بما يتناسب مع ما يرغب القيام به في الحياة. وكان بذلك قد أعرض وابتعد عن جميع المهن الميكانيكية الآلية عن كل ما يتعلق الأعمال التجارية والمشاريع الصناعية؛ لأنه كان يرى بأن جميع تلك الأعمال لا تخدم سوى الحاجات المادية للمرء، بينما كان ما يتطلع إليه من أهداف أرفع من مثل تلك المهن!...

كان والد شارل تاجرًا متواضعًا لكن ولده الذي كان قد احتقر مهنة والده بالطبع، دون أن يأخذ بعين الاعتبار بما يُدين به لوالده بما حصل عليه من تعليم وبما يتمتع به من وسائل الرفاهية.

كانت في نية السيد فينويك الأب تهيئة ولده لمهنة التجارة لكي يكون بإمكانه أن يعمل معه ولكي يستفيد من تجربته ومن التسهيلات التي لديه، لكن فينويك الابن كان عندما بلغ السابعة عشر وحتى عندما كان لا يزال في المرحلة الدراسية الأولى قد اكتشف ذلك الاكتشاف المشؤوم بأن بإمكانه كتابة بعض الأبيات التي يمكن أن يُطلق عليها قصائد شعرية... كانت تلك القصائد قد حصلت على بعض الإشادة؛ ما شجع شارل وحثّه على المتابعة إلى أن تعلم فن نظم الشعر. ربما كان ذلك كافيًا لو لم تكن أهدافه قد شُلت وانحرفت ولو لم يكن قد خيل إليه نتيجة لذلك بأنه شخص له الكثير من الأهمية في المجتمع...

وبذلك كان شارل فينويك مدفوعًا بتلك الفكرة قد تابع دراسته بكثير من المثابرة وبدأ يُخزّن كل ما يقع تحت يده من معلومات في كل مجالات العلوم والفلسفة وبكل ما سيكون بإمكانه أن يستفيد منه في بناء مستقبله كأديب وشاعر...

لذا كانت رغبة والده بجعله تاجرًا قد لقيت معارضة كبيرة من ولده الذي صمم على اختيار إحدى المهن الأخرى وكان قد اختار مهنة الطب التي اعتبرها مهنة أكثر جدارة بالاحترام، وبأنها مهنة سوف تمنحه المنزلة الاجتماعية الرفيعة، وكان بذلك قد أَرْضَى غروره...

وبإمكاننا أن نقدمه إلى القارئ بأن نقول بأنه كان طبيباً شاباً بدون مرضى، ذلك لأن الوضع المالي لوضع والده لم يكن قد أتاح له بعد تخرجه من كلية الطب افتتاح العيادة الخاصة به.

لذا كان شارل قد توجه نحو متابعة مسيرته في المجال الأدبي بغية التوصل إلى ما كان يصبو إليه من منزلة رفيعة في المجتمع، وبدأ يكتب بعض المقالات والدراسات الصحف ما جعله يُعرف شيئاً فشيئاً ككاتب. كما كان من حين لآخر يُلقى بعض المحاضرات في النوادي الأدبية ويشارك في المناظرات الأدبية لعرض موهبته.

أما بالنسبة إلى أدلين ميرتون فعلينا أن نشير إلى أنها كانت من نوع المرأة التي يمكن أن تأسر قلب أي شاب لديه مثل ما لدى فينويك من طباع. كانت في كل من تصرفاتها وفي أسلوب حديثها من النوع الذي يحب الظهور، لكنها كانت في الحقيقة سطحية للغاية.

كانت مطالعاتها ومعلوماتها الأدبية تقتصر على الشعر وعلى الأدب البسيط الشائع في ذلك الوقت، بالإضافة ما كان لديها من بعض المعرفة السطحية بالتاريخ. كما كان بإمكانها إعادة ما تقرأ بأسلوب جذاب مُشوّق وبعده مقاطع من شعر هومر، فيرجل، ميلتون، شكسبير، باريون، وشيلي وغيرهم من الشعراء وأن تستشهد ببعض الأقوال المأثورة بكل ثقة بالنفس، هذا بالطبع عدا عما يميزها من العديد من الصفات الرائعة الأخرى...

كانت لقاء قديك الثاني بالآنسة أدليد قد أكدّ له الانطباع الجيد الأول الذي تكوّن في ذهنه عنها. وكان بعد اللقاء الثالث قد أغرم بها تقريباً بها كما كانت أدليد قد أغرمت به أيضاً بشكل كبير. ثم كان اللقاء الرابع قد قرّب بينهما أكثر فأكثر، أما في اللقاء الخامس فكان الحوار التالي قد جرى بينهما وهو ما وضع اللمسة الأخيرة على علاقتهما وما عزّز ذلك التواصل اللطيف بينهما.

كانا جالسين على الأريكة أمام الحديقة يتحدثان عن الشعر وعن العصفير والزهور وعن الحقول الخضراء وعن المناظر الطبيعية الرائعة وعن الكثير من الأمور الرومانسية الأخرى. تلا ذلك فترة صمت للحظات كان كل منهما قد

استغرق خلالها في أفكاره إلى أن قال الشاب أخيراً بصوت موسيقي خافت مُفعم بما يثير الشفقة:

"أدليد ألا تشعرين أحياناً وأنت تُحلقين بأفكارك في جمال الكون وتألقه بشيء من الوحدة؛ لأنه ليس بإمكان أي شخص آخر أن يشاركك بتلك البهجة الساحرة؟"

وكانت الشابة قد أجابته وهي تنظر إليه بتعبير من المحبة

"نعم هذا ما أشعر به في كثير من الأحيان."

قال الشاب: "ومع ذلك هناك القليل ممن لديهم مثل هذه المشاعر... هناك القليل

ممن بإمكانهم المشاركة بمثل تلك المتع الرفيعة."

كانت إجابة أدليد: "نعم هناك بالفعل القليل جداً من مثل أولئك الأشخاص"

وكان الشاب قد تابع حديثه بالقول:

"اعذريني أدليد إن قلت بأنه علي أن أدين لك بفضل بالاستماع بمثل هذه الأشياء

المبهجة. بالفعل نادراً... نادراً ما كان بإمكانني أن أعثر بين بنات جنسك الراقى على

إنسانة بإمكانها أن تشاركني الاستمتاع بهذه المتع الرفيعة. كنت وحدك من

تفهمت تماماً مشاعري وانسجمت معها."

وكانت أدليد عندما سمعت ما قاله قد أخفضت رأسها للحظة؛ لأن الموقف كان قد

أدى إلى أن يصطبغ وجهها بالحمرة. ثم التفتت ونظرت إليه وقالت بأسلوب

شاعري:

"عليّ أن أكون صادقة معك سيد فينيوك فأنا أيضاً إلى أن التقيتُ بك لم أكن قد

عرفتُ شخصاً يتمتع مثلك بهذا الأسلوب الراقى في التفكير وبمثل هذه المشاعر

الرفيعة."

تلا ذلك لحظة أخرى من الصمت والتأمل كانت أطول من الأولى، ثم كان شارل قد

قال بصوت مرتعش:

"أدليد أريد أن أعترف لك بأنني منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها همس صوتك إلى

مسامعي، قد شعرتُ بإحساس ينبثق في داخلي بأنك بالنسبة إليّ شقيقة الروح، ثم

بدأ ذلك الشعور يصبح أكثر فأكثر جلاء وأنا أشعر الآن بأنني مدفوعًا بقوة ليس بإمكانني مقاومتها لأن أعبر لك عن ذلك.

"أدليد! أرجو أن تعذريني على هذه الجرأة وأن تعلميني فيما إذا كنت قد تفهمتِ وقدرتِ ما عبرتُ عنه بكل صدق وإخلاص."

ولم تكن أدليد قد استغرقت الكثير من الوقت لكي تجيبه بما جعله يشعر بسعادة لم يسبق أن شعر بمثلها...

كان سعيدًا بذلك الحب العميق المتوهج المتبادل بينهما، وبما لدى كلاهما من رومانسية تتوافق مع نظرة كل منهما إلى الحب الحقيقي.

ولأنهما معًا يمثل تلك الرومانسية جعلهما يستخفان بكل ما يتعلق بأية أمور أخرى تتعلق بدراسة طباع الطرف الآخر وكانا قد اتحدا بتلك الثقة التلقائية العفوية التي تتكون عادة لدى المحبين من شعور كل منهما نحو الآخر... ثقة لا يمكن أن يزعزعا شيء. وبذلك رهنا نفسيهما لتلك العاطفة دون الالتفات إلى الصفات الأخلاقية الأخرى لكل منهما ودون أن يكون لدى كلٍّ منهما أية فكرة واضحة بما يتعلق بالحياة الزوجية ومسؤولياتها.

كان بضعة أشهر كافية لاستكمال الاتحاد الكامل بينهما بالزواج. كان والد إدوار بناء على رغبة العروسين قد أعد لهما بيتًا جميلًا كانت تكاليف تأثيثه بأفخر المفروشات قد وصلت إلى مبلغ كبير مرتفع للغاية.

لكن شارل فينويك لم يكن بعد ذلك قد أبدى أي ميل لممارسة مهنة الطب التي كان قد اختارها رغم تشجيع والده المستمر له ورغم حثه بلطف على ضرورة ممارسة تلك المهنة. لكن وعلى الرغم من أن شارل لم يكن لديه أي اعتراض على لقب طبيب الذي كان يجده لقبًا رفيعًا جديرًا به، لم يكن قد تقبل فكرة أن يصبح طبيبًا عاديًا يمارس تلك المهنة...

كان يقول أحيانًا لزوجته:

"أتساءل لم أكن قد اخترتُ مهنة رجل القانون، بحيث يكون بإمكانني أن أحتل مكانتي في المجتمع، لكن أن ادفن نفسي في مهنة الطب وأن أكتفي بالتنقل من منزل

لآخر وبالسهر إلى جانب أسرة المرضى يعتبر تضحية كبيرة بما لدي من مواهب. ليس بإمكانني حتى أن أفكر بذلك دون اشمئزاز. " وكانت إجابة زوجه دومًا: "ولا أنا أيضًا. فليس بإمكانني على الإطلاق الإقرار عليك في مثل ذلك التضييع لمواهبك. "

ثم كانت قد سألته ذات يوم: "شارل! أليس بإمكانك أن تدرس الآن القانون. أنا متأكدة بأنه من السهل عليك - بما لديك من أسلوب سليم في التفكير ومن كفاءة - أن تتقدم لامتحانات الدراسات القانونية؟"

وكان زوجها قد أجابها وهو يُمعن التفكير بالأمر: "أرى بأنه اقتراح جيد. كل ما أحтаجه هو سنة أو ثمانية عشر شهرًا للتحضير لتلك الامتحانات، وسوف يكون بإمكانني بعد ذلك أن أحتل لنفسني مكانتي في الصف الأول مع من يمارسون تلك المهنة. "

وكان شارل فينيوك قد تبنى لسرعة اقتراح زوجته والتحق ببرنامج في الدراسات القانونية وكان قد استطاع الحصول على لقب محامي خلال عامين. كانت جميع الأمور بالنسبة للزوجين الشابين إلى ذلك الوقت لا تزال تسير بكل سهولة ويُسر. منزل جميل مؤثث بأفخر الأثاث يقوم على خدمته ثلاثة من الخدم، ولم يكن لدى شارل أي اهتمام أو قلق بما يتعلق بالأمور المالية مادام السيد فينيوك الأب على استعداد دائم لتزويد الزوجين الشابين بكل ما يحتاجانه من مال. كما كانت جولة في أية مؤسسة ثقافية تحتوي على جميع المنشورات والدوريات الحديثة قد ضمنت لهما المزيد من الاطلاع والمحافظة على ذهن متوقد والمزيد من إمكانية التحدث في مختلف الأمور الثقافية ما جعلهما ينظران نظرة دونية إلى الأشخاص الذين يعيشون حياة عادية دون أية تطلعات ثقافية.

لكن لم يكن لكل ذلك أن يدوم طويلاً، كان شارل في اليوم الذي انتسب رسميًا فيه إلى نقابة المحامين قد تلقى رسالة من والده طلب فيها منه مقابله على الفور.

وكان قد توجه على الفور إلى منزل العائلة لتلبية لرغبة والده. كان الرجل العجوز عندما أصبحا بمفردهما قد بادره بالقول:

"شارل أصغ إلي! كنتُ حتى الآن ولسنوات ألبي كل متطلباتك وزودتك بكل ما تحتاجه من مال. فعلتُ ذلك بكل رضى؛ لأنني لم أكن قد أمتنع يوماً عن تأمين كل ما من شأنه أن يهيئك لأخذ مكانك المناسب في المجتمع. ولم أكن أيضاً قد منعتُ عنك أية مصروفات إضافية لأجل استكمال دراستك على الرغم من أنك انتسبت إلى كليتين: الطب والقانون...

وها قد أصبح بإمكانك الآن أن تتحمل مسؤوليتك ومسؤولية عائلتك. يؤسفني أن أعمالي قد بدأت منذ عامين بالتراجع بدلاً من أن تزدهر، رغم كل ما بذلته من جهود للحل لسنوات. وهو المركز الأقل الذي كنتُ قد وصلتُ إليه في المجال التجاري. وقد وصلتُ خسائري اليوم إلى الحد الذي لم يعد يُمكنني من أن أقدم إليك الدعم المادي كما فعلت لسنوات، وقد لا أستطيع حتى تأمين مصروفات عائلتي. لذا عليك الآن أن تحتل مكانك في العالم بنفسك وأن تكافح كما فعلت أنا وكما يفعل كل من حولك بأن تبدأ الحياة العملية إما في مجال الطب أو في مجال القانون... سوف يكون بإمكانني أن أوفر لك من دخلي أربعة آلاف دولار سنوياً، وإن كان هذا المبلغ لا يقارن ولن يكون سوى مبلغ صغير بالمقارنة بما كنتُ أمنحه لك في السابق، وسيكون ذلك هذا خلال العامين القادمين فقط. عليك أنت الآن أن توفر ما يسدّ باقي احتياجاتك من مال ولاشك بأن بإمكانك أن تفعل ذلك بكل سهولة..."

أجاب الشاب وقد شحب وجهه:

"أبي! لكن كيف سيكون بإمكانني أن أعوض العجز نصف الإيجار... إيجار منزلنا وحده هو أربعة آلاف دولار."

قال والده: "أعلم ذلك شارل لكن ما هو الحل إذن؟ عليك أن تحصل على منزل بما لا يتجاوز نصف الإيجار الحالي. وعليك أيضاً أن تغير من أسلوب معيشتك بما يتناسب مما عليك من التزامات أخرى."

قال شارل: "ماذا؟ وأن أشوّه مكانتي في المجتمع؟ ليس بإمكانني أن أفعل ذلك أبداً"

قال الرجل العجوز - وهو ينظر إلى ولده ببعض الصرامة لم يكن قد عهده بها -:
 "شارل! تذكر بأن هذه المكانة في المجتمع لا تقف عليك أنت فقط. ففي الحقيقة
 كنتُ أنا من رفعت إليها بمساندتي لك طوال السنوات الماضية وأنا الآن على وشك
 الانسحاب؛ لذا عليك أنت إما أن ترفع أو أن تخفض من مستواك، وأنا مسرور بأن
 تكون الفرصة قد سنحت لك الآن بأن تفعل ذلك. وكلما فعلت ذلك أسرع كلما كان
 ذلك أفضل"

كان الأسلوب الجدّي والصارم الذي تحدث به العجوز فينيوك لولده والذي أعلمه
 بموجبه بتغيّر الظروف، في الحقيقة أن قد جرح مشاعره للغاية. كما كان قد فتح
 عينيه فجأة على الوضع الخطأ التي كان يحتله في المجتمع.
 وكان الابن قد أجاب بعد لحظات من التفكير بكل ألم بما سمعه من والده:
 "أبي! من المؤكد أنك لا يمكن أن تكون جدّيًا بما قلته عندما صرحت بأنك تعتزم أن
 ترمي لي بمبلغ ضئيل زهيد لا يتجاوز الأربعة آلاف دولار سنويًا قبل أن تكون لديّ
 الفرصة بأن أفعل شيئًا لنفسي. كيف سيكون بإمكانني أن أتدبر أموري بمثل ذلك
 المبلغ؟"

قال والده: "لستُ أتوقع منك أن تعيش على هذا المبلغ شارل! وإنما أن تتدبر بنفسك
 ما تحتاجه من مال إضافي. لديك المؤهلات ولديك الإمكانيات وكل ما عليك هو أن
 تستخدمها في نشاط مفيد، ولن تكون في حاجة حتى للقليل من مساندتي لك
 مادّيًا."

أما بالنسبة إليّ فكما أعلمتُك، لقد أصبح مدّ النجاح الآن ضديّ وأنا أتوجّه نحو الموج
 العاتي؛ لذا فإن مبلغ الأربعة آلاف دولار هو أقصى مبلغ بإمكانني أن أمنحه لك
 ويعلم الله كم من الوقت سيكون بإمكانني أن أفعل ذلك..."
 وبذلك كان على الزوجين الشابين رغما عنهما أن يتخلّيا عن ذلك البذخ وعن ذلك
 المنزل الفخم، وان ينتقلا إلى منزل لا تتجاوز مساحته نصف مساحة المنزل الذي
 كانا يقيمان فيه...

وعلى الرغم من أنهما أذعنا لذلك التغيير إلا أن ذلك كان قد تسبب لهما بصدمة مثبطة. كان السيد فينويك العجوز وزوجته هما من اختارا لهما المنزل الجديد، كما ساعدا في جميع الترتيبات المتعلقة بالانتقال إليه وكذلك باختيار الأثاث إلخ... ذلك لأن شارل كان يعتبر أن مشاركته في عملية نقل أثاث المنزل أمراً مهيناً. أما بالنسبة لزوجته أدليد فلم تكن تعلم شيئاً عن كيفية القيام بهذه الأمور، كما أنها أيضاً كانت تعتبر بأن مثل تلك المهمة ليست من مستواها.

كانت أدليد أثناء التغليف والإعداد لنقل الأثاث - الذي تم تحت إشراف والددة زوجها - مستلقية على الأريكة تطالع آخر ما تم نشره من قصص بينما كانت طفلتها بين يدي المربية ما كان يمنعها من المساهمة مع والددة زوجها في تلك الترتيبات، أما زوجها فكان أثناء ذلك خارج المنزل في زيارة لمكتب أحد الأصدقاء وكان يناقش معه جدارة الشاعر بايرون والشاعر شيلي...

كانت والددة زوجها بعد انتهت عملية الانتقال إلى المنزل الجديد وبعد أن تمت جميع الترتيبات على أحسن وجه قد بادرتها بالقول:

"أدليد، سوف يكون من الضروري أن تتخلي عن عمل كل من المربية والخادمة فلن يكون بإمكان شارل في الوضع المالي الذي هو فيه أن يتحمل كل هذه النفقات."

وكانت أدليد قد أجابت - وهي تنظر إلى والددة زوجها باستغراب -:
"أن أتخلي عن المربية والخادمة؟"

أجابت السيد فينويك بشيء من الصرامة:

"بالتأكيد أدليد فليس بإمكانكم الآن أن توفرُوا من المال ما يغطي أجور ثلاثة من الخدم..."

قالت أدليد: "ولكن كيف سيكون بإمكانني أن أتدبر أموري بدونهم؟ أظنك تدركين بأنه ليس بإمكانني أن أكون المربية والخادمة؟"

وكانت إجابة السيدة فينويك:

"بإمكانك ذلك بمثل هذه العائلة الصغيرة. بإمكانك تكليف الطاهية بتنظيف الغرف أما بالنسبة للمربية فأعتقد بأنك لن تجدي متعة أكبر من عنايتك بابنتك الصغيرة. لم أكن قد استعنتُ بأية مربية وإنما كنتُ أرى أولادي بنفسى... قالت أدليد - وقد بدأت تبكي :-

"لا فائدة من أن تطلبي مني ذلك فلن يكون بإمكانى أن أتخلى عن المربية؛ لأنه ليس بإمكانى حتى أن أساعد الصغيرة في ارتداء ملابسها." كانت إجابة السيدة فينيوك بتصميم:

"سيكون من الأفضل لك أن تتعلمي ذلك بسرعة."

لكن لم تكن لدى أدليد أية نية للتخلي عن المربية أو الخادمة، وإنما كانت قد احتفظت بهما على الرغم من اعتراض والدتها زوجها.

أما عن شارل فكانت الحاجة الماسة قد جعلته يفتح مكتب حمامة ويعلن عن ذلك. كان من حاولوا قبله أن يجدوا مكانتهم في تلك المدينة الكبيرة قد تفهموا أسف شارل فينيوك الذي لم يكن قد حصل على الفور على ما كان يرغب به من المتميز عندما كان لأسباب قاهرة قد أجبر على ممارسة مهنته. كان كل ما حصل عليه خلال الأشهر الثلاث الأولى هو عدد قليل من الدعاوى وبالتالي القليل من الأجور ما جعله في نهاية الشهر الرابع يجد نفسه مدينًا للمصرف وللحام وللخياط وللخدم الثلاث الذين كانت زوجته قد احتفظت بهم بكل عناد..

وكانت الأمور قد ساءت أكثر بتراجع أعمال والده بالتدريج إلى أن تم إعلان إفلاسه وبذلك كان الرجل العجوز، وقد أصبح في العد التنازلي لسني حياته أن يكافح بكل قواه لتأمين سبل العيش لعائلته الكبيرة التي تعتمد عليه كليًا.

كان من حسن الحظ أن قدمت له شركة التأمين تعويضًا بمبلغ خمسة عشر دولارًا في العام وهو مبلغ لا يكاد يكفيه لتأمين سبل العيش لن هم الأصغر سنًا من أولاده. وبذلك كان عليه أن يتخلى عن دعم شارل ماديًا وأن يتركه يواجه مسؤوليته بالكامل عن نفسه وعن زوجته وعن طفلتهما.

كانت مطالبة الدائنين لشارل بسداد ما عليه من ديون متراكمة أكثر من طاقة احتمال ذلك الشاب لكن الدائنين لا يراعون مشاعر المدينين، وبذلك كان كل منهم يلاحقه بإصرار وأحياناً ببعض الإهانة ما جعل شارل يصل إلى مرحلة شديدة من التوتر خاصة عندما وصل الأمر إلى الحجوزات، ثم تلا ذلك مطالبته أمام القضاء بسداد ديونه، مما تسبب لشارل بضربة قاسية وبمعاناة لم يسبق أن تعرض لمثلها. كما كانت هناك إضافة لذلك مطالبة مالك البيت الذي يقيم فيه بالإيجار المتأخر التي تلاها الحجز على ما لديه من ممتلكات ومن أثاث لتحصيل الدين لكن المبلغ الذي ساهم به والده كان مع ذلك قد أنقذ الابن من ذلك الذل والخزي، رغم أن ما وصلت إليه الأمور كان من شأنه القضاء على كلما كان فيه من راحة وسكينة في حياته العائلية.

لم يعد شارل - وهو في ذلك الوضع وفي تلك الحالة من الاضطراب و القلق حول وضعه الحالي وحول ما ينتظره في المستقبل - يتعامل مع زوجته بذات الأسلوب الرومانسي الرقيق، وكان ذلك ما تسبب لها بالطبع بحزن عميق. لكن أدليد كانت قد وجدت ما يعزيها بالالتفات إلى عالم الرومانسية المحضة بالاختلاط مع من هم من طبقتها الاجتماعية، وبذلك كانت تمضي معظم وقتها غافلة عن واجباتها وعن متطلبات المحبة والحنان لعائلتها.

وكان مرور عام واحد كافياً لتحطيمهما ولإفلاس شارل حيث كانت المصروفات أكثر من واردهما كما أن والد شارل لم يعد بإمكانه سدّ الديون المترتبة على شارل وتحرير ما تم الحجز عليه. وكان على شارل بذلك أن يبيع الأثاث والمكتبة. وكان قد اضطر هو وزوجته وطفلتهمما للذهاب للعيش في منزل السيد فينيوك العجوز. وظلّ هو وزوجته وطفلتهمما على كاهله، ولم يكن شارل قد حقق الكثير من النجاح في مهنة المحاماة وكان لا يزال يرفض الدعاوى القليلة الأهمية وكان أصحاب الدعاوى ذات الأهمية بذات الوقت قد اعرضوا عن التعامل مع محامٍ لم يكن قد أثبتت جدارته بعد...

كان الأب والأم قد توفيا فجأة في نهاية السنوات الأربع ما جعل شارل يجد نفسه وحيداً تماماً في مواجهة العالم وبما عليه من واجبات. ثم توالى الخسائر إلى أن وجد شارل وزوجته نفسيهما في منزل صغير في منطقة متواضعة من المدينة وضعا فيه القليل مما تبقى لديهما من أثاث. وكان شارل ذات صباح بعد فترة من الاستغراق مؤلم في التفكير بما مر به قد قال لزوجته:

"أدليد!"

أجابته زوجته وهي ترفع عينيها عن الكتاب الذي كانت تطالعه:

"حسناً ما الذي تريده شارل؟"

قال شارل: "أريدك أن تضعي هذا الكتاب جانباً؛ لأنني أرغب بالتحدث إليك لبعض الوقت."

أجابته زوجته: "أليس بإمكانك أن تفعل ذلك في وقت آخر؟ لأنني وصلتُ في مطالعة هذه المسرحية إلى المشهد الأكثر إثارة."

قال شارل: "لا. أريد التحدث إليك الآن وعلى الفور."

قالت زوجته - وهي تغلق الكتاب وتضع إصبعها على الصفحة التي كانت تطالعهها -:

"حسناً تحدثّ."

قال زوجها: "هناك شاغر لمدرس في على بعد عشرين ميلاً من المدينة. الراتب هو ثمانية آلاف دولار سنوياً، كما سيتم تخصيصه بمنزل وحديقة. بإمكانني الحصول عليه بسهولة وقد قررتُ أن أقبل العرض."

قالت زوجته: "هل تعتزم أن تتنازل إلى مستوى مدرس في الريف؟"

قال شارل فينويك بمرارة:

"هذا لكي يكون بإمكانني أن أساند عائلتي بطريقة مريحة شريفة."

قالت زوجته:

"ما هي تلك الراحة التي سوف تحصل عليها عائلتك في سجن من قرية ريفية منعزلة بعيداً عن مجتمع مُتجانس ملائم. أنا أعجب كيف يمكن أن تخطر مثل هذه الفكرة ببالك."

قال شارل: "أدليد! يبدو أنه ليس بإمكانني أن أوفق في عملي في مجال المحاماة؛ لذا عليّ أن أقبل - وهذا لبضع سنوات فقط وليس لعدة سنوات - كما أنني لستُ مسروراً جداً لذلك لكن للضرورة أحكامها، أن ابحت عن مجال آخر للعمل لكي يكون بإمكانني تأمين الاحتياجات الأساسية لعائلتي." قالت أدليد: "لكن بإمكانك بالتأكيد الحصول على شيء أفضل من عمل مدرس لأولاد أولئك الأغبياء."

قال شارل بتوتر: "لتقترحي علي إذن ما علي القيام به من عمل." أجابت أدليد: "لا أعتقد بأن بإمكانني ذلك. عليك أنت تفكر بذلك." وكانت السيدة فينيوك بعد ذلك قد فتحت كتابها من جديد وعادت للمطالعة بكل اهتمام وبهجة.

كان زوجها قد شعر بالغضب وحتى بالاشمئزاز من أسلوبها في الحديث ومن ردّة فعلها اللامبالية كما شعر بالرغبة بتأنيبها بشدة لكنه كتم غيظه، وكان بعد بضع دقائق قد نهض وغادر المنزل، لكن زوجته بما كانت فيه من استغراق بالمطالعة لم تكن حتى قد التفتت إلى ذلك.

بعد وصول شارل إلى مكتبه بدقائق دخل إلى المكتب أحد العاملين في إدارة الحجز وقال له:

"عمت صباحاً سيد فينيوك."

ماذا بشأن الموعد المحدد لدعوى الحجز في الساعة الرابعة من بعد الظهر؟" قال شارل فينيوك: "حسنًا جون فلتُعلم السيد فليست بأنه ليست لدي أية إمكانية لسداد الدين الآن."

قال جون: "حاول سيد فينيوك... افعل كل ما بإمكانك لأن المدعي في غاية التوتر وسوف يجعل الأمور تصل إلى وضع مؤسف"

قال شارل: "هذا أمر مؤسف جدًا بالنسبة إليّ لكن دعه يفعل ما يريد." قال ساعي المحكمة: "فإذن قد يكون من الأفضل لك سيد فينويك أن تأتي برفقة حرس؛ لأن أوامري هي أن يتم التنفيذ على شخصك بالذات وعلى الفور من صدور قرار المحكمة."

شحب وجه شارل وبدأ يرتجف وقال فجأة وهو ينهض على قدميه وينظر إلى ساعي المحكمة المتواضع:

"أعتقد أنك لست جادًا جون؛ لأن السيد ... لن يوصل الأمور إلى ذلك الحد." قال جون: "هذا ما صرّح به سيدي؛ لذا عليك أن تهیی نفسك لمثل ذلك الحدث المؤسف،"

كان الدين الذي يطالب به المرتهن يصل إلى مبلغ التسعين دولارًا، وكان السيد فينويك قد أمضى اليوم بكامله وهو يحاول أن يحصل على كفيل لسند الدين لكن جهوده كانت دون جدوى.

كان أصدقاؤه يعلمون جيدًا بأنه لن يتمكن من حمايتهم من الخسارة لو تدخلوا بينه وبين القانون، وبذلك ظهر الواقع البعيد عن الرومانسية فلم يكن لكل تلك المواهب ولا للثقافة ولا للأساليب الرفيعة والشعر الراقى فائدتها. حتى أن الكثيرين ممن كانوا من الأصدقاء امتنعوا عن مساعدة ذلك الشخص المفلس، أما من لم يكونوا قد نأوا بأنفسهم عنه أو من تجنبونه فقد فقدوا الكثير من مودتهم تجاهه.

كانت مجرد فكرة احتجازه في السجن بسبب العجز عن سداد الديون قد تسببت لشارل بألم رهيب. كانت قد غمرت قلبه بالأسى وجعلته ينهار تمامًا. لكنه مع ذلك لم يكن عندما عاد مساء ذلك اليوم إلى منزله، قد أعلم زوجته بشيء. كان كل ما كان بينهما من تلك المشاعر الرفيعة قد تحول إلى برود وعدم تعاطف. كان قد وجدها مستغرقة تمامًا كعادتها في مطالعة إحدى القصص الرومانسية ي الوقت الذي كان فيه كل شيء حولها في فوضى مفرقة.

فعلى الرغم من أنهما كانا يعيشان في غرفتين صغيرتين كانت أدليد مع ذلك تجد أن من العسير عليها جدًا المحافظة على ترتيب الغرفتين وبأن ذلك ليس من وجباتهما العائلية، ما جعلها لا تقوم بها على الوجه المطلوب. كان فينويك عندما عاد قد وجد بأن أطباق الوجبة الصباحية لازالت منتشرة على المائدة دون غسيل.

كانت أدليد وهي تتنهد قد تركت جانبًا بأسف الكتاب الذي كان بين يديها على الفور من عودة زوجها وبدأت بإعداد وجبة العشاء التي أصبحت جاهزة بسرعة. تناولوا وجبتهم بصمت ماعدا ما كان يتخلله ما تقوله ابنتهما الصغيرة، وكانت أدليد بعد ذلك قد وضعت الصغيرة أنا في سريرها رغمًا عنها ثم عادت إلى مطالعة الكتاب الذي كان بين يديها قبل عودة زوجها.

كان شارل كلما وقع نظره عليها يشعر بالتعاسة وبالوحدة وبأن تكون تلك الزوجة مستغرقة بمتعة المطالعة بأنانية بينما كان قلبه يكاد ينفطر من الماراة كلما عاد إلى ذهنه ما تعرض وما سيتعرض إليه من إذلال...

كان يرغب بفعل أي شيء لكن وأسفاه! لم يكن بكل ما لديه من مقدرة فكرية ومن ذكاء قادرًا على فعل أي شيء. وفي صباح اليوم التالي كان شارل قد نهض من فراشه بعد ليلة من السهاد بعد أن كانت قاربت الساعة الحادية عشرة. ولم تكن أدليد مع ذلك قد انتهت بعد من إعداد وجبة الإفطار.

وكانت أدليد بعد ذلك حتى دون أن تساعد أنا في ارتداء ملابسها، قد عادت من جديد إلى المطالعة، بينما كان زوجها قد استسلم لتفكيره باكتئاب شديد وحزن. كان يخشى الخروج ويخشى من مقابلة أول شخص سوف يصادفه فقد يكون ذلك الشخص أحد عناصر الشرطة مع أمر بالقبض عليه لتحرير الدين، إلى أن كان بعد اقتربت الساعة من الواحدة ظهرًا كان قد وصل إلى حدٍّ من المرض لشدة ما كان فيه من كآبة، وبذلك قرر الخروج.

خرج شارل من المنزل الذي لم يعد يلقي فيه حتى العزاء، لكنه لم يكن قد قطع بعد عشر خطوات إلا وكان أحد عناصر الشرطة قد قبض عليه وأودعه السجن...

مرت عدة ساعات قبل أن يتمكن شارل من السيطرة على مشاعره ويبدأ بالتفكير بأية طريقة لتحرير نفسه من هذا السجن. كان ذهنه في ذلك الاحتجاز بين جدران السجن قد فتح عينيه على الأسلوب الخاطئ الذي كان ينظر من خلاله للأمور حتى ذلك اليوم. كانت نظراته وتطلعاته الرومانسية غير الواقعية للحياة قد أفسدت حياته. كان قد يشعر بالكثير من الإذلال مما تعرّض إليه ومن وضعه الحالي كسجين تم احتجازه في السجن لعجزه عن سداد الديون.

وكان شارل قرب المساء قد تساءل:

"ما الذي عليّ أن أفعله؟"

كان قد صمم على اكتشاف أفضل طريقة للتصرف وأن يواصل جهوده دون تردد ودون تراجع بسبب أية تأثيرات خارجية. كانت زوجته قد خطرت بباله في تلك اللحظة.

وتساءل:

"هل عليّ أن أرسل إليها حاشية أعلمها فيها عن مكان وجودي. وكانت الإجابة قد تواردت إلى ذهنه بعد لحظات أن قال بصوت مرتفع وقد غمره شعور بالألم:

"لا زوجتي في الحقيقة أنانية ولن يكون لذلك أهمية كبيرة بالنسبة إليها فهي لم تعد تهتم بمقدار ما أعانيه."

لكن فينويك كان مخطئاً في ذلك؛ لأن زوجته أدليد كانت في الحقيقة مثله في حاجة لصدمة كبيرة تجعلها تفتح عينيها وتدرّك الحقيقة... كانت تلك الصدمة عندما علمت صباح اليوم التالي بعد ليلة أمضتها بالوساوس وبتوجس الشر بأن زوجها في السجن، وبأنه سجن لعجزه عن سداد ما عليه من ديون، وبذلك كانت قد أسرع على الفور إلى السجن يملأ قلبها إحساس صادق بالأسى.

كانت المقابلة بينها وبين زوجها قد أعادت إليهما ما كان بكل أسف قد بهت لفترة طويلة من تلك المشاعر الدافئة التي تربط بينهما لكن ليلة واحدة كانت كفيلة بإيقاظ تلك المشاعر من جديد....

كان شارل قد خرج بعد ذلك من السجن بدعوى عدم الإفلاس لعدم السيولة النقدية ما أعفاه من سداد جميع ما كان عليه من ديون سابقة. لكنه كان منذ خروجه من السجن قد اتخذ قراره بشأن مستقبله لكنه كان مع ذلك لا يزال قلقًا بشأن موقف زوجته من الأمر؛ لذا سألها بينما كانت جالسة إلى جانبه مُمسكة بيده بكل تعاطف:

"أدليد! ما الذي علينا أن نفعله الآن؟"

سألته زوجته بكل اهتمام وصدق:

"ألا زال بإمكانك الحصول على تلك الوظيفة في مدرسة القرية؟"

أجاب شارل: "نعم لا زال العرض قائمًا."

حينئذ قالت أدليد:

"اقبل العرض شارل! اقبله يا شارل! فيكفينا درس واحد مدى الحياة. أنا راضية الآن ومسرورة؛ لأننا لم نكن قد بحثنا عن السعادة في الممرات المظلمة."

وكان شارل قد قبل عرض العمل في تلك القرية بكل تواضع وكان كلاهما قد قرر الاكتفاء بالقليل وعلى أن يبدأ حياتهما من أول السلم...

كان شارل بعد يضاع سنوات قد أصبح مديرًا لتلك المدرسة بعد أن أثبت كل جدارة في عمله، كما كانت أدليد قد أخذت بالتدريج دورها في الحياة الاجتماعية في تلك القرية كما أخذت دورها الأكثر أهمية بأدائها واجباتها العائلية على أكمل وجه، وكانت قد وجدت في الحياة الواقعية سعادة أكبر بكثير من حياة الرومانسية والخيال...

الأمل الضائع

قالت إيما مارتن التي هي طفلة في العاشرة لوالدتها التي كانت جالسة في وضعية من الاستغراق والتأمل أمام طاولة في منتصف الغرفة بعد أن وضعت عليها الخادمة المصباح:

"هل ترغبين بأن أقرأ لك أمي؟"

بدا على السيدة مارتن وكأنها لم تسمع ما قالته الطفلة؛ لأنها لم تكن قد أتت بأية حركة كما لم يكن أي شيء قد تغير في التعبير الحالم الذي كان على وجهها. كررت الطفلة السؤال بعد بضع لحظات وكانت بذات الوقت قد وضعت رأسها برفق على كتف والدتها.

سألته السيدة مارتن بصوت رقيق وهي تنهض:

"ما الذي قلته حبيبتي؟"

كررت الطفلة سؤالها: "أمي! هل ترغبين بأن أقرأ لك؟"

قالت الأم بشيء من الأسى وقد انخفض صوتها:

"لا... لكن... نعم حبيبتي! بإمكانك أن تقرأني لي."

"ما الذي ترغبين بأن أقرأه لك أمي؟"

أجابت السيدة مارتن: "اجلبي الكتاب المقدس وقرئي لي في هذا الكتاب الجيد."

قالت إيما - وهي تجلب الكتاب وتبدأ بتقليب صفحاته -:

"أنا أحب القراءة في هذا الكتاب."

ثم بدأت تقرأ فصلاً بعد فصل بينما كانت الأم تُصغي إليها بكل استغراق وهي ترفع رأسها إلى السماء من وقت لآخر وتهمس بابتهال صامت. وكانت إيما قد بدأت تتعب آخر الأمر وبذلك أغلقت الكتاب.

وبذلك قالت السيدة مارتن التي لاحظت علامات التعب على الطفلة:

"حان الوقت لذهابك إلى فراشك حبيبتي."

قالت الطفلة - وهي ترفع وجهها البريء نحو وجه والدتها -: "قبّليني أمي!" وكانت قد تمنّت لوالدتها ليلة سعيدة وانسحبت إلى غرفتها. بعد أن غادرت الطفلة الغرفة تمتمت السيدة مارتن: "يا للطفلة الحبيبة! أشعر بقلبي ينفطر من الأسى كلما فكرت بالمستقبل المبهّم المظلم الذي ينتظرها!"

ثم أسندت رأسها على ذراعها وجلست باستغراق عميق مؤلم وظلت بهذا الوضع مدة طويلة إلى أن أعلنت الساعة وبذلك كانت قد نهضت وهي تتنهد وبدأت تذرّع الغرفة جيئةً وذهابًا. كانت من وقت لآخر تتوقف وتصغي إلى صوت وقع الأقدام في الشارع ثم تعود لما كانت فيه عندما يبتعد ذك الصوت. استمرت بذلك حتى الساعة الحادية عشر ليلاً إلى أن سمعت أحدهم يقترب ويتوقف أمام الباب. فتحت الباب لكي تستقبل ذلك الشخص.

لكنها كانت قد توقفت رغماً عنها أمام باب الردهة الذي ظل مفتوحاً. وبدأت ترتجف. كانت قد أدركت بنظرة ألقتها على وجه الشخص الذي دخل من الباب بأن قلقها كان لم يكن ضرورياً إلى ذلك الحد.

قالت وقد بدأت الدموع تنفر من عينيها على الرغم من الجهد الذي كانت تبذله للسيطرة على مشاعرها:

"أووّه... جيمس أنا سعيدة جداً لمجيئك!"

قال زوجها ببعض الدهشة وهو ينظر بتساؤل إلى وجهها: "لِمَ أنت مضطربة بهذا الشكل؟"

أسندت رأسها على كتفه واستمرت بالبكاء وقالت:

"لقد تأخرت كثيراً... وأنت تعرف بأنني أصبح مخبولة أحياناً."

وكان السيد مارتن على الفور وكان قد وقف دون حراك لبضع دقائق يبدو عليه الاستغراق في التفكير بينما كانت زوجته لاتزال تسند رأسها على كتفه، ثم أحاطها بذراعيه وقال:

"ماري أنا لستُ ثملاً"

وأجابته: "لا تتحدث عن ذلك جيمس. أنا الآن سعيدة!".
 "بل عليّ أن أتحدث عن ذلك الآن". وجانبها، ثم قال ذلك وقد أجلسها على الأريكة
 وجلس إلى جانبها ثم ثبّت نظره على وجهها واستأنف حديثه:
 "حبيبتي! أصغِ إليّ قررتُ ألا أتذوق بعد الآن تلك الخمر البغيضة التي حطمت حياتنا
 تمامًا."

أجابت السيدة مارتن وقد تغير تعبير وجهها، الأمر الذي أشبهه بأرض أشرقت عليها
 الشمس في يوم غائم:

"أوووه... جيمس، كم مقدار الثقل الذي أنزلته عن قلبي بما قلته الآن. لم يكن هناك
 ما يُعكر صفو حياتي سوى هذا الأمر الذي كان مع ذلك أكثر من طاقة احتمالي."
 قال زوجها: "ليس عليك أن تقلقي بعد الآن. يبدو أنني كنتُ لبضعة أشهر تحت
 تأثير وهم غريب، لكنني استيقظتُ منه الآن وأدركتُ تلك الهاوية الخطيرة التي
 كنت أقف عليها؛ لذا أخذتُ عهدًا مقدسًا على نفسي اعتبارًا من الليلة ألا أعود إلى
 تناول أي من المشروبات الروحية."

قالت زوجته: "ليس هناك ما يريحني أكثر مما قلتُ. فنذير الشر يتسبب لي بالأسي
 طوال هذه الليلة، فقد أصبحت طفلتنا العزيزة الصغيرة الآن في السن الذي تجعلني
 أفكر باستمرار ليلاً ونهارًا بمستقبلها. كنتُ قد تساءلتُ مرة بعد مرة هل
 ستتزوج؟ لكن لم يكن بإمكانني أن أطمئن نفسي وسوف أعلمك عن السبب."
 قال زوجها: "لا داعيَ لأن تقلقي بعد الآن على هذا الأمر، فسوف أصبح رجلًا حرًا
 من جديد. وسوف أكون لك ولابتنتنا الغالية أفضل مما كنتُ في أي وقت مضى."
 وكانت السيدة مارتن قد رفعت رأسها وتوجهت إلى الله - تعالى - بدعاء صامت
 صدر من أعماق قلبها:

"أرجوك يا إلهي أن تساعد على الحفاظ على هذا العهد وعلى التمسك بهذا القرار."
 كان الأمل الضائع قد عاد وانتعش في قلبها. شعرت بان العاطفة التي كانت
 تجمعها بزوجها أيام زواجهما الأولى، قد تفتحت من جديد بذات العنفوان، وبذلك
 كان وجهها قد أشرق بالأمل وكانت الابتسامة قد عادت إلى شفثيها.

كان السيد مارتن بعد أربعة أشهر قابل أحد الأصدقاء لحضور حفلة صغيرة أقيمت تكريمًا لأديب جاء من مدينة قريبة لزيارة المدينة التي يُقيمون فيها. وبذلك قال لزوجته لدى مغادرته المنزل في الصباح:

"لن أعود اليوم إلى المنزل في موعد العشاء."

سألته زوجته: "لم لا جيمس؟"

"سوف أذهب لتناول العشاء مع بعض الأصدقاء."

لم تجب السيدة مارتن لكن سحابة من الخوف بدت على وجهها رغم الجهد الذي بذلته لكي تخفي ذلك.

قال زوجها وقد لاحظ التغيير الذي طرأ على وجهها:

"لا تقلقي ماري فلن أتناول أية مشروبات روحية. أنا أعلم ضعفي أمام الشراب؛ لذا سوف أكون على حذر."

وأجابت السيدة مارتن وهي تضع يدها على قلبها:

"أرجوك أن تحذر من ذلك لأجلي ولأجل ابنتنا."

قال زوجها - وهو يقبلها ويُغادر المنزل -:

"لا تقلقي ماري فسوف أحافظ على وعدي."

كم بدا ذلك اليوم طويلًا بالنسبة للسيدة مارتن!

ثم كان الوقت المعتاد لعودة زوجها قد حان كما تجاوزه، لكن زوجها لم يكن قد عاد. لم تتمكن السيدة مارتن من تناول عشاءها مع ابنتها، كانت تعدّ الساعات التي كانت تمرّ ببطء شديد إلى أن أشرق نور الفجر، لكنها كانت مع ذلك كانت تُطمئن نفسها وتقول:

"سوف يعود بعد قليل... سوف يعود ولن يكون ثملًا."

لكن مرت الدقائق ثم مرت الساعات ولم يكن زوجها قد عاد... بدأت ماري تشعر في أعماق بشعور غريب يُمزق قلبها، وكانت قد بدأت تتوجّس من شر يقترّب ما جعلها ترتعد وتشعر بأن سحابة سوداء قد غمرت روحها.

كان السيد مارتن في ذلك الوقت قد توجه إلى حفل العشاء وهو يعتزم ألا يتذوّق حتى قطرة واحدة من المشروبات الروحية. لكنه شعر برائحة النبيذ تجتذبه إلى أن فقد قدرته على المقاومة وبذلك بدأ يشرب... ويشرب... ويشرب... أشبه بمسافر أنهكه العطش وجد نفسه أمام نبع بارد.

وكانت الساعة قد قاربت التاسعة عندما حاول النهوض من أمام المائدة إلى أن كان قد حُمِل مع ثلاثة آخرين إلى الأريكة وهم في حالة من الثمالة الشديدة. مرت الساعات ساعة بعد أخرى، وكان قلق السدة مارتن يتزايد كل لحظة أكثر إلى أن دقت الساعة الثانية عشرة.

حدثت نفسها - وهي تنهض وتذرع الغرفة جيئة وذهاباً :-
"لِمَ ظلّ هناك إلى مثل هذا الوقت المتأخر؟"

استمرت بهذا الوضع لمدة ساعة وكانت من وقت لآخر تقف وتُصغي. ثم تذهب إلى الباب وتفتحه وتنظر باتجاه الطريق الذي يفترض أن يعود زوجها منها، لكنها لم تكن تشاهد أحداً وتعود بصمت إلى الغرفة إلى أن كسر حاجز الصمت صوت دقات الساعة معلنة الواحدة ليلاً، وبذلك لم يعد بإمكان السيدة مارتن أن تسيطر على مشاعرها، وارتمت على أحد المقاعد وبدأت تبكي وتبكي بصمت. ظلت دموعها تسيل من عينيها لمدة ساعة ثم سمعت دقات الساعة مشيرة إلى الثانية ليلاً، وبذلك فقدت كل ما كان لا يزال لديها حتى ذلك الوقت من أمل ضعيف بأن يعود زوجها، وبأن يكون هناك سبب آخر قد أدى إلى تأخره عما كانت تخشاه... لكنها عادت من جديد تذرع الغرفة جيئة وذهاباً - وهي تتمم بمرارة :-

"ضاع كل شيء!... نعم، ضاع كل شيء وضاع كل أمل..."

كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً عندما ذهبت تلك الزوجة المحطمة القلب الوحيدة إلى غرفتها.

كم كان من المرارة أن يتحطم ذلك الأمل الذي كان قد أشرق في حياتها خلال الأشهر الأخيرة؟

جلست السيدة مارتن تنتظر لساعة أخرى في غرفتها. كان كل شيء فيها ساكنًا يسوده صمت ثقيل جعلها تسمع دقات قلبها لكنها استمرت مع ذلك بالانتظار وبالإصغاء دون جدوى. كانت تصل إليها من الشارع من حين لآخر وقع أقدام تقترب من المنزل تُثير في نفسها للحظة بارقة أمل لكنها كانت تنطفئ بسرعة وتتركها من جديد في ظلمة الانتظار.

وكانت أخيرًا بعد طول الانتظار والترقب قد غرقت في النوم، ولم تكن قد استيقظت إلا بعد أن كان النهار قد طلع. شعرت بالتعب والبؤس يُنْهَك قواها ووجدت بأنها نامت في سريرها حتى دون أن تكون قد خلعت ملابسها وكانت الذكرى المؤلمة لما كانت فيه في الليلة السابقة قد عادت إلى ذاكرتها بضربات مؤلمة.

كانت لدى نزولها إلى الطابق السفلي قد وجدت زوجها مستلقيًا على الأريكة شبه مغمي عليه تفوح من رائحة الشراب. لكن شعورها بالواجب كان دافعها الأول رغم أنها كانت على وشك السقوط على الأرض لشدة ما كانت فيه من إرهاق ومن توتر ومن غضب ويأس. قالت وهي تحاول مساعدته على النهوض بصوت حاولت أن يكون هادئًا:

"جيمس! جيمس! استيقظ."

لكنها استغرقت وقتًا طويلًا لكي تتمكن من إيقاظه ومن جعله يدرك بأن عليه أن ينهض لكي يأوي إلى فراشه في الأعلى، إلى أن كانت أخيرًا بمساعدة الخدم قد تمكنت من حمله إلى فراشه حيث كان قد غرق هناك في نوم عميق.

وكانت إيما الصغيرة عندما جاءت إلى الغرفة بعد حوالي الساعة ووجدت والدها في فراشه قد سألتها:

"أمي! هل والدي مريض؟"

وأجابت السيدة مارتن بصوت هادئ:

"نعم حبيبتي! والدك ليس بخير."

ثم سألت الصغيرة من جديد: "ما الذي يؤلمه؟"

أجابت السيدة مارتن: "إنه ليس تمامًا بخير، لكنه سوف يشعر بالتحسن خلال وقت قصير."

حدقت الفتاة الصغيرة في وجه والدتها لبعض الوقت فلم تكن تلك الإجابة قد أقنعتها، فلم ترغب بتوجيه أسئلة أخرى، لكنها شعرت بأن هناك شيء أكثر خطراً من أن يكون والدها مريضاً.

كان النهار قد انتصف عندما استرد السيد مارتن وعيه تماماً وبذلك أدرك ما كان فيه، وحتى لو كان يبحث عن نسيان ما كان فيه الليلة السابقة من فسوق وانحطاط، كان الوجه الحزين الشاحب والمأساوي لزوجته التي كانت ترقبه بقلق قد أعاد إلى ذاكرته ما حدث وكيف كان سقوطه.

كانت مرارة إدانته لنفسه وشعوره بجرح كرامته كافيان لإثارة مشاعره ولجعله يشعر بالحزن والكآبة. شعر بحزن شديد لما تسبب به لزوجته من معاناة وتمنى أن يقول لها عبارة واحدة تعزيها لكن كبرياءه منعه من ذلك...

كان بعد أن تناول الغداء بصمت قد غادر المنزل وتوجه إلى عمله الاعتيادي. لكنه أثناء توجهه إلى عمله كان قد مر إلى جانب أحد الفنادق الفخمة التي كان من عادته يتناول الشراب فيها. كان يشعر ببؤس شديد وبحاجة إلى شيء يُغرق به مشاعر اليأس التي كانت تنتابه ما جعله يدخل إلى ذلك الفندق ويتناول عدة كؤوس من الشراب جعلته يشعر بأنه أصبح رجلاً جديداً.

ثم كان بعد الظهيرة قد تناول مجدداً الكثير من الشراب وبذلك كان عندما عاد إلى المنزل مساء لا يزال تحت تأثير الشراب، وقد زال كل ما كان لديه من تحفظ في الصباح... أخذ يتحدث مع زوجته عن مشاريع المستقبل وعن النجاح لكن وقع لك الكلمات والأحاديث البهيجة كان على قلبها بكل أسف، أشبه بشعاع من الشمس على جليد مُتجمّد، كان من الواضح جداً أن زوجها قد عاد إلى تناول الشراب إلى الحد الذي جعله حتى لا يعي الوضع الحقيقي الذي وصل إليه. كانت زوجته تتمنى ألف مرة أن تراه وقد سيطر عليه الندم لكي يتبقى لديها بعض ما يُعزيها من أمل..

ثم كان السيد مارتن يومًا لكي ينسى يتعاطى الشراب لكنه بذات الوقت كان يشعر كل صباح بالكثير من الأسى على وضعه إلى أن زال عنه حتى ذلك الشعور بالندم .. كان كل مساء يعود إلى منزله لكي يتسبب لزوجته من جديد بضربة جديدة أقسى مما سبقها من الألم...

لم يكن مثل ذلك الأسلوب في التصرف بالطبع قد مرّ دون أن يكون كل من في المنزل قد أدرك بأن السيدة مارتن تعاني وما جعل معاناتها تزداد أن الخدم وحتى الطفلة قد بدؤوا يرون ما هو فيه من انحطاط يوميًا بعد يوم.

كانت إيما قد بدأت تجفل لرؤية والدها عندما يعود مساءً إلى المنزل وتحاول أن تبعد عن قبلاته؛ مما يجعل السيد مارتن يتوتر في بعض الأحيان.

كان السيد مارتن ذات مساء عندما عاد إلى المنزل ثملًا أكثر من المعتاد وشاهد الطفلة تسرع بالابتعاد عنه، وهي خائفة قد سألها - وهو شبه غاضب -:

"لِمَ تبتعدين عني بهذه الطريقة إيما؟"

كانت الطفلة التي شعرت بالفزع قد صمتت ونظرت إلى والدتها في البداية ثم نظرت مجددًا إلى والدها بحياء.

قال والدها من جديد:

"تعالى إلى ذراعي إيما" وكان قد مدّ ذراعيه إليها.

وبذلك قالت لها والدتها:

"اذهبي إلى والدك عزيزتي."

ما جعل السيد مارتن يغضب ويقول:

"أعتقد بأن بإمكانها المجيء دون أن تطلبني منها ذلك وقال من جديد: "تعالى إيما!"

ثم كان وجهه قد اصطبغ بحمرة قانية لشدة الغضب والانفعال وقال وهو يسحبها نحوه بقوة:

"ماذا بك لِمَ لا تأتين إليّ عندما أطلب منك ذلك أعلميني ما هو السبب ألسيت تحبين والدك؟"

أجابت الطفلة بحياء:

"بلى سيدي."

"ألم أعلمك بأن عليك أن تطيعيني؟"

"بلى سيدي."

"فإذن لِمَ لَمْ تَأْتِ إليّ عندما طلبتُ منك ذلك؟"

لم تكن الطفلة قد أجابت لكن بدت عليها علامات الفزع الشديد.

قال والدها بصوت أعلى: "هل سمعتِ ما سألتُك عنه؟"

"نعم سيدي."

"فلتجيبيني إذن على الفور، لِمَ لا تأتيني إليّ عندما أطلب منك ذلك؟"

أجابت الطفلة بتردد وحياء: "لأن... لأن... لأنني كنتُ خائفة منك!"

كان ما قالته قد جعل الوالد يُدرك بأن في مظهره وفي تصرفه تحت تأثير الشراب ما يجعل الطفلة لا تخاف منه فقط، وإنما كان أيضاً قد بدأ يفقد محبتها له. كان قد تأثر جداً بذلك وبذلك كان أسلوبه في التصرف قد تغير على الفور رغم أنه كان لا يزال تحت تأثير الشراب.

لكنه دفع الطفلة بعيداً عنه، وقال بلهجة تبين أن مشاعره قد جُرحت:

"اذهبي إيما... اذهبي إلى والدتك. يبدو أن هذه الطفلة لم تعد تحب والدها ولم تعد تهتم بأي شيء يخصه."

وبذلك كانت الطفلة البائسة قد اندفعت إلى حضن والدتها وأخفت وجهها فيه وأخذت تبكي بنشيج كما لو أن قلبها قد تحطم.

أخذت السيدة مارتن بيد طفلتها واصطحبتها إلى غرفتها وكانت بعد أن قبلتها قد طلبت منها أن تبقى هناك إلى أن تجلب لها الخادمة طعام العشاء قبل أن تذهب للنوم.

لكن الطفلة قالت - وهي لا تزال تبكي بحرارة -:

"لستُ أرغب بأي طعام أُمي."

قالت لها والدتها: "لا تبكِ حبيبتي."

ثم قالت الطفلة وهي تنظر إلى وجه والدتها بشكل جدي لا تزال الدموع تسيل على خديها:

“أمي! أنا بالفعل أحب والدي. ألن تعلميه بذلك؟”

قالت والدتها: “بالطبع حبيبتي! سوف أعلمه بذلك على الفور.”

“ألن تطلبي منه أن يقبلني عندما سأذهب إلى سريري قبل النوم؟”

“نعم حبيبتي! سوف أطلب منه ذلك.”

“وهل سيفعل ذلك؟”

“نعم حبيبتي! سوف يأتي لتقبيلك بالطبع.”

وكانت السيدة مارتن قد بقيت إلى جانب الطفلة إلى أن هدأت مشاعرها ثم غادرت إلى الردهة بخطى مترددة.

كانت قد وجدت زوجها جالسًا بالقرب من النافذة وقد أسند رأسه بين يديه، وبذلك شعرت بغريزة المرأة بأن ذلك الرجل والأب الثمل كان بما حدث قد شعر بأن مشاعره قد جُرحت إلى حد كبير، وبأنه شعر بالإهانة، وهو الأمر الذي جعل قلب زوجته ينفطر من الأسى والحزن. ثم قالت:

“جيمس! تود إيما أن تذهب إليها لكي تقبلها بعد أن تأوي إلى فراشها كي تنام كما أنها قالت بأنها تحبك جدًا وطلبت مني أن أعلمك بذلك.”

لم يجب السيد مارتن كان هناك في نبرة صوت زوجته الكثير من الهدوء ومن المحبة والحنان ما جعله يلين تمامًا، ثم نهض بسرعة وقد صدر عنه نسيج وانسحب إلى غرفته...

لم تكن السيدة مارتن قد تبعته إلى هناك فقد أدركت بأن ما قالته كان له تأثيره عليه أكثر من أي شيء بإمكانها أن تقوله أو تفعله؛ لذا وجدت بأن من الحكمة أن تتركه مع أفكاره لكي تعمل عملها.

كان السيد مارتن عندما دخل إلى غرفته قد جلس بمفرده إلى جانب السرير ووضع رأسه على الوسادة، كان قد بدأ يصحو شيئًا فشيئًا ما جعله يدرك أكثر فأكثر حقيقة الموقف الذي كان فيه. لأن ذهنه كان لا يزال مُشوشًا إلى حد كبير؛ لأنه لم

يكن قد تخلص بعد من مفعول الشراب، ثم كان قد تنهد بعمق وهو يحاول أن يكتم نشيجاً كان قد صدر عنه لا إرادياً كان قد تذكر طفلته على الفور. طفلته الغالية... طفلته الغالية ثم ندم كثيراً، ثم استرجع تصرفها تجاهه وأدرك بأنه يبتعد عن نفسه، وبأنه يتسبب بالحزن لمن كانت بطبيعتها الرقيقة قد أثارت في قلبه مشاعر الحنان. تمت:

"ابنتي الغالية"، ثم نهض على الفور وتوجه إلى غرفتها. كانت إيما قد أوت إلى سريرها وكانت مستلقية فيه وقد انكمشت وأخفت وجهها تقريباً بين الملاءات. لكنها عندما سمعته يدخل الغرفة نهضت على الفور وقالت له عندما اقترب من سريرها:

"أووہ أبي!... أنا أحبك بالفعل وأحبك جداً..."

قال والدها - وهو يقبل جبينها وخديها بكل حنان :-

"وأنا أيضاً أحبك جداً."

سألتها الطفلة: "ألست تحب أُمي أيضاً؟"

أجابها: "أنا أحبها بالتأكيد. ولكن لم تسألين هذا السؤال؟"

قالت الطفلة: "لأنني أراها تبكي في كثير من الأحيان. هي تبكي كل يوم، كما أنها تكون دوماً قلقة ومضطربة عندما تعود إلى المنزل مساء. لم تكن هكذا في السابق. كانت في السابق تتحدث بسرور عن موعد عودتك، وكانت ترتدي ملابسها وتزين قبل مجيئك وعودتك. ألا تذكر بأننا كنا نخرج لاستقبالك في الشارع كلما اقترب موعد مجيئك؟ لم نعد نفعل ذلك الآن؟..."

كانت تلك الاستغاثة أشبه بسهم اخترق قلب السيد مارتن بأشد من الألم بحيث لم يعد يجد الكلمات التي سيجيب بها، وبذلك كان كل ما فعله هو أنه قبل الطفلة مرات ومرات وتمنى لها ليلة سعيدة، ثم عاد إلى غرفته وهو يشعر بتعاسة لم يسبق أن شعر بها طوال حياته...

كان قد مرّ على ارتباطه بالسيدة مارتن حوالي اثني عشر عاماً، كانا قد عقدا الآمال معاً على حياة هنيئة. كان في ذلك الوقت يحظى باحترام وتقدير كل من حوله. كان

رجلاً محترماً، لكن استلامه لإغراء الشراب بدأ بعد عامين من زواجهما. كان في البداية يشرب قليلاً ثم سقط شيئاً فشيئاً في هاوية الإدمان إلى أن أدركت السيدة مارتن بعد خمسة أعوام بأن زواجهما قد وصل إلى مرحلة الخطر. كان زوجها قد تسمم بالكحول بحيث لم يعد بإمكانه الوقوف على قدميه. كان قلبها خلال الأعوام الثلاث الأخيرة قد تحطم وهي تجد نفسها فجأة قد فقدت كل ما كان لديها من أحلام السعادة والأمان، بأنها وطفلتها قد أصبحتا على حافة الانهيار في هاوية عميقة...

وكانت شهراً بشهر وعاماً يعد عام تترقب ما سيحدث بأسى ما جعل نضارتها تذبل وجعل الضياء يزول من عينيها.

وأسفاه!... كيف ضاع الأمل؟ كيف ضاعت كل أمنياتها بالسعادة شيئاً فشيئاً؟ إلى أن قررت أخيراً أن تغامر بالتعبير عن غضبها وعن معارضتها ورفضها. وكان زوجها عندما فعلت ذلك قد بدأ يدرك ما وصل إليه، وأخذ يقدم الوعود بأن يصلح نفسه، وبذلك عادت تأمل بأن تصبح الأمور أفضل، وبدأ شعاع الأمل يضيء في نفسها من جديد لكن ذلك لم يدم طويلاً؛ لأن زوجها كان كلما حاول الإقلاع عن الشراب يعود من جديد إلى إدمانه.

حدث ذلك أكثر من عشر مرات ثم أخفق وكان في كل مرة يتوب ويُحيي الثقة والأمل في قلب زوجته بوعود بالامتناع عن الشراب في المستقبل ويعود الأمل من جديد إلى قلبها ثم يتضاءل شيئاً فشيئاً إلى أن فقدت الأمل تماماً في إصلاح زوجها.

وفي تلك الليلة كانت السيدة مارتن عندما جلست في غرفتها قد حدثت نفسها بأسى: "لم تعد لديّ أية بارقة أمل... لا أمل لديّ بعد الآن... لقد حاول عدة مرات وفشلت كل الجهود التي بذلتها للإقلاع عن الشراب..."

وكانت السيدة مارتن بعد مرور ساعة على ذهاب زوجها إلى غرفته قد نهضت وذهبت إلى غرفة إيما أولاً. كانت الطفلة غارقة بالنوم وعلى مُحيائها ابتسامة هادئة بريئة، كما لو أن في نفسها صور بهيجة جعلت روحها تشعر بالسكينة.

قبلت جبينها بحنان ثم ذهبت إلى غرفتها حيث كان السيد مارتن قد استغرق أيضاً في النوم.

ظلت مستيقظة لبضع ساعات إلى استطاعت أن تنام قرب الفجر وكانت عندما استيقظت في ساعة متأخرة قد وجدت بأن زوجها قد استيقظ وارتدى ملابسه. كان السيد مارتن جالساً إلى جانب السرير ينظر بنوع من الاستسلام والخضوع، وبهدوء وحنان.

وكان على الفور من فتحها عينيها قد تناول يدها وقال:

"ماري! هل بإمكانني أن أنال ثقتك من جديد أم أن كل أمل لديك قد خاب؟"

لم تجب السيدة مارتن وإنما كانت قد نظرت إلى زوجها بتساؤل...

قال زوجها من جديد:

"أنا أفهم موقفك. لقد توقفتُ تقريباً كلياً عن الأمل بإصلاحي. لستُ أستغرب ذلك؛ لأنني جعلتكُ تفقدين الثقة بي مرات، وكنتُ قد حنثتُ بعهودي لك، لكنني أؤكد لك الآن من جديد بأن الأمور سوف تصبح أفضل. بإمكانني أن أرى الآن بأن ما قلته لم يعد يُحرك أي شعور بالثقة والأمل لديك، لكنني الآن أعدك بكل صدق بأنني لن أتذوق الشراب بعد الآن ولن ألمس أية مشروبات كحولية، ولن أختلط بعد الآن بأي من رفاق السوء الذين يدعونني إلى جلسات الخمر، وسوف أتصرف ومن الآن فصاعداً بموجب مبدأ الابتعاد الكامل عن كل ما بإمكانه أن يُعيدني وبما يضمن حمايتي من الإدمان. فهل هناك مجال للنجاة بالنسبة إليّ؟..."

كان في حديث السيد مارتن وفي نبرة صوته الكثير من الصدق والجدية ما جعل السيدة مارتن التي كانت مُنهارة نفسياً تبدأ بالانتعاش، لمعت عيناها وعاد الدم إلى وجنيتها ثم بدأت دموعها تسيل بغزارة فقد كان الأمل الضائع قد بدأ يحيا من جديد...

وكان ذلك الأمل يزداد إشراقاً مع مرور الأيام كما كانت ثقتها بزوجها تزداد يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر. لم يكن السيد مارتن قد نقض

وعده لزوجته ولا مرة واحدة وكان قد ابتعد عن أي مشروب قد يعيده إلى حالة التسمم بالكحول وبذلك كان قد نجا من هاوية الإدمان والفساد....

الخطأ والصواب

ما يثير الاستغراب أن يكون الأشخاص الذين يتمسكون بحقوقهم الشخصية إلى حد كبير، والذين يحرصون كل الحرص على الحفاظ عليها، هم الأشخاص الذين ليس لديهم سوى مفهوم مُبهم بكل ما يتعلق بحقوق الآخرين، فهم أمثال التاجر الذي لديه دومًا النزعة إلى الاعتقاد بأن من حقه أن يحصل من الزبائن على أكثر مما هو من حقه...

وتُعتبر السيدة بربارا أوهلر أحد الأمثلة الحيّة على ذلك، فعلى الرغم من أنه ليس بإمكاننا أن نُصنفها تمامًا ضمن فئة النساء المُتعاليات - نساء هذا العصر - لكنها كانت بالتأكيد كامرأة لديها بعض الميل إلى هذا الاتجاه، كما أنها وإن لم تكن بطبيعتها كذلك، كانت وهذا ما يُؤسف له كثيرًا، قد تأثرت بأفكار من تُخالطهم من صديقاتها المُقربات ممن لديهن الكثير من الميل إلى هذا الاتجاه، وهو الأمر الذي عزّز لديها روح العنجهية والشعور بالاستقلالية.

كانت السيدة بربارا زوجة وأمًّا، لكنها بالطبع كانت أيضًا امرأة وأنثى، وبذلك كان شعورها بقهر الرجل ورغبتها بالتالي بالكفاح لأجل تحقيق ما كانت تعتبره من أولويات الحقوق العائدة لجنسها ومكانتها، قد تجلّى في جميع تصرفاتها...

أما بالنسبة للسيد هيرمان أوهلر، فكان من يعرفه خارج المنزل يجده شخصًا مُعتدلاً لطيفًا وعقلانيًا، وأنه بشكل عام من نوعية الرجال الطيبين المحترمين... لكن نظرة زوجته إليه كانت مختلفة تمامًا. كانت زوجته - المحبة ونصفه الآخر - تجده زوجًا طاغية، وتعتبر بأنها لن تكون قد تقيدت بأهم وبأكثر القوانين قدسية في طبيعتها كامرأة، إلا إذا امتنعت عن تنفيذ رغباته وعن تحقيق كل ما يتوقعه منها كزوجة وأمّ.

كانت السيدة أوهلر منذ بداية حياتهما الزوجية، قد هزئت تمامًا بفكرة ما على الزوجة من واجب احترام و طاعة الزوج، كما هزئت بما ورد في صكّ الزواج من عبارة:

(الطاعة والاحترام المتبادل بين الزوجين)

وكانت تُصرّح دومًا بأنها كانت ستطلب من الكاهن إلغاء ذلك البند من صكّ الزواج ما لم تكن، ولكن ذلك قبل زواجها فقط، تميل كثيرًا إلى ذلك الشاب الوسيم جدًّا السيد أوهلر، وبما أنه لم يكن بإمكانها حينذاك أن تطلب تغيير ما تم التعارف عليه من الطقوس الدينية للزواج؛ لذا كانت قد تصرفت بحكمة واتبعت حكم القبول بما تبرّره الضرورات ووافقت على ما تم إدراجه من شروط الزواج تلك. كانت السيدة أوهلر تشعر بأنها بتلك المحاكمة العقلانية، وبإشارتها الدائمة إلى تلك الصعوبات، تكون قد أرضت تمامًا غرورها كأنثى.

ومن الجدير بالذكر أن عدم احترام الزوج وعدم الامتثال لرغباته، ظلّ على الدوام كامنًا في ذهن السيدة بربارا أوهلر، ما جعله يتجلى بكل تصرفاتها وبكل ما تُظهره لزوجها السيد أوهلر.

كانت السيدة أوهلر قد أدركت منذ بداية زواجها - وهذا بالطبع حسب مفاهيمها الخاطئة - أن زوجها يتوقع منها الكثير، وبأنه لا يعتبرها أكثر من مُشرفة على أعمال الخدم في منزله، وبأنه يجد بأن من حقه التذمّر من جميع الأمور التي قد لا تتم بما يتوافق مع رغباته ومع مزاجه. كانت في البداية تُجيب على قد ما يُبديه من تذمر وعلى ما يقوله عندما تتأخر في إعداد الوجبات أو عندما يكون الطعام سيء الطهي

بعبارة:

"أسفة عزيزي! لكن هذا كل ما بإمكانني القيام به."

وكان أن غامر السيد أوهلر ذات يوم بسؤالها، وبالطريقة الأكثر لطفًا التي كان يُخفي بها شعوره الحقيقي تجاه إهمالها المستمر للكثير من الأمور التي لم يعد بإمكانه أن يتقبّلها:

"بربارا، أنت متأكدة بأنه ليس بإمكانك القيام بأكثر من ذلك؟"

كان وجه السيدة أوهلر قد توهّج على الفور وأجابته بكل كبرياء:

"نعم، أنا متأكدة من ذلك سيد أوهلر."

وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تُخاطب بها زوجها بعبارة سيد أوهler،
والمرة الأولى التي تُركّز بها نظرها عليه بمثل ذلك التحدي.
ليس علينا الآن أن نتحدث عن الطريقة التي قد يتصرف بها غالبية الرجال في مثل
هذه المواقف، لكننا سنورد فقط ما قاله وما فعله السيد أوهler:
كانت إجابة السيد أوهler باندفاع وهو ينظر إلى زوجته ببعض الصرامة وينسحب
من المائدة:

"وأنا أيضًا لست متأكدًا من ذلك سيدة أوهler."

أجابته زوجته وقد زمت شفيتها:

"لست متأكدًا من ماذا؟"

أكد السيد أوهler على ما قاله بعبارة:

"لست متأكدًا من أنه ليس بإمكانك ذلك"

وجاء ردّ زوجته بالعبارة التالية:

"وما الذي كنتَ تنتظره مني بحق الله؟"

أجابها زوجها: "أن تقومي بما أقوم به أنا في عملي. أن تستخدمني خادمة مُختصة
تساعدك في الأعمال المنزلية، أو أن تحاولي أداء هذه الأمور بنفسك بالشكل
المناسب."

وكانت زوجته قد أجابت:

"هل تقصد أن علي أن أدخل المطبخ وأن أقوم بطهي الطعام بنفسني؟"

قال زوجها وقد بدأ يفقد أعصابه:

"بربارا! بإمكانك أن تفهمي ما قلته وبالطريقة التي تناسبك. أنت المسئولة عن
أمور المنزل ومهمتك أن تحرصي على أداء هذا الدور بالشكل المطلوب. عليك على
الأقل أن تهتمي بأن يتم إعداد الطعام بطريقة صحيحة ومناسبة لمن يقيمون فيه...
لو كان من تكلفينهم بالقيام بأمر هام هو من صميم واجباتك المنزلية مثل
تحضير الطعام، من الأشخاص غير المؤهلين والمهملين، فمن المؤكد أن من واجبك
الدخول إلى المطبخ لكي تتأكدي على الأقل من أن الأمور تتم بالشكل الصحيح. فأنا

بالذات على سبيل المثال لا أضع ثقتي الكاملة بأيٍّ من العاملين لديّ، وليس هناك أيّ قسم من أقسام الإدارة التي أعمل لديها ما لا يحظى بإشرافي الشخصي عليه؛ لأنّ الزبائن لا يُلْقون بالألّا إلى الأعذار التي قد يقدمها العاملون الذين يفتقرون إلى الخبرة أو لما قد يُدّعي به العاملون المهملين منهم، وإنما ما سيفعلونه هو أنهم بعد وقت قصير يعمدون إلى تأمين احتياجاتهم من البضائع من مؤسسة أخرى قد تكون أكثر تنظيماً وأفضل إدارة."

كانت تلك هي الإجابة الفاترة التي أوردها السيد أوهرل رغم ما كان فيه من غضب شديد.

أما إجابة السيدة أوهرل بكل برود وتحدي فكانت:

"ربما كان عليك أن تتناول وجباتك في مكان آخر إن كنت لا تجد هنا ما يتوافق مع مزاجك وما تتوقعه."

كان السيد هيرمان أوهرل بما أبداه من ملاحظة - بالنسبة لمفاهيم زوجته - قد ارتكب مع الأسف (الذنب الذي لا يُغتفر)... وبذلك كانت النتائج التي نجمت عن تلك الخطيئة ساحقة ما جعله بعد ذلك ييأس من الأمر ويتوقف نهائياً عن أية محاولة جديدة وعن إبداء أية ملاحظات أخرى. كان قد وجد بحدس الحرص على حماية الذات، بأن النزاع مع مثل ذلك الخصم، سوف تكون له نتائج المشؤومة، وبأنه بذات الوقت لن يحصل على أية نتيجة، وبأن هناك خطورة من أن يؤدي ذلك إلى خسارته لكل شيء.

لذا كانت الإجابة التي كرّرها على ذلك السيل من الكلام الجارح الذي استمرت زوجته بتوجيهه إليه:

"بربارا! أنت سيدة المنزل، تصرفي كما تشائين، شكراً على المقترحات وقد أجد فيما بعد الطريقة الأنسب للتصرف."

كانت الجملة الأخيرة التي تفوّه بها قد أجبرت السيدة أوهرل على التوقف عن التحدّث بغضب، كما كان تفوّهه بتلك العبارة بمثل الطريقة الهادئة قد هدأ من ثورة غضبها وأوقف سيل الكلمات القاسية التي كانت تخرج من فمها.

كان ذلك بمثابة هدنة تم الاتفاق عليها بشكل ضمنى في ذلك الصراع القائم بين الطرفين. لكن التنافر بينهما لم يكن قد تناقص فعلياً. كانت السيدة أوهلر قد أدركت بأن زوجها يتوقع منها درجة أكبر من الاهتمام الشخصي بالأمر المنزلية، وهو الأمر الذي تعتبر بأنه يحطّ من قدرها كزوجة. وكانت تجد بأن عليها - لأنه كان يتوقع منها ذلك - أن تحافظ على كرامتها بأن تُقلّل من اهتمامها ومن إشرافها على الأمور المنزلية بدلاً من أن تفعل العكس، وهذا ما جعل الطرف الآخر - السيد أوهلر - يشعر بالطبع بالكثير من الاستياء وبالتعاسة في حياته الزوجية. كان السيد أوهلر في البداية يحتمل ذلك بحلم جدير بالتقدير، لكن طبيعته الإنسانية كانت تخونه أحياناً، فعندما يمتلئ القلب لابد أن يتحدث اللسان... وهذا ما جعل الخلاف بينهما يحتدم أكثر فأكثر، وما جعل السيدة أوهلر تشعر بأن زوجها - بما يُبديه من ملاحظات - ليس أكثر من شخص طاغية لا يتمتع بأية حكمة، وبأنه لا يختلف عن العديد من فئة الرجال الذين يعتبرون المرأة مخلوقة أقل مرتبة منهم، والذين لن يترددوا عن سحقها في حال استسلامها لهم وضعفها أمامهم وخضوعها لهم.

وكان ما جعل الأمور تتفاقم أكثر بكل أسف، أن تكون الصديقات المقربات للسيدة أوهلر - وهن اللواتي كانت من تجتمع بهنّ باستمرار - من المُتحدّثات بكل حماس وجراءة عن حقوق المرأة وعن استعباد الرجل لها. ولم تكن السيدة أوهلر تتردد بالإشارة بكل فضاظة إلى أن زوجها هو أحد أفراد تلك الطبقة الاجتماعية التي لديها الاستعداد لسحق المرأة لو أنها سمحت له بذلك... وهو ما جعل أولئك السيدات يطلبن منها الحرص الدائم على حماية حقوقها والمحافظة على كبرياءها؛ لأنها بذلك سوف تكون قد حافظت أيضاً على كرامة وعلى رفعة بنات جنسها، وبأن عليها أن تعمل على أن يدرك ذلك الرجل المُستبد الطاغية بأن الوقت قد حان لأن يتم تمرير غروره وتعاليه في التراب.

وبذلك كانت السيدة أوهلر، نتيجة لذلك التحريض المستمر على حفاظها على حقوقها الشخصية وعلى حماية نفسها من ذلك الزوج الطاغية، قد تخطت تمامًا جميع الحدود، بعدم مبالاتها بحقوق زوجها بالعديد من الأساليب الأخرى. مرّ الوقت دون أن يطرأ أي تغيير نحو الأفضل في العلاقة بين الزوجين. لكن المرأة قد لا تُفكر أحيانًا بعقلانية كما يفعل الرجل، وهي بذلك قد لا تُقدّر ما سترتب على تصرفاتها من نتائج، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى الوقائع الحقيقية التي تُشاهدها أمام عينيها أو بالنسبة للمبادئ المجردة المُتعارف عليها في المجتمع، وإنما قد تعتمد فقط على ما يُوجّهها إليه إحساسها وحسها. لذا فلو كان حدس المرأة الأنثوي قويًا وصائبًا فسوف تكون أحكامها واقعية وصائبة، ولكن لو كان حدسها الأنثوي خاطئًا فلا بد من أن تكون أحكامها خاطئة... ولم يكن حدس السيدة أوهلر الأنثوي لم يكن بكل أسف صائبًا منذ البداية، وهذا ما جعلها تُدفع بكل سهولة من رفيقاتها، إلى التقييم الخاطئ لكل من وضعها ووضع زوجها في ذلك الزواج.

وذات يوم، عندما السيد أوهلر لدى عودته إلى المنزل لتناول الغداء، قام أحد الخدم بإعلامه بأن زوجته ذهبت لحضور اجتماع حول مكافحة الاستعباد وبأنها لن تعود قبل المساء، وأنها سوف تتناول غداءها مع إحدى الصديقات... لم يُدل السيد أوهلر حينذاك بأية ملاحظة واضطر لتناول غدائه بمفرده، رغم أن الطعام كان سيئًا جدًا ولا يكاد يُؤكل.

لم تكن أعمال السيد أوهلر مزدهرة تمامًا في ذلك الوقت وكانت قد بدأت بالتراجع، وبذلك كان السيد أوهلر يشعر بالكثير من الإحباط، لكنه كان مع ذلك يُلبي دومًا كافة متطلبات زوجته التي كانت قد بدأت تميل أكثر فأكثر إلى الإسراف.

لكن تغييرًا غريبًا كان يبدو على وجه السيد أوهلر عندما غادر منزله في ذلك اليوم. كانت قد تكوّنت في ذهنه رؤية لهدف جديد، أو كما يُقال كان قد تغيّر وأصبح رجلًا جديدًا، لكن ذلك التغيير كان إلى الأسوأ وإلى أسوأ مما قد يخشى منه المرء...

عندما عادت السيدة أوهلر في ذلك اليوم في ساعة متأخرة، خطر ببالها في البداية أن تمنها، لخدمة فيما إذا كان السيد أوهلر قد أبدى أية ملاحظة عندما لم يجدها في

المنزل في موعد الغداء، لكنها اعتبرت بأن في ذلك ما قد يُعرّضها إلى نوع من الكشف عن أسرارها لشخص أقل مرتبة منها، شخص مسئول أمامها، مثل تلك الخادمة. حدثت نفسها: " لا... لن أفعل ذلك! "

وبذلك لم تكن قد تنازلت حتى إلى الاستفسار عن مثل ذلك الأمر الذي يتعارض تمامًا مع استقلاليتها وكرامتها.

لكن الغريب في الأمر أن زوجها لم يكن قد ظهر عندما حلتّ ساعة تناول شاي بعد الظهر، كما يكن قد عاد إلى المنزل عندما حان وقت تناول العشاء.

ظلت زوجته تنتظره لمدة ساعة إلى أن اضطرت لجعل الأطفال الصغار يتناولون عشاءهم ويذهبون إلى النوم، لكن الأمر الأكثر غرابة أيضًا هو أنها لم تكن قد شعرت بأية رغبة بتناول الطعام...

ولم تكن السيدة أوهلر منذ زواجهما قد أمضت ليلة مزعجة مثل تلك الليلة، كانت أكثر من عشرين مرّة على وشك توجيه اللوم لنفسها، لكنها كانت تعود بسرعة إلى الاحتكام إلى استقلاليتها وإلى التفكير بحريتها الشخصية كامرأة، لكي تقاوم ذلك القلق الذي كان قد بدأ يتزايد بالتدريج، ولكي تتغلب على شعور الضيق الذي كانت تتسبب به بعض الأفكار غير المرضية التي اقتحمت ذهنها رغماً عنها، والتي لم تكن تتقبّلها على الإطلاق.

وكان السيد أوهلر قد عاد إلى المنزل بعد أن قاربت الساعة الحادية عشرة ليلاً. كانت تفوح منه رائحة الدخان والشراب، وبذلك لم تكن زوجته بحاجة إلى التساؤل عن المكان الذي أمضى فيه تلك الليلة. كانت تبدو على مُحياه نظرة غامضة تشير إلى عدم المبالاة، كما كان عندما واجه نظرة زوجته قد بادرها القول باستخفاف:

"أه!... ها أنت الآن في المنزل! هل أمضيت وقتًا مُمتعًا في الخارج؟"

بإمكاننا أن نقول - وبالمعنى الحرفي - أن السيدة أوهلر كانت قد بدأت تشعر ببعض الخوف، رغم أن مثل هذا الأمر لو وصل إلى مسامع صديقاتها العنجهيات، لكنّ سيُصدمن من أن تكون من عقدن عليها الكثير من الآمال قد شعرت بالخوف من مخلوق ليست له أية أهمية مثل زوج...

نعم، كانت السيدة أوهلر قد شعرت فعلاً بالخوف من المظهر الجديد الذي قدّم به زوجها نفسه إليها في تلك الليلة، كما شعرت بأنها بذلك قد أصبحت في الوقت الحاضر - ومع كل أسف - أمام مُعضلة لم تكن قد توقعتها ولم تكن قد استعدت لها على الإطلاق، وبأنه لم يعد أمامها سوى الاختيار بين أمرين...

وبإمكاننا أن نتوقع بأن السيدة أوهلر لم تتمكن من النوم على الإطلاق في تلك الليلة، بينما كان زوجها قد استغرق في النوم، وبأنها في صباح اليوم التالي نهضت مُتعبة مُقطّبة الجبين، لكنها كانت قد تمكنت بذات الوقت من السيطرة على قلقها واستطاعت أن تتمالك نفسها وأن تتظاهر بعدم المبالاة بزوجها...

كان زوجها أثناء الإفطار قد تحدث مع أولاده بشكل طبيعي لكنه لم يكن قد تبادل الكثير من الحديث مع زوجته التي كان بإمكانها بما تتمتع به من قدرة على التمييز أن تُدرك ما بخفيه من مشاعر حقيقية وراء ذلك المظهر الخارجي الهادئ. وكانت السيدة أوهلر عندما نهض زوجها من أمام المائدة دون أن يكون قد تناول سوى رشفة من تلك القهوة التي لا تُشرب، قد سألته وهي تتظاهر بعدم المبالاة: "هل ستكون هنا الليلة في موعد العشاء؟"

أجابها زوجها بحدّة:

"سوف أكون هنا بالتأكيد"

كانت تلك الإجابة قد زادت من توترها.

ثم أضاف: "لكن لا حاجة لانتظاري؛ لأنني اتفقت مع أحد الأصدقاء على تناول العشاء في مطعم الآستور."

أجابت السيدة أوهلر بتعالٍ:

"أوه... هذا جيد جداً"

لكن اتّقاد عينيها كان يدلّ على أنها كانت على وشك التفوه ببعض الكلمات الجارحة.

ذهب السيد أوهلر بعد ذلك إلى متجره، لكنه في ذلك اليوم لم يكن قد أظهر ما اعتاد عليه من فعالية ومن اهتمام بالعمل، كما كان قد فوّض الكثير من الأعمال التي

كان يقوم بها شخصياً إلى موظفيه ثم ذهب لتناول الغداء في مطعم الآستور. أمضى السيد أوهلر معظم وقت الظهيرة هناك وهو يدخن ويتحدث مع أصدقائه ويتناول الشراب إلى أن عاد إلى منزله في موعد تناول الشاي.

كانت زوجته عندما دخل إلى المنزل قد نظرت إليه بقلق. كانت تكسو وجهه شبه ستارة لم يكن بإمكانها اختراقها، وعلى الرغم من أن السيد أوهلر لم يكن قد خرج من المنزل في تلك الليلة، لكنه كان يبدو شخصاً مختلفاً.

في صباح اليوم التالي كانت زوجته قد سألته وهو على وشك مغادرة المنزل:

"هل بإمكانك أن تمنحني بعض المال؟"

كانت تلك هي المرة الأولى التي تتوجه بها السيدة أوهلر إلى زوجها بمثل هذا السؤال بأسلوب يوحي بالتردد، كما كانت المرة الأولى التي تُدرك فيها من نظراته بأن طلبها لم يلق الاستحسان.

سألها زوجها: "ما هو المبلغ الذي تحتاجينه؟"

قالت السيدة أوهلر: "أود الحصول على مائتي دولار."

وكانت الإجابة التي لم تكن تتوقعها منه:

"أعتذر، فليس بإمكانني إعطاؤك مثل هذا المبلغ الآن، فقد خسرتُ أمس، عندما تغيبْتُ عن المتجر، وذهبتُ في جولة مع أصدقائي، خمسمائة دولار نتيجة سوء تصرف وإهمال أحد الموظفين لديّ."

هتفت السيدة أوهلر:

"هل كنتَ تمضي الوقت مع أصدقائك؟!"

"نعم. لا أظنك تتوقعين أن أظل مرتبطاً بالعمل طوال الوقت، فأنا أيضاً أحب أن تكون لديّ الفرصة للاستراحة وللتواصل مع الأصدقاء، مثلي مثل أي شخص آخر. حسناً! ما حدث أن أحد تجار مقاطعات الذي يُدين لي بمبلغ خمسمائة دولار كان قد اتصل بي ووعدني بسداد المبلغ بعد ظهر الأمس، وكنتُ قبل ذهابي مع أصدقائي قد شرحتُ لأحد الموظفين لديّ ما عليه أن يفعله عندما يأتي ذلك التاجر، وقد توقعت بالطبع أن يقوم بذلك على الوجه المطلوب، لكن ذلك لم يحدث، فعندما وجد

التاجر بأن عليه أن يتعامل مع الموظف وليس معي كان اعترض على الفاتورة، ما جعل ذلك الموظف المخبول، بدلاً من أن يوافق عليها، يُصرّ على أن الحساب صحيحاً، وبذلك لم أحصل على أي مبلغ... وأعتقد أيضاً بأنني - على ما يبدو - سوف أخسر كامل الصفقة؛ نظراً لأن ذلك التاجر من الأشخاص المراوغين، وبأن على كافة الاحتمالات سوف يحد بأن من صالحه أن يتخلف عن الدفع الآن وربما حتى الربيع القادم... كنتُ أرغب بالحصول على المال اليوم لحاجتي إليه ولكن عليّ الآن أن أسعى طوال الصباح للحصول على المبلغ الذي أحتاجه."

قالت السيدة أوهرل بانفعال وبلهجة تدلّ على اللوم:
"ولكن كيف بإمكانك أن تتغيب عن العمل في مثل تلك الظروف وأن تترك الأمر لأحد الموظفين لديك؟"

وكانت الإجابة الفورية على ذلك :
"أتسأليني كيف كان بإمكانني ذلك؟ هل تتوقعين أن أظلّ مرتبطاً بالمتجر كالعبد؟ أنتِ مخطئة لو ظننتِ ذلك. هذا كل ما لديّ! فأنا أستخدم الموظفين لكي يقدموا إليّ بعض المساعدة في عملي."

أجابت السيدة أوهرل بكل جدية:
"ولكن ماذا لو لم يكن الموظف أهلاً لذلك؟"
قال السيد أوهرل:

"لن يغيّر ذلك نهائياً من موقفي ولا من طباعي..."
وكان بعد أن قال ذلك قد حدّق في عيني زوجته للحظات ثم انسحب من المنزل دون أن يُضيف شيئاً.

وعلى الرغم من أن السيدة أوهرل كانت تُقنع نفسها في البداية بأن ذلك التغيير غير المُتوقّع في زوجها، ليس سوى بعض التظاهر والادعاء، أو أنه ربما كان عبارة عن نزوة عابرة، لكنها كانت بعد ذلك قد أدركت بكل أسف بأنها حالة دائمة...
فقد بدأ السيد أوهرل يُهمّل أعماله ويُهمل عائلته لكي يستمتع بصحبة رفاقه، وكان كلما طلبت منه زوجته أن يمنحها بعض المال يُدلي بسبب يمنعه من تأمين

المال لها، إما بسبب خسارة أحد الزبائن أو نتيجة الإهمال وعدم المبالاة، أو لعدم أهلية الموظفين أو بسبب إهمال العمال لديه، ويقول بأن هذا ما حدث أثناء غيابه عن المتجر عندما كان يستمتع بوقته مع الأصدقاء.

كان ما لدى السيدة أوهلر من شعور بالاستقلالية قد منعها لوقت طويل من إذلال نفسها لزوجها، ما جعل الاحتياجات اليومية تتزايد وتطوقها أكثر فأكثر، لكنها مع ذلك لم تكن قد أدركت بوضوح بأن تصرفات زوجها ليست سوى انعكاس لتصرفاتها الخاطئة منذ بداية حياتهما الزوجية. كان من العسير عليها أن تعترف بأنها كانت مخطئة حتى تجاه نفسها، لكن الإدانة كانت تُشير إليها بأصابع الاتهام، وبذلك لم يعد بإمكانها أن تحجبها عن نظرها.

ثم كان أن أدى إهمال زوجها لعمله إلى نتائج مشؤومة أوصلته في النهاية إلى الإفلاس، لكن السيد أوهلر كان مع ذلك يُبرّر تصرفاته بأنه لن يجعل من نفسه عبداً وبأنه لن يُغرق نفسه في العمل الشاق الذي استخدم الموظفين لديه لأدائه. كان ذلك كل ما بإمكان زوجته أن تحصل عليه من تبريرات على احتجاجاتها المتكررة على تصرفاته...

لكن الحقيقة أن السيد أوهلر كما قد يكون بإمكاننا أن نقول - كان إلى ذلك الوقت - قد قاوم ما كان يخطر بباليه، في فترات صفائه الفكري من الحلول الأفضل للوضع، وكان يعلم بأن زوجته بما لديها من كبرياء وغرور لن تقوم بإبلاء اهتمامها الشخصي لواجباتها المنزلية تجاه عائلتها، وكان يعلم أيضاً بأنها سوف تعتبر بأنه وحده من يستحق اللوم على كل ما طرأ من تغيير في سلوكه...

لكن الفقر، ذلك المضطهد القاسي كان قد أدى أخيراً إلى أن يتم طرد عائلة أوهلر من منزلها المريح وإلى أن تغرق تلك العائلة في غياهب الحرمان والحاجة...

كانت صديقات السيدة أوهلر المتحجرات العقل ممن كانت صُحبتهم قد سحرتها لمدة طويلة، واللاتي كنّ بوجهات نظرهن ومبادئهن، قد مارسن عليها ذلك التأثير المشؤوم، قد أشرن عليها أخيراً بالانفصال عن زوجها، ذلك الزوج الذي لم يتردد في

الإساءة إلى ما لدى زوجته من مواهب رفيعة كأمينة... ذلك الزوج الطاغية القاسي الذي لا يليق بتلك السيدة الراقية...

لكن الحقيقة أن السيدة مارتن كانت قد أدركت أكثر من أي شخص آخر بأن تلك الصورة خاطئة، وبذلك كان كل ما في طبيعتها من خير ومن صدق وولاء، قد استيقظ في نفسها من جديد، وبتمرد وسخط على ما سمعته منهن...

كانت السيدة أوهلر قد عادت إلى منزلها المتواضع وإلى أولادها المهملين، وهي في حالة فكرية تختلف كلياً عن كل ما مرّ بها في حياتها، ما جعلها تكاد تتساءل بينها وبين نفسها فيما إذا كانت لا تزال ذات المرأة...

كانت السحابة التي حجبت عنها الحقيقة قد سقطت من أمام عينيها وجعلتها تشاهد كل ما حولها بمنظور مختلف تمامًا، وتعيد النظر من جديد بجميع علاقاتها السابقة وبذلك تساءلت:

"هل كان زوجي بالفعل ذلك الطاغية المستبد؟"

كانت قد نطقت بذلك التساؤل بينها وبين نفسها بشكل لاإرادي، ثم عادت إلى التساؤل:

"هل كان زوجي من داس بالفعل على حقوقي منذ البداية أم أنني كنت من دست على حقوقه؟"

ثم حدثت نفسها:

"من حق زوجي علي أن ينتظر مني أفضل التعامل..."

من حق زوجي علي أن أجعل من بيته بيتاً مريحاً وسعيداً. فهل كنتُ قد قدمتُ له ذلك؟... هل قمتُ بأداء ما عليّ من التزامات عائلية ومن واجبات زوجية على الوجه المطلوب؟... هل كنتُ زوجة صالحة مخلصه له؟...

كانت تلك الأفكار تتوالى في ذهن السيدة أوهلر وتوجّه إليها اللوم كما لو أن هناك من يقف أمامها وهو ينطق بعبارات الاتهام تلك بصوت مرتفع.

لكن ما الذي كانت عليه إجابتها هذه المرة على كل ذلك اللوم؟ ... لا ... لم تكن إجابتها هذه المرة بأن برّرت لنفسها ما فعلته ولا بأن وجدت الأعذار لنفسها، وبذلك كانت قد عادت إلى بيتها وهي مُدانة ذليلة ونادمة...

كانت السيدة أوهلر عندما عادت إلى منزلها في وقت متأخر من بعد الظهر ذلك اليوم وقد اقترب المساء، قد سمعت لدى اقترابها من الباب صرخة طفل. أدركت على الفور بأنها صرخة ألم وليست صرخة طفل غاضب مُشاكس، وبذلك ركضت إلى غرفتها، وكان ما وجدته هناك أن ثلاثة من أطفالها الصغار السن كانوا منبطحين معاً على الأرض، وبأن وجه ويدي وملابس شقيقته الأصغر سنّاً كانت قد احترقت على نحو سيء جداً...

وكان كل ما تمكنت التوصل إلى معرفته منهم أن الفتاة المكلفة برعايتهم تركت الأطفال بمفردهم وغادرت المنزل نهائياً لعدم رغبتها بالعمل؛ لأنها كانت نتيجة للظروف المادية التي وصلت إليه العائلة كانت قد أصبحت المسؤولة عن جميع الأعمال المنزلية، وهذا ما جعل الأطفال يتجولون بحرية في المنزل ويفعلون ما يشاؤون. ثم أعلمها الطفل الأكبر سنّاً بعفوية بأنهم كانوا يلهون معاً باللعب بأعواد الثقاب عندما اشتعلت ملابس شقيقته الصغرى وبأنه وشقيقه الأكبر سنّاً كانوا بنوع غريب من سرعة البديهة قد ألقوا عليها منشفة رطبة وهذا ما أنقذ حياتها.

سألتهم السيدة أوهلر بعد أن اطلعت على تفاصيل ما جرى على الفور:

"هل عاد والدكم إلى المنزل؟"

أجاب الأولاد: "نعم أمي"

"وأين هو الآن؟"

أجاب أكبر سنّاً الأولاد: "ذهب لإحضار الطبيب."

وكان السؤال الذي صدر عنها بعفوية:

"وما الذي قاله؟"

تردّد الطفل قليلاً ثم أجاب بسذاجة:

"قال بأنه كان يتمنى ألا تكون لدينا أم لكي يعرف كيف يتولى العناية بنا بنفسه." كان وقع تلك الكلمات على السيدة أوهلر أشبه بصفعة مؤلمة. تراجعت إلى الخلف ثم رمت بنفسها على أحد المقاعد أشبه بطفل فقد القدرة على الحركة. ثم كان زوجها بعد وقت قصير وقبل أن تكون قد استعادت قدرتها على الحركة، قد دخل إلى المنزل وبرفقته الطبيب، لكنه كان قد تظاهر مع ذلك بأنه لم يلحظ وجودها، ولم يكن قد التفت إلى ما كانت فيه من اضطراب...

لكن السيدة أوهلر كانت قد أعلنت بعد ذلك عن وجودها بتصرفاتها اللاحقة... كان كل ما لديها من مشاعر الأمومة قد استيقظ في قلبها في تلك اللحظة. لم يكن لديها الكثير مما تقوله كما لم تكن قد أبدت اهتماماً غير عادي، لكن جميع تصرفاتها كانت بعد ذلك بهدف إثبات ما تشعر به من حنان ومن اهتمام بطفلتها، وبذلك كانت الطفلة المتألّمة بعد أن تلقّت كل ما يلزم من رعاية طبية، قد أصبحت بعد وقت قصير في سريرها.

لم يكن أي من الزوجين إلى تلك اللحظة قد وجّه كلمة إلى الآخر. كانت السيدة أوهلر قد التمسست نظرة من السيد أوهلر لكنه كان قد تجنّب النظر إليها وأشاح بوجهه عنها.

كان الظلام قد بدأ يحلّ، كما بدأت النيران تخبو في الموقد تخبو وتكاد تنطفئ، ولم تكن الخادمة قد عادت بعد، كما لم يكن من المحتمل أن تعود حسبما فهمته السيدة أوهلر من أولادها. ولكن سواء أكانت تلك الخادمة قد قرّرت العودة إليهم من جديد أم أنها لم تعد ترغب بذلك، فلم يعد لذلك الأمر أية أهمية بالنسبة إلى السيدة أوهلر التي كانت بوضع نفسي جعلها لا تجد في ذلك ما قد يتسبب بأي إشكال، وإنما كانت بالأحرى قد شعرت بالراحة لغيابها، وبذلك تركت زوجها وأولادها في الغرفة وتوجهت إلى المطبخ.

بعد وقت قصير كان قد تم إضرام النيران من جديد، وكان إبريق الشاي قد بدأ يغلي برفق فوق الموقد، كما كانت وجبة عشاء شهية، أعدتها السيدة أوهلر بنفسها، بانتظارهم على المائدة...

كان السيد أوهلر عندما دُعي إلى تناول الشاي، قد دهش كثيرًا بما رآه، وازدادت دهشته عندما اتخذ مقعده الاعتيادي أمام المائدة التي كانت سابقًا لا تثير شهيته لتناول الطعام، وشاهد أمامه طبقًا شهيا. لم يكن قد أبدى أية ملاحظة ، لكن شعورًا دافئًا كان قد ملأ قلبه بالبهجة وجعله يخفق بقوة في صدره ...

تساءل وهو يحتسي كوب الشاي الذكي الرائحة بكثير من المتعة، هل يمكن أن تكون زوجته قد أعدت كل ذلك بنفسها؟... لكن تلك البهجة سرعان ما اختفت من نفسه عندما تذكر بأن زوجته، بكل ما لديها من إمكانية لجعله سعيدًا ولجعل منزله أكثر راحة، كانت تفتقر دومًا إلى الرغبة في ذلك...

كان السيد أوهلر في الفترة الأخيرة يُمضي الليالي خارج المنزل لكن شيئًا ما جعله يبقى في المنزل تلك الليلة. وكان الحديث قد دار بعد ذلك بينه وبين زوجته ولكن ببضع كلمات فقط، لكن الأخيرة كانت طوال تلك الليلة تعمل بكل حيوية ونشاط، كان الترتيب محلّ الفوضى في كل مكان كانت تضع يدها عليه، ويشعّ فيه ما يُشبه النور، وهو الشيء الذي لم يكن شاهده زوجته سابقًا. شعر السيد أوهلر بالكثير من الاستغراب كما شعر أيضًا بالكثير من الأمل لكنه مع ذلك لم يقل شيئًا...

وكان ما أثار استغرابه أكثر أيضًا أن زوجته كانت قد استيقظت مع بزوغ فجر اليوم التالي وأعدت بنفسها وجبة إفطار شهية جدًا. وبذلك جازف السيد أوهلر بالتفوّه بكلمتي إطراء، بأن قال أثناء تناوله القهوة بأنه لم يسبق أن تناول ألذ من هذه القهوة طوال حياته... وكانت السيدة أوهلر قد ألقت عليه نظرة تنم عن الامتنان لكنها لم تُجبه.

وكان السيد أوهلر، في موعد العشاء تمامًا، من المتجر الذي كان يعمل فيه بأجر زهيد بعد أن كان قد أعلن إفلاسه، قد وجد بانتظاره وجبة عشاء شهية مؤلفة من عدة أصناف لم يسبق له أن تناول مثلها منذ زواجه، كما كان كل شيء في بيته يبدو بيتًا لعائلة...

واستمرت الأمور بهذا الوضع لمدة أسبوع، ظلّ السيد أوهلر خلاله على موقفه مراقباً مستغرباً ما يشاهده. أما السيدة أوهلر فقد وجدت مكافأتها على ما تفعله، ليس فقط بإدراكها لمعنى الواجب تجاه عائلتها، ولكن بما لمستته من الكثير من التغيير في طباع زوجها الذي لم يعد عصبي المزاج وسيء الطباع والذي لم يعد يتغيب مطلقاً عن تناول وجباته في المنزل، كما أنه لم يعد يتغيب عن المنزل ليلاً منذ أصبحت زوجته صالحة وأماً متفانية لأولادها.

ثم حدث بعد ذلك نوع من المحاكاة ومن التنافس الصامت في تبادل النوايا الحسنة بين الزوج والزوجة اللذين عاشا سابقاً لسنوات طويلة في حالة من عدم المبالاة. فقد ألح السيد أوهلر على استخدام خادمة جديدة طباعها مثل الفتاة التي تركت العمل، لكن السيدة أوهلر كانت بالمقابل قد رفضت ذلك بأن قالت بأن ظروفهما المادية الحالية لا تسمح بتكبد مثل تلك النفقات، وكان السيد أوهلر قال أيضاً بالمقابل بأن بإمكانهما ذلك بأن أشار إلى وجود احتمال لحصوله على زيادة في الراتب.

ثم قال لها ذات يوم بعد التغيير الذي لمسه في طباعها:

"لا أريدك أن تصبحي مجرد امرأة كادحة، وبما أنك تعرفين كيف تتم الأمور بالشكل الأفضل، فكل ما عليك هو أن تتولي إدارة الأمور وأن تُشرّفي فقط على أعمال الخدم. أعتقد أن أياماً مشرقة بانتظارنا، آمل ذلك، سوف يزداد راتبي اعتباراً من الشهر المقبل، وسوف يصل إلى ألف دولار وسيكون بإمكاننا حينذاك أن ننتقل من هذا المكان البائس إلى منزل أفضل بكثير."

كان في صوت السيد أوهلر مزيج من الأمل ومن الرقة كان له أثره الكبير على السيدة أوهلر.

كان قد تملكها شعور غامر بالحنان وبذلك ألقت رأسها على صدر زوجها وأخذت تبكي... وتبكي... وعندما استطاعت أن تتمالك نفسها قالت له برقة:

"عزيزي هيرمان، سواء أكانت أيامنا المقبلة أكثر إشراقاً أو أكثر ظلمة. فكل ما أتمناه أن يساعدني الله - تعالى - كي أكون لك زوجة حقيقية... زوجة صالحة..."

وحتى لو تعرضت حياتنا للغيوم أو للعواصف فسوف أكون لك دومًا الزوجة المخلصة...

زوجي العزيز! أرجو أن تُسامحني على سوء تصرفي في الماضي ولتثق بأنني سوف أخلص لك في حياتنا المقبلة معًا وبأنني لن أخذلك."

ولم يكن السيد أوهلر بالفعل قد خُذِل. كانت السيدة أوهلر قد اكتشفت المعنى الحقيقي لرباط الزواج وعرفت ما عليها من واجبات عائلية حقيقية، ولم تعد تشعر بالضيق مما عليها القيام به من واجبات كما لم تعد تتجاوز حقوق زوجها عليها.

كانت سرعة استعادة السيد أوهلر لمنصبه السابق في العمل قد جعل السيدة أوهلر تشعر أحيانًا بالاستغراب، فقد ارتفع راتبه الشهري من موظف براتب ألف دولار في العام إلى ألفي دولار ثم أصبح شريكًا في المتجر الذي يعمل فيه، كما كان خلال فترة قصيرة قد أصبح أيضًا من كبار رجال الأعمال ومن الأثرياء...

وكان ذلك ما أدهش السيدة أوهلر ومكنت فيمن حولهما أيضًا، حتى أن البعض كانوا يلمحون إلى أنه لم يكن يومًا من محدودي الموارد كما كان يدّعي...

ليكن الأمر كما قد يكون... بما أن السيد أوهلر لم يعد يعد بما عليه القيام به من أعمال هامة إلى موظفيه، وبما أن السيدة أوهلر من ناحيتها أيضًا، لم تعد تعد بما عليها من واجبات لإسعاد عائلتها إلى الخدم المهملين غير المؤهلين...

وأصبح ذلك الزوج يشعر بأن منزل عائلته هو المكان الأكثر بهجة في العالم، كما لم تعد زوجته تشعر بأنها ليست بالنسبة إليه سوى مشرفة على أعمال الخدم، وإنما هي الرفيقة الأحب إليه والزوجة التي يهتم بها والتي يتعامل معها بأقصى درجة من مشاعر التعاطف...

الإيمان والوقت والعزيمة

قال السيد غوردون: "لا أعتقد بأنني أصبحت الآن بوضع أفضل. فقد خسرت عملي في ذات اليوم الذي كنت فيه قد أخذت على نفسي ذلك العهد و القسم وها أنا الآن بدون أي عمل ثابت."

أجابه الشخص الذي كان يشكو إليه:

"لكنك كنت ستخسر عملك حتى لو لم تكن قد وقعت ذلك التعهد والقسم."
"نعم، أنا أعترف بذلك. كنت قد صُرفت من عملي؛ لأنني كنت قد ثملتُ كما كان من عاداتي أن أفعل، مما أدى إلى ارتكابي لذلك الخطأ الذي أدى إلى صرفي من عملي. لكن من يسمع ما يُقال عن الأشخاص المستقيمين، يعتقد بأن من يأخذ على نفسه مثل هذا التعهد والقسم لابد أن تتحسن أموره على الفور، وبأنه سوف يحصل على الكثير من المال."

"لكنني أقرّ بأنني لم أجد الأمر بهذا الشكل فقد تناقصت مواردِي أكثر من أي وقت مضى، ولم يعد لديّ حتى ما يكفي لإعائتي أو لإعالة أفراد عائلتي بالمستوى الذي اعتادوا عليه، رغم أنني لا أنفق سنّاً واحداً على نفسي."
ردد صديقه ما قاله:

"لكن مثل هذا الأمر كان سيحدث حتى لو لم تكن قد أخذت على نفسك مثل هذا القسم."

"نعم، أعتقد ذلك، لكن ليس بإمكانني أن أمنع نفسي من الشعور بالإحباط لما آلت إليه الأمور، فلو كنت على الأقل أحصل الآن على ما كنت أحصل عليه من أجور في السابق، لكان بإمكانني أن أتدبر الأمور، أما الآن فقد أصبح عليّ أن أقتصد إلى آخر حدّ لكي لا أغرق بالمزيد من الديون."

"لكنك تتدبر أمورك الآن بشكل جيد."

"نعم"

"وهذا يتم بما يُعادل نصف دخلك السابق."

"نعم، بل هو بأكثر من نصف دخلي السابق بقليل. كنتُ أحصل على عشرة دولارات في الأسبوع، وأنا الآن أحاول أن أتدبر أموري بالقيام ببعض الأعمال العرضية هنا وهناك بحوالي الستة دولارات."

"هذا يعني بأنك الآن بوضع أفضل من السابق."

"لستُ أفهم كيف بإمكانك أن تنظر إلى الأمور بهذا الشكل."

"لدى عائلتك الآن ما يكفيها للعيش بكرامة فهي تحصل على كل ما كانت تحصل عليه سابقًا، كما أنك بصحة جيدة وتشعر بالسكينة أكثر من السابق، أليس هذا من الأمور الجيدة؟"

أجاب غوردون - وهو يبتسم -: "من الأفضل أن أقنع نفسي بأنني أتمتع الآن بكل ذلك."

"وأنا أيضًا أعتقد ذلك. أليست زوجتك الآن أكثر سعادة؟"

"نعم! وهي تبدو مُبتهجة طوال اليوم."

"هل تشكو زوجتك من انخفاض دخلك؟"

"لا، في الواقع هي لا تفعل ذلك على الإطلاق، وأعتقد بأنني لو كنتُ لن أحصل على أكثر من ثلاثة دولارات في الأسبوع لكانت أيضًا ستتدبر الأمور بشكل أو بآخر وسوف تظل مُبتهجة. في الواقع هذا التغيير الذي حصل في طباعها أمر رائع جدًا." "وأنت مع كل ذلك لا تشعر بأنك بوضع أفضل؟ أليس من الأفضل أن تكون إلى جانبك زوجة سعيدة وأن يكون لديك عائلة مبتهجة؟ أنا على يقين بأنك لم تكن تنعم بذلك من قبل."

"أنت على حق، من المؤكد بأنني لم أكن كذلك في السابق. نعم بالفعل!... أنا حاليًا بوضع أفضل من جميع من هم حولي، لكنني أشعر ببعض الإحباط؛ لأنه لم يعد لدي عمل ثابت أو راتب جيد، ولو كان لدي ذلك لكنتُ أسعد حالًا بكثير."

"كُن حليمًا يا صديقي، وسوف تصبح الأمور أفضل مع مرور الوقت. هناك ثلاث كلمات على كل رجل صالح أن يكتبها على جميع جدران غرفته لكي ينظر إليها كل صباح هي: "الإيمان، الوقت، والعزيمة"

لا يهم إن كنت قد أخفقت، لا يهم إن كانت الأمور تبدو لن مُثبطة، عليك أن تتحلى بالإيمان والعزيمة، ولا بد أن تسير جميع الأمور جيداً مع مرور الوقت." وكان السيد غوردون قد عادة الإسراف وهو يشعر بأنه بوضع نفسي أفضل مما كان عليه قبل اجتماعه بذلك الصديق الحكيم المعتدل المزاج الذي قال له تلك الكلمات المُشجعة.

كان هنري غوردون عندما تزوج قد بدأ مشروعاً خاصاً به وكانت أموره قد سارت بشكل جيد جداً لعدة أعوام ، وكان قد حصل على ما يكفي من مال كي يشتري منزلاً صغيراً هادئاً، كما كان بإمكانه أن يحصل أيضاً بعد ذلك على بعض الممتلكات الأخرى، إلى أن استولت عليه عادة الإسراف في الشراب، وكانت تلك العادة قد بدأت تسيطر عليه تماماً بالتدريج، وبذلك كان قد بدأ يُهمل عمله إلى أن قاده ذلك إلى الإفلاس مما اضطره آخر الأمر إلى بيع جميع ممتلكاته. وكان قد أضاع كل ما بناه لنفسه طوال تلك السنوات، واضطر للعمل صانعاً لدى الآخرين لكي يُعيل عائلته. لكنه كان مع ذلك قد استمر بإنفاق نصف ما يحصل عليه من أجر أسبوعي على الشراب ما جعل وضع عائلته يؤول من سيء إلى الأسوأ. كانت زوجته البائسة بالطبع هي الطرف الذي عانى أكثر من أحل تأمين الطعام والكساء لأطفالها. ولم يكن ذلك كل شيء، فقد تراكمت الديون على غوردون ما جعله يعجز عن سدادها. كان اثنان من الدائنين أكثر تطلباً من الآخرين مما أدى للحجز على أثاث بيته و بيعه لتحصيل الديون. وبذلك لم يكن قد تبقى لتلك العائلة البائسة سوى القليل جداً من الاحتياجات الضرورية التي سمح بها القانون.

كانت الأمور بذلك السوء إلى أن عاد غوردون ذات يوم من المتجر الذي يعمل فيه بوقت أبكر من المعتاد، كانت زوجته قد دهشت عندما شاهدته وسألته:

"ما الأمر غوردون هل أنت مريض؟"

أجابها بكآبة: "لقد تم صرفي من العمل."

"هل تم صرفك من العمل بالفعل ولماذا؟..."

"لأنني أفسدت عملي."

قالت السيدة غوردون - بلطف رغم ما كانت فيه من قلق وأسى -: "كيف حدث ذلك؟"

أجابها غوردون بصوت ينم عن المرارة:
"حدث ذلك كما حدثت لي جميع المتاعب في السابق. كنتُ قد شربتُ أكثر من المعتاد و... و..."

قالت زوجته وهي لا تزال تتحدث بلطف:
"وهذا ما أدى إلى إفسادك عملك."
"نعم، لعن الله اليوم الذي بدأتُ فيه أتناول الشراب! كان الشراب سبب كل ما تعرضت إليه حتى الآن من بلايا."
قالت زوجته: "هنري، لِمَ لا تتركه على الفور وإلى الأبد؟"
"ليس من السهل عليّ أن أفعل ذلك."

"لقد فعل ذلك مئات الأشخاص قبلك وهناك يوميًا من يفعلون ذلك وهذا ما عليك أن تفعله أنت أيضًا. كل ما عليك أن تُصمّم على كسر هذه الأغلال التي تُقيدك وأن تتحرّر منها. لنُدعُ كل ما جرى يمرّ، كنتُ تصرفتُ بحماقة وجعلتُ عائلتك تعاني أكثر مما يمكن وصفه وأعتقد الآن أن هذا يكفي. كل ما عليك أن تقرر ذلك، وسوف يكون المستقبل أكثر إشراقًا بالنسبة إلينا جميعًا."

وكانت عينا السيدة غوردون وهي تُناشده بذلك، قد اغرورقتا بالدموع رغم الكثير من الجهد الذي بذلته للتظاهر بالهدوء. ما جعل غوردون يشعر بأن روحًا جديدة قد استيقظت في نفسه، وكانت قد استعرتُ في نفسه معركة داخلية بين الشرّ والخير لكن الخير كان من انتصر في النهاية.

وبذلك قال وهو يتوجه نحو الباب ويغادر المنزل بسرعة:

"سوف آخذ على نفسي عهدًا بعدم العودة إلى الشراب."

كانت الساعة التي مرت على السيدة غوردون بين خروج زوجها من المنزل وبين الخياطة أسوأ ساعات حياتها. كان القلق يعذبها وكانت يدها ترتجف مما جعلها

لا تقوى حتى على الإمساك بإبرة الخياطة، وبذلك اضطرت أن تترك جانباً ما كانت تُخيطه لكي تنشغل بأعمال منزليه أخرى.

وكان غوردون عندما عاد إلى منزله بعد ساعة قد فتح الباب وهو يحمل بيده وثيقة القسم، أشار بالوثيقة لزوجته وقال:

"ماري! لقد وقَّعتُ في الكنيسة على تعهد وقسم بعدم العودة إلى الشراب، وها هي الوثيقة وعليها توقيعِي."

أشرق وجه زوجته على الفور وبدأ دموعها تسيل على خديها، ثم وضعت رأسها على كتفه وهي تُمسك بإحدى يديه بقوة بين يديها وقالت:

"سترى كيف أن الأمور ستسير جيداً منذ اليوم!"

قال زوجها: "لكن أنت ترين ماري بأنه لم يعد لديّ عمل ثابت، فقد تم صرفي من العمل اليوم. فما الذي بإمكانني أن أفعله؟"

قالت زوجته: "بما أنك وقَّعتَ الآن على هذا التعهد فلا بد أن يُعيدك السيد إيفنلي إلى عملك."

قال غوردون: "قد يفعل ذلك! سوف أذهب غداً لمقابلته."

وكانت السيدة غوردون قد أعدت لزوجها كأساً من الشاي ووجبة عشاء شهية، وبذلك كان جوُّ من الراحة قد انتشر في ذلك المنزل الذي لم تكن البهجة قد دخلته من وقت طويل وهو ما شعر به غوردون أيضاً.

في صباح اليوم التالي كان غوردون قد ذهب من جديد إلى المتجر الذي طُرد منه في اليوم السابق، لكن مالك المتجر الذي كان جلفاً عديم الإحساس بالآخرين، والذي كان في الحقيقة قد احتفظ بغوردون لديه شهراً بعد شهر لحاجته إلى خدماته – ما جعله في ذات اليوم الذي تلا صرف غوردون – قد استخدم من يقوم بعمله وبإصلاح ما أفسده من أعمال.

وبذلك عندما دخل غوردون إلى المتجر لكي يطلب من إيفنلي إعادته إلى العمل، كان ذلك الرجل قد استقبله بفضاظة وقال له على الفور من دخوله من الباب:

"رجاءً، ما الذي تريده؟"

أجاب غوردون: "وقَّعت اليوم على قسم بعدم العودة إلى تناول الشراب وأرجو أن تُعيدني إلى العمل فأنا أعتزم العيش باستقامة من الآن فصاعدًا."
"هل فعلتَ ذلك؟"

"نعم سيدي، وقد وقَّعتُ أمس على هذا التعهد بعد أن صرفتني من الخدمة."
سأله إيفنلي: "وكم من الوقت تنوي الالتزام بذلك؟ أهذا إلى أن تصل إلى أول متجر لبيع المشروبات؟"

أجاب غوردون بجديّة وكان أسلوب الازدراء في حديث رئيسه في العمل قد جرح مشاعره:

"لقد تعهّدتُ بذلك لمدى الحياة، وبذلك لن تواجه أية متاعب بسببي بعد الآن."
"أعلم ذلك. لن أواجه أية متاعب بسببك بعد الآن؛ لأنني لا أنوي إعادتك إلى العمل في متجري."

قال الرجل البائس: "لكنني أقلعتُ عن عادتي السابقة سيد إيفنلي، ولن أتسبب لك بأية مشكلات بعد الآن."
أجابه إيفنلي بفضاظة:

"لا فائدة من تحدثك إليّ الآن؛ لأنني كنتُ أريد التخلص منك منذ مدة طويلة وقد نجحتُ في ذلك أخيرًا. تم إشغال مكانك مؤخرًا ولم يعد هناك ما تقوله حول هذا الموضوع، عمتَ صباحًا."

وكان بذلك قد استدار على عقبيه وترك غوردون مشدوهاً بما سمعه منه.
ثم قال له أحد زملائه السابقين في العمل كان قد سمع ما دار بين غوردون وربّ العمل:

"لقد فعل ذلك أخيرًا، قلتُ لك سابقًا بأنه سيفعل ذلك."
وبذلك غادر ذلك الرجل البائس المتجر وهو يشعر بالبؤس أكثر مما شعر به في أي وقت مضى وكان في طريق للعودة إلى منزله قد تمتع بمرارة:
"هذا ما لقيته مع أول جهد أبذله لكي أسير في طريق الصلاح."
ثم سمع من يناديه:

"أهلاً غوردون! إلى أن أنت ذاهب؟"

"تعال"، ووجد نفسه أمام باب أحد المنازل القديمة وكان من ناداه المسؤول عن المبنى.

"تعال، دعني أشاهد وجهك المحبب! أين أمضيت الليلة الماضية؟ يفتقدك الجميع وقد شعرنا بالملل بدونك وكأننا في مأتم."

قال غوردون وهو يصّر على أسنانه ويبتعد عن المكان:
"لعنك الله ولعن صحبتك أيضاً..."

"غوردون... ما الذي دهاك؟"

لكن غوردون لم يتوقف لكي يسمع ما يقوله ذلك الرجل الذي كان أحد الرجال الذين ساهموا في تدميره.

وعندما دخل غوردون إلى منزله، رمى بنفسه على أحد المقاعد وقال لزوجته بيأس:
"ماري، انتهى كل شيء ولم يعد هناك أي أمل بالنسبة إلينا، فقد تم تكليف شخص آخر بعملي."

سألته زوجته بصوت مرتعش: "لكن ألم يوافق السيد إيفنلي على تكليفك بعمل آخر لديه؟"

"لا، كما أنه أهانني وطلب مني ألا أدخل متجره بعد الآن."
"ألم تعلمه بأنك وقّعت على التعهّد؟"

"بلى، لكن ذلك كان دون فائدة، كما أنه لم يهتم بي أكثر مما قد يهتم المرء بكلب."
ثم غطّى ذلك الرجل اليائس وجهه بيديه وبدأ يبكي وكان عندما رفع رأسه قد قال:
"ما الذي سيحلّ بنا ماري؟ ما الذي علينا أن نفعله؟ فليس هناك أي متجر آخر في البلدة. أليس هذا مؤلماً؟ وأن يحدث ذلك في الوقت الذي قررت فيه أن ألتزم بالسلوك القويم؟"

قالت زوجته: "لا تيأس هنري! دعنا نتكل على الله - تعالى - نعم إنها فترة عصيبة... نعم، إنه وقت عصيب، لكنه بالنسبة إليّ أكثر بهجة من أي وقت كنا قد مررنا به منذ سنوات. لديك أيد قوية وذهن صافٍ ولن يمرّ وقت طويل إلا وتكون

قد حصلتَ على عمل. أنا لن أياس يا زوجي العزيز! كما أن عليك ألا تياس أنت أيضًا. تمسك جيدًا بتعهدك وسوف تجتاز هذه المحنة."

قال غوردون: "لكننا سوف نتصور من الجوع، فليس بإمكاننا أن نعيش على الهواء."

أجابت السيدة غوردون: "لن نفعل ذلك بالطبع، وبإمكاننا أن نعيش براحة تامة، وأن نكتفي بنصف ما كنت تحصل عليه من مورد من عملك. أعتقد أن بإمكانك أن تعثر على عمل بخمسة دولارات في الأسبوع، أليس كذلك؟"

"يبدو لي ذلك ممكنًا. سوف يكون بإمكانني بالتأكيد أن أحصل على خمسة دولارات في الأسبوع لو عملتُ في نشر الخشب، لكنني سأفعل ذلك. سوف أفعل أي شيء لأجلكم..."

"ليس عليك إذن أن تتوتر. كما أنني سأحاول الحصول على عمل في الحياكة لكي أساعدك. عليك أن تبتهج هنري فسوف تسير الأمور جيدًا. قد يستغرق ذلك بعض الوقت لكن الوقت والجهد سوف يُحققان لنا كل ما نسعى إليه وكل ما نرغب به." وكان غوردون بذلك قد تشجع بالطبع، للبحث عن عمل آخر. كان ذلك الأمر جديدًا عليه بالطبع، بأن يكون عليه الذهاب للبحث عن عمل لابد أن يكون على الأغلب من الأعمال الشاقة، وبأن يكون عليه أن يتوسل تقريبًا للحصول عليه...

لم يكن غوردون يعلم إلى أين عليه أن يذهب؟ وإلى من عليه أن يتوجه بالسؤال عن عمل؟ وكان وهو في تلك الحال من القنوط، قد شعر بما يدفعه إلى أن يغرق جميع أحزانه ومشاكله بالعودة إلى الشراب، لكنه فكر بزوجه وبالأمل الذي أشرق في قلبها بأن يكون قد أقلع نهائيًا عن الشراب ما جعله يتراجع عن ذلك...

عندما عاد غوردون إلى المنزل وشاهد زوجته مستغرقة في الحياكة قال لها بياس: "لا فائدة من المحاولة ماري، فليس بإمكانني الحصول على أي عمل."

أجابته السيدة غوردون بهدوء:

"لكنني كنتُ أفضل حظًا منك. ذهبتُ اليوم لمقابلة السيدة هويت وكان لديها ما تكلفني بحياكته، وأنا الآن أحيك لها عشرة قمصان. لا تفقد الأمل بهذه السرعة."

بإمكاننا الانتظار لأسبوعين أو ثلاثة ريثما تعثر على عمل. دعنا نشكر الله على ما حصلنا عليه اليوم، ولنتوكل عليه بالنسبة إلى الغد. توكل على الله فهو لا يتخلى عن من يسلك السلوك القويم."

كان هذا ما فعلته السيدة غوردون لكي ترفع من معنويات زوجها. وبذلك ذهب السيد غوردون من جديد بعد العشاء لمقابلة رجل يُعرف بنفوذه في البلدة، وكان ذلك الرجل بعد أن روى له ما فعله وبعد أن أطلعته على الوضع السيئ الذي هو فيه لعدم حصوله على عمل قد قال له:

"اطمئن غوردون، لن تبقى عاطلاً عن العمل؛ لأن من المؤكد أن الرجل العاطل عن العمل لابد أن يخضع للإغراءات أكثر من غيره، وقد يجعلك ذلك تعجز عن المحافظة على عهدك؛ لذا علينا أن نساعدك في الحصول على عمل. ما الذي بإمكانك أن تفعله عدا عن عملك في مجال التجارة؟"

قال غوردون: "ليس لدي الكثير من المهارات الأخرى لكنني بصحة جيدة كما أن لدي القدرة والإرادة وكذلك الرغبة في العمل. أعتقد بأنها من الأمور التي يمكن أن تُفيد في شيء ما."

"وأنا أيضاً أعتقد ذلك. علينا أن نبدأ منذ اليوم، سوف أعلمك الآن بما ستفعله: لو كان بإمكانك أن تأتي إلى متجري كل صباح قبل قدومي إلى المتجر لكي تشعل النيران في المدفأة وتنظف المكان، وأن تعود في فترة الاستراحة لكي تمكث في المتجر لمدة ساعة خلال تناولي الغداء، فسوف أمنحك ثلاثة دولارات في الأسبوع، كل ما أحتاجه منك هو العمل لساعتين في اليوم."

قال غوردون وقد أشرق وجهه:

"أشكر سيدي من كل جوارحي!... وأنا أقبل عرضك بالطبع. هذا يكفيني في الوقت الحاضر."

"حسنًا، بإمكانك أن تبدأ من صباح الغد. أعتقد أن بإمكانك أيضاً أن تحصل على ما يعادل هذا المبلغ لو عملت في المتاجر المجاورة بحمل بعض الأشياء الخفيفة، بإمكانني أن أوّمن لك مثل هذا العمل. سوف أتحدث بذلك إلى زملائي في الجوار."

وهكذا لم يكن في كل البلدة من هم أكثر سعادة من عائلة هنري غوردون رغم ما كانوا فيه من فقر، حيث قالت السيدة غوردون:

"كنتُ أعلم بأن الأمور لابد أن تسير جيدًا... كنتُ أعلم بأن يومًا أفضل سوف يأتي عما قريب... بإمكاننا أن نعيش بكل راحة على مبلغ ستة دولارات وأن نكون أكثر سعادة مما كنا في أي وقت مضى..."

ولم يكن غوردون، وهو يتذكّر ما فعله في الماضي، قد عجب من أن تكون الدموع قد بدأت تسيل على وجه زوجته رغم محاولتها الابتسام.

كان غوردون كما توقع ذلك الصديق قد قام بالكثير من الأعمال لديه ولدى من هم في الجوار، وبذلك حصل خلال بضعة أسابيع على خمسة دولارات في الأسبوع كما كانت تصل أحيانًا إلى الستة دولارات.

واستمر الوضع على هذا المنوال لبضعة أشهر، لكن غوردون بدأ يفقد عزيمته من جديد. كان في كثير من الأحيان يعود بذاكرته إلى الأيام المشرقة السالفة ويشعر برغبة ملّحة بتحسين وضعه لأجل زوجته وأولاده. كان يتمنى أن يستعيد ما خسره لكن لم يكن بإمكانية تحقيق ذلك في وقت قريب. كانت الستة دولارات في الأسبوع الحد الأعلى لموارده، لكن ذلك المبلغ بالإضافة لما كانت تحصل عليه زوجته من عملها، كان كافيًا لأن يجعل الأمور تسير في منزله بشكل مقبول نسبيًا.

كنتُ في بداية سردي لهذه القصة، قد أشرتُ إلى أن غوردون كان بوضع نفسي سيء جدًا وأكثر من السابق، لكن ما قيل له جعله يشعر ببعض الأمل والبهجة. وبذلك حدّث نفسه وهو يمشي بخطى أكثر ثباتًا:

"الإيمان، الوقت والعزيمة." نعم... هذا ما سوف يجعل الأمور تسير جيدًا في النهاية. لن أكون ضعيفًا ولن أستسلم لليأس. كانت جميع الأمور قد أصبحت أفضل من السابق، ونحن الآن أكثر سعادة وبوضع أفضل وعليّ أن أثق دومًا بكل إيمان بالوقت وبالعزيمة!"

لكن غوردون عندما فتح باب مسكنه المتواضع كان قد وجد شخصًا بانتظاره. كان ذلك الرجل قد قدّم له ورقة صغيرة وقال له:

"يودّ السيد بليك معرفة فيما إذا كان بإمكانك أن تُسدّد له الآن المبلغ المُستحق عليك؟"

والسيد بليك هو صاحب متجر للبقالة، يدين له غوردون بمبلغ عشرة دولارات منذ أكثر من عام. كان بليك قد طالب ذلك السكّير البائس بالمال إلى أن تعب من ذلك مما جعله يتخلّى عن الأمر، لكنه عندما علم مؤخرًا بأن غوردون وقّع على ذلك التعهّد وبدأ يعمل. حدّث نفسه:

"لا زال لديّ بعض الأمل في تحصيل الدين"

وبذلك قام على الفور بتجديد فاتورة المطالبة وأرسلها إليه دون أن يهتم فيما إذا كان الوقت قد حان لقيامه بذلك، أو أن يكون في ذلك ما قد يجعل ذلك الرجل البائس ييأس من جديد مما سيقوده إلى عاداته السابقة في الإسراف في الشرب. كان كل ما يريده بالطبع هو تحصيل المال المُستحق الدفع وبأية طريقة.

لكن إجابة غوردون عندما طُلب بالمبلغ كانت:

"أرجو أن تُعلم السيد بليك بأنني سوف أسدّد له المبلغ في أقرب وقت، لكن ليس بإمكانني أن أفعل ذلك على الفور."

وبذلك استدار ذلك الرجل وغادر المنزل.

لكن ما حدث كان له بالطبع تأثيره على غوردون بحيث تراجعت نفسيته المتفائلة من جديد إلى نقطة الصفر. قال لزوجته:

"ماري! الوضع ميؤوس منه كما ترين! وأنا أدرك ذلك بوضوح أكثر يومًا بعد يوم، ففي الوقت الذي أقف فيه من جديد على قدمي بدأت تظهر أمامي عشرات الأسباب التي ستجعلني أقع في الخطأ من جديد..."

عندما كنتُ سكّيراً لم يكن هناك من يُطالبني بالمال، أما الآن وأنا أحاول أن أصبح رجلاً مستقيماً فقد بدأ كل من أدين له حتى بدولار واحد ينقضّ عليّ لكي يُطالبني بما أدين له من مال.

قالت زوجته: "حسنًا هنري، أنت تعلم بأن هذا دين وبذلك على المرء أن يُسدّده."

"لستُ أنكر ذلك، لكن ليس بإمكانني أن أفعل ذلك في الوقت الحاضر."

"حسنًا، هذا يعني أن بليك لن يتمكن من تحصيل دينه الآن وبأن عليه تأجيل الموضوع، وعلى كافة الأحوال لن تؤدي بعض المطالبة إلى موتنا، فقد مررنا بظروف أسوأ من ذلك واستطعنا احتمالها؛ لذا ليس عليك ألا تفقد عزيمة بهذه السهولة." أجابها غوردون: "هناك بعض المنطق بما تقولينه ماري، وأنا أعلم بأنني أفقد عزيمة بسرعة لكن من الواضح أيضًا أننا ندين له بهذا المبلغ وله الحق بمحاولة استرداد ماله. ليس بإمكاننا أن نُسدد المبلغ الآن وليفعل ما يريد، ولن نكون بوضع أسوأ لو أنه عمد إلى مطالبتنا بذلك يوميًا، لكنني أكره أن تتم مطالبتي بالمال."

قالت السيدة غوردون: "بإمكاني أن أشير عليك بالأسلوب الذي بإمكانك أن نتبعه لسداد الدين."

سألها زوجها: "حسنًا ما هو؟"

"لدى السيد بليك عائلة كبيرة ولا بد أن زوجته تحتاج إلى من يخطط لهم ثيابهم وبإمكاني أن أفعل ذلك لقاء المال الذي تدين له به."

فكر السيد غوردون للحظات ثم قال: "أو ربما أن يكون من الأفضل أن يجعلني بليك أعمل في متجره لقاء الدين فلدي الكثير من وقت الفراغ."

أجابت السيدة غوردون: "قد يكون هذا أفضل لأن لدي الكثير مما أقوم به من الأعمال الأخرى التي بإمكانني أن أحصل لقاء إنجازها على بعض المال."

راقت تلك الفكرة للسيد غوردون ورفعت من معنوياته وبذلك توجه على الفور إلى متجر السيد بليك. قال له:

"جئت كي أتحدث إليك حول ما عليّ سداه من دين."

قال بليك: "حسنًا وما الذي لديك؟"

"كنت أتمنى أن أسدد لك ما عليّ بالمال لكن ليس بإمكانني ذلك لأنني خسرت مؤخرًا عملي وليس لدي حاليًا أي عمل ثابت، وكل ما بإمكانني الحصول عليه هو خمسة أو ستة دولارات في الأسبوع وهو مبلغ لا يكاد يكفي لإعالتني. لكن لدي بعض أوقات

الفراغ، فإن لم يكن بإمكانني أن أسدد لك الدين بالمال، بإمكانني أن أفعل ذلك بالعمل وسوف يسرني ذلك."

قال بائع الخضروات: "لست أطلب أكثر من ذلك فليس من المنطقي أن أرفض ذلك. دعني أفكر بالأمر. أعتقد بأن بإمكانني أن أوّمن لك عملاً ليوم واحد في الأسبوع لكي أحسم دولارًا من الدين. هل يُناسبك ذلك؟"

قال غوردون: "هذا يناسبني تمامًا فلديّ يوم فراغ ومن الأفضل لي أن أعمل لكي أسدد ديني من أن أبقى عاطلاً عن العمل."

"جيد جدًا غوردون! بإمكانك أن تبدأ من الغد. هذا الحلّ يُناسبني كما أنه يُثبت بأنك رجل مستقيم."

كانت كلمات بائع الخضار قد شجعت غوردون كثيرًا، وبذلك ذهب في اليوم التالي وفق ما تم الاتفاق عليه بينهما وبدأ يعمل لصالح السيد بليك، عندما كان على وشك مغادرة المتجر مساءً استدعاه السيد بليك وقال:

"تعال غوردون انتظر قليلًا. أريدك أن تحمل من هنا هذا الكيلوغرام من السكر وهذا الكيلو غرام من الشاي."

فعل غوردون ما طُلب منه. لكن السيد بليك قال له بعد ذلك: "خذها إلى زوجتك، وأبلغها تحياتي وأعلمها بأنني أتمنى لها السعادة مع هذا الزوج الشريف."

تناول غوردون تلك الهدية غير المتوقعة وهرع إلى البيت. كان وراء ذلك قدره الذي يُخفي له وجهًا مبتسمًا. وعندما أعطى غوردون السكر والشاي لزوجته امتلأت عيناها بالدموع وكرّرت ما قاله بائع الخضار.

قال غوردون: "نعم" هذه نعمة أرسلها الله إلينا! كم نجهل أحيانًا ما قد يكمن وراء مستقبلنا من خير أو من شرّ!..."

وقالت زوجته: "زوجي العزيز! لا تقل بأنه قد يكون هناك بعض الشرّ في قدرنا، قد يبدو لنا ذلك من الشر، لكن لو فكر المرء بالخير فسوف يلقي الخير، فعندما يُخطط

لنا الله - تعالى - لمستقبلنا لابد أن يكون ذلك لما فيه الخير لنا، أما الشرور فهي تأتي من أفعالنا.

عندما أوى غوردون إلى فراشه تلك الليلة همس لنفسه: "الإيمان، الوقت والعزيمة..." وبذلك قرر الذهاب في اليوم إلى دائن آخر ممن يدين لهم بالمال لكي يسأله فيما إذا يقبل بسداد الدين بذات الأسلوب الذي اتبعه مع بائع الخضار.

لكن ذلك الرجل كان قد قال له بعد أن تردد قليلاً:

"أنا أبيع بضاعتي لقاء المال وليس لقاء العمل."

قال غوردون: "لكنني لا أملك المال حالياً."

قال الرجل: "سوف أنتظر وأرى ما سيحدث."

حدث غوردون نفسه: "يبدو أنه سينتظر إلى أن يصبح وضعي أفضل لكي ينقض عليّ ويطالبني بالدين المستحق."

وكان قد شعر من جديد بالتعاسة واليأس. وعندما عاد إلى منزله قال لزوجته: "أنا أدين لذلك الرجل بمائة أو بمئتي دولار وليس هناك أي أمل بجمع هذا المبلغ لكي أسدد ما عليّ من دين له أو لغيره من الدائنين. يبدو أن مُعاناتي سوف تستمر إلى أن أموت، هذا من أمر واضح..."

لكن زوجته كانت قد أجابته:

"لا تنظر إلى الجانب المظلم فقط، أعتقد بأن عليك أن تفعل التالي: أنت مدين لثمانية أو عشرة أشخاص، وكان أحدهم عندما طالبك بما عليك قد قبل عرضك بالعمل لقاء سداد الدين، فإن كنت قد ذهبت اليوم إلى من لم يطالبك بالدين وعرضت عليه ذات العرض ورفض ذلك فليس عليه سوى الانتظار. ليس هناك في الحقيقة ما يستوجب كل هذا اليأس، فلو كان ذلك الدائن يُفضل الانتظار فكل ما عليك أن تدعه ينتظر. لن يغيّر هذا شيئاً في الأمر، ولو كان هذا الدائن قد رفض عملك لقاء سداد الدين فلم سيكون على الآخرين أن يرفضوا ذلك."

وكان غوردون بذلك قد شعر من جديد بالاطمئنان وبذلك ذهب في اليوم التالي إلى شخص ثالث كان يدين له بخمسة عشر دولارًا. كان ذلك الرجل يتعامل بتجارة

التجزئة بالخضار كما كانت لديه حانة لبيع المشروبات وكان ثلث ما يدين له غوردون هو دين لقاء المشروبات التي شربها لديه.

قال غوردون: "سيد كينغ، أود أن أسدد لك ما عليّ من دين"

قال السيد كينغ: "هذا جيّد، ادخل ما الذي تريد أن تشربه؟"

ثم توجه لكي يجلب له كأسًا من الشراب، لكن السيد غوردون أجابه:

"شكرًا! لك لن أتناول أي شراب."

"لِمَ؟ وكيف حدث ذلك؟ هل أقسمتَ على ذلك؟"

"نعم، لقد انتسبتُ إلى المجتمع الصالح."

هزّ صاحب الحانة كتفيه وقال:

"لم أتوقع هذا منك غوردون. كنتُ أعتقد بأنك لا يمكن أن تقلع عن الشراب وعن شعور الراحة التي يلقاه المرء بذلك."

قال غوردون: "كنتُ بذلك قد دمرتُ نفسي وشردتُ عائلتي. أهذا ما تقصده بشعور الراحة؟ يعلم الله أن هذا أسوأ ما يحدث للمرء، لكنني جنّْتُ الآن لكي أتحدث إليك عن سداد الدين بما أنني توقفتُ الآن عن الشراب ولأنني أريد أن أصبح رجلًا شريفًا بقدر ما بإمكانني ذلك."

"هذا جيد يعجبني الرجل الذي يسعى لأن يصبح محترمًا. هل تمتلك المال؟"

"لا، كان بودي ذلك ليس لديّ المال وإنما لديّ الوقت وبإمكاني أن أعمل لقاء ذلك سيد كينغ."

"الوقت؟ هذا ما يُطلق عليه البعض تعبير الوقت من مال، أعتقد بأنك قد تُسدّد لي الدين بالوقت؟ لكن الوقت ليس مثل المال يا صديقي. هناك الكثيرون مما يأتون إليّ لكي يضيّعوا الوقت بالمال؛ لذا بإمكانني أن أحصل على أكثر مما أريده."

"سيد كينغ، لستُ أرغب بإضاعة الوقت ولا بعدم سداد ما عليّ. ما أريده هو أن أقدم إليك خدمة لقاء المال، أو بتعبير آخر لو كان بإمكانك أن تُكلفني بما أقوم به فلدي وقت فراغ وأود استخدامه بالقيام بأمر مفيد."

قال السيد كينغ: "نعم، بدأت أفهمك الآن غوردون. أعتقد بأن بإمكانني أن ألبى طلبك. كان قد تمّ أمس سجن المسؤول عن الحانة لارتكابه مخالفة قانونية، وأنا بحاجة إلى من يحلّ محله إلى أن يعود. بإمكانك القيام بهذا العمل لبضعة أسابيع وسوف أخصم المبلغ من الدين الذي عليك."

نظر إليه غوردون وقد بدا جدياً.

سأله السيد كينغ: "ما الأمر؟ ألن تفعل ذلك؟"

"لا سيدي ليس بإمكانني ذلك."

"لماذا؟"

"لأنني أقسمت ألا أتذوق الشراب أو أن ألمسه أو أن أقوم بأي شيء يتعلق بذلك. لا، لا، سيد كينغ، ليس بإمكانني أن أفعل ذلك، لكن بإمكانني أن أبيع الخضار لمدة أربعة أيام في الأسبوع ولمدة أربعة أسابيع، لأن لديّ التزامات أخرى باقي الوقت." اصطبغ وجه صاحب الحانة بالحمرة لدى سماعه كلمات ذلك الرجل الذي سار في طريق الصلاح، واعتبر ما قاله بمثابة الإهانة له وقال:

"اذهب إلى أعمالك، وسوف أجد طريقة أخرى لتحصيل ديني."

وكان غوردون يذكر أن زوجته تقول بأن عليه ألا يقلق وألا يخاف من أي شيء، ولأن زوجته كانت تُنبهه دومًا بأن من الخطأ أن يفعل ذلك؛ لذا شعر بالحرَج من يعود إليها بمزاج سيء، وبذلك عمل على أن يرفع من معنوياته قبل العودة إلى المنزل. ثم كان غوردون بعد ذلك قد نجح في مساعيه في أماكن أخرى، فلم يكن لجميع من عاد إليهم ذات طريقة التفكير، وبذلك كان خلال ستة أشهر قد استطاع سداد مائة دولار مما عليه من ديون، كما كان قد حصل على عمل ثابت يعود عليه بستة دولارات في الأسبوع، ما عدا ما كان يحصل عليه كل أسبوع من هنا وهناك لقاء بعض الأعمال الثانوية الأخرى. كما كانت زوجته تقوم ببيع أعمال الحياكة وتحصل لقاء ذلك على دولارين أو على ثلاثة دولارات في الأسبوع. لكن شعور عدم الاستقرار كان لا يزال يُعكّر صفو في حياتهم وهو أمر لا بدّ منه.

ثم كان غوردون شهرًا بعد شهر قد سدّ جميع ديونه كما كان قد حصل على عمل براتب خمسمائة دولار في العام. وكان كلما تجول في منزله المريح يهمس لنفسه: "الإيمان، الوقت والعزيمة..." كما كان كلما فكر بما مرّ به من أحداث خلال العام الماضي ويقول:

"ليس بإمكانني تصديق ذلك فلم يمر بعد سوى اثنا عشر شهرًا وها قد أصبحت رجلًا مستقيمًا واستطعتُ سداد جميع ديوني."

بعد مرور عام، كان أحد أصدقاء غوردون القدامى ممن عاصروا ما مرّ به من مشاكل قد مرّ بمبنى عليه لوحة كتبت عليها عبارة (مؤسسة إيفنلي وغوردون) وكان عندما شاهد غوردون على باب المتجر قد سأله بدهشة:

"هل أنت من يملك هذه المؤسسة؟"

أجابه غوردون: "نعم"

"وهل حصلت على المال بهذه السرعة؟"

"نعم، الأمور تسير جيدًا معنا والحمد لله."

"غوردون، لست أفهم كل ذلك. كنتُ قد حاولتُ مثلك أن أصلح نفسي لكنني فقدتُ

عزيمتي وتراجعْتُ، لكنك تمكنتَ من أن تحقق ذلك فما هو سرّ نجاحك؟"

قال غوردون: "يَكمن الأمر في ثلاث كلمات..."

"وما هي؟"

"إنها الإيمان، الوقت والعزيمة!..."

تأثير التقدير والعبارات الرقيقة

قد يكون شعاع صغير من الشمس، أو ضياء صغير جدًا من نور يتخلل إطار إحدى نوافذ غرف منزلنا هو ما يجعل تلك الغرفة تصبح أكثر بهجة...

ومع ذلك فنحن معتادون جدًا على وجوده بحيث لا نلتفت إليه ولا نُبالي به ولا بما له من تأثير بهيج ومنعش على نفوسنا، لكنه لو اختفى فجأة فسوف نلاحظ ذلك بسرعة وسوف نفتقد كثيرًا عدم وجوده...

فالسجين البائس الذي لا يكاد يدخل النور إلى زنزانته، يُهَلِّل ويشعر بالنشوة عندما يرى ذلك الشعاع البسيط من الضوء، كما أن نزلاء الشوارع المعتمدة في المدن المزدحمة يسعدون برؤيته ويعتبرونه بشيرًا من السماء...

والأمر كذلك بالنسبة لكل ما من شأنه أن يُدخل البهجة إلى قلوب البشر، قد تكون بعض تلك الأمور بحد ذاتها من التوافه لكن قلوب البشر خلقت لكي تنبض و تتأثر بأقل كلمة أو لمسة أو لفتة حنان قد تصبح الحياة بدونها تافهة فارغة يبدو كل ما فيها باردًا خاليًا من الحياة أشبه بقطعة من رخام أصم لا أثر يسجل عليها سوى ذكرى أحبائنا الذين فقدناهم...

كان منزل هنري هاورد منزلًا كئيبًا رغم ما يتوفر فيه من جميع العوامل المؤهلة للسعادة. ثروة كبيرة جدًا من شأنها أن توفر الأمان والرخاء والكثير من أسباب الرفاهية في الحياة، كما كان العديد من أقرباء ومعارف الزوج والزوجة يعتبرونهما من الأشخاص الأذكاء جدًا والمحبيين جدًا، ولم تكن يعوزهما بهجة الطفولة فكان لديهما ثلاثة من أحب و أجمل الأطفال. لكن ما كان يدعو للاستغراب أن تكون ضحكات الأطفال البهيجة نادرًا ما تُسمع في ذلك المنزل. كان أطفالهما رغم صغر سنهم يتصفون بنوع من الرزانة والجدية التي تفوق سنهم ولا تتناسب معه، وبذلك كان نادرًا أو قليلًا ما يشاهد المرء لديهم تلك البهجة الذي تجعل قلوب من حولهم تنتعش.

كانت تعوزهم ما يمكن أن نُطلق عليه تعبير:

(إشراقة شمس الحياة) لكن لماذا؟ ولأي سبب؟ كان ذلك بالنسبة للمشاهد العادي لغزاً محيراً. سعادة الأم والزوجة قد غادرت من سنوات منزل طفولتها وصباها عروساً سعيدة واثقة بما ينتظرها من سعادة. لم تكن بعد قد تجاوزت سن السابعة عشر عندما منحت ذلك الزوج الذي اختارته من بين جميع من حولها، كل محبتها وكل العاطفة النقية لقلب عذراء طاهرة. كان زوجها يستحق ذلك من كثير من النواحي، وكان قد بادلها ذات المشاعر بقدر ما تتيح له طبيعته. كان يكبرها بعدة سنوات، لكنه كان يتحلى بالكثير من الميزات الأخلاقية والصفات الحميدة. كان ذكياً طيباً له سمعته التي لا غبار عليها بين جميع زملائه.

لكنه من ناحية أخرى كان فاتراً رزيناً ومُتحفظاً في جميع تصرفاته وحتى في أسلوب تعبيره عن مشاعره، وهو الأمر الذي لبها قدن يتوافق مع المزاج الرقيق المحب لزوجته الشابة التي كانت تلقى في منزل والدها الكثير من الحنان والاهتمام، وهو ما كانت تنتظره من الشخص الذي منحته كل محبتها.

كان زوجها فخوراً بجمالها وبذكائها وبمرحها وبخفة ظلّها، وكان عندما أغرم بها قد أظهر لها ما يكفي من عاطفة ومن حنان لكي يرضيها ما جعلها تثق بمحبته وتمنحه كل ما لديها من عاطفة ومن محبة وتفانٍ وبالشكل المثالي. لكن زوجها كان مع مرور الأشهر قد انغمس من جديد في أعماله، وبذلك كانت طباعه الحقيقية قد بدأت تتجلى في أسلوب تعامله وفي تصرفاته...

ولكي نُعبّر عن ذلك بالشكل الصحيح والرفاهية؟ نقول بأن زوجها كان عاد إلى ما كان عليه من طباع كانت بالأحرى تبدو غريبة بعض الشيء، ما جعل قلب زوجته ينفطر لما كانت تلمسه منه أحياناً من برود في عواطفه ومن عدم مبالاة جعل أجمل ما كان في قلبها من عواطف يبرد وينكمش...

لم تكن الدموع ولا الاحتجاج قد يُغيّران من طباعه المتأصلة في شخصيته ولم يكن زوجها قد التفت حتى إلى الكثير من التغيير الذي طرأ عليها هي أيضاً نتيجة ذلك... ألم يكن قد أُمّن لها جميع أسباب الراحة والرفاهية؟ ألم تكن جميع رغباتها مُجابهة؟ ألم يكن يلبي لها جميع مطالبها بالكامل وعلى الفور؟ فما الذي قد ترغب

به أكثر من ذلك أية زوجة عاقلة؟... لكن ذلك الزوج لم يكن بكل أسف يعلم سوى القليل عن قلب المرأة. ولم يكن يشعر بقيمة ذلك النبع من المحبة الذي كان يتدفق باستمرار تجاهه. ذلك النبع الذي كان هو أول من جعل ما فيه من عواطف يتأجج... وكان يجهل أبضاً الأثر الخفيف للكبت والقمع المستمر لكل ما لديها من عاطفة حارة، لم يكن قد خُيِّل إليه بأن ذلك القلب المُحب قد يصبح بارداً، وبأن مزاجه البارد سوف يجعل تلك المخلوقة المخلصة، التي كانت في ذلك الوقت متعلقة به إلى حد كبير تنبذه وتتحول إلى ظلّ امرأة...

كان تناسيه وإهماله أو عدم التفاته لبعض الأمور الصغيرة، التي ربما كان يعتبرها من التوافه، رغم أنها كانت بالنسبة لزوجته تُشكل أهم عناصر السعادة العائلية، ما جعل الكرب يحلّ في قلب تلك الزوجة. فنادراً ما كانت تلقى نظرة المحبة التي كانت تستقبله بها أي تفاعل أو استجابة. ونادراً ما كان يشعر باللمسة اللطيفة لتلك اليد. لمسة يد الزوجة المحبة المتفانية. ولم يكن يلتفت إلى الجهد المتواصل التي كانت تبذله لإرضائه.

كان كل ما ترغب به زوجته هو كلمة إطراء صغيرة أو نظرة محبة، لكن كل ذلك كان بعيداً عن المنال وبذلك كان جمال المحبة وسحر الحياة قد زالا بالنسبة إليها. سكبت دموع المرارة إلى أن بدأ التعبير يطرأ عليها بالتدريج على الرغم مما كانت لا تزال تبذله أحياناً من مساعٍ صادقة لكي تخلق حولهما أسباب السعادة لكن ذلك كان دون جدوى...

لو كان ذلك الزوج قد أدرك على الأقل كم كانت تلك المخلوقة الشابة تنظر إليه بكآبة عندما كان لدى عودته من العمل يجلس صامتاً وهو يتناول العشاء وينعم بما أعدته له من كل وسائل الراحة والرفاهية... لو كان قد التفت إليها وهي تنظر إليه على أمل أن تسمع منه ولو كلمة إطراء واحدة أو نظرة استحسان لطيفة... لو كان بإمكانه أن يلحظ مدى العناية التي كانت تُشرف بها على تدبير الأمور المنزلية وذلك الاهتمام المستمر بأقل ما قد يبديه من رغبات... لو كان يلحظ مدى العناية التي كانت توليها لمظهرها لكي يراها دوماً بأجمل مظهر... لو كان قد اهتم بكل

ذلك لكان بالتأكيد قد تخلص من ذلك البرود وعن ذلك الأسلوب غير المبالي ولكان قد ضمَّ إلى صدره تلك المخلوقة الرقيقة المحبة التي طالما كان قد تمنى الحصول على محبتها ولكان منحها كل ما في الكون من دفء المحبة والحنان...

لكنه لم يكن قد التفت إلى كل ذلك ولم يكن قد شعر بكل ذلك. لم يكن قد أدرك ما قد يتوق إليه ذلك القلب المخلص، ولم يكن قد تفوه مطلقاً بكلمة إطرء واحدة في الوقت الذي كانت فيه زوجته بحاجة إلى أن يلحظ مدى تكريسها نفسها بالكامل إليه وإلى أطفالها...

ومع مرور العام الأول لزوجهما كان قد ربط بينهما حبل جديد عندما أصبحت ماري أمًا. كانت عندما ضمت طفلها الوليد إلى صدرها للمرة الأولى قد شعرت بأن آملًا جديدة قد عادت تنعش قلبها وبأن سحب الكآبة التي كانت قد تراكمت في نفسها قد بدأت تزول وبأن شعاعًا من نور قد عاد يُضيء حياتها من جديد. كان ذلك لِمَا أولاهما زوجها من عناية ساعة تعرضها للخطر أثناء الولادة، ولِمَا لمستته من حنان عندما ألقى النظرة الأولى إلى وليدهما الأول. كان ذلك مُبشِّرًا بأن أيامًا سعيدة بانتظارهما.

لكن وأسفاه! لم تكن تلك الآمال سوى سراب. كان زوجها دون أي شك قد أمّن للطفل كل ما يمكن لأب جيّد أن يُهيئه لطفله ما عدا الاهتمام... لم يكن قد لاحظ بما يكفي من اهتمام الخطوات الأولى لذلك الطفل، ولم يكن قد شعر بعذوبة الكلمات الأولى البريئة التي نقط بها ذلك الطفل... كانت بالطبع يوم قد قالت له عندما مدّ الطفل يديه الصغيرتين وأطلق صيحة فرح عندما شاهد والده يدخل الغرفة:

"أليس بالطبع، رائعًا؟"

لكن الإجابة الهادئة كانت:

"نعم بالطبع، يبدو هذا الطفل بصحة جيدة، لكنني لا أرى شيئًا مُميزًا في طفل لا يزال في سن الستة أشهر..."

وكان قد أضاف: "ماري! عليك أن تعلمي بأن الإكثار من المديح ضار جداً بالأطفال؛ لذا من الأفضل أن تتدربي منذ الآن على كبح مشاعرك، وعلى عدم التفوّه بعبارات سوف تُعزّز لديه حب الذات. عليك أن تُعلّمي أولادك منذ نعومة أظفارهم بأن عليهم أداء واجباتهم والتطلع إلى الأهداف السامية دون تلقيهم الإطراء على ذلك." كانت ماري عندما سمعت تلك الملاحظات الجديّة الخالية من العاطفة، قد أُصيبت برعشة وشعرت وكأن قطعة من الجليد قد أزلت عن قلبها الدفء...

ربما كان هناك بعض الحقيقة بما قاله زوجها: أن يقوم بأداء واجباته والتزاماته لأجل أهداف سامية وليس بحثاً عن استحسان من حوله، لكن من المؤكد أيضاً أنه لن يكون هناك أي أثر ضار لكلمة إطراء أو لعبارة مديح صغيرة نتلقاها ممن حولنا وبشكل خاص ممن نحبهم!

كلمة المديح أشبه بشعاع من ضياء الشمس يغمر القلب بالدفء، يشجع الضعفاء و يَسكن الألم ويجلب الراحة للمتعبين والأمل للمكتئبين.

كان ذلك ما كانت ماري ترغب بأن تقوله لزوجها وكان ذلك ما كانت تتوق إليه، لكن زوجها كان قد خرج بعد ذلك من الغرفة وبذلك كانت الكلمات قد ماتت على شفثيها... مع مرور السنوات كان طفل آخر بعد طفل قد أُضيف إلى تلك العائلة، وأصبحت أربعة من الوجوه الصغيرة المشرقة تجتمع حول المائدة العائلية. ولكن لم يكن قد طرأ أي تغيير على ذلك الأب الصارم لا من الناحية الداخلية ولا من الناحية الخارجية... كان الأطفال قد تلقوا بالطبع كل محبة وحنان من تلك الفتاة الشابة التي كانت الآمال المشرقة بالمستقبل تغمر قلبها الفتى عندما غادرت منزل والدها من عشر سنوات مضت...

ولكن من أين أتى ذلك الهدوء في السلوك والتصرف لدى زوجها والذي كان أشبه بنوع من البرود وبعدم المبالاة بكل ما يدور حولها؟... لم تكن ماري قد تغيّرت بالنسبة لزوجها وأطفالها بل كانت تحرص دوماً على تأمين كل وسائل الراحة لهم، كانت تقوم بذات واجباتها اليومية الاعتيادية بكل دقة وإتقان، لكن ذلك كان يتم دوماً بنوع من البرود وبدون أية حيوية وهو ما كان يخالف تماماً طبيعتها...

كان ذلك التغيير قد حصل بالتدريج دون أن يكون ذلك الزوج قد التفت إليه، وإنما كانت ماري بالنسبة لتفكيره قد أصبحت أكثر فأكثر رزانة أو أنها أصبحت أكثر حكمة؛ لأنها كانت قد نضجت مع مرور الأيام وتركت جانباً كل ما كانت فيه من طيش تلك الأيام الني كانت لاتزال فيها فتاة غرة...

صحيح أن ماري كانت في بعض الأوقات تشعر بأن عدم مبالاة زوجها قد باتت مزعجة للغاية... خاصة عندما لم يكن يتحدث إليها إلا قليلاً وعندما كان يوجه إليها النقد أو اللوم على أقل الهفوات. كانت أقل كلمات التوبيخ في البداية تجعلها تزرف الدموع، لكنها مع مرور الأيام لم تعد تُبد أي انفعال تجاه ذلك. كانت تظلّ محافظة على رباطة جأشها وتقول لزوجها بكل بهدوء بأنها سوف تنفذ رغبته في المرة القادمة. كان ذلك بالتأكيد كل ما يرغب به زوجها، لكنه بذات الوقت كان يرغب أيضاً بأن تُشعره زوجته بأن رضاه أو استيائه لهما تأثيرهما عليها... لم تكن تلك المشاعر الدافئة وتلك المحبة قد خمدت تماماً في قلب ماري، وإنما كانت بالأحرى قد بردت وشُلت لفقدانها ما يُغذيها لكنها كانت لا تزال كامنة في أعماق قلبها... كانت تلك المشاعر الدافئة تتأجج في بعض الأوقات عندما كان أحد أطفالها يُحيطها بذراعيه أو عندما كان يضع رأسه الصغير على صدرها... لكن ذلك كان بالنسبة لمن هم الأصغر سنّاً لكنها كانت تتصرف تجاه أولادها الأكبر سنّاً بذات البرود ما جعلهم يفتقدون دوماً ذلك الحنان الذي يشكل العلاقة ما بين الأم والأولاد....

كانت ماري بالطبع تهتم كل الاهتمام بجميع أولادها ولم تكن تهمل مطلقاً كل ما يتعلق بصحتهم وبتأهيلهم الفكري، أما ما يتعلق بالقلب والعواطف فقد ظلّ ذلك الجانب مهماً أشبه بقفر خالٍ في الوقت الذي كان من المفترض أن ينبع بالحنان وبالعاطفة الحقيقية...

كان الطفلان الأكبر سنّاً لدى بلوغهما سن السابعة والتاسعة قد أصبحا طفلين واعدين يتمتعان بصحة جيدة وبالحيوية رغم ما كانا يتعرضان إليه من قمع، لكن الطفلة الثالثة إيفا كانت تختلف عنهما كثيراً. كانت منذ طفولتها رقيقة

شديدة الإحساس وضعيفة البنية؛ لذا ظلت حتى وهي تقترب من سن الخامسة تحظى بالكثير من الحنان في ذلك البيت الذي لم تكن تدخله البهجة.

كانت تلك الطفلة تجلس إلى جانب والدتها دوماً وترقبها دون كلل وهي تؤدي العديد من الأشياء الصغيرة بكل هدوء، لكنها كانت تلاحظ أيضاً بأن ما تقوم به كان يتم دوماً بذات البرود وبطريقة روتينية لا تتغير. كانت تتوق إلى أن تتلقى منها ذلك التعبير عن الحنان الذي لم تكن قد شعرت به قط، فحتى والدها الصارم كان يتحدث إليها بالذات بأسلوب أكثر لطفًا وبلهجة أكثر رقة من عادته.

وكان أحياناً يلاطفها ويمسح بحنان على شعرها الحريري ويناديها بطفلي الصغيرة البائسة. لكن ما كانت تتوق إليه تلك الطفلة كان حنان الأم وإن كانت تشعر بغريزتها بأن في قلب والدتها وخلف ذلك الهدوء الخارجي نبع من حنان لا زالت مياهه تتدفق.

كانت ذات يوم بعد أن غرقت في إغفاءة نتيجة إصابتها بالمرض قد استيقظت على لمسة حنان وعلى قبلة بنظرة من عينيها نصف المغمضتين قد شاهدت فيض من الدموع يسيل على ذلك الوجه الشاحب، ما جعلها على الفور تمذ ذراعيها إليها وتعانقها وتهمس بصوتها الرقيق:

"أمي الغالية! هل تحبين ابنتك إيفا؟"

لكن والدتها كانت قد كبحت انفعالها على الفور وأجابتها بهدوء:

"بالطبع يا طفلي أنا أحبكم جميعاً! لكن عليك الآن الاستلقاء لكي تأخذي قسطاً من الراحة. يبدو أنك كنتِ تحلمين..."

ما جعل الطفلة المعذبة تهمس:

"آه يا أمي! كم كان ذلك الحلم رائعاً؟"

ثم امتثلت لرغبة والدتها واستلقت دون حراك وأغفت من جديد وقد ارتسمت على وجهها البريء ابتسامة رقيقة، ثم تحركت شفتها كما لو أنها كانت تقول شيئاً ما جعل والدتها تنحني نحوها وكانت قد سمعتها تهمس:

"قبليني ثانية يا أمي الغالية! أرجوك أن تنادينني بابنتك الغالية الصغيرة إيفا"

ليس بإمكان أحد أن يصف ما كان لتلك الكلمات من تأثير على قلب تلك الأم البائسة التي ظلت جالسة إلى جانب سرير طفلتها النائمة إلى أن بزغ الفجر، لكنها كانت مع ذلك هادئة أشبه بتمثال من الرخام ولم يكن وجهها يعكس ما بداخلها. لكن صحة تلك الطفلة البريئة كانت قد بدأت تتراجع يوماً بعد يوم بحيث لم يعد بإمكانها أن تنهض من الفراش لشدة الألم لكن عينيها الزرقاوين ظللتا تنظران بمحبة إلى من حولها.

كان من الواضح أن ساعتها الأخيرة قد دنت أكثر فأكثر، وكانت الصغيرة ذات صباح وهي مستلقية بين ذراعي والدتها قد حدقت بوجه والدتها وهمست: "أمي! ألسنتُ سأذهب إلى ربنا الذي في السماء؟" وكانت إجابة والدتها التي لا تكاد تسمع: "نعم، حبيبتي! نعم..."

سألتها الطفلة من جديد:

"وهل سترعاني الملائكة هناك وتكون بالنسبة إليّ كالأم؟"

أجابت الأم: "نعم، وحتى أكثر بكثير من أي أحد في العالم."

كان وقع تلك الكلمات التي تفيض بالحنان أشبه بموسيقى على سمع الطفلة. التي أشرق وجهها بابتسامة رقيقة. وكان والدها قد اقترب وانحنى نحوها وهمس:

"ابنتي الرقيقة إبقا ألن تتحدثي إليّ؟"

وكانت الطفلة قد أجابت: "أنا أحبك جداً... أبي! و عندما سأصبح في السماء أصلي لأجلك ولأجل أمي البائسة." وكانت عيناها قد وقعتا من جديد على وجه والدتها كما لو أنها كانت تقرأ عليه انعكاس ما تُعانيه من ألم لا يوصف.

كانت جهود الطبيب لإنقاذ حياة تلك الطفلة قد باءت بالفشل وكانت تجد صعوبة كبيرة في التنفس لكنها كانت تحتمل ذلك دون أن تشتكي وكانت قد همست لوالدتها:

"أمي! ألسنتُ أحاول احتمال الألم بشجاعة؟"

أجابتها والدتها: "نعم، حبيبيتي! أنت فتاة صغيرة رائعة... أنت طيبة وصبورة." لاح على وجه الطفلة لسماعها كلمات الإطاراء تلك تعبير ينم عن سعادة غامرة وقالت:

"أمي الغالية... أمي الغالية... أمي الحبيبة! ألن تُناديني دومًا بابنتي الغالية؟ سوف أحاول أن أكون دومًا طيبة جدًا لو فعلتُ ذلك فلأن قلبي يفيض بالسعادة الآن."

وكانت قد أحاطت عنق والدتها بذراعيها الواهنتين. قال الطبيب لوالدها: "يبدو أنها قد بدأت الآن تهذي." لم تكن أية إجابة قد صدرت عن والدها وكان قد ظلّ واقفًا دون حراك يُصغي إلى ما كانت تقوله تلك الطفلة التي تشارف على الرحيل عن العالم... كانت الطفلة قد غابت عن الوعي من جديد بينما جلس الوالدان المعذبان إلى جانبها يرقبانها ساعة بعد ساعة إلى أن استيقظت من جديد. نظرت إليهما بذات الابتسامة الرائعة الرقيقة ثم قالت: "أنا سعيدة جدًا أمي الغالية. هل ستناديني دومًا بابنتي الرائعة؟" ثم غرقت من جديد في غيبوبتها.

قالت الأم: "نعم، حبيبيتي! فأنتِ أغلى من لديّ في هذا العالم." كانت الأم البائسة قد نطقت بتلك الكلمات بصوت تخنقه العبرات وهي تقبل الخدين الشاحبين لتلك الصغيرة مرات ومرات. قالت الطفلة من جديد:

"أمي، أنا سعيدة جدًا، أرجو أن تُقبلي أخوتي وأن تبترسمي لهم دومًا وأن تناديهم بأولادي الأحباء فذلك أشبه بإشراقه من ضياء الشمس في يوم غائم." ثم نظرت إلى والدها وقالت:

"تعال إلى جانبي أبي، دعني أهمس بإذنك..." أرجوك يا والدي أن تتعامل مع والدتي برقة وأن تقبلها كما تقبليني فهي بذلك لن تشعر مطلقًا بالحزن."

كان ذلك الرجل الصارم قد بدأ يبكي بحرقة وقال:

"سوف أفعل ذلك يا غاليتي."

وكانت ملامح الطفلة قد تغيرت ثم أغلقت عينيها إلى الأبد...

كانت تلك الأم قد بكت وبكت ليس فقط عندما فارقت طفلتها الحياة، ولكن عندما ضمها زوجها إلى صدره بحنان محاولاً أن يجلب لها العزاء، ثم صدرت عنها صرخة وسقطت بين ذراعيه فاقدة الوعي.

وكان قد تلا ذلك عدة أسابيع ظلت فيها تلك الأم الثكلى في حالة من الهذيان...

كم كان ذلك الأب الصارم قد تلقى من دروس خلال ذلك؟ كان يجلس إلى جانب سريرها طوال الليل إلى أن تنظر إليه بتلك العينين المحبتين، لكن تلك النظرة كانت أيضاً نظرة عتاب وكانت تهمس دون أن يسمعها:

"كل ما كنت أحتاجه منك هنري هي نظرة محبة واحدة فقط... قبلة صغيرة... كلمة واحدة تدلّ على المحبة وعلى التقدير."

تذكر هنري بأنه كان قد شاهد مثل تلك النظرة على وجهها خلال السنوات الأخيرة لكنه عندما انحنى نحوها

كان ذلك التعبير البارد قد عاد إلى وجهها وقالت بأسى:

"فات الأوان هنري... فات الأوان... مات القلب وتحجّر... أترى هاهي إيفا تقف هناك وتدعوني إلى أرض المحبة والسلام"

لكن الزوج استدعى الطبيب وأخبر أن الخطر قد يزول مع العناية والرعاية وبأن تلك الأم والزوجة سوف تنجو وتعود إلى عائلتها.

كان زوجها قد تولى رعايتها بشكل لا يوصف لكنها كانت بعد أن استعادت صحتها قد عادت إلى ذلك البرود غير الطبيعي لم تكن تستجيب لأي من كلماته الرقيقة لكلماته ولا لنظراته المحبة.

فهل كان الأوان قد فات بالفعل؟... هل كان زوجها قد أدرك متطلبات واحتياجات المرأة المحبة من زوجها بعد أن أصبح القلب الذي كان ينبض بالمحبة تجاهه أشبه بقطعة من رخام؟..."

كان ذلك في ذكرى يوم زفافهما... كان هنري هاورد قد نظر إلى وجه زوجته التي كان الأسى يملؤه بدل الحيوية، وتذكر - بكثير من المرارة - ذلك اليوم الجميل الذي كانت تلك العروس قد زُفت إليه... تلك الشابة الرقيقة التي كان قلبها ينبض بالحب والأمل والحيوية. تذكر كيف كانت طوال تلك السنوات قد قدمت له كل ما تمناه وكيف كان تصرفه تجاهها خاليًا من حرارة المحبة، وبذلك كان قد ضمها بين ذراعيه وهمس:

"ماري! أليس بالإمكان أن ننسى الماضي؟ أليس بإمكانك أن تنسي ما تسببت لك فيه من أحزان؟ صدّقيني أن تصرفي كان بسبب الجهل فقط. كنتُ منذ نعومة أظفاري قد نشأتُ يتيم الأم؛ لذا لم

أكن قد عرفتُ معنى قدسية محبة الأم. ولم أكن قد تجاوزت مع روحتي المحبة ومتطلباتها لأنني بطبيعتي صارم وبارد... أنا أدرك كل ذلك الآن وأقدر إنكارك لذاتك وكل ما كنتِ تبذلين من جهود لإرضائي إلى أن تعب قلبك وشعرتِ بأنك قد فقدتِ العزم ما جعل الدماء تتجمد في قلبك وما جعلك تصبحين صورة عن ذلك البرود المتحجر الذي كنتُ أنا من تسبب لك به بسبب برودي...

ألن ننسى الماضي؟ ألن تكوني من جديد تلك الزوجة المحبة المرحّة؟ فأنا أعدك بأنني سوف أكرس ما تبقى من حياتي كي أجعلك سعيدة، كانت ردّة الفعل وما بدا على وجه ماري من انفعال مُقلّقًا أو أنه كان بالأحرى مخيفًا تقريبيًا، كانت قد ظلّت صامتة مستغرقة بالتفكير لوقت طويل إلى أن همست:

"أخيرًا... وبذات الكلمات التي قالتها طفلي إيفا... آه يا زوجي! يا زوجي الغالي! أنا اشعر الآن بأن سعادة غامرة قد بدأت تملأ قلبي. فقد عاد الآن ينبض من جديد ويتجاوب من ما قلته على الرغم من أنه أصبح باردًا ميتًا... لقد استجاب الله - تعالى - لدعاء ابنتنا الغالية الملائكية وسوف نحصل على السعادة من جديد."

وكانت شمس السعادة قد أشرقت من جديد على حياة تلك العائلة بتأثير تلك الكلمات الرقيقة وبذلك النظرة المحبة واللمسة الرقيقة وبما لأثر التقدير والمديح على النفوس...

حياة امرأة هناك

لم تكن أعمال بنيامين باركر مزدهرة كما كانت بالنسبة لمن حوله، وبذلك لم يكن بإمكانه أن يتأقلم مع وضعه. كان يقول لزوجته أحياناً:

"هناك القليل ممن يكافحون أكثر مما أكافح، فأنا أولي أعمالي كل اهتمامي ليلاً ونهاراً، أثناء الطقس الحار وأثناء الطقس البارد، لكن دون جدوى. لا شيء، ليس بإمكانني حتى أن أتدبر أموري وأعتقد بأنني لن أتمكن من ذلك أبداً. لا شيء، لا شيء على الإطلاق يتم بشكل جيد بالنسبة إليّ."

كانت السيدة باركر امرأة بثقتها قد تزوجت السيد باركر؛ لأنها أحبته وفضلته على جميع الشبان الذين تقدموا لطلب يدها، على الرغم مما كان لدى البعض منهم من فرص أفضل في الحياة.

وكانت قد استمرت في محبتها له وبثقتها به رغم الكثير مما تعرضت إليه في حياتها الزوجية من حرمان ومن فاقة.

كانت دوماً تجيب على ما يبديه زوجها من تذمر:

"أنت تقوم بكل ما بإمكانك، وما تقوم به هو أقصى ما يمكن أن يتوقعه المرء من أي شخص. كل ما عليك هو أن تزرع وتحصد وسوف يرسل الله - تعالى - لك المطر والشمس."

وكان وجه السيد باركر يُشرق لدى سماعه عبارات التشجيع والمواساة تلك. كما أن السيدة باركر لم تكن - قط - تحاول أن تُدلي بأية نصيحة أو رأي بما يتعلق أسلوب زوجها في إدارة أعماله، على الرغم من أنها لم تكن تتمكن في بعض الأحيان من منع نفسها بالتفكير بأن الأمور قد تكون أفضل لو أن زوجها كان قد تصرف بشكل مختلف.

كان من حسن حظ زوجها أنها كانت قد ضمت أملاكها لأملاكه منذ زواجهما، وبأنها كانت على استعداد لأن تحمل معه أعباء الحياة مهما كانت قاسية.

كانت السيدة باركر توافق على كل ما يقترحه زوجها حتى لو كان في ذلك بالنسبة إليها الكثير من التضحية.

كما أنها لم تكن تقول له عندما كانت الأمور تتم على عكس ما توقعه - وهذا ما كان يحدث في كثير من الأحيان :-
"كنت أتوقع ذلك... أو لم أكن أوافق على ما فعلته..."

أو لو أنك سمحت لي بأن أسدي إليك النصيحة لما حدث ذلك..."

لا، لسلبية السيدة باركر لم تكن تتفوه بشيء من هذا القبيل، وإنما وعلى العكس كانت تقول له دومًا ما يمكن أن يُشجعه ويُعزّيه وتعزو ما يحدث إلى حكمة لا يعرفها إلا الله - تعالى -، لكن ربما كان من الأفضل بالنسبة إليهما لو أن السيدة باركر كانت ذات شخصية أكثر ايجابية وذات إرادة قوية، أو لو أنها كانت قد أبدت أكثر من الحزم في تعاملها مع الأمور.

ليس لنا أن نؤيد أو نخالف تلك الزوجة في وجهة نظرها، فلاشك بأن الصفات الذهنية بين الأزواج لها بشكل عام علاقة وثيقة الواحدة بالأخرى ولها فعل وردّة فعل بأسلوب يتناسب أكثر مع تصحيح ما لدى كل منهما من صفات سيئة وفي ترفع كل منهما إلى الوضع الأخلاقي الأفضل. قد يخطر ببال المرء للوهلة الأولى بأن هذه القاعدة لا يمكن أن تكون صحيحة كقاعدة عامة، لكن الأمر سوف يصبح أكثر وضوحًا مع مزيد من التفكير. فما دامت حكمة القدر تحكم حياة البشر فمن المنطقي أن نفترض بأن الزواج هو الأمر الأكثر أهمية في حياة المرء وبأنه دون شك يتم بتفاعل الصفات الأخلاقية والعقلانية بالشكل الذي يؤدي إلى تحقيق الأفضل للزوجين ولأولادهما.

لكن ليس بإمكاننا أن نؤكد أن هذا الأمر أكثر أو أقل سلبية، فلو لم تكن السيدة باركر تعتقد بذلك القدر من الإيمان، بأن لدى زوجها دومًا الإمكانية لاتخاذ القرار الصائب بكل ما يتعلق ما عليه القيام به في حياته، لكانت حياتهما قد أخذت منحى آخرًا ولكانا عاشا بأكثر من سعادة وأمان... لكنها كانت سلبية؛ لذا كان من الطبيعي أن تكون تلك هي طريقة نظرتها للأمور.

لكن سلبية السيدة باركر تلك في جميع الأمور التي كانت تعتقد بأن بإمكان زوجها اتخاذ القرار بشأنها، لم تكن لضعفها أو لعدم فعاليتها، وإنما كانت تواجه جميع الأمور بأسلوب لطيف وبمحبة وبنوع من الخنوع، لإيمانها العميق بأن كل الأمور في هذا الكون تسير وفق ما يقدره الله - تعالى - للمرء، وبذلك لا أهمية لمقدار ما كان عليها أن تتعرض إليه من متاعب جسدية ونفسية...

لم تكن مطلقاً تتذمر وإنما كانت تتوجه إلى الله - تعالى - بخضوع وهي تشعر في قرارة نفسها بأنها إن لم تشكو وبأتها لو تمسكت بالصبر فلا بد أن تسير الأمور بشكل جيد.

كانت السيدة باركر إحدى ثلاث شقيقات تربط بينهن أصدق وأعمق مشاعر المحبة والمودة. كانت والدتهم قد توفيت وهن لا زلن صغيرات السن ما جعل أوامر المحبة بينهم تصبح أقوى وتتجلى أيضاً بالمحبة المتبادلة بينهن وبين والدهن. لم تكن منذ طفولتهن قد افترقن قط، وكان مجرد التفكير باحتمال ابتعاد إحداهن عن الأخريات من شأنه أن يتسبب لهن بالكثير من الألم. ولو كان هناك ما جعل السيدة باركر تشعر بالحزن عندما تزوجت ببنيامين باركر فذلك لأن ذلك الزواج كان سيجعلها تفارق شقيقاتها. لكن ذلك لم يكن على مسافة بعيدة فقد كان لدى زوجها متجرًا في القرية وكان موقعه قريباً جداً من منزل عائلتها مما يتيح لها التواصل مع شقيقاتها، لكن طبيعتها كزوجة متفانية لم تكن تتيح لها إهمال واجباتها الزوجية يومياً لزيارة شقيقاتها.

كانت قد عوضت عن ابتعادها عن والدها وشقيقاتها بما كان لديها من عاطفة ومن حب عميق لزوجها وبكريسها نفسها له... كانت سعيدة لكن سعادتها كانت بخنوع وبنفس راضية.

لم يكن قد مرّ عام على زواجهما إلا وكان باركر قد بدأ يتذمر من سوء ظروف العمل. كان طوال الوقت الذي يمضيه في المنزل يجلس مكتئباً ومُستغرقاً في التفكير. وهذا ما كان يتسبب للسيدة باركر بالكثير من الحزن وما كان يجعلها

تبذل أكبر قدر من الحكمة في إدارة الشؤون المنزلية بأن تقتصد في المصروفات لكي تُخفف عنه أكبر قدر ممكن من الأعباء المادية، لكن لم يكن لكل ذلك أية فائدة. كان باركر في الحقيقة يكسب ما يكفي لسدّ احتياجات العائلة وحتى بأكثر من ذلك، لكنه لم يكن يشعر بالرضى؛ لأنه كان من النوع الذي يحب التغيير. وذات يوم كان أحد الأقرباء قد حدثه ذات مرّة عن أن أحد أصدقائهما قد حقق الكثير من النجاح في مشروع تجاري أسسه في بلدة تبعد خمسمائة ميل عن مكان إقامتهما الحالية، وبأنه يبيع ضعف الكمية التي يبيعها في متجره ما جعله يحصل على الكثير من المكاسب.

وبذلك لم يكن قد مرّ وقت طويل إلا وكان باركر بعد أن تذمر بمرارة ويشكو لزوجته من تعسّر الأمور في متجره قد قال:

"لست أدري كيف سيكون بإمكاننا أن نتدبّر أمور حياتنا ما لم نذهب إلى فيرفيو حيث ستكون الأمور بالتأكيد أفضل من هنا بكثير."

سألته زوجته بصوت هادى رغم أن قلبها كاد ينفطر لمجرد فكرة ابتعادها عن من تحبهم بكل جوارحها:

"هل تعتقد ذلك؟"

وكانت إجابة زوجها:

"بل أنا متأكد من الأعمال مزدهرة جدًّا في فيرفيو بينما بدأت الأمور تتراجع هنا بأسرع ما نتصور، ومن المؤكد أنه لن يكون بإمكانني أن أحقق أي تقدم لو بقيت هنا بهذا الوضع."

لم تكن زوجته قد أجابت لكن يدها التي كانت تُمسك بإبرة الحياكة كانت قد بدأت ترتجف.

ثم سألتها زوجها ببعض التردد: "هل أنت على استعداد للذهاب إلى هناك؟"

وكانت قد أجابته بخنوع:

"أنا بالطبع على استعداد للذهاب إلى هناك إن كنت تجد بأن هذا من الأفضل بالنسبة إلينا."

نظر باركر إلى وجه زوجته التي كانت قد أحنت رأسها أكثر نحو ما كانت تُحيكه وحاول زوجها أن يفهم تمامًا معنى التعبير الذي قرأه على ملامح وجهها، لكنه لم يتمكن من أن يفسره جيدًا، فلم تكن في نبرة صوتها عندما أبدت استعدادها للانتقال إلى مدينة أخرى ما جعله يشعر بالراحة تمامًا؛ لكنه مع ذلك قد حصل على موافقتها وكان ذلك كل ما يرغب به.

وبذلك كان قبل أن يمر وقت طويل قد نسي الأسلوب الذي عبّرت به عن موافقتها تلك ولم يكن قد شعر أو التفت إلى ذلك الحزن العميق الذي غمر قلبها، ولا بما تعنيه الوحدة التي سوف تعيشها.

وبذلك كان قد اتخذ القرار بانتقالهما وقام بتنفيذه. قام ببيع كمية كبيرة من السلع التي كانت لدى في متجره ولكن بخسارة كبيرة، وبذلك تحوّلت إلى أموال سائلة. أما ما تبقى منها فقد تم شحنه إلى فيرفيو ثم لحقت به بسرعة زوجته وطفله.

وفي الوقت الذي كان فيه باركر يتطلع بكل تفاؤل إلى مستقبل أفضل في فيرفيو، كانت راشيل زوجته تذرف دموع الأسف على من تركتهم من أحبّاء وأصدقاء. لكنها مع ذلك لم تكن قد تفوّهت بأية كلمة ولم تكن قد أبدت أية ملاحظة تُشير أو تُعبر عن معاناتها تلك...

كانت تؤمن بأن واجبها يتطلب منها مرافقة زوجها، وبأنها حتى لو لم تكن تغادر موطن إقامتها راضية، فإن واجبها نحو زوجها يتطلب منها أن تُخفي عنه ما تعانيه من أسي...

كانت الأمور في فيرفيو قد بدت مُشرقة ومُبشرة بالكثير من الخير لفترة من الزمن. كان السيد باركر قد استطاع بيع كمية أكبر من السلع وبأسعار أفضل مما كانت عليه في بلدته القديمة، ولكن كان عليه بذات الوقت أن يرصد المزيد من الأموال لذلك. كانت النتيجة في العام الأول مشجعة تمامًا رغم بعض التراجع الطفيف الذي كان أكثر بكثير من ازدياد أرباحه، ومع ذلك لم يكن قد ساوره الشك بأن ذلك التراجع سوف يستمر بالتدريج. أما بالنسبة إلى السيدة باركر فلم يكن ذلك العام

قد مرّ دون أن تكون له آثاره المؤسفة على نفسيتها. لكن بعض السيدات تُظهرن شدة المعاناة أكثر بكثير من مئات ممن تسير حياتهن بسعادة وممن نادرًا ما تظلم سماء حياتهن...

وكانت السيدة باركر من تلك السيدات المثاليات.

أما ما حدث خلال العام الأول من ابتعادها عمن كانت تكن لهن ذلك الحب الكبير بالإضافة لزوجها وطفلها فكان الحدث المؤلم لوفاة والدها. وكان ما جعل المأساة مضاعفة وأكثر حدة أن يكون ذلك قد حدث في الوقت الذي كانت فيه هي أيضًا مريضة جدًّا بحيث لم يكن بإمكانها أن تذهب لرؤيته دون أن تتعرض حياتها للخطر. توفي والدها حتى بدون أن يكون بإمكانها أن تكون إلى جانبه في ساعاته الأخيرة وهو يودع الحياة... توفي وتمت مواراته الثرى ولم تكن هناك لكي تنظر إلى وجهه المحبب للمرة الأخيرة... توفي والدها ولم تكن إلى جانبه في ساعاته الأخيرة وهو يودع الحياة... توفي وتمت مواراته الثرى ولم تكن هناك لكي تلقى عليه نظرة أخيرة... توفي دون أن تكون قد رافقته إلى مثواه الأخير ودون أن تبكي على قبره... كانت قد عانت كثيرًا ولكن دون أن تجعل أحد يشعر بالألم الذي كان يعتصر قلبها، وحتى أن زوجها كان قد خدع بالهدوء الظاهري الذي كانت تبدو فيه، ولم يُساوره الشك حول ما كانت تخفيه تحت ذلك ستار الهدوء من أسى جامح. لم يكن قد شاهد الدموع التي كانت تُغرق وسادتها كل ليلة كلما أوت إلى فراشها، و لم يلحظ كم من ليلة أمضتها مُسعدة تُحدق بصمت في الظلام...

كانت تؤدي واجباتها المنزلية اليومية بكل إتقان ومثابرة وعندما كان زوجها يتحدث إليها كانت تُجيبه بابتسامتها الاعتيادية اللطيفة... لكن ذلك كان قد ذبل وتلاشى بسرعة ومع ذلك لم يكن السيد باركر قد التفت إلى التغيير الذي طرأ عليها. لم يكن قد لاحظ كما لم يكن قد علّق على أنها كانت نادرًا ما كانت تبادر بطرح أي موضوع للتداول بينهما. كان ذهنه مستغرقًا إلى حدٍّ كبير بموضوع تجارته بحيث كان من المستحيل أن يكون لديه أي إدراك أو إحساس بالمشاعر الحقيقية لزوجته...

مرّت سنوات أربع على وجودهما في فيرفيو لم يكن باركر خلالها يحصل من تجارته ما يكفي لتغطية سبل العيش. كان يدفع القسم الأكبر من أرباحه لتغطية أقساط المسكن. صحيح أنه كان يعيش وبأنه كان بإمكانه بهذا القدر من الأرباح أن يستمر بالعيش دون أن يدخر القليل لكنه لم يكن راضيًا عن ذلك وكان كعاداته يرغب بأن يتقدم أكثر في عالم التجارة.

وكان ذات يوم وهو يشكو لأحد معارفه من بطء تطور تجارته كان ذلك الصديق قد قال له:

"لِمَ لا تذهب إلى المنطقة الغربية؟ بإمكان تجارتك أن تزدهر هناك وبإمكانك أن تحصل على ما تستحقه من أرباح لقاء ما تبذله من جهد. لو كنت شابًا مثلك لَمَّا مكثت طويلاً في هذا المكان. كنت سأبيع كل ما لدي وأشتري ستة أو سبعة هكتارات من الأرض وأقيم عليها مزرعة وأصبح من الأثرياء ذوي الأملاك. كان ما قاله ذلك الصديق قد جعل باركر يبدأ بالتفكير بهذا الأمر ويبدأ بالاستفسار عن المنطقة الغربية، إلى أن بدأت تسيطر عليه باستمرار فكرة تحوُّله إلى مزارع يمتلك الكثير من الأراضي الزراعية المُغطاة بمختلف أنواع الحبوب، ثم بدأ يتحدث عن ذلك إلى زوجته.

لم تكن زوجته قد علّقت على ذلك وإنما كانت قد أخذت ما كان زوجها يفكر به بقدرية، إلى أن كان باركر قد اتخذ قراره أخيراً بأن عليه أن ينتقل للعيش في مزرعة مساحتها خمسة هكتارات تقع في شمال أنديانا التي تبعد أكثر من ألف ميل. لكنه بدلاً من يزور المنطقة لكي يطلع على مكان تلك المزرعة التي كان قد اشتراها بالمراسلة كان قد اعتبر نفسه محظوظاً بالحصول عليها، وكان على استعداد لدفع أكثر من نصف ما يمتلكه لشراء تلك المزرعة.

تم بيع المتجر التي يمتلكه في فيرفيو، وكانت السيدة باركر طلبت أن تمضي مدة أسبوع بين شقيقاتها قبل ابتعادها عنهن ربما للأبد.

كان قد بدا للسيدة باركر عندما فارقت شقيقاتها بأن فراقها عنهن أشبه بوداع الموت وذرفت الدموع كما لو أنها المرة الأخيرة التي سوف يقع نظرها عليهن، وكانت قد احتفظت بهذه النظرة الأخيرة لكي تسترجعها.

لو كانت تلك الزوجة قد كشفت لزوجها عن مشاعرها وعن رغباتها الحقيقية ولو كان زوجها قد شعر على الأقل بتلك المشاعر وبما لدى زوجته من مشاعر حقيقية لما كان ذلك الانتقال إلى المنطقة الغربية قد تم على الإطلاق. لكن ذهن زوجها كان كالعادة مُنشغلاً بأمور الحياة وبتطلعاته لتحقيق هدفه الجديد...

لم يكن السيد باركر يتمتع بالصفات الذهنية التي تجعله يُدرك ما يقع فيه من أخطاء، وإنما كان يشعر دوماً بأنه إما أن يظل في مكانه أو أن يكون عليه أن يغامر بالانتقال من مكان لآخر للبحث عن وسيلة لتحسين ظروفه وللوصول إلى وضع أفضل، وبذلك كان يركز كل اهتمامه على أعماله ولم يكن يرى ما أبعد من ذلك.

وكان ذلك ما جعله ينطلق إلى المنطقة الغربية يملؤه الأمل بأن يصبح من المزارعين الأثرياء دون أن يلتفت إلى ما كانت زوجته فيه من إحباط ومن وضع نفسي سيء، لكن راشيل ظلت مع ذلك راضية خنوعة وأخفت مشاعرها الحقيقية عن زوجها. كانت ترى بأن من واجبها كزوجة أن ترافق زوجها إلى أي مكان يذهب إليه وبأن عليها أن تقنع بما يختاره...

كانت قد ضمت ما لديها من أموال ومن ثروة ورثتها عن والدها إلى ما لديه من أموال دون أن تتذمر أو أن تُبدي أي اعتراض؛ لأنها كما أسلفنا كانت على استعداد لأن ترافقه إلى أبعد مكان في العالم وأن تقف إلى جانبه في جميع الظروف.

كان السيد باركر وزوجته وأطفالهما الثلاثة قد وصلوا إلى مقرهم الجديد بعد رحلة دامت ثلاثة أسابيع، وكان ذلك في فصل الربيع.

كانت تلك المزرعة تقع بالقرب من الضفة الشرقية لنهر صغير وكانت مُشجرة بشكل كثيف كما كان البيت الصغير الذي أنشئ حديثاً يقع أمام ضفة النهر تماماً ويبعد مسافة خمسة أميال عن أي مكان مأهول كما لم تكن نوافذه من زجاج.

كانت مرحلة الثلاثين ميل الأخيرة من الرحلة قد تمت بواسطة عربية صغيرة حملت فيها أيضاً أمتعتهم وبعض الأثاث والمؤن. لم تكن كانت الليلة الأولى التي أمضوها في ذلك المكان المنعزل الهادئ مُبهجة جداً لا بالنسبة للسيد باركر ولا لزوجته. كانت قد خيبت آمال السيد باركر وكانت قد ألقت بثقل كبير على قلب زوجته.

لكن الأمر كان قد حسم وهامهم قد أصبحوا في هذا المكان النائي؛ لذا لم يكن ليس أمامهم سوى القبول بالأمر الواقع ومحاولة التأقلم والحصول على أفضل ما بإمكانهم الحصول عليه مما أتيح لهم...

كان باركر قد استخدم مساعداً له وذهباً للعمل معه لحصاد موسم الربيع، بينما ظلت زوجته وطفلها الرضيع في ذلك المنزل لكي تقوم بواجباتها المنزلية دون أن تحظى بأية مساعدة. كانت تطهو وتنظف وتحيك لكنها كذلك كانت قد وجدت ما يشغلها طوال الوقت، وكانت نادراً ما تأوي إلى فراشها دون أن تكون منهكة القوى تماماً.

مر الوقت وبدأ يحصدان أول ثمار تجارتهما كان ذلك المكان الموحش والمنعزل قد بدأ يزدهر، وبدأت الساحة الصغيرة تتسع بالتدريج وبذلك استطاعا الحصول على الكثير من الأشياء الصغيرة التي كانا بحاجة إليها، لكنهما كانا رغم ذلك لا زالا يُعانيان من الحرمان من الكثير وهو ما كانت السيدة باركر تعلمه أكثر من زوجها...

كان الفصل الأول للصيف في تلك المنطقة حاراً شديد الرطوبة وكان قد اقترب من نهايته دون أن يكونا قد نعما بصحة جيدة. كان كل منهما يصاب بالصداع والغثيان وبشعور بالوهن بشكل عام، وكان أول من بدت عليه علامات المرض هي الطفلة الأكبر سناً. كان اسمها راشيل وكانت يسن الخامسة كانت قد سُميت باسم والدتها؛ لأنها كانت صورة طبق الأصل عنها. كانت تُشبهها إلى حد كبير بعينيها الفاتنتين وبوجهها المشرق وصوتها اللطيف الذي كان يُسمع طوال اليوم في أرجاء المنزل مما كان يُخفف عن والدتها معاناتها ويجعلها في كثير من الأحيان تنسى الوحدة والعزلة التي تعيش فيها. كانت تلك الطفلة أشبه بنسمة رطبة من

نسمات الربيع في قفر من صحراء حياتها. أو أشبه بزهرة مشرقة في أرض قاحلة أو بشعاع من نور الشمس في سماء مظلمة.

كانت راشيل الصغيرة أول من أصيب بالمرض.

كان يوم السبت هو دومًا أكثر أيام الأسبوع انشغالًا بالنسبة إلى السيدة باركر التي كان عليها التحضير لقداس يوم الأحد، ذلك لأنهم كانوا رغم العزلة يعتبرون أنه يوم الراحة من العمل ومن مشاغل الحياة اليومية. كانت السيدة باركر يوم السبت تولي اهتمامًا خاصًا بالأمر المنزلية؛ لذا لم تكن قد التفتت كثيرًا إلى أن الطفلة كانت أكثر سكوتًا من عاداتها ولم تكن قد لاحظت بأنها كانت قد خلدت إلى النوم بسرعة على أرضية الغرفة حتى قبل تناولها العشاء، ولم يكن قد جعلها ذلك تعتقد سوى أن الطفلة كانت قد تعبت من اللعب طوال اليوم... لكن الطفلة كانت مساء ذلك اليوم قد رفضت تناول الحساء وبذلك كانت والدتها قد لاحظت بأن عينيها كانتا مقلتين وبأن يديها كانتا حاريتين وبأنها مصابة بوهن عام. وبذلك كانت قد وضعتها في سريرها وكانت الطفلة قد استغرقت على الفور بنوم عميق. ظلت لبعض الوقت إلى جانب سريرها يملأ قلبها شعور بحنان غير عادي؛ لأنها كانت قد بدأت تشعر بالقلق دون أن تدري لأي سبب...

لم تكن السيدة باركر قد عرفت بعد معنى الخوف من خطورة المرض الشديد، ومن التهديد بالموت الوشيك الوقوع، وبذلك كان ذلك أحد الدروس التي كان عليها أن تتلفنها.

كانت الصغيرة راشيل قد استيقظت صباح اليوم التالي برعشة كبيرة مع تقيؤ ثم تلا ذلك ارتفاع شديد في الحرارة. وبذلك بدأ الوالدان يشعران بالقلق، وكانت السيدة باركر قد امتطت حصانها وذهبت للبحث عن طبيب في مكان يبعد عن المزرعة سبعة أميال...

لم يكن الطبيب قد وصل إلى أن حلّ المساء كما لم يكن قد أعطى الكثير من التفسير أو الإجابات على تساؤلات الأبوين القلقين، كان قد وصف بعض الأدوية فقط ووعد بالمرور في اليوم التالي. لكنه لم يكن في زيارته التالية قد وجد ما يشير إلى أي تحسن

في وضع المريضة الصغيرة، كانت حرارتها قد ارتفعت أكثر مما كانت عليه في اليوم السابق، ثم كانت هناك فترة تحسن بسيطة بعد منتصف الليل استمرت حتى صباح اليوم التالي لكن وضعها كان قد عاد للتفاقم إلى حد كبير.

استمرت معاناة تلك الطفلة الصغيرة من تلك الحمى والحرارة الشديدة لمدة تسعة أيام دون أن يطرأ أي تحسن على وضعها، وإنما كان وضعها يزداد سوءاً. كما أن تلك الطفلة البائسة لم تكن قد عانت فقط من ذلك المرض الخطير ومن الحرارة، وإنما كان عليها أن تعاني أيضاً من تأثير الأدوية التي تسببت لها بالغثيان كما كانت تلك قد تسببت لها بالإضافة إلى ذلك بنزف معوي.

وبذلك كان الطبيب في اليوم التاسع قد أعلم والديها بأنه لم يعد بإمكانه أن يفعل أكثر مما فعله لإنقاذ طفلتهم وبأنها لن تنجو من هذه الحمى؛ لأنها لم تعد تستجيب للعلاج وبأنها سوف تموت...

لم تكن السيدة باركر عندما تلقت ذلك النبأ قد تفوهت بأية كلمة. كان وجهها قد شحب بشكل كبير وأخذت تحاول رفع معنوياتها بأن تُردّد بينها وبين نفسها عبارة:

"لا... لا يمكن... سوف تنجو طفلي... نعم سوف تنجو" إن كانت قد فشلت في تهدئة روحها فقد كان أكثر من طاقة احتمالها أن تُحرم من طفلتها الغالية... أن تُحرم من رفيقة وحدتها... أن تُحرم من ذلك الشعاع الوحيد الذي يلطف وحشة العزلة في صحراء حياتها، كان ذلك أكثر من طاقة احتمالها بكثير...

وكانت الصغيرة راشيل قد فارقت الحياة كان والدها قد وارها التراب بالقرب من المنزل المتواضع بينما كانت الوالدة تذرف الدموع دون أن يكون هناك إلى جانبها من يُعزيها في ذلك المكان المنعزل حيث كان كل ما حولها صامتاً أصمّاً...

وكان على السيد باركر أن يذهب في اليوم التالي لاستدعاء الطبيب من جديد لأن علامات المرض كانت قد ظهرت على طفلته الأخرى. كما لم تكن زوجته على الإطلاق بخير وهذا ما جعله يشعر بالضيق.

كان الطبيب قبل مغادرته، وبعد تقديمه العلاج لجميع أفراد العائلة قد طلب من السيد باركر مرافقته إلى جانب النهر الذي يقع إلى جانب المزرعة من الناحية الشرقية حيث أعلمه بما يلي:

"لتعلم يا صديقي بأن البعوض السام هو الذي يحمل الجراثيم من هذا النهر العكر الذي يقع بالقرب من مزرعتك؛ لذا ليس من المستغرب أن يصاب أفراد عائلتك بالحمى. لو كنت مكانك لما كنت ساعيش في هذا المكان حتى لو تم منحي ألف مزرعة مثل هذه! كانت إحدى العائلات بكامل أفرادها قد توفيت في المكان، وهذا ما سوف يصيب عائلتك لو بقيتم في هذا المكان الموبوء. عليكم مغادرة هذا المكان على الفور. اهربوا من هذا المكان بأسرع ما بإمكانكم ذلك، فلن يفيدكم أي علاج ولن يقيكم من الإصابة بهذه الحمى. القرية المجاورة مكان صحيّ عليك الانتقال إليها على الفور. إياك الانتظار ولو ليوم واحد فهذا هو الأمل الوحيد لإنقاذ حياة أفراد عائلتك..."

لم يكن لمثل ذلك التحذير الشديد أن يمر دون مبالاة وحذر وكان السيد باركر قد أبلغ زوجته على الفور ما قاله الطبيب بالحرف الواحد وانتهى بالقول:

"علينا أن نغادر المكان على الفور."

أجابته زوجته بأسى: "وأن نترك راشيل بمفردها هنا؟"

أجابها زوجها بصوت مرتعش:

"لن يفيدنا بقاؤنا هنا بأي شيء."

وكانت زوجته قد أجابت بخنوع: "أعلم... أعلم ذلك لكنني إنسانة ضعيفة ومخبولة. نعم... نعم... من الأفضل لنا جميعاً أن نغادر المكان."

وكان قد تم اتخاذ كافة الترتيبات للانتقال من المزرعة خلال بضع ساعات، واستقلّ الجميع مركبة توجهوا بها إلى قرية مجاورة تبعد عشرة أميال عن المزرعة. كانت الأم الثكلى البائسة قد ظلت تنظر إلى المكان الذي تم فيه مواراة صغيرتها التراب وهي تكتم دموعها إلى أن غاب عن نظرها بين الأشجار، ثم أغلقت

عينها وأسندت رأسها إلى طرف نافذة العربة وظلت لفترة طويلة شبه غائبة عن الوعي عن كل ما حولها...

كانت السيدة باركر بعد مرور عدة سنوات قد قالت لإحدى صديقاتها بأن أقسى امتحان مرت به طوال حياتها رغم كل ما عانته كان عندما تركت طفلتها الغالية في ذلك المكان الموحش، وقد بدا لها حينذاك وكأن طفلتها قد شعرت بأنها قد تخلت عنها.

كان السيد باركر وعائلته قد حصلوا في تلك القرية على مكان للإقامة في نزل متواضع لمدة ستة أسابيع كما كان كل منهم قد شعر من وقت لآخر بعوارض تلك الحمى التي تراجعت بعد ابتعادهم عن ذلك الجو الموبوء.

وكان كان السيد باركر في ذلك الوقت يتابع أمور المزرعة التي غادرها وكان قد علم بأن جميع القاطنين في ذلك المكان القريب من النهر قد أصيبوا بالحمى وبأنه لو ذهب إلى ذلك المكان قبل أن يتكوّن الجليد فسوف يكون مصيره حتمًا الموت.

كان فقدان السيد باركر لابنته الأصغر سنًا والأحب إلى نفسه والوضع السيئ للمزرعة قد جعله يفتح عينيه ويدرك الخطأ الكبير الذي ارتكبه بحق عائلته. وبذلك كان ذات يوم قد قال لزوجته بعد أن شفى من آثار الحمى ومما كانا فيه من أسى لفقدان طفلتهما:

"أنا على استعداد لأن أفعل أي شيء لو كان بإمكانني أن أبيع مزرعتي لكي أعود إلى المنطقة الشرقية."

وكانت راشيل قد أجابته بذات الأسلوب الهادئ المعتاد:

"لو تمكنت من ذلك فسوف نكون جميعًا أسعد حالًا."

لم يكن زوجها قد التفت إلى الدموع التي انهمرت على الفور من عينها ولم يكن قد أدرك ما تسببت به لها تلك الكلمات من تسارع في ضربات قلبها الحزين.

وكان الحظ قد حالف السيد باركر بعد وقت قصير بأن حصل على من يريد تلك الأرض وكان على استعداد لشرائها بسعرها الرسمي قبل التحسينات، وبذلك كان

قد عاد مع عائلته إلى المنطقة الشرقية، بعد غياب دام ثمانية أشهر، لكنه كان قد أصبح باركر الحكيم...

أما زوجته فكانت قد أصبحت امرأة أكثر كآبة واستغراقاً في التفكير. كانت دائمة الهول فقدان راشيل الصغيرة أكثر مما بإمكانها احتمالها ونسيانه. ربما كان ما قد يُعزّيها أن تكون قد نقلت رفات الصغيرة من ذلك المكان ووارتها التراب في المكان الذي رقدت فيه والدتها ووالدها، لكن أن تتركها وحيدة هناك في تلك المنطقة الموحشة كان أكثر من طاقة احتمالها...

كان السيد باركر بالمبلغ الضئيل الذي ادخره من بيع المزرعة قد عاد لممارسة مهنته السابقة في ذات المتجر وفي ذات القرية التي كانا فيها يوم زواجهما. لم يكن بإمكان تجارته أن تزدهر بذلك المبلغ الضئيل؛ لذا عاد إلى عاداته السابقة بالتذمر في كثير من الأحيان وبدون أي سبب، وكانت زوجته الخنوعة تجيبه دوماً ببضع كلمات تشجيع ومواساة كعادتها:

"أنت تفعل كل ما بإمكانك... أنت تقوم بكل ما يمكن أن يقوم به أي شخص آخر... ازرع، وسوف تحصد... ألقِ البذور في الأرض وسوف يرسل إليك الله - تعالى - المطر والشمس..."

وكانت السيدة باركر بذلك قد عادت إلى مكان إقامتها السابق وأصبحت من جديد بين شقيقاتها. ولكن لم يكن قد مر بعد عام واحد على استقرارهما إلا وكان زوجها قد عاد البحث عن الثروة في مكان جديد، وكانت زوجته دون أن تشتكي أو تعترض قد وافقته، لكنها كانت قد أصبحت أكثر فأكثر شحوباً ونحولاً، كما بدأ صوتها يصبح أكثر انخفاً وأكثر حزناً، لكن زوجها كان كعادته مستغرق في سعيه وجهوده للحصول على المزيد من المال بحيث لم يكن بإمكانه أن يلتفت إلى الوضع الحقيقي لزوجته أو أن يتفهم ما تُعانيه أو أن يدرك سبب ذلك.

كان قد تم التأكد بعد ذلك بأن المكان الجديد يقع أيضاً في منطقة موبوءة، وبذلك كان فقدان أحد الأولاد الآخرين قد أبعدهم من جديد عن ذلك المكان بعد إقامة استمرت لمدة عام فقط.

كانت السيدة باركر قد عانت أيضًا بشكل كبير من الحمى على فترات متقطعة إلى أن أعلن زوجها بأنه يرغب بمغادرة المكان لأنه بدأ يشعر بعوارض المرض. سألته: "إلى أين تنوي الذهاب." أجابها زوجها: "لم أقرر بعد لكنني أفكر بالذهاب إلى ريشموند." أرخت راشيل نظرها إلى الأرض وصدرت عنها تنهيدة ما جعل زوجها يلتفت إلى ذلك ويسألها للمرة الأولى: "هل لديك أي اعتراض على ذلك؟" وكانت راشيل قد غامرت هذه المرة بالقول وهي تثبت نظرها عليه بعينين ملأتها الدموع: "لم لا نعود إلى مكان إقامتنا السابق؟" سألها زوجها هذه المرة وكان صوته أكثر رقة من المعتاد: "هل تفضلين العيش هناك؟" وأجابته الزوجة البائسة بصوت تخنقه الدموع والآهات: "لم أشعر قط بالسعادة منذ غادرنا ذلك المكان"، كان زوجها قد شعر للمرة الأولى بالحيرة والاضطراب، فلم يكن قط قد فكر بذلك. كانت راشيل تتقبل كل ما يقترحه عليها وما يقرره ما جعله يعتقد دومًا بأنها على استعداد للانتقال من مكان لآخر. لكن الحقيقة العارية كانت قد ظهرت أمامه فجأة وتساءل: "ألم تكن قط سعيدة منذ غادرنا ذلك المكان؟" ثم قال ببعض التأثر: "سوف نعود إلى ذلك المكان ما دمت ترغبين بذلك. لو كنتُ أعلم بذلك سابقًا لما..." عادا إلى ذلك المكان لكن راشيل لم تكن قد عادت إلى حالتها الصحية والنفسية التي كانت عليها سابقًا، كانت أعمال زوجها بعد تكرار التجارب وبالمزيد من العناية قد ازدهرت رغم أنه لن يكن قد أصبح بالثراء الذي كان ينشده. أما بالنسبة إلى راشيل فقد استمرت صحتها تدريجيًا بالتراجع إلى أن فارقت الحياة بعد ثلاثة أعوام من عودتهما...

زوجة مخلصه

قال ذلك الشاب بلهجة تنمّ على الكثير من الاكتئاب:
"لقد يئستُ تمامًا فقدتُ كل أمل. يعلم الله أنني حاولتُ كل ما بإمكانني لأحصل على عمل لكن يبدو بأنه ليس هناك من يحتاج إلى خدماتي مع الأسف! كما أن الأجر الزهيد الذي قد أحصل عليه من والدك سوف يجعلني أشعر بالإذلال وسيُحطم قلبي، وهو من ناحية أخرى لا يكاد يكفي لتأمين سكن متواضع ولتأمين ما يسدّ الحاجات الأساسية في الحياة. لن ألمس ولو شلناً من أمواله حتى لو تصوّرت من الجوع..."

وكانت الفتاة الرقيقة الطيبة التي كانت قد تخلت عن الأب والأم وعن المنزل الهانئ لكي تُشارك هذا الشخص الذي تحبه بأعباء الحياة، قد أجابته بعد أن وضعت إصبعها على شفّتيه وأحاطته بذراعيها:
"اصمت إدوار!"

قال الشاب من جديد:
"رجاء أنيس، ليس بإمكانني أن أحتمل أكثر من ذلك. كما أن الطبيعة التي فطرتُ عليها تتنمرّد على الوضع الحالي. ها قد مرّ عدة أشهر دون أن أتمكن من العثور على عمل رغم كل ما لديّ من مؤهلات، ويبدو أن كل السبل مقطوعة بالنسبة إلي في هذا البلد..."

كانت الغرفة التي يقيمان فيها مُطلّة على البحر.
أشارت أنيس إلى الجهة الأخرى التي تُطلّ على المياه الممتدة إلى الأمام من ناحيتي الجنوب والغرب. وقالت بلهجة مُشجّعة:
"لكن هناك أرض أخرى، ولو كان ما نسمعه عنها صحيحًا، فسوف تجد المؤهلات العالية التي لديك مكانها هناك."
قال إدوار: "نعم إنها أمريكا!" وكان قد تفوّه بتلك الكلمة بلهجة تساؤل جدية.
"نعم"

"أشكر أنيس على هذا الاقتراح! لكن عليك حينئذ أن تعودى إلى منزلك الهانئ الذي تركته، فليس عليك أن تُضحّي لأجل من ليس بإمكانه أن يؤمن لك وسائل العيش المريحة التي اعتدت عليها، أما أنا سوف أقطع المحيط لكي أبحث عن فرصة أفضل في أرض الميعاد تلك، وأنا على يقين بأن الفراق الذي سيصعب على كلينا لن يطول." أجابته الزوجة الشابة بحماس وهي تعانقه بحرارة:

"إدوار! لن أتركك أبدًا ولن أتخلّى عنك، سوف أرافقك إلى أي مكان قد تذهب إليه، سوف أعيش معك في أي مكان تعيش فيه، وسوف يكون لنا دومًا ذات الأصدقاء." قال إدوار باستغراب:

"ولكن هل سيكون بإمكانك التخلي عن كل شيء لكي ترافقيني إلى تلك الأرض الغريبة؟"

أجابت أنيس الطيبة:

"إدوار، لن أشعر بالغربة مادمتُ سأكون إلى جانبك."

قال إدوار:

"لا أنيس لا... لن أقبل بذلك، فلو كان علي أن أذهب إلى تلك الأرض فمن الأفضل أن أكون في البداية بمفردي."

بدت علامات الحزن على وجه أنيس وقالت:

"هل تنوي السفر بمفردك؟ هذا غير ممكن!..."

"أنيس! لكن عليك أن تنظري للأمر بهذه الطريقة: لو سافرتُ بمفردي فلن أحتاج إلى مبلغ كبير لكي أتدبر تكاليف الحياة ريثما أحصل على عمل، وربما يستغرق ذلك عدة أسابيع أو ربما عدة أشهر."

قالت أنيس: "ولكن ماذا لو مرضت؟" وكانت عيناها قد اغرورقتا بالدموع وهي تقول ذلك.

"ليس علينا أن نفكر بمثل هذا الأمر في الوقت الحاضر."

"إدوار، ليس بإمكانني أن أمتنع عن التفكير بذلك، أتوسل إليك ألا تتركني وأنا مصرّة على أن أرافقك إلى أي مكان ستذهب إليه."

وكانت ملامح أدوار قد أصبحت أكثر جدية ثم قال بعد لحظة تأمل:
 "دعينا نتوقف الآن عن مناقشة الأمر أكثر من ذلك، فليس بإمكانني أن أصطحبك
 إلى ذلك المكان البعيد الغريب؛ لذا سوف أعود إلى لندن. فلعلّ الحظ يُحالفني هذه
 المرة في الحصول على عمل."

وكان قد تم الاتفاق بينهما آخر الأمر، بعد بعض المعارضة التي أبدتها أنيس على
 أن يعود زوجها إلى لندن وبأن تقوم أنيس خلال ذلك بزيارة قصيرة لوالديها، وبأنها
 سوف تلحق به على الفور لو عثر على عمل، أما في حال إخفاقه في الحصول على
 عمل فسوف يبحثان مُجددًا فكرة زهابه إلى أمريكا.

كانت أنيس بعد الكثير من التردد والأسف قد عادت إلى منزل والدها الذي استقبلت
 فيه أحسن استقبال بما أنها عادت إليه بمفردها، لكن كرامة زوجها كانت قد
 منعتة حتى من اجتياز عتبة ذلك البيت الذي لم يكن يرحب بدخوله إليه.
 انتظرت أنيس بكل ترقب ولهفة إلى أن وصلتها رسالة من إدوار بعد أسبوع. كانت
 رسالة حاول إدوار فيها قدر الإمكان أن يُضمّن بها أكثر ما بإمكانه من أمل وبهجة
 لكنه لم يكن قد عثر على عمل. ثم مرّ أسبوع بعد الآخر إلى أن وصلتها منه الرسالة
 التالية:

حبيبتي الغالية أنيس!

بعد أن فقدت الأمل بالعثور هنا على عمل، بدأت أفكاري تتجه من جديد نحو تلك
 الأرض... أرض الميعاد؛ لذا فعندما ستصلك هذه الرسالة سوف أكون في طريقي إلى
 هناك. أنا متأكد بأن فراقنا سوف يكون لمدة قصيرة، قصيرة جدًا. ففي اللحظة
 التي سوف أحصل بها على عمل سوف أرسل في طلبك وسوف نجتمع من جديد
 وسوف نحظى بسعادة لم يسبق أن عرفنا مثلها."

كانت تلك الرسالة طويلة ورقيقة لكنها مع ذلك كانت قد تسببت بالأسى وبالآلم لتلك الزوجة الشابة المحبة التي شعرت كما لو أن من تحبه أكثر من حياتها قد هجرها.

أما إدوار فكان بعد مرور بضعة أيام فقط على مغادرته لندن على متن السفينة، قد توَعَّك صحياً بشكل كبير بحيث لم يعد قادراً على النهوض من مضجعه طوال الأيام المتبقية من الرحلة. وبذلك كان قد تم نقله على زورق من ليفربول إلى نيويورك التي وصل إليها بعد خمسة أسابيع حيث تم نقله هناك إلى نشفى في جزيرة ستيتن...

كان رأي الأطباء عندما درسوا حالته الصحية المتدهورة بأنه سوف يموت خلال وقت قصير.

بعد مرور يوم واحد على دخوله ذلك المشفى كانت الممرضة التي تتولى رعاية ذلك المريض الشاب قد سألته:

" هل لديك أي أصدقاء في هذه المدينة؟ "

وكانت الإجابة التي تَلَفَّظ بها المريض بضعف:
"لا."

قالت الممرضة: "تعلم بأنكم بأنك مريض جداً."
نظر المريض إلى وجه ممرضته بقلق دون أن يجيب.
وكانت قد سألته من جديد:

"هل لديك أصدقاء في لندن؟"
"نعم."

"هل ترغب بأن أنقل إليهم أية رسالة منك؟"

أغلق إدوار عينيه وظلّ صامتاً لبعض الوقت. ثم قال أخيراً:

"لو كان بإمكانك أن تجلبي لي ورقة وقلم فسوف أكتب إليهم بضع كلمات."
قالت الممرضة: "أخشى ألا تتمكن من بذل مثل هذا الجهد لأنك ضعيف جداً."
قال إدوار: "دعيني أحاول ذلك."

ثم غادرت الممرضة الغرفة.

وكان الطبيب المختص قد صادف الممرضة بعد ذلك وسألها:

"هل هناك أي مريض في القسم الذي تعملين فيه باسم إدوار مارفل؟ هناك في

المكتب شابة تسأل عن شخص بهذا الاسم."

هزّت الممرضة رأسها ثم قالت: "مارفل، مارفل لا أعتقد ذلك."

سألها الطبيب من جديد:

"هل أنت متأكدة من ذلك؟"

"أنا متأكدة بأنه ليس هناك في الجناح أي شخص بهذا الاسم قد يكون هناك من

يستفسر عنه. هناك شاب إنكليزي وصل أمس وهو يحمل الاسم الذي ذكرته لكنه

أعلمني بعدم وجود أي أقرباء أو أصدقاء له في المدينة."

وكان الطبيب قد غادر دون أن يبدِ أية ملاحظة أخرى.

كانت الممرضة قد عادت على الفور إلى مارفل وهي تحمل أدوات الكتابة التي طلبها.

سحبت الطاولة إلى جانب سريرهِ وساعدته على الجلوس على طرف السرير وعلى

الإمساك بالقلم بيده لكي يكتب الرسالة، وكانت عندما قرأت الكلمات الأولى في

الرسالة قد سألته:

"هل لديك زوجة؟"

تنهد الشاب الذي أنهك قواه ذلك الجهد البسيط الذي بذله وسقط القلم من بين

أصابعه واستلقى من جديد على ظهره وقال:

"نعم"

"هل تدعى مارفل؟"

"نعم"

"كانت هناك شابة تسأل عن شخص يدعى يحمل هذا الاسم."

بدت على علامات الدهشة على الشاب وقال:

"أكانت تسأل عن شخص يحمل اسمي؟"

"نعم"

ازداد اهتمامه بالأمر وسألها من جديد: "هل رأيته؟"

"نعم"

"هل عثرت على الشخص الذي كانت تبحث عنه؟"

"لا يوجد هنا أي شخص عداك يحمل اسمًا يشابه الاسم الذي أشارت إليه، وبما أنك قلت لي بأنه ليس لديك أي أصدقاء في هذه المدينة فلم أفترض بأن يكون الشخص الذي تبحث عنه هو أنت."

هزّ الشاب المريض رأسه وقال ببطء:

"عني... لا... لا أعتقد بأن هناك من يسعى ليسأل عني. ثم سألها من جديد: "هل قلتَ بأنها امرأة شابة؟"

"أجابت الممرضة نعم إنها امرأة شابة ذات شعر أشقر وعينان زرقاوان."

نظر مارفل إلى الممرضة واصطبغ وجهه فجأة بالحمرة.

قالت الممرضة من جديد:

"وهي شابة نحيلة الجسم ذات شعر أشقر ووجه شاحب، ويبدو وكأن ذلك نتيجة الكثير من المعاناة."

هتف مارفل وهو يحاول النهوض:

"أنيس! أنيس!" ثم استلقى من جديد على فراشه وأضاف بأسى:

"لكن هذا غير ممكن. فقد تركتها في مكان بعيد جدًا. بعيد جدًا إلى ما بعد هذا المحيط الكبير."

سألته الممرضة بعد لحظات:

"هل لا زلتَ ترغب بالكتابة؟"

هزّ المريض رأسه دون أن يفتح عينيه. وكانت الممرضة بعد أن لازمت الغرفة لفترة قليلة قد انصرفت.

أغلق إدوار مارفل عينيه وهمس لنفسه وهو يهيم بأفكاره مع أمواج البحر:

"أنيس، أنيس الغالية! ترى هل سيكون بإمكانني أن أشاهد وجهك المحبب من جديد؟ وأن أشعر بلمسة يديك... أه!... ليتني لم أتركك! ليساعدني الله على تحمّل هذه المحنة!"

ظلّ الشاب مستلقياً لبضع دقائق مُغلق العينين بنفس حزينة. ثم سمع صوتاً يشير إلى أن الباب قد فُتح ثم أُغلق من جديد بلطف، لكنه لم يفتح عينيه، لكنه وهو يهيم بأفكاره بعيداً... بعيداً جداً كان قد سمع صوت وقع أقدام تقترب من سريره بسرعة، إلا أنه لم يلتفت إليها.

وفجأة كان شكل إنساني قد انحنى عليه لكنه لم يفتح عينيه أيضاً كما لم يكن قد فتحهما عندما كان أحدهم قد طبع قبلة على جبينه إلى أن سمع صوتاً خافتاً هزّ كيانه بالكامل يهتف:

"إدوار!"

وبذلك رفع إدوار رأسه وشاهد زوجته ضمّها إلى صدره بلهفة وهو يهتف:

"أنيس!... أنيس الغالية!... يبدو أن ذلك كان كابوساً"

أجابته: "نعم كان كابوساً!"

أما ما حدث فهو أن أنيس كانت على الفور من تلقّيها رسالته، التي أعلمها بها بأنه غادر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، قد عقدت العزم على اللحاق به على متن أول سفينة ستبحر بعد رحلة سفينته. كانت قد أعلمت والديها بذلك اللذين اعترضوا في البداية على ذلك، ثم وجدنا بأنها على الأرجح سوف تهرب من رقابتهما وسوف ترحل على الرغم من نيويورك على الرغم من الجهود التي سي بذلونها لمنعها من السفر؛ لذا وجدنا بأن من الحكمة أن يزودها بكل ما هو ضروري لتلك الرحلة وبأن يضعاها تحت رعاية القبطان الذي سوف يقود السفينة في تلك الرحلة إلى نيويورك. كما زودها ببعض رسائل التوصية لبعض أصدقائهما في نيويورك طلباً فيها مساعدة ابنتهم ورعايتها.

كانت أنيس قد وصلت إلى نيويورك بعد أسبوعين من وصول السفينة التي سافر زوجها على متنها. لكنها قبل سفرها كانت عندما بحثت دون جدوى عن اسمه

وعن اسم السفينة التي سافر زوجها على متنها ولم تكن قد وجدت اسمه بين قائمة المسافرين، وبذلك لم تكن متأكدة لدى وصولها إلى نيويورك، فيما إذا كانت تلك السفينة قد وصلت قبل وصولها أم أنها كانت لا تزال في الطريق. كان أصدقاء والديها قد استقبلوا أنيس بكل ترحيب وقدموا لها كل ما تحتاجه من مساعدة، لكن مرّ أسبوعان دون أن تكون أنيس قد تلقت أية معلومات عن الأمر الأكثر أهمية الذي يشغل تفكيرها، ما جعل صحتها تتأثر بذلك القلق الذي تعيش فيه...

وذات يوم كان قد تم الإعلان في التلفاز عن وصول مجموعة من الأشخاص على متن سفينة من ليفربول وبأنه قد تم نقل بعض أولئك الأشخاص إلى المشفى لإصابتهم بالحمى.

كانت رعشة قد سرت على الفور في قلب الزوجة القلقة وبدأت تبحث عن أسماء الأشخاص الذين تم نقلهم إلى ذلك المشفى كما قام أصدقاء والدها بالتأكد بسرعة من بأن مارفل كان أحد المسافرين على تلك السفينة ولكن، لسبب ما، لم يكن بالإمكان معرفة أي شيء آخر عنه. وكان قلب أنيس قد حدثها بأن زوجها لابد أن يكون قد أصيب بسوء فيما أن يكون قد توفي أو أنه قد أصيب بمرض خطير... وكانت أنيس (كما أوردنا) قد استفسرت عنه في المشفى وكانت قد أعلمت بأن الشخص الذي تبحث عنه ليس هناك، لكنها عندما كانت على وشك العودة إلى المدينة عرفت الحقيقة، كانت سألت الطبيب وهي تحاول التماسك:

"هل هو مريض جدًا؟"

وكانت إجابته:

"نعم، زوجك مريض جدًا سيدتي! لذا قد يكون من الأفضل ألا تريه في مثل هذه الظروف."

بدأت الدموع تطفر من عيني أنيس لكنها أجابت:

"هل تعتقد بأنه قد يكون من الأفضل ألا تراه زوجته، وبألا يسمح لها أن تكون إلى جانبه في أيامه الأخيرة؟" وأضافت:

"لا تقل هذا، دعوني أراه وسوف أنقذ حياته!"

قالت لها المريضة:

"لكن عليك أن تكوني هادئة جدًا؛ لأن أقل انفعال قد يقضي عليه."

بدأت أنيس ترتجف وقالت:

"سوف أحاول أن كون هادئة وعاقلة."

وكانت عندما دخلت إلى غرفته قد تمكنت من التماسك رغم الصدمة التي أصابتها عندما شاهده.

كان إدوار الذي تماثل شيئاً فشيئاً للشفاء قد قال لزوجته ذات يوم بعد مرور شهر على خروجه من المستشفى. وهما جالسان في غرفتهما في أحد فنادق نيويورك:

"حبيبتي أنيس! أنا أدين لك بحياتي، فلولا قرارك السريع باللاحاق بي إلى نيويورك لكنت الآن في عداد الأموات. أنا على استعداد لأن أفعل أي شيء لأجلك."

نظر من النافذة وكست وجهه نظرة حزن وقلق وكانت أنيس قد لاحظت ذلك وسألته برقة:

"لِمَ هذا القلق والحزن؟"

أجاب الشاب: "لا حاجة لأن أجيبك، فلا زال الأمر كما كان عندما تركنا منزلنا القديم. فعلى الرغم من أنني قد بدأت أستعيد صحتي إلا أنني لازلت أشعر بالحر ج من أن أكون عبئاً على أصدقاء والديك."

قالت أنيس وهي تبتسم:

"لا حاجة لأن تشعر بالقلق فسوف تصبح أيامنا المقبلة أكثر إشراقاً، وسوف يكون كل شيء أفضل."

أجابها إدوار: "أنت على حق أنيس لكن ليس من المناسب أن أعتمد على الغرباء." وقالت أنيس: "لن يطول الأمر فقد استطعتُ بواسطة أصدقائنا هنا أن أحصل لك على عمل... هناك عمل بانتظارك، وهو عمل مناسب سوف يكون بإمكانك الالتحاق به على الفور من تماثلك للشفاء التام واستعادتك لمقدرتك."

قال أدوار وقد غلب عليه انفعاله أمام ذلك النبأ غير المتوقع: "أنيس أنت ملاك."

وكانت زوجته قد أجابته بهدوء ورقّة:

"أنا لستُ ملاكًا. أنا لستُ سوى زوجة مُحبة مُخلصة. عليك ألا تعتقد بعد الآن بأن زوجتك ليست قادرة على مشاركتك في مواجهة كل ما قد تتعرّض إليه من متاعب الحياة. دعني أن أكون لك زوجة فقط، فلستُ أطمع بأية مَنْزلة أو بأية مكانة أخرى..."

المُهْملة

لم أكن يوماً الابنة المفضلة... لم تكن والدتي قد نظرت إليّ يوماً بابتسامة تحمل ولو القليل من الحنان كما كانت تفعل مع شقيقتي ابنتها الأكبر سنّاً والأكثر جمالاً مني... وإليك قصة حياتي:

صاحت آن لامبير بنفاذ صبر وهي ترمي بقفاز أبيض في حجر شقيقتها: "كريستين، فلتقدمي إليّ خدمة مرة واحدة في حياتك. أخيطي هذا الزر على قفازي. ألن تفعلي ذلك؟ أنا في غاية الانشغال! يبدو أنني لن أكون جاهزة للذهاب إلى ذلك الحفل قبل ساعتين أو ثلاث. السيد دارسيت بالانتظار في الردهة منذ مدة طويلة. لست أدري لماذا كلما كنتُ بحاجة إليّ شيء يكون عليّ أن أبحث عنه دون أن أجده. هذا ما يحدث معي دوماً. ثم سألتها وهي تنظر حول المكتب وتقلبه رأساً على عقب بتوتر:

"كريستين هل أنهيتِ خياطة الزر؟"

كانت كريستين التي تطلّ بفتور من النافذة وهي تتنأب وتُحدّق بتكاسل في النجوم والقمر. قد أجابتها:

"لا أهمية لأن لا يكون على قفازك، فأنا لا أشعر الآن بالرغبة بتحريك أصابعي، عليك أن تخدمي نفسك بنفسك، فهذا ما أفعله أنا دوماً."

أجابت آن بلهجة تنم عن المرارة والغضب:

"لم يكن عليّ أن أتوقع منك سوى هذا الموقف الأناني والتكاسل المعتاد، حتى وإن كنتُ بحاجة ماسّة إلى مساعدتك."

وكانت قد برمت شفيتها باحتقار وألقت إلى كريستين نظرة احتقار، كشف عن تعاليها وعن طبيعتها الانفعالية، ما يُشير أيضاً إلى أنها تعرف جيداً بأن لديها نوع من التأثير ومن المقدرة على إخضاع الآخرين لرغباتها عندما تريد ذلك ثم ارتسمت على شفيتها ابتسامة ازدراء وهي تتناول القفاز الذي كان قد سقط على الأرض. لكن كريستين كانت قد انتزعت القفاز منها بشي من الامتعاض وقالت:

"سوف أخيطه لك آن."

وكان خذاها قد التهابا وهي تلقي على وجه آن نظرة قاسية تنم عن العتاب والتأنيب ما جعل نظرة الازدراء في عيني آن تتلاشى، لكنها كانت مع ذلك قد أجابتها على الفور بلهجة قاسية:

"لا، كريستين، سوف أخدم نفسي بنفسي."

استدارت كريستين مُجددًا نحو النافذة وقالت:

"جيد جدًا فلتفعلي ذلك."

لم تكن كريستين قد جَبُنَتْ أمام نظرة شقيقتها، لكن ما كان في تلك النظرة من قسوة الازدراء كان قد أثر بها بعمق، وأفسد ما كانت فيه من هدوء التأمل من النافذة. ولم تتفوّه إحداها بعد ذلك بأية كلمة ثم غادرت آن المنزل...

أما كريستين فكانت بعد أن أغلق الباب الأمامي للمنزل، قد أصغت للحظة إلى صوت شقيقتها الذي وصل إليها من الشارع، ثم نهضت من مقعدها وارتمت على سريرها وأجهشت ببكاء مرير كاد يقطع نياط قلبها وهي تتّمتم:

"آه... لماذا خلقتني الله - تعالى - هكذا؟ لا أحد يحبني... هم لا يعرفون شيئًا عني ولا يهتمون بي... هم جميعًا يعتبرونني فتاة سيئة ولكن آه!... ليت بإمكانهم أن يعلموا كم أتألم! وأنا أبحث عن الحنان الذي حرمني منه طوال حياتي... كم تلقى أن منهم جميعًا الحنان والمحبة والاهتمام، وكم تتم معاملتي بأسلوب مختلف!... لا يوجد في هذا العالم الكبير من يهتم بي، فأنا في المرتبة الثانية بالنسبة إلي أبي وأمي... هم يفخرون بجمال وبذكاء آن، ولا يهتمون حتى بالتفكير فيما إذا كنتُ أتمتع ببعض الذكاء... هم يعتقدون بأنني باردة المشاعر وعديمة الإحساس لكنهم هم من جعلوني أكتّم مشاعري دومًا وأنطوي على نفسي... هم من أجبروني على أن أكتّم في قلبي ما أعانيه من أحزان ومن مرارة، ومن حاجة إلى الحنان ومن الكبرياء والكرامة... هم من جعلوني أصبح أنانية مُتمردة عاصية سيئة الطباع لأن كرامتي تمنعني من أن استجدي منهم المحبة التي لا يهتمون بمنحها لي... ومع ذلك، لستُ أدري لِمَ أنا متكبرة وقاسية إلى هذا الحد؟... لم أكن هكذا عندما كنت في

المدرسة، كنتُ حينذاك لطيفة ومرحة، كنتُ أحظى بمحبتهم لي وأشعر بأنني أنا أيضاً الابنة المفضلة لديهم، الابنة اللطيفة الودودة، لكنني لم أعد هكذا الآن. عندما كنتُ أحظى بمحبتهم وأعيش في جوٍّ من المحبة والحنان كان أفضل ما في طبيعتي يظهر من خلال تصرفاتي. والآن أه... ما الذي حلَّ بي؟ لم أكن أعلم بأن بإمكانني أن أتغيّر إلى هذا الحدّ، لم أكن أعلم بأنه لن يكون في قلبي سوى شعور الحسد والغيرة. فأنا الآن لم أعد حتى أعرف نفسي...

ثم بكت كريستين إلى أن أُصيبت بالصداع وشعرت كأن جبينها قد تورم ويكاد ينفجر. ولكن عملاً بالقول المأثور:
"لا بد أن يسود الهدوء بعد العاصفة"

لذا كانت كريستين خلال نصف ساعة قد غرقت في نوم عميق لشدة ما أنهكتها ثورة مشاعرها، لكن وجهها، حتى وهي نائمة، كان شاحباً مُثيراً للشفقة... كانت آن عندما عادت في ساعة متأخرة من الليل قد ألقت نظرة سريعة إلى السرير لكي ترى فيما إذا كانت شقيقتها نائمة؛ لأنها تلك الليلة كانت قد شعرت أكثر من مرّة بتأنيب الضمير على الطريقة التي تصرفت بها تجاه شقيقتها. اتجهت بهدوء نحو السرير وانحنّت نحو كريستين التي لم تكن دموعها قد جفّت بعد على خديها. كانت تلك الدموع على خديها الشاحبين قد كشفت لشقيقتها فجأة عن حقيقة تلك الفتاة التي قد تبدو غير مبالية والتي يعتبرها الجميع أنانية... كم كانت آن حينذاك قد شعرت بتأنيب الضمير على ما تبدو فيه شقيقتها من حزن عميق كان النوم قد خفّف من حدته بعض الشيء... كان الحزن والخنوع والضعف الذي يبدو عليها قد حرّك في قلب آن الكثير من المشاعر التي كانت نادراً ما تشعر بها.

كانت قد أدركت بوضوح أكثر بأن ذلك التَحَفُّظ المتعالي الذي يبدو على شقيقتها، وبأن انطوائها على نفسها وبأن تحفّظها تجاه الآخرين لم يكن سوى ستارة تُخفي خلفها مشاعرها الحقيقية. وبذلك قبّلت تلك الدمعة التي لم تكن قد جفت بعد على خدها ثم ركعت إلى جانب سريرها وبدأت تُصلي وهو الأمر الذي لم تكن

فعلته منذ سنوات، كان قد غمرها فيض من مشاعر المحبة ومن وخز الضمير جعل قلبها ينبض بالحنان ما جعلها تجهش بالبكاء بصوت مرتفع... كانت كريستين قد استيقظت مذهولة وتمتمت ببضع كلمات قبل أن تدرك تماماً معنى ما شاهدها.

وكانت عندما رفعت شقيقتها رأسها أخيراً قد قالت لها: "ما الأمر آن؟ هل تبكين؟"

نهضت آن وكانت ترددت قليلاً. كانت تشعر برغبة جامحة بأن ترمي نفسها بين ذراعي كريستين لكي تبكي وتطلب منها أن تغفر لها سوء تصرفها، كانت متأكدة بأنها سوف تُسامحها بكل محبة، لكنها مع ذلك كانت قد ظلت صامتة للحظات، كان قلبها ينبض بالحنان، لكن شيئاً ما جعلها تتراجع عن قرارها. شيء كثيراً ما كان يُثبط ما لديها من الدوافع الحسنة اللاإرادية. كانت من النوع المتكبر المغرور؛ لذا لم يكن بإمكانها أن تنطق بالعبارات التي تعبر عن الندم والتواضع، لكنها لم تكن مع ذلك من التهرب من نظرة القلق التي كانت على وجه شقيقتها، وبذلك أرخت عينيها وبدأت الدموع تسيل على خديها.

اقتربت كريستين منها وقالت بدهشة:

"ما هذا آن! أن... عزيزتي... هذا التصرف لا يُشبهك! أنا شقيقتك. لو كان هناك ما يتسبب لك بالحزن فلم لا أشاطرك حزنك وأخفف عنك؟... كيف بإمكانك أنت بالذات أن تشعر بالحزن؟ فأنت لم تتعرضي طوال حياتك للتجاهل أو لإهمال من حولك..."

لكن كريستين كانت قد توقفت عن الكلام بسرعة وتوهج وجهها بحمرة قانية، فقد كانت دون أن تشعر قد كشفت عما كانت تخفيه من مشاعرها تحت قناع من عدم المبالاة والقسوة... كانت قد كشفت عن مشاعرها تجاه وضعها في عائلتها وعن أن شقيقتها هي الابنة المفضلة لدى والديها...

كانت آن فخورة جداً بجمالها وفتنتها، وكانت بكل أنانية، ترغب بأن تستأثر دوماً بمفردها بإعجاب كل من حولها. كانت تعلم بأن شقيقتها تتمتع مثلها بالذكاء

وبأنها ربما كانت أكثر ذكاء منها. فكثيراً ما كانت تسمعها تتحدث وقد توهج خذاها ولمعت عيناها بالحماس، وكانت قد شاهدت وجهها وإن كان ذلك في مناسبات نادرة، يشرق بجمال حقيقي عندما ينعكس عليه جمال روحها، وبذلك أدركت كيف يمكن لجمالها أن يصل إلى القلب. كانت تعلم بأن بإمكان كريستين أن تكون فتاة لامعة وفاتنة، لو لم يتم قمعها، وبأنها رغم كل ما فيها من عيوب، تتمتع بأنثوية أكثر مما لديها. كان في صوتها ما يُثير المشاعر، كما كانت هناك كياسة مُحببة في جميع تصرفاتها. كانت تلك هي المرة الأولى التي تشعر بها أن بأن كريستين إنسانة كاملة، إنسانة من حقها أن تُحب وأن تلقى الحب ممن حولها، ولذلك شعرت بأنها كانت بتصرفاتها تجاهها - الإنسانية الأقل شهامة - وبأنها كانت دومًا تستأثر باهتمام أصدقائها بدلاً من أن تُقدم إليهم كريستين المتحفظة الحساسة...

لم تكن الشقيقتان تجتمعان معاً كما لم تكن إحداها قد ائتمنت الأخرى على أسرارها. كانت آن الأكبر سنًا وكانت الكل في الكل بالنسبة لوالديها، بينما كانت كريستين أشبه بالفتاة التابعة لها.

شعرت آن بأن كريستين كانت بتلك العبارة، التي تفوّهت بها لا إرادياً، قد نقلت إليها لومًا غير مقصود، وبأنها قد أبدت أيضًا كيف بإمكانها أن تتراجع بسرعة وأن تنطوي على نفسها، وبذلك كانت آن عندما أمعنت التفكير بتصرفاتها قد انتصرت على غرورها وأنانيتها وجعلتها مشاعرها الطيبة تقول لها بصوت خافت وهي تضمها إلى صدرها:

"كريستين الغالية! لم تكن إحدانا للأخرى قطّ كما يفترض أن تكون الشقيقات لبعضهما. لم أكن قد راعيتُ شعورك، كنتُ مهملة ولم أكن قد أدركتُ - كما كان عليّ أن أفعل - بأنك عندما عدتِ من مدرستك كنتِ غريبة عن غالبية صديقاتك ومعارفك، لكنني أدركتُ مؤخرًا بأنك أ من النوع الخجول جدًّا؛ لذا فأنت حتى هنا في منزلك لا تضحكين وتتحدثين مع والدك ووالدتك كما أفعل."

قالت كريستين: "أتعلمين لم أبدو لكم فاترة آن؟ أنا لست كذلك بطبيعتي. لكن والدي لا يُبديان أي اهتمام بما أقوله. وبما أنني لا أفتقر نهائياً إلى الكرامة فلم يكن بإمكانني أن أتقبل أن يتم النظر إلى كل ما أفعله وما أقوله بعدم اكتراث...".

قالت آن بتوتر: "لم كريستين؟ أنت بالفعل مرهفة الإحساس للغاية. كل ما عليك أن تكوني مثلي وأن تصرفي بحيوية لكي يتسلى والدنا معك، قولي لأمي ما يسرها سماعه وسوف تصبحين بذلك الطفلة المدللة مثلي."

قالت كريستين: "لن أكسب بذلك شيئاً لو كنتُ سأحصل على المحبة التي تعتمد على قدرتي على الإرضاء فقط... عندما عدتُ إلى المنزل بعد فترة غياب طويلة كنتُ سعيدة بعودتي، مُفعمة بالأمل وبقلب يملؤه الحب نحوكم جميعاً، كما تكون كل فتاة تعود بعد انتهاء دراستها. كنتُ حينذاك في السابعة عشر. يبدو لي الآن وكأن أعوام طويلة قد مرّت على اليوم الذي وثبتُ فيه إلى ذراعيك بكل بهجة... على اليوم الذي قبلاني فيه أُمي وأبي... بيتنا، بيتنا الجميل، كم كان لتلك الكلمات وقعها الساحر علي نفسي! كم حلمت بأن أستكين إلى جانب أبي، يدي بيدك وبأن والدتنا تبتسم وهي تنظر إلينا، لكنني أحسستُ فيما بعد بأن قلبي ينفطر، عندما أدركتُ حقيقة أنني لستُ مُحبة إليكم. أنا أعلم بما في أعماق قلبي من ينابيع من الحنان. كان قلبي يفيض برغبة مُلحة إلى الحنان في الوقت الذي لم ألقه من أي منكم. كم من مرّة نظرت إلى وجه أُمي غير المبالية وشعرت بأن الحب الذي يغمر قلبي تجاهها لا يعني لها شيئاً. وكنتُ في غمرة هذه المرارة وخيبة الأمل قد أدركتُ أيضاً تلك الحقيقة المُفعمة بالألم وهي أن الحنان الذي أفقده هو بالنسبة إليّ الحياة ذاتها، و مع ذلك بأن قدرتي ألا أنعم بدفء وبنور الحنان العائلي المقدس...

وكنتُ مع مرور الأشهر قد انغلقتُ على نفسي، وحلّ في قلبي فتور رزين وبرود كان يخترقه أحياناً شيء هزيل تافه تُتيحه بوابات الإحساس. كنتُ أبكي بحزن شديد على ما أرتكبه من إثم بحق قلبي المحروم من أن تدخله أية بهجة قد تلقى بعض الضوء على ما يعتلجه من أسي عميق.

آه... كم عانيتُ! كنتُ بذلك قد أصبحتُ مخلوقة مختلفة، كنتُ أهدأ وأتمكن من الصلاة، أشعر بأن الله - تعالى - يستمع لابتهاالاتي. كان بإمكانني لمجرد أن تضع والدي يدها علي كتفي بحنان، أو أن تملأ عينيها الدموع، أن أضع رأسي على صدرها وأبكي وأبكي... لكنني لم أكن يوماً قد حصلتُ على ذلك الحب وبذلك كان قلبي يقسو من جديد."

قاطعتها آن وهي تضمها إلى صدرها بقوة وتبكي بإحساس غامر من الشفقة: "لا تقولي هذا. سامحيني حبيبتي! سامحيني شقيقتي الغالية! سوف يكون قلبي سَكنك، وسوف نحب بعضنا البعض على الدوام. لن أكون بعد الآن كما كنت معك سابقاً. لا تبكي بهذا الشكل كريستين أليس بإمكانك أن تصدّقيني؟ أنا أنانية، وقد أكون أحياناً عديمة الإحساس لكنني الآن وبعد هذه الليلة، لا يمكن أن أكون قاسية تجاهك من جديد."

هناك القليل ممن سيصدقون بأن هذه الفتاة الباكية التي كانت قد رمت رأسها على كتف كريستين في تلك اللحظة والتي كانت تطبق على يدها بإحكام، هي الآنسة آن لامبير.

لو كان بإمكاننا أن نقرأ تاريخ العديد الأشخاص الذين يبدوون من الناحية الخارجية عديمي الإحساس، فسوف نكون أكثر إنصافاً في أحكامنا على الآخرين. سوف يكون بإمكاننا أن ندرك بأنه هناك بعض الأوقات التي تتملكهم فيها بعض الأحاسيس الأفضل وذلك بموجب قانون الوراثة، وسوف نرى نوراً يتدفق إلى أعماق قلوبهم ويحطم جذور الشر التي كانت تُعيق ظهوره. سوف نرى بأن القلب القاسي قد ينفطر - ولو لوقت قصير - بتأثير المشاعر السامية. سوف ندرك بأن جميع البشر متشابهون لأنهم صنيعة قدرة الله - عزّ وجلّ -، وسوف نبكي على أنفسنا كما يفعل الآخرون لكي نشعر كم أننا نادراً ما نُصغي إلى الصوت الذي يوجهنا نحو التصرف القويم.

كانت آن لامبير قد اعتقدت بأنها - بتأثير ذلك الحنان الصادق الذي غمر قلبها في تلك اللحظة - لن تعتمد بعد ذلك إلى التصرف بطريقة أنانية من شأنها الإساءة إلى

كريستين. شعرت بأنها كانت جائرة قاسية وأنانية وبأن مشاعر الندم التي تملكها استطاعت أن تقهر جميع الشرور في نفسها. لكن الحقيقة أن تلك النوازع السيئة كانت قد اهتزت فقط...

جففت كريستين دموعها ونظرت إلى وجه أن بتساؤل كما لو أنها كانت تشك بأن فيه بعض الحزن المخفي الذي لم تكن قد عهدته فيها. وكانت آن قد أجابت على نظرتها بالقول:

"كريستين! لابد أنك كنت عندما نهضت من نومك قد تساءلت عن سبب بكائي. في الواقع لم يكن هناك ما تسبب لي بالحزن لكنني عندما نظرت إليك، كان قد عاد إليّ كل ما كنت قد أسأت به التصرف تجاهك، وشعرت كم كنت أفقر إلى الأخوة في تصرفاتي نحوك..."

قاطعتها كريستين بشهامة وكياسة وقالت:

"شقيقتي الغالية آن، لا تقولي هذا... دعينا ننسى الماضي سوف يكون المستقبل مشرقاً. سوف تُفزي كل منا للأخرى بما في قلبها وسوف تعمل كل منا على منح العزم للأخرى بنوايا جديدة. لم أعد وحيدة فأنت تُحبينني وأنا سعيدة بذلك." كانت أحلام الشقيقتين في تلك الليلة سعيدة هانئة. مرّ أسبوع كانت خلاله آن رقيقة ومحبة في تصرفاتها تجاه شقيقتها. لم تكن تخرج دون أن تصطحبها معها. كانتا لا تفترقان، كانتا تدرسان وتكتبان وتُحكيان معاً. كان يبدو بأن آن قد تخلت عن شخصيتها الاعتيادية، وخضعت إلى مشاعرها النقية، وبذلك لم يحدث أي شيء من شأنه أن يُفسد صفو حياتهما.

وذات ليلة، بينما كانت آن تقرأ لكريستين بصوت مرتفع كانت إحدى الخادِمات قد دخلت الغرفة وقالت:

"آنسة آن، هناك شابان بانتظارك في الردهة، السيد دارسيت والسيد بورنز." نهضت آن وقالت للخادمة وهي تناول الكتاب لكريستين: "حسنًا"، لكنها عادت وقالت لها على الفور: "تعالى معي كريستين."

أجابتها شقيقتها:

"أوو... لا يهم ذلك، أنا لا أعرفهما؛ لذا أفضل البقاء هنا لكي أقرأ، سوف تكون والدتي بصحبتك في الردهة."

قالت آن: "كما تشائين، لكنك لو شعرت بالملل من القراءة تعالي لكي تنضمي إلينا." قالت كريستين: "سوف أفكر بذلك."

كانت آن عندما دخلت إلى الردهة تبدو جميلة جدًا بالفعل. وقد أشرق وجهها بابتسامة ترحيب ساحرة بضيوفها.

كان الحديث بعد أن دار حول بعض المواضيع التافهة، قد تطرق إلى بعض المناقشات والمواضيع التي وجدت آن بأنها قد تُثير اهتمام شقيقتها كريستين. وبذلك وانطلاقًا من نيتها الحسنة كانت آن قد تركت الغرفة وأسهرت إليها. وضعت يدها برفق على كتفها وقالت:

"كريستين، تعالي معي إلى الردهة، السيد دارسيت يتحدث إلينا عن رحلاته في أوروبا وأنا متأكدة من أنك قد تهتمين بذلك. لا حاجة لأن تكوني غير اجتماعية. تعالي معي عزيزتي."

ألقت إليها كريستين نظرة وابتسمت ابتسامة عبّرت بها عن الكثير من الامتنان ثم ذهبَت برفقتها إلى الردهة وقد امتلأ قلبها بالسعادة لمّا لمسته من برهان جديد عن اهتمام ومحبة شقيقتها لها.

قدّمت آن شقيقتها كريستين إلى ضيوفها، وكان قد علا وجه كريستين تعبير لطيف عما في قلبها من بهجة.

كان السيد دارسيت قد ألقى على الفور نظرة إعجاب إلى كريستين ثم التفت إلى آن وقال:

"آنسة لامبير! لم أكن أعلم بأن لك شقيقة."

وأجابت كريستين على الفور لكي تُنقذ شقيقتها بعد أن بدت تلك الحمرة القانية التي علت وجهها:

"لقد أذعنْتُ هذه المرّة لإقناع آن لي بأن أكون اجتماعيّةً بعض الشيء، أعتقد بأنني سوف أجعل من هذا اليوم بداية لاختلاطي بالمجتمع."

أجاب دارسيت: "آمل ذلك. هل تعتقدين بأنك تجدين في انعزالك تأثيرًا على نفسك ومشاعرك؟"

وكانت الإجابة المختصرة للفتاة الشابة:

"لا ليس الأمر هكذا"

لكن وجهها كان قد اصطبغ بالحمرة ولاح عليه تعبير ينم عن الأسى ثم قالت:

"لكنني أحيانًا..." ولم تكمل تلك الجملة.

كان السيد دارسيت قد لاحظ التعبير الذي ارتسم على وجه كريستين وكان ذلك ما أثار فجأة فضوله. وبذلك لم يكن قد تابع ما كان فيه من حديث عن رحلاته، واستمر في النظر إلى ملامح وجهها بفضول وربما أيضًا بأكثر مما تقتضيه قواعد اللباقة وحسن التصرف.

كانت كريستين قد شعرت بتفحصه لها وأحست بالغیظ لما بدا على وجهها من تعبير فضح ما بداخلها. ثم تلا ذلك فترة قصيرة من الصمت قطعها السيد لامبير بالقول وهو يبتسم:

"سيد دارسيت! دعنا الآن نسمع المزيد عن مغامراتك، هذا لو كنتَ ترغب بذلك بالطبع."

أجاب السيد دارسيت:

"نعم! بالتأكيد"، وكان قد تحدّث عن ذلك لساعة كاملة. ثم طلب الحضور أن بإلحاح أن تعزف وتغني برفقة السيد دارسيت، وكانت قد أدت ذلك بكياستها الاعتيادية التي يشوبها بعض التعالي.

وكان السيد دارسيت بعد ذلك قد ترك البيانو واقترب من كريستين التي كانت جالسة بالقرب من النافذة تستمع بكل اهتمام إلى غناء شقيقتها آن:

"آنسة كريستين ألسِـتِ تُغنين أنت أيضًا؟"

أجابت كريستين وهي تبتسم:

"أنا أغني أحياناً، لكن آن تُغني أفضل مني بكثير."

قال السيد دارسيت:

"دَعي الآخرين يُبدون حكمهم حول هذا الأمر. أليس هذا من العدل؟ فنحن في كثير من الأحيان، نخطئ بالاعتقاد بأننا نؤدي الأشياء أفضل من غيرنا، لكنني أعتقد بأننا بشكل عام نكتشف بالصدفة بأن هناك على الأقل بعض الأشياء التي لا نقوم بها بشكل جيد تماماً كما يفعل الآخرون."

قالت كريستين:

"هذا بالتأكيد، فمن المتعارف عليه أن علينا أن نتحدث عن أنفسنا كما لو أننا أقل ممن نعتبرهم في الحقيقة أقل منا في الكثير من الأمور، ومع ذلك فأنا أرى بأنه ليس هناك أي تواضع حقيقي في ذلك، فنحن بذلك نحيد فقط عن الحقيقة."

قال السيد دارسيت:

"قد تؤدي قيود الأعراف والعادات إلى الكثير من الأكاذيب، فنحن لو كنا سنقول الحقيقة دومًا لن نكسب سوى الكثير من العداوات، ومع ذلك قد يكون من الأفضل أن نكسب عداوة الآخرين من أن نناقض الحقيقة ما هو رأيك آنسة كريستين؟"

وكانت كريستين قد نظرت إليه باهتمام شديد ولم تجب .

ثم قال دارسيت بنبرة كانت أقرب إلى القسوة:

"يجب أن تكون الصدق والصدق فقط ما يسود وما يحكم كل المواقف ولتكن النتائج ما قد تكون."

ثم أضاف بأكثر من اللباقة:

"أنا أقدر في المرء قبل كل شيء روح الصدق، لأن الإيمان بالله - تعالى - يتجلى هنا. هذا ما يجب أن يُحرزه المرء، ومع ذلك، فأنا أعتقد بأن المطلوب من المرء أن يكون قبل كل شيء صادقًا مع نفسه وأكثر بكثير أيضًا من صدقه مع الآخرين، فنحن نجفل من مجرد فكرة تدقيق النظر بدوافعنا وتعقيداتنا."

قالت كريستين باهتمام لأن ما مرّت به سابقاً كان لايزال يحزّ في قلبها، وكانت قد تذكرت بأنها كانت قد سمحت لنفسها بالتصرف انطلاقاً من شعور خاطئ بحجة أن الآخرين لم يتصرفوا معها بشكل جيد:

"كما أننا عندما نضطر إلى مواجهة تلك الدوافع المخفية، قد نلجأ إلى السعي إلى تبريرها وإلى إيجاد الأعذار لها. أنا متأكدة من أن الأمور هكذا." ثم استأنفت حديثها بالقول:

"لكن ليس بإمكان المرء أن يعتقد بأن من الجيد أن يتم التعبير دومًا عن المشاعر التي قد تُثيرها بعض الظروف. لأن مثل هذا الأمر قد يمنعنا أحياناً من التصرف باستقامة."

قال دارسيت: "من المؤكد أن الأمر قد يؤدي الأمر إلى ذلك، لكن يجب أن يتم أخذ النتيجة بعين الاعتبار. حسن الإدراك، القلب الصافي الطيب ورجاحة العقل هي الأمور التي تُرشدنا إلى الطريق الأفضل في معظم الحالات.

هناك أحياناً طاقة مخفية صامتة وعميقة قد تصدر عن الأشخاص الطيبين يكون من شأنها أن تجعل قلوب من حولهم تتفتح وتنتعش ببطء بحضورهم.

فقد يكون بالإمكان زرع القلوب التي لا تزال قليلة الخبرة ببذرة الانتصار على النفس، بمجرد دافع جديد، أو بطموح لحياة أفضل، أو بتطلّع إلى بلوغ الكمال."

كان هذا هو الأمر بالنسبة إلى كريستين. كان تأثير السيد دارسيت قد دَعَم كل ما في نفسها من نزعة إلى الخير. كان صفاء نفسها ورفعة مشاعرها قد أصبحا أكثر فأكثر جلاءً مع استطراد تلك المناقشة بينها وبين السيد دارسيت، وكان قد دَعَم ما

كان في ذهنها من آراء مبهمة عن الحياة، ذلك لأنها لم تكن سابقاً قد عبّرت عنها، كان من الجليّ بأن تجربتها الشخصية جعلتها تفكر بنضوج أكثر بكثير من سنّها.

كانت كريستين قد اعتقدت بأنها بمعاناتها كانت قد أضاعت بهجة ومرح طفولتها لكنها كانت مخطئة لأن تلك المعاناة كانت قد جعلتها تستفيد من دروس

الحياة... كان قد غمر قلبها شعور غامر بالبهجة. شعور جديد لم تعهده من قبل ما جعلها تبدو أكثر رقة وهي تُدلي دون حرج بكل ما خطر ببالها من أفكار...

كان من المستغرب أن تلقى ذلك التعاطف والحماس الذي كان السيد دارست يعبر عنه بكل نظرة يلقيها على وجهها الذي ينم عن الذكاء، لم تكن بإمكانها أن تصدّق بأنها هي من تتحدث بتلك الطريقة، وبأن هناك شخص ما قد اهتم فعلاً بما تبديه من أفكار، وحُيل إليها بأن السيد دارسيت كان بذلك قد طوّق ساعات وحدثها... كان السيد دارسيت عندما افترقا قد قال لها باهتمام وحميمية وهو يضغط على يدها:

"أمل أن يكون لنا المزيد من الأحاديث عن المواضيع التي تطرّقنا إليها هذه الليلة." وكانت كريستين قد أجابت بابتسامة صادقة مشرقة:

"وأنا أيضاً أتطلع جدّاً إلى ذلك."

كانت كريستين بعد مغادرة الزائرين قد عانقت شقيقتها وقالت ببهجة:

"عزيزتي آن، ألم تكن ليلة ممتعة؟"

قالت آن وهي تحاول التظاهر بالنعاس:

"كانت ممتعة بعض الشيء، لكنني بالأحرى شعرتُ بعض الشيء بأنني بلهاء وهذا ما أشعر به دوماً."

أجابتها كريستين:

"أنت بلهاء!... أهذا ممكن؟... حسناً، كنتِ طيلة الوقت تتحدثين إلى السيد بيرنز، حسناً، لكنه لم يكن يبدو مُتحمساً جدّاً لما يدور من حديث. هذا صحيح."

ابتسمت آن ابتسامة مُتكلفة، ثم حرّرت نفسها من عناق كريستين بتوتر وانسحبت دون أن تقول شيئاً سوى كلمة (ليلة سعيدة). كانت كريستين قد تبعتها بعد وقت قصير وهي تتساءل عن السبب الذي جعل آن تصبح صامتة إلى هذا الحدّ ومتوترة بهذا الشكل. وبذلك كانت قد توجهت إليها على الفور من دخولها الغرفة وسألتها:

"لِمَ أنت غاضبة مني آن؟"

وكانت إجابة آن بنفاذ صبر:

"لِمَ علي أن أكون غاضبة منك، أليس بإمكان المرء أن يختلي بنفسه أم أن يتم إقلاق راحته بتوجيه الأسئلة إليه حول السبب؟"

قالت كريستين: "بالطبع... بالطبع، اعذريني لن أقلق راحتك بعد الآن." وكانت قد استفادت من توتر آن لكي تسترجع في ذهنها تلك الليلة ما دار من حديث وهي تشعر بالكثير السعادة. ثم أدركت بأن سرّ الفضاظة التي كانت فيها آن وبأن ادعائها النعاس يكمن وراء شعورها أثناء ذلك الحديث. كانت آن قد شعرت بجرح في كبرياءها بأن تكون شقيقتها كريستين قد لفتت الأنظار إليها بحديثها أكثر مما كان لجمالها تأثيره على الموجودين.

وكانت آن بعد أن تمكنت آن من السيطرة على توترها قد بدأت تحدث نفسها: "هو شخص مُتَزَمِّت وقد بدأت أفهم الآن كريستين بشكل أفضل، أعتقد بأنها مُتَزَمِّتة أيضًا... ربما كان لطيفًا ومهذبًا جدًا، وكان يسرني أن أجده دومًا على استعداد لدعوتي إلى الخروج كلما رغبتُ بذلك، لكنني لم أكن أشعر بالراحة تمامًا برفقته، كنتُ أخشى دومًا من أن أتفوّه بشيء خطأ، شيء قد يؤذي مشاعره. لكن كريستين كانت تبدو مرتاحة تمامًا بالحديث معه... كم كانت تبدو مشرقة وجميلة! لن أدع الأفكار السيئة تتملكني وتنتصر عليّ. لأنني أشعر بالإهانة لمجرد أنها تفوّقت عليّ كما لم بفعل أحد من قبل فهي شقيقتي الغالية المحبة وقد أخذتُ عهدًا على نفسي أمام الله بأن أحبها وبألا أعود إلى تصرفي السابق تجاهها..." ثم ركعت وأخذت تصلي بحرارة لبعض الوقت، مما أعاد إلى قلبها السكينة وجعلها تندم وتتنوب. وكانت قبل أن تخلد إلى النوم قد طبعت قبلة حارة على جبين كريستين وحدثت نفسها:

"حسنًا، إن لم تخني فراستي فسوف يقول دارست لكريستين بعد بضع مقابلات: "هل تقبلين الزواج بي حبيبتي."

وقد ثبت أن توقعات آن كانت صحيحة، كانت كريستين بعد مرور عام على تلك المقابلات قد أصبحت السيدة دارسيت. كما كان تغيير كبير قد طرأ على الشقيقتين.

لكن من تغيّرت أكثر كريستين كانت كان وجهها يشعّ بالبساطة والرقّة وهو ما كانت تفتقر إليه آن.
أما آن فكانت قد تخلصت مما كان لديها من تعالي وأصبحت أكثر تواضعًا...

نبلي

"آه!... أنت أيتها المنافقة الصغيرة!"

قالت الصغيرة الفاتنة - وهي تنظر إلى عينيه بتضرع :-

"حسنًا، أجبني أليس بإمكانني أن أذهب؟"

قال زوجها: "لماذا نبلي؟ فليس من المناسب أن تذهبي دون أن أكون برفقتك."
أجابت بصوت خافت كما لو أنها لا تجرؤ على قول ذلك وهي تعبت بأصابعها
بحاشية ثوبها :

"بلى لا مانع من ذلك"، ثم نظرت إليه من جديد بكل تضرع وأضافت:

"هل بإمكانني أن أذهب؟"

"هل أنت متلهفة إلى هذا الحد للذهاب الليلة؟"

"أوه... نعم لأن..."

"لكن هذا ليس بالتبرير الكافي."

"حسنًا. أشعر برغبة بالرقص لبعض الوقت!"

"نبلي! قد لن يكون بإمكانني مرافقتك الليلة وأنت صغيرة السن جدًا. أنت لا تعرفين
شيئًا بعد عن هذا العالم وعما فيه من خبث..."

"لكن قد يكون بإمكانني أن أذهب برفقة العائلة التي تقيم بجوارنا السيدة والسيد
ويليام."

"ليس بإمكانني الموافقة على ذهابك بدوني أنت أيتها الصغيرة المدللة."

وكان زوجها قد وضعت طرف مئزرها على وجهها ونجحت باستخراج بعض
الدموع من عينيها، ثم ألقت نظرة عتاب إلى وجه زوجها وسألته فجأة بصوت
حزين هادئ كما لو أن هناك فكرة كانت قد خطرت ببالها للتو:

"متى ستعود إلى المنزل هذه الليلة؟"

أجاب زوجها: "أخشى ألا أتمكن من العودة قبل الحادية عشرة ليلاً. إلى اللقاء
حبيبتي لقد تأخرتُ."

ثم خرج مسرعاً بينما جلست نيلي تُحدّث نفسها.

"العمل! العمل!... إذا هناك ما أكرهه أكثر من أي شيء في هذا العالم فهو العمل. أعلم بأنني لم أكن أتوقع على الإطلاق مثل هذا الوضع قبل زواجي. لقد خلق الله - تعالى - آدم وحواء في الجنة وهذا يعني بأننا خُلقنا لكي نعيش حياتنا ولكي نستمتع ونلهو ولكي نزرع الأزهار ونقطف الثمار والخضار... وهذا ما كنتُ ما أرغب به دومًا وهذا ما سأكون عليه دومًا... لم أكن أدري بأنني سوف أرغب العيش في الريف بهذا الشكل، ربما ما كنتُ أرغب به حينذاك وأهتم به هو أن نعيش في مزرعة، لكن عليّ أن أعترف بأنني لم أكن سأقع في حبه قطّ لو كنتُ رأيته بمثل... بمثل تلك هذه الهيئة والملابس... رغم أنني قلتُ أكثر من ألف مرة بأنني حتى لو كنا قد تقابلنا في أية ظروف كانت فإن كل منا قد خلق للآخر... لكن لا أعتقد بأن الملابس كانت قد تُغيّر شيئاً من الأمر!... تيودور هو الشخص الرائع الذي فتنت به! ألم تكن كل فتاة تتمنى الفوز بمحبته والزواج منه؟ أعتقد أن من الرائع أن يكون مثل هذا الرجل العظيم الذي يكبرني بسنوات قد فكّر بفتاة صغيرة طائشة مثلي!... رجل في الخامسة والثلاثين! لذا لا عجب من أن يعرف الكثير عن الحياة! حسناً! يجب أن أتوقف الآن عن التفكير بكل ذلك والسؤال... أكون أو لا أكون..."

السؤال الآن هو هل سأذهب أم ألا أذهب؟ هل سيكون ذلك من الجنون أم لا؟ عليّ أن أفكر وأقرر... لن يعود زوجي قبل العاشرة أو الحادية ليلاً، بإمكانني أن أردي ملابسني وأذهب برفقة السيدة ويليام وسوف يعيدني فريد إلى المنزل قبل العاشرة، وعندما أعود سيكون تيودور في مزاج جيد وقد استسلم تمامًا لمفاتيحي، سوف أعلمه بالأمر بعد بضعة أيام بالتدريج، سوف أقول له بأنني لن أفعل ذلك ثانية... سوف يكون ذلك من مجمل الأخطاء الأخرى التي ارتكبتها في الماضي...

لكن قد يكون ذلك من الأخطاء التي لا يمكن لبعض الندم والدموع أن يجعله يغفره لي... خطأ قد يترك آثاراً مؤلمة لا يمكن أن تنسى منها نظرة الاستهجان عندما سيقول لي:

"أخشى ألا تكون لدموعك ولندمك فائدتها نيلي."

وكانت نيلي قد أطلقت ضحكة بهيجة خافتة.
 كانت نيلي طفلة مُدلة منذ كانت في المهد. كانت محبوبة جدًا ما جعلها تشعر دومًا
 بأنها لا يمكن أن تُلام على أي تصرف قد يصدر عنها.
 ثم كانت قد دفنت وجهها بين يديها وأخذت تفكر من جديد.
 كانت في ذلك اليوم قد تلقت رسالة من أحد الشبان يقول فيها:
 "إيلين العزيزة... هل بإمكانك أن تأتي إلى الحفل الراقص هذه الليلة؟ لم أتمكن بعد
 من رؤية أليس وأنا أعاني كثيرًا عائلتك وزوجك لا يطيقان رؤيتي لكنك عرفتني
 من الطفولة؛ لذا عليك أن ترأني بحالي وتساعديني أرجوك أن تأتي؟"
 فريدريك أورتون

كانت نيلي عندما قرأت تلك الرسالة المبللة بالدموع قد شعرت بالكثير من الأسف.
 كم كانت ستتأثر لو أن عائلتها كانت أيضًا مُتحاملة ضد تيودور؟ هل كانت
 ستنتظر المساعدة من الأخت العزيزة أليس؟ أليس عليها أن تساعد أليس حتى لو
 كان تعلم بأن تيودور سوف يتضايق من ذلك بعض الشيء؟ لم يكره تيودور فرد
 أورتون بهذا الشكل؟ فهو وإن لم يكن قد أعرب عن ذلك لكنها تعلم بأنه لا يميل
 إليه.

ولذلك كانت نيلي قد كتبت لفريدريك أورتون الحاشية التالية:
 "فرد العزيز البائس... سوف أحضر إلى الحفل الراقص لو كان بإمكانني ذلك
 وسأتحدث إليك. كنت دومًا صديقي رغم أنك لست من لحمي ودمي، أما بالنسبة
 لوالدي ووالدتي فأنت لا تعلم كم هما من الأشخاص الطيبين لكنهما بذات الوقت
 قد سمعا الكثير عن مشكلاتك؛ لذا عليك ألا تتضايق من عدم ترحيبهما بك.
 صديقتك المخلصة

إيلين

وكانت نيلى قد رقصت بيضاء اللون ما جعلها تبدو بالفعل أشبه بالملاك الصغير قد ذهبت مع السيدة والسيد ويليامز إلى الحفل الرقص.

كانت قد تحدثت مع فرد ورقصت معه وأخذت منه رسالة كتبها لشقيقتها أليس وأعلمته بأن شقيقتها تكاد تموت من الأسى، ثم أضافت بعد أن أدركت بأنها قد تحدثت أكثر مما ينبغي:

"أنت تعلم بأنها تشعر بذلك منذ فترة."

وكانت عندما دعاها فرد للرقص للمرة الثانية قد اعتقدت بأن ذلك كان بدافع ما كان فيه من تأثر وانفعال عاطفي لسماعه أخبار شقيقتها أليس، لكنه كان بعد ذلك كان قد اقتادها خارج القاعة. كانت رائحة الشراب تفوح من أنفاسه كان وجه نيلى قد شحِبَ ورجته أن يعيدها إلى مكان جلوسها، لكنه ضحك ورفض رفضاً قاطعاً لذا حدثت نفسها:

"من المخجل والمعيب بالفعل أن أراقص رجلاً مخموراً وزوجي تيودور ليس معي... لم يكن بإمكانى أن أصدق كل ما سمعته عن فرد لكنني قد اقتنعت قد اقتنعت الآن بما رأيته منه بنفسى..."

ما الذي سيقوله تيودور عني؟ ليتني عملتُ بنصيحته. لو كنتُ بقيتُ في بيتي... كم أشعر بالندم؛ لأنني أتيتُ! أعتقد بأنه لن يكون بإمكانى أن أعلمه بذلك! ماذا لو تسبَّب ذلك بإشكال بيننا؟ أدركتُ الآن بأنني لست سوى مخلوقة بائسة عنيدة منحرفة وبأنني خلقت كي أتسبب بالآذى للآخرين."

وكانت نيلى على الفور من انتهاء تلك الرقصة قد رجت السيد ويليامز إعادتها إلى منزلها وكان قد فعل ذلك.

دخلت الردهة وقلبها يخفق بشدة وإذا بها تجد تيودور جالساً هناك بانتظارها. هتفت: "أوه... تيودور أنت هنا..." ثم تسمرت في مكانها أشبه بمن تلقى صدمة. قابلها تيودور بوجه شاحب وكانت عيناه تقدحان شرراً.

قالت نيلى بصوت مرتعش: "سوف سيدي... إلهي أنا بائسة جداً فأنا أقحم نفسي دوماً بالمشكلات لكي أؤدي الخدمات للآخرين."

أجابها زوجها بعنف:

"لكنك لم تكوني قط قد تسببت لنفسك بأي ضرر بأداء أية خدمة إلي!"

قالت: "تيودور! لم يكن ذهابي لأجل مصلحتي."

أجابها وكان صوته قد فقد بعض العنف:

"ماذا؟ لصالح مَنْ كان إذن ذهابك إذن سيدتي؟"

"كان ذلك لأجل شقيقتي."

"لأجل شقيقتك!"

"نعم"

"لِمَ لَمْ تعلميني سبب إلحاحك بالذهاب إلى ذلك الحفل الراقص؟"

"كان ذلك سرًا بيني وبين أليس وكنتُ أعتقد بأن بإمكانني أن أتصرف كما أرغب،

وبأنك سوف تغفر لي ذلك لأنك تحبني كما كانت تفعل زميلاتي في المدرسة. لستُ

أقصد بأنني كنتُ سأضّعك أمام الأمر الواقع... أقصد أن فريدريك هو الذي كان قد

استفاد تمامًا من الموقف."

"ما الذي كنتِ تقصدينه؟ هل اعتقدتِ بأن زوجك سوف يتصرف كما كانت

تتصرف أية فتاة من زميلاتك في المدرسة؟ كنتِ قد اعتقدتِ ذلك أليس كذلك؟..."

"نعم، كنتُ أمل ذلك."

"حسنًا، سيدتي سوف تدركين عما قريب بأنك متزوجة من رجل لا يمكن العبث

به بمثل هذه الطريقة."

"أوووه!... يا إلهي ما الذي ستفعله بي تيودور؟"

"سوف أعيذك إلى والدك... إلى مربيتك... وسأغادر البلدة لسنتين أو ثلاث إلى أن يكون

بالإمكان الحصول على الطلاق. بإمكانك الحصول على الطلاق سيدتي فلم أعد

أرغب بعد الآن برفقة أية امرأة مُخادعة من بنات جنسك... كل النساء عبارة عن

مجموعة من الحمقاوات."

كانت نبلي قد بدأت تنتحب وقالت بين دموعها:

"قد أكون حمقاء لكن ليست جميع النساء حمقاوات... ليس جميعهن... بإمكانني أن أثبت لك ذلك"

"لستُ أرغب بأي إثبات من امرأة مثلك. امرأة من هذه المنزلة."

"لم أندم طوال حياتي على أمر مثل ندمي على ما فعلتُ تيودور، ولو سامحتني هذه المرة فسوف أبذل كل جهد لكي أكون زوجة جيدة لك. لن أستخف بنصائحك ولن أخالفك بأي أمر... ولن..."

ثم جففت السيدة غرينلي دموعها بطرف شالها وأخذت تنظر إلى زوجها بتلك الطريقة التي اعتادت عليها.

قال زوجها: "بإمكانك الاقتراب سيدتي!"

أدركت نيلي بأنها انتصرت وبذلك كانت دموعها قد جفت على الفور، ثم توجهت نحوه.

قال زوجها: "نيلي غرينلي انظري في عيني."

"نعم ها أنا أفعل ذلك."

ثم ثبتت نظرها على عينيه بتلك العينين الرائعتين وهي تحاول جاهدة ألا تظهر بمظهر المتمردة.

بدأ زوجها يشك بأن يكون قد طلب منها طلبًا حكيماً وقال:

"والآن عليك أن تعديني بأنك طوال حياتك لن تخالفي ما أطلبه منك لأنه قد ثبت لك تمامًا بأنك لستِ سوى طفلة."

قالت نيلي: "بإمكانني أن أدرك بوضوح بأن هذه النظرة ليست نظرتك المعتادة إليّ. أتعلم بأن عينيك لم تبدوا الآن بلون أزرق وإنما يبدو منهما الشرر... أعلمني ما هي مهامك في هذه الحياة؟ أنت تتحدث دومًا عن الواجب والمهام وهذا كل شيء." قال بحدة:

"نيلي!"

قالت برقة: "أعتقد بأن عليّ أن أذهب لتناول بعض العصير."

"لا، لن تخطي خطوة واحدة قبل أن تعديني بأنك لن تذهبي مطلقًا إلى أي مكان قبل أن تعلميني بذلك."

"أوووه!... لكنني أكره أن آخذ على نفسي مثل هذا العهد."
"السبب الذي يجعلني أطلب منك ذلك هو أن مئات النساء البريئات كنّ قد أدنّ من المجتمع بسبب بعض التصرفات البريئة، وأنا لن أقبل أن يتم الحكم بمثل تلك الطريقة على نيلي الصغيرة وهي نقية و بريئة كالملاك."
قالت نيلي حينذاك: "أعدك بذلك."
"والآن أعلميني نيلي كيف كان شعورك عندما هددتك بالانفصال؟"
"شعرتُ بأنك لم تكن تقصد ذلك..."
"اركعي نيلي على الفور."
وكانت نيلي قد ركعت وهي تطلق الضحكات. تلا ذلك فترة من الصمت ثم قالت:
"أحاول أن أكون بريئة وطيبة كما هي فكرتك عني فقد أدركتُ بأنني كنتُ قد تصرفتُ بشكل سيء جدًا"
قال زوجها: " لا أعلم فيما إذا كنتُ سوف أهتم بك بعد الآن لو عاودتِ مثل هذا التصرف."
وهكذا كانت طبيعة المرأة الماكرة فيها قد انتصرت...

مجموعة القصص الموجهة للناشئين

طريق الغواية

مارتن غرين شاب في مقتبل العمر يتحلى بحُسن الخلق وبالطيبة وبحسن التعامل مع الآخرين، كما أن لديه الكثير من الاعتزاز بالنفس، وهو الأمر الذي كان يجعله يُصغي دومًا بكثير من التسامح وبعدم المبالاة، إلى تحذيرات من حوله من المخاطر التي قد يتعرض إليها الشبان الذين يسلكون عالم الشرور والفساد، و حول ضرورة ابتعاده عن كل ما قد يجعله عرضة للإغواء...

كان مارتن يعتبر تلك التحذيرات من سَقَط الكلام، لذا كان في كثير من الأحيان، يُجيب من يُحذره من أقرباء أو أصدقاء من ارتياد الأماكن المشبوهة أو لمن ينقد بعض علاقاته الاجتماعية:

"أنا لستُ في خطر... فلو كنتُ أرغب بلعب الورق لكنتُ سأرتاد أحد نوادي القمار... ما هو الضرر الذي قد أتعرضُ إليه من أن أَلعب البلياردو لمجرد التسلية مادام بإمكانني أن أتجنب اللعب لو صادف وكان من سيلعبها معي أحد الرجال الفاسدين؟... الفاسدون والأشرار يتواجدون في كل مكان... هم يتواجدون في الشارع وفي المحلات التجارية وفي الأماكن العامة وحتى في أماكن العبادة... فهل سيكون عليّ أن أبتعد حتى عن أماكن العبادة خشية تواجد بعض الرجال الفاسدين فيها؟"

كانت الحجج التي كان مارتن يعتبرها من الحجج المنطقية غير القابلة للنقاش. كما كان يقول:

"ما الذي يُضير بأن أذهب إلى أحد تلك المطاعم أو إلى أحد البارات عندما أرغب بتناول وجبة من الأسماك البحرية وبأن أشرب بعض الجعة مع وجبتي؟ تقولون بأن

هناك خطورة في مخالطة الفاسدين، لكنني لستُ من نوع الأشخاص الذين قد يلوثون أنفسهم بالأوساخ."

وهكذا كان مارتن غرين واثقاً - إلى ذلك الحد - بمقدرته الشخصية على مقاومة الغواية، ومن إمكانية بقاءه سالمًا في خضم الإغراء، ومن قدرته على الصمود أمام الغواية. كان يعتقد بأنه في مأمن من السقوط في بؤرة الفساد، وبأنه سوف يظل ثابت الخُطى على أرض الفضيلة!... كما كان يعتقد بأن الساذجين هم فقط من يتعرضون لمثل ذلك الخطر الكبير، بينما كان هو في مأمن من السقوط في بؤرة الفساد، لكنه وبكل أسف كان يجهل، كشاب لا يزال في العشرين من عمره، ما في طريق الغواية من آلاف الممرات الغادرة الماكرة...

كان مارتن يختلط بكل حرية بمن هم من مختلف الأوساط الاجتماعية من صالحين وفاسدين لاعتقاده بأنه في مأمن من الغواية وبأن بمقدوره الامتناع عن ارتكاب الأخطاء.

لكن ما حدث بعد ذلك - كأمر طبيعي - هو أن مارتن غرين بصفته من الشبان الاجتماعيين، كان قد اختلط ببعض الشبان الذين يترددون بشكل دائم على صالات البيلياردو وعلى المسارح والمطاعم والبارات لاعتقاده بأنها ليست سوى صِلات عابرة؛ لأنه لم يكن في الحقيقة قد فهم جيداً طباع أولئك الأشخاص، وهذا ما جعله لا يدرك أن الفاسدين هم من يكسبون في النهاية؛ لأنهم يعرفون جيداً كيف يحمون أنفسهم، ولأن بإمكانهم بكل سهولة خداع الأشخاص الذين هم بمثل طباع غرين. كان من بين الشبان الذين تعرف عليهم مارتن غرين في تلك الأوساط الاجتماعية رجل وسيم دمث لطيف المعشر يُدعى بلاند، وهذا ما كان قد جعله يكسب ثقة غرين بالتدريج.

لم يكن بلاند يشرب بإفراط، ولم يكن يبدو أنه من فئة الأشخاص الذين يميلون إلى التورط بأية مغامرات مشبوهة، وعلاوة على ذلك كان للسيد بلاند أسلوبه الخاص بالتحدث في المواضيع الأخلاقية ما يحجب كلياً طبيعته الماكرة الحقيقية، خاصة

بالنسبة لشخص غرّ لا يتمتع ببعد النظر مثل مارتن غرين الذي كانت قد هيات له أوهامه بأنه أكثر دهاء وذكاء من ذلك الشخص. كان مارتن غرين ذات ليلة ، بدلاً من مرافقته شقيقته إلى منزل أحد الأصدقاء، حيث كانت تجتمع نخبة مميزة من رجال وسيدات المجتمع، قد اعتذر عن الذهاب بذريعة ارتباطه بموعد سابق، ثم ذهب للتسكع في إحدى تلك الصالات. كان قد أمضى هناك ساعة بالتدخين وبقراءة الصحف وبتناول الجعة، وهو الأمر الذي كان قد بدأ الاعتياد عليه في الفترة الأخيرة. وعلى الرغم من أن مارتن كان يعتبر نفسه قوياً وآمناً من التعرّض لأي إغراء، لكن بإمكاننا أن نعتبر بأن مجرد تفضيله الذهاب إلى صالة البيلياردو على مرافقة شقيقه لذلك الاجتماع الرفيع المستوى، كان بحد ذاته الدليل القاطع على أنه في الحقيقة كان ضعيف الإرادة مُعَرَّضاً للإغواء.

وبينما كان مارتن جالساً يدخل ويقرأ الصحف بسيماء الرجل الذي يشعر بالرضى عن نفسه أو بالأحرى بسيماء الرجل الفخور بنفسه الذي يشعر بالاشمئزاز ممن كانوا يصخبون حوله، كان قد دخل القاعة صديقه السيد بلاند الذي كان بعد أن صافحه قد قال له بابتسامة مودة:

"كيف حالك يا صديقي؟ ما هي أخبارك اليوم؟"

ثم سحب كرسيًا وجلس إلى جانبه وكان بعد أن طلب من النادل كأسًا من الجعة قد أضاف بأسلوب الشخص الواثق من نفسه دون أن ينتظر حتى تعليق السيد غرين:

"كما ترى أنا لا أتناول المشروبات الروحية القوية؛ لأن تلك المشروبات أشبه بالمخدرات التي لا يعرف أحد ما هي السموم التي تحتويها، كما أن الإدمان عادة سيئة من شأنها أيضًا أن تعطي مثلاً سيئاً للآخرين.

أتعلم! علينا أن نراقب أثر تصرفاتنا على من حولنا من الأشخاص الضعفاء، لأن الإنسان كما تعلم ليس سوى حيوان يُحب المحاكاة. بالمناسبة هل رأيت مسرحية بوث ولسي؟"

"نعم"

"أليست مسرحية رائعة؟ أتذكر كيف كان قد عبّر عن سقوطه في طريق الغواية؟ لا تزال العبارة التي قالها تتردد في ذهني منذ سمعتها حيث كان قد قال بكل أسي: "كان مارك السبب في زلتي، وهذا ما حطمني... لا يعلو الفساد على الاستقامة... السقوط معاناة..."

ثم استمر في إلقاء تلك الكلمات لكي يوحى إلى مارتن بأنه الشخص الأكثر نقاء والأكثر نبلاً في العالم.

في الوقت الذي كانا يتحدثان فيه، دخل القاعة رجلان لم يكن قد سبق لغيرين التعرف إليهما. قام بلاند بتقديمهما إلى مارتن غرين بعبارة: "أصدقائي المقربين جداً"

لم يكن مارتن قد شعر بالارتياح للرجلين منذ النظرة الأولى، لكن ذلك الانطباع الأول كان قد زال بسرعة لما لمس منهما بعد ذلك من لطف في التعامل ومن ذكاء. وكان بلاند بعد قليل قد عاد من جديد إلى تلك المسرحية ثم أخرج من جيب سترته بعد ذلك نسخة عن مسرحية شكسبير (هنري الثامن) وقال:

"لو لم يكن هذا المكان عامّاً، لكنّ ساقراً لكم بعض أجمل مقاطع هذه المسرحية."

قال أحد الرجلين: "قد يكون بإمكاننا الذهاب إلى غرفة أخرى، هناك الكثير من الغرف في هذا المكان."

ثم توجه نحو البار وعاد بعد بضع دقائق وقال:

"رافقوني". ومضوا إلى غرفة في طابق علوي.

قال بلاند: "هذا هو المكان المريح."

خلع الجميع قبعاتهم وستراتهم ثم جلسوا حول طاولة كانت تحت الضوء في وسط الغرفة، ثم قام بلاند بقراءة المزيد من مقاطع مسرحية شكسبير.

وبعد أن تم التعليق وإيراد بعض الملاحظات حول المقاطع التي تمت قراءتها وحول الممثلين والممثلات وراقصات الباليه، كان أحد الموجودين قد طلب المزيد من الشراب ثم تناول الجميع العشاء وتلا ذلك المزيد من التدخين ومن تناول الجعة...

ثم اقترح الشابان بعد ذلك لعب الورق لمجرد التسلية وببضع شلنات فقط، وبما أن غرين كان قد وقع تحت تأثير الشراب كانت الأرض قد بدأت تدور فلم يعد بإمكانه - بوجوده بين رفاقه - أن يعترض أو أن يقاوم، وبذلك كان قد أذعن للأمر رغم أنه في قرارة نفسه كان على الدوام يرفض المقامرة. ولذلك كان على الرغم من معرفته بالطريق التي كان يتم استدراجه إليها قد بدأ باللعب...

كان ذلك قد تم في البداية بمبالغ صغيرة ثم بدأت المبالغ تزداد بالتدريج إلى أن وصلت من بضع شلنات فقط إلى العديد من الدولارات. كان مارتن في بعض الأحيان يكسب المال وكان في أحيان أخرى يخسر المال، وبذلك كانت الأرباح تُحفّزه إلى اللعب من جديد بأمل تحقيق المزيد من الربح وكانت الخسائر تحفزه على اللعب من جديد بأمل تعويض الخسارة، لكن تلك الدوامة كانت بالتأكيد تجعله ينحدر شيئاً فشيئاً، وكانت الخسائر تتزايد من الدولار الواحد إلى الخمسة دولارات ومن الخمس دولارات إلى العشر دولارات...

كان صديقه اللطيف بلاند في ذلك الوقت يُزوده بكل ما يحتاجه من مال مُتظاهراً عدم الاكتراث إلى أن تضاعف مبلغ الخسائر ووصل إلى حوالي المائة والخمسين دولاراً ما جعل مارتن غرين يستفيق ويشعر بالفزع.

لم يكن راتب مارتن غرين يتجاوز الأربعمئة دولار شهرياً، وكان يُنفقه بالكامل، وبذلك كانت خسارته لمبلغ المائة والخمسين دولار أمراً خطيراً ومُحرّجاً للغاية. لدى مغادرته تلك القاعة كان بلاند قد قال له:

"سوف أمر بك غداً بعد أن تتمكن من حلّ هذا الإشكال البسيط."

كان يتحدث بلطف لكن كان في نبرة صوته ما جعل ضحيته يشعر بأن الدم قد تجمد في عروقه.

في اليوم التالي وبينما كان غرين جالساً أمام مكتبه محاولاً تركيز ذهنه على إنجاز عمله بالشكل المطلوب، قال له رئيسه في العمل:

"مارتن! هناك من يسأل عنك في المتجر."

التفت غرين، وإذا به يشاهد آخر رجل كان يرغب برؤيته في هذا العالم... ذلك الصديق اللطيف الذي كان الليلة الماضية قد طلب منه أن يحلّ ذلك الموضوع البسيط.

أمسك بلاند بذراع ضحيته، وقال له بأسلوبه اللبق ولكن ببعض الصرامة وبابتسامة لطيفة: "أمل ألا أكون قد جئتُ بوقت مبكر."

أجابه مارتن بتجهم:

"بلى، جئتُ بالفعل بوقت مبكر جداً."

"متى سيكون بإمكانك تدبّر الأمر؟"

"خلال بضعة أيام"

"لكنني بحاجة للمال هذا اليوم. لم يكن ذلك كما تعلم، سوى قرض بمبلغ بسيط."

قال غرين: "أنا على علم بذلك لكن المبلغ أكبر من إمكانية تدبّره في الحال."

"هل بإمكانني الحصول على قسم منه اليوم؟"

"ليس اليوم"

"إذن فليكن ذلك في الغد."

"سوف أفعل كل ما بإمكانني؟"

"حسن جداً، سوف أمر بك غداً في مثل هذا الوقت. حاول أن تتدبر كامل المبلغ لأنني بحاجة ماسة إليه."

عندما خرج بلاند من المكتب وعاد غرين إلى عمله قال له السيد فيليب رئيسه في العمل بوجه متجهم:

"هل تعرف هذا الرجل؟"

"نعم يدعى بلاند"

ثبّت السيد فيليب نظره على وجه غرين وسأله:

"لَمْ جاء إلى رؤيتك في المكتب؟"

"لابد أنه كان مازًا بالقرب من المكتب. كنتُ قد تعرفتُ عليه منذ مدّة ثم اجتمعنا معًا بضع مرات مع بعض الأصدقاء الآخرين."

"أليست لديك فكرة عن سمعته."

قال غرين: "لم أسمع من يتكلم عنه بالسوء."

أجاب السيد فيليب:

"حقًا مارتن! ألا تعلم بأن لهذا الرجل أسوأ سمعة في هذه المدينة؟ يُقال أنه رجل مقامر وضيع يصطاد الناس ويقودهم إلى الغواية."

كان مارتن على الرغم من الاضطراب الذي تملّكه سريع البديهة لذا قال:

"يسرني أن أطلع على هذا الأمر سيدي. وسوف أتعامل معه في المستقبل على هذا الأساس."

ثم ذهب إلى مكتبه و تابع عمله.

لاشكّ بأن من أكثر من الأمور سهولة في العالم أن يبدأ المرء السير في طريق الغواية والضلال، ولكن من العسير جدًّا عليه أن يتراجع بعد ذلك عن تلك الطريق بمثل تلك السهولة...

فكيف سيكون بإمكان مارتن أن يعود إلى طريق الهداية طريقه؟ كانت هناك عقبة كبيرة تقف في طريقه، وكان من العسير عليه أن يتجاوزها تلك العقبة، ولم يكن بإمكانه التراجع بأمان لأنه كان وحيدًا ليس لديه من يسانده...

ومما لاشكّ به أيضًا أن الأفكار الشريرة التي تجعل الرجل يحيد عن الفضيلة، لا يمكن أن ترشده بعد ذلك عندما يرغب بالتراجع، بل وعلى العكس سوف تُبالغ بوصف المخاطر التي ستعترض طريقه، وسوف توجهه إلى طرق أخرى تقوده إلى التورّط أكثر فأكثر في سلوكه لطريق الفساد التي من العسير جدًّا على المرء أن ينجو منها...

كان الكثير من الخواطر المتضاربة يدور في ذهن صديقنا البائس ويحاوره حول الأساليب الممكنة للتخلص من ذلك الموقف المخرج حدث نفسه:

"لو كان بلاند بالفعل، كما وصفه السيد فيليب، فسوف يؤدي ذلك إلى الإضرار بي وإلى خسارتي تقدير واحترام السيد فيليب.

لابد أن يعتمد بلاند إلى مطالبتي بذلك الدين مرة بعد مرة. كيف سيكون بإمكانني أن أسدد له مثل هذا المبلغ الكبير؟ فليس لدي سوى راتبي، وليس لدي أي قريب أو صديق بإمكانني اللجوء إليه بأمل اقتراض المبلغ منه..."

لاشك أن المرء، عندما يصل إلى طريق مسدودة، يصبح من السهل عليه أن يقع في براثن الشرور، وكان هذا ما حدث مع السيد مارتن غرين.

كان على مارتن في ذلك اليوم أن يقوم بتحصيل بعض المستحقات لصالح السيد فيليب، و كان ما حدث أن أوحى إليه وسأوسه بأن يعتمد إلى الاحتفاظ بإيرادات اثنين من المدينين تصل إلى مبلغ يُعادل ما عليه سداد له للسيد بلاند، وبأن يكون كل ما عليه هو أن يقول لرئيسه في العمل بأن المدينين طلبا تأجيل السداد لعدم توفر السيولة النقدية لديهما في الوقت الحاضر، وبأن ذلك ما سوف يُمكنه ذلك من التخلص من بلاند ومن كسب الوقت. وبذلك قام غرين بتنفيذ تلك الخطة واقتطع من إجمالي الإيرادات المبلغ الذي يعود لاثنتين من المدينين.

لكن ما حدث، وهو الأمر الذي لم يكن بالحسبان، أن كان أحد الشخصين اللذين اقتطع مارتن دينهما، قد قابل بالصدفة السيد فيليب عصر ذلك اليوم لدى عودته من تناول وجبة الغداء في المطعم وقال له:

"ها قد قمتُ اليوم بسداد قيمة الفاتورة التي أدين لك بها."

وأجابه السيد فيليب: "جيد، أتنمى أن يكون جميع زبائني بذات الحرص على أداء التزاماتهم في الوقت المحدد."

تابع الرجل حديثه بالقول:

"وقد سلّمتُ ذلك الشاب شيكًا بمبلغ مائة دولار."

"شكرًا لك."

ثم تبادل الرجلان التحية وذهب كل منهما في طريقه.

وعندما عاد السيد فيليب إلى المتجر سلّمه مارتن المبلغ الذي قام بتحصيله من الزبائن، لكنه، ولدهشة رئيسه، كان قد اقتطع منه المبلغ الذي ورد ذكره. سأله السيد فيليب بلهجة جعلت قلب ذلك المذنب يكاد يتوقف عن الخفقان: "هل هذا كامل المبلغ الذي قمت بتحصيله اليوم؟"

وكانت الإجابة المبهمة: "نعم سيدي."

"ألم يسدد السيد غارالند ما عليه؟"

"لا... لا... لا... سيدي! لم يسدد السيد غارالند ما عليه."

لكن وقع ذلك السؤال المفاجئ كان قد جعل مارتن يرتبك وبذلك كانت إجابته لا تخلو من التردد.

ما جعل السيد فيليب يسأله من جديد باستغراب وبنبهة اتهام وتوبيخ:

"لست أفهم؟ ما هذا مارتن؟"

حينئذ اصطبغ وجه مارتن بحمرة قانية ثم شحب وجهه وبدأ يرتعش، وكان بعد أن وقف أمام رئيسه لبضع دقائق تبدو عليه سمة الشخص المذنب الخائف، قد أخرج من جيب سترته دفتر الحسابات وأخرج منه رزمة من الفواتير ثم قال: "عذرًا سيدي، يبدو أنني نسيتُ أنني قمتُ اليوم بتحصيل هذه الفواتير أيضًا." ثم ناول السيد مذكرة التحصيل وبداخلها المبلغ المقتطع.

قال السيد فيليب: "ما هذا مارتن؟ ما الذي يعنيه كل هذا؟ هل يمكن أن تكون قد نسيتَ مائة وخمسين دولار؟"

حينئذ أجابه الشاب بصوت مرتجف:

"كان ذلك خطأ مني سيدي... أنت تعلم بأنه لم يسبق لي الاحتيال عليك ولم يسبق أن أخطأتُ في حساباتي ولو بدولار واحد، كما أنني لم أكن أقصد الآن الاحتيال، لكن الحقيقة هي أنني أتعرض لوضع صعب جدًا، فقد تلوّثتُ بالوحل وكنتُ أحاول بصعوبة أن أتخلص من ورطتي. لم تكن هذه سوى وسيلة مؤقتة. لم أكن قد تعمدتُ كما لم أكن قد خططتُ للتحايل عليك."

حينئذ قال السيد فيليب بجديّة وصرامة:

"اجلس مارتن، دعني أطلع على ما حدث من البداية إلى النهاية، وعليك ألا تخفي عني شيئاً هذا لو أردت أن أكون لك صديقاً وعاوناً."

وكان مارتن بذلك قد سرد له كامل تفاصيل قصته المخزية.

وكان ما قاله السيد فيليب عندما أنهى الشاب اعترافه بما حدث معه:

"لو لم تكن قد سلكتَ طريق الغواية لما كان ذلك المخادع سيُغرّر بك. هل ترتاد باستمرار إلى مثل تلك الأماكن؟"

"لا، سيدي، أنا أذهب إليها من حين لآخر فقط."

"مارتن! هذه الأماكن ليست محترمة أو آمنة، ولا بد أن يفقد الشاب الذي يرتاد مثل هذه الأماكن احترامه ورجولته. هذه الأماكن مشبوهة وقذرة. هل لديك أخ أصغر سنّاً منك؟"

"نعم سيدي."

"هل تعتقد بأنه سيكون من المناسب أن يرتاد شقيقك مثل تلك الأماكن، عندما سينشأ ويخطو من سن الشباب إلى سن الرجولة؟"

"لا سيدي. بل سوف أفعل كل ما بوسعي لكي أمنعه من ذلك؟"

"لماذا؟"

"لأن هناك خطورة عليه في ارتيادها؟"

"ومع ذلك فأنت على الرغم من معرفتك بمثل هذه الخطورة، قد سلكتَ هذه الطريق ما أدى إلى سقوطك في بؤرة الفساد."

أطرق مارتن رأسه بارتباك وحياء.

تابع السيد فيلب كلامه:

"بلاند هذا كما قلت لك شخص محتال وقد خدعك."

سأله الشاب باضطراب:

"ما الذي عليّ أن أفعله الآن سيدي؟ وكيف سأسدد له دينه؟"

"هل سيأتي إلى هنا في الغد؟"

"نعم سيدي."

"سوف أستدعي أحد عناصر الشرطة لاستقباله."
أجاب مارتن بنظرة أسي: "لا... لا... سيدي، أرجوك لا تفعل ذلك."
سأله السيد فيليب: "ولم لا؟"
"لأنه سوف يعمل على تدميري."
"وكيف سيفعل ذلك؟"
"سوف يبلغ عني."
"دعه يفعل ذلك."
"لكن هذا يعني بأنني سوف أتعرض للمساءلة من قبل الشرطة."
"هذا أمر بغیض، لكنه أقل سوءًا بالمقارنة مع ما كنت تنوي فعله للتخلص من الدين. لابد أن أفعل ذلك بطريقتي فقد بدأ هذا الأمر يصبح خطرًا وجديًا. عليك أن تتقبل ما سأفعله لأنك أصبحت الآن تحت سيطرتي."
وكان بلاند قد جاء بالفعل إلى المتجر في الساعة المحددة من اليوم التالي.
قال السيد فيليب لمارتن:
"ها هو الرجل اطلب منه الدخول إلى غرفة المحاسبة"
وعندما دخل بلاند إلى الغرفة قال له السيد فيليب:
"علمتُ بأن السيد غرين الموظف لديّ يدين لك بمبلغ مئة وخمسين دولار"
انحنى بلاند النذل بتهذيب، وقال: "نعم سيدي."
قال السيد فيليب: "أعطه وصلًا باستلامك المبلغ."
وكانت إجابة بلاند ببرود وتصميم:
"سوف أسلمه مثل هذا الوصل عندما سأستلم منه المبلغ."
كان مارتن قد ألقى حينئذ نظرة جانبية إلى وجه بلاند وراعه التغيير المفاجئ الذي ظهر على وجهه. كان كل ما كان يتظاهر به من لطف واستقامة وعفة قد اختفى عن محياه، وأصبح يبدو أشبه بشيطان أكثر من رجل من بني البشر. كان مارتن قد شاهد مثل تلك اللعة الشيطانية التي لاحت في عيني بلاند بما يُصوّر في الأفلام السينمائية فقط وليس في نظرة أي شخص من البشر.

حينئذ قام الشرطي الذي كان جالسًا في ركن الغرفة متظاهرًا بقراءة الصحيفة برمي الصحيفة جانبًا ثم تقدم على الفور إلى الأمام ووقف إلى جانب السيد فيليب وأخذ يُحدِّق بتجههم بوجه بلاند، الذي تحولت نظرتة من التحدي إلى نظرة تردد لكنها لم تكن مع ذلك نظرة أقل خبثًا من السابق.

ثم أخرج السيد فيليب من جيبه حافظة نقوده ووضع على المكتب ورقة نقدية بقيمة عشرين دولارًا وقال:

"خذ هذه ووقّع إيصال الاستلام كما طلبت منك."

قال بلاند بذات التصميم والجرأة:

"لا سيدي لن أسمح لأحد بأن يسرقني بهذه الطريقة."

حينئذ تدخل الشرطي وقال:

"اعمل بنصيحتي بلاند ووقّع هذا الإيصال."

قال النذل بارتباك: "هذه خدعة لعينة."

قال له الشرطي بحزم:

"سوف نتجاوز عن هذه الشتمات فيما أن تأخذ المبلغ أو أن تذهب في الحال. هذه

ليست مقابلة لأجل التفاوض معك. فأنا أعرفك جيدًا وأعرف حيلك الشيطانية."

ظلّ بلاند واقفًا لبضع دقائق بكل تردد ثم أمسك بالقلم وكتب بضع كلمات ووقّع الإيصال. لكنه عندما كان على وشك أخذ المبلغ كان السيد فيليب قد سحب لمبلغ من أمامه وقال:

"انتظر لحظة ريثما أتأكد من صحّة الإيصال"

قرأ السيد فيليب الإيصال مرة بعد مرة ثم دفعه نحو بلاند وقال:

"اكتب بأنّ هذا يُعفي مارتن غرين من أية مطالبة في المستقبل."

كانت الإجابة بأن صرّ بلاند على أسنانه، ثم تناول القلم وكتب العبارة المطلوبة.

حينئذ قال له السيد فيليب:

"أنصحك أيها الشاب بأن تجد لنفسك مهمة جديرة بالاحترام تكون أيضًا أضمن من مهمتك هذه." ثم ناوله العشرين دولارًا.

وكان بلاند بعد أن ألقى على وجه كل من السيدين فيليب وغرين نظرة تشع بالحق والنعمة وتنطوي على التهديد قد قال وهو يتوجه بسرعة إلى خارج المتجر:

"احتفظ بنصائحك لمن هم بحاجة إليها ولن يطلبها منك!..."

ثم وضع الشرطي يده على كتف مارتن بعد ذلك، وقال له بأسلوب لا يخلو من التحذير:

"أما أنت فعليك أن تعمل بنصيحتي بأن تبعد كلياً عن طريق هذا الرجل، فأنا أعرفه وأعرف رئيس العصابة التي يعمل معها. هم أخطر مجموعة من الأشرار في هذه المدينة. سوف يضمرون لك الشر منذ اليوم وعددهم لا يقل عن الاثني عشر رجلاً؛ لذا عليك لكي تنجو منهم ألا تتردد على الأماكن التي يترددون عليها. ابتعد أكثر ما يمكن عن صالات البلياردو وعن الحانات. أعتقد بأن تجربة واحدة كهذه يجب أن تكون كافية لتلقيك الدرس طوال حياتك."

وكان مارتن بذلك قد أدرك الشرط الخطير، لكنه لم يكن قد استعاد ثقة رئيسه به على الإطلاق. كان السيد فيليب يشفق عليه بالطبع لكنه لم يتمكن من استعادة ثقته الكاملة به.

بعد مرور عام على تلك الحادثة، كانت الأعمال التجارية في تلك المدينة قد تعرّضت لأوقات عصيبة وللكتير من الخسائر والكساد، وبذلك كان على كل رجل أعمال أن يقتصد في النفقات. ما جعل آلاف الموظفين يفقدون أعمالهم وكان المرء تشاهد علامات القلق والكآبة على كل وجه. وبذلك كان على السيد فيليب أسوة بغيره من رجال الأعمال، أن يقتصد في النفقات، كان ذلك من نصيب السيد مارتن غرين فعلى الرغم من أنه كان قد التزم الحذر وابتعد بالفعل عن تلك الأماكن التي تكمن فيها المخاطر وكّرّس نفسه بإخلاص لرئيسه في العمل، إلا أن شكوك السيد فيليب ظلت مع ذلك تراوده على الدوام، وهو ما جعله يُقرّر، عندما أصبح عليه اختيار الشخص الذي سيتخلى عنه اقتصاداً في النفقات، بأن يكون مارتن غرين هو ذلك الشخص. قد يشعر المرء بالشفقة على ذلك الشاب الغرّ مارتن غرين، ولكن ليس بإمكاننا أيضاً أن نلوم رئيسه على صرفه من العمل بعد أن كان قد فقد ثقته به..

نصائح الجدّ

كان الشعاع الذهبي لشمس الغروب يلمع على جبين ذلك الرجل العجوز الذي سَطَّرَ عليه سبعون شتاء. كان جالسًا في الشرفة الواسعة في لمنزله القديم. كانت نظراته هادئة صافية رغم السنوات التي كانت قد أطفأت بعض الشيء ما كان في عينيه من وميض لنظرة الصقر، وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة لطيفة تنبعث منها موسيقى الرضى من قلب لا زال يخفق بعنفوان الشباب ومن ذهن مُتفتح على الحياة...

كان حب الله يجعله يشكر الله على كل ما منَّ به عليه من نعم، كما كان حبه لإخوته في الإنسانية يغمر نفسه النقية رغم تقدمه بالسن... رفع نظره إلى السماء اللازوردية وأخذ يفكر بالمستقبل ولا زال في قلبه انتقاد من أمل، ثم عاد إلى التفكير بالماضي ما جعل تعبير البهجة على ملامحه يتجول بالتدرّج إلى استغراق كبير. كان قد بدأ يطوف بذهنه بالسنوات التي تركها وراء ظهره. حدّث نفسه:

"أحمد الله على أنه لم يكن قد مرَّ لي ولو عام واحد، منذ بلغت سن الشباب، دون أن أكون قد عشّته لتحقيق أمر أفضل..."

كان عليّ في كثير من الأحيان أن أضحيّ بحبي لذاتي في سبيل ما كرّست له حياتي أكثر من أي شيء آخر. وكنت قد عملت دوماً على أن أظلّ طاهراً نقيّاً... أرجوك يا إلهي! أن تنزل الآن السكينة على قلبي!"

وكانت الدموع قد ملأت عيني ذلك العجوز وهو يتوجه بهذا الابتهاال إلى الله - تعالى

—

لكن تلك النظرة الدمثة الوديدة قد عادت إلى ملامحه، عندما فتح باب السياج على مصراعيه ودخل منه شاب في حوالي العشرين من عمره ما قطع على العجوز ما كان فيه من استغراق في التفكير.

اقترب الشاب من العجوز وكان بعد أن صافحه بحرارة قد جلس إلى جانبه وقال وهو يبتسم بحنان بالغ وبكل احترام:

"حسنًا يا جدّي، أعتقد بأنك اليوم قد بلغت سن السبعين. أليس كذلك؟ يوم ميلاد سعيد!"

قال العجوز: "نعم بُني! كنتُ الآن أستعرض ما مررتُ به خلال تلك السنوات وعلى الرغم من أنني لا أعود عادةً إلى الماضي بندم، لكنني شعرتُ مع ذلك بأنه كان عليّ أن أتصرف بشكل أفضل بكثير. أعتقد بأنني لم أكن دومًا قد أحسنتُ الاستفادة من سنوات حياتي."

كان الشاب الذي كان يُصغي بكل احترام قد سأله فجأة باهتمام:

"جدّي! أرجو أن تُعلمني هل كان في سنوات حياتك عام كامل كنتُ قد وجدت خلاله السعادة التامة بحيث تتمنى الآن أن تعيشه من جديد؟"

كانت الإجابة: "لا شكّ أنني عشتُ من وقت لآخر فترات قصيرة من السعادة، لكن لم يكن هناك خلال سنوات حياتي الطوال أي عام أود أن أعيشه جديد... كنتُ مُحاطًا بالكثير من الأصدقاء المخلصين الذين غادروا الآن، الآن، وكنتُ قد أحببتُ وحصلتُ على الكثير من الحب ولازالت ذكرى ذلك الحب حتى الآن تُنعش قلبي وتثير مشاعري..."

أنا أشكر الله - تعالى -؛ لأنني عشتُ كل تلك السنوات، وبأنني قد كافحتُ كثيرًا لأجل الحقيقة والصدق لكن ليس هناك أية معركة أرغب الآن بأن أخوضها من جديد على الرغم من أن كلاً منها كان قد تلاه شعور عميق بالرضى.

أجابه رفيقه: "يبدو لي أن حياتك كانت كئيبة بعض الشيء يا جدّي. لكن ما كنتُ أسألك عنه هو عمّا عشتَه من أيام سعيدة!..."

وكان الشاب بعد فترة من الصمت قد أضاف باندفاع:

"فبالنسبة إليّ، فأنا لا أبالي بالحياة إن لم يكن بإمكانني أن أحصل على السعادة التامة التي أحلم بها. ما هي قيمة الحياة التي يعيشها آلاف الناس؟ لا شيء... أما أنا فليس بإمكانني أن أبحر برتابة في التيار؛ لذا فكلما استبد بي التفكير أكثر وأكثر،

كلما ازداد استيائي من كل شيء حولي... لم توجد في نفس المرء دوماً تلك الرغبة العارمة بالسعادة مادام من النادر جداً أن يتمكن من الحصول عليها؟... كانت طفولتي بهيجة لكن كان يحجبها أيضاً في كثير من الأحيان خيبات أمل أكبر من مقدرة الأطفال على احتمالها. لم أكن قد شعرتُ مطلقاً على السعادة التي كنتُ أرغب الحصول عليها، منذ اللحظة التي أصبحت لديّ فيها المقدرة على التفكير والتأمل. كنتُ أشعر بأن قلبي لم يكن يوماً قد امتلأ إلى الذروة بالبهجة، وبأنه بإمكانني دوماً أن أتطلع إلى المزيد، وبذلك كان السؤال الذي يتوارد إلى ذهني بشكل لا إرادي:

"هل أنا سعيد بالفعل؟" وكانت الإجابة التي تقفز إلى ذهني دوماً "لا... أنا شاب وبصحة جيدة بإمكانني أن أعرف قيمة الجمال، وأن استمتع بالشعر، وأن أكتشف بهجة الموسيقى وأن أحلم، لكنني حتى وأنا في غمرة ذلك الحلم الساحر كنتُ أشعر دوماً بأن هناك الكثير مما لا أزال أتوق إلى تحقيقه...

ليس بإمكانني أن أخمد هذا الشعور بعدم الارتياح الذي يضغط عليّ، فأنا عندما أنظر حولي إلى الوجوه الشابة المبتسمة المشرقة بالسعادة والبهجة، أحاول الحصول على ما يجلب البهجة إلى نفسي لكنني نادراً ما أوفق، ولو حدث ذلك فسوف يكون عبارة عن شعور سطحي مؤقت...

ومع ذلك كنتُ عندما عملتُ ذات مرة على تخفيف وطأة الهموم التي كانت تُثقل على مخلوقة بائسة تعيسة، قد شعرتُ بشيء من السلام يغمر قلبي لبعض الوقت ويملؤه بالكثير من السكينة، لكن تلك السكينة زالت بسرعة وعاد ما كنت فيه من مرارة يُسيطر عليّ...

بحثتُ عن الصداقة وكنتُ لفترة من الزمن قد شعرتُ ببعض الراحة، لكنني لم أتمكن من منع نفسي من النظر باحتقار إلى أهداف رفاقي وهذا ما جعلني أخفق؛ لأنني كنتُ قد وجدتُ الأنانية على شكل التعلق وكنتُ قد التفتُ فوجدتُ حولي قلوب مخادعة..."

قال العجوز بكآبة وبالكثير من الحزن:

"ألفرد بُني! أنت تجعلني أشعر بالحزن، فهذه هي المرة الأولى التي أعلم فيها بأن قلبك تملؤه مثل هذه المرارة."

قال الشاب: "لو كنتُ أعلم بأنني سوف أتسبب لك بالحزن لما كنتُ سأحدثك عما يعترني نفسي، لكن ما شجّعني على التعبير عن أفكاري وعما يجول في نفسي دون شعور، هو لأنني أعلم بأنك بقلبك الطيب على استعداد للإصغاء إلى الآخرين. أنت رجل مرّت به سنوات طويلة ولديك من الخبرة في الحياة أكثر بكثير ممن هم في سنك. اعذرني جدّي فلن أتسبب لك بالحزن من جديد!"

وكان ألفرد عندما التفت إلى جده من جديد قد شعر بأن نظرة التعاطف التي بدت على وجهه قد غمرت نفسه بدفء المحبة...

قال العجوز الحكيم: "من الجيد أن يكون تفكير المرء عميقًا، لكن على المرء أن يفكر أيضًا بطريقة صحيحة. عليك ألا تنظر إلى العالم من الجوانب المظلمة فقط في روحك لكيلا تتحول جميع الأشياء التي يقع نظرك عليها إلى لون قاتم... تناول شعلة الحقيقة والصدق والرحمة الإلهية لكي تبعد عن نفسك الظلمة والإنصاف. بأن الأمور سوف تتغير كثيرًا بنظرك. سوف تبدأ بالنظر إلى رفاقك بمشاعر جديدة وبأكثر من الاهتمام والتفهم والإنصاف، فأنت لست سوى رجل عادي وبسيط واضح وصريح."

ألفرد! أنت تعلم بأن كل ما أرغبه هو صالحك؛ لذا أتمنى أن تحتل ما سأدلي به الآن من تعليقات ومن ملاحظات حتى وإن كنت ستجدها غير مُستساغة بعض الشيء."

أجاب الشاب بتوتر: "لم جدّي؟ فأنا أقدر الصراحة أكثر من المديح."

وبذلك تابع العجوز الحكيم حديثه بالقول:

"قد تقول بأنني لم أكن قط قد نعمتُ تمامًا بالسعادة، وبأن ذلك ليس من المستغرب أو غير المألوف لأنني لم أكن قد اجتمعت سوى بالقليل من الأشخاص الذين يتمتعون بعمق التفكير من سنك الذين ممن بإمكانهم القول، بعد الاستغراق

بالتفكير، بأن بإمكان نفوسهم ألا تتطلع إلى أكثر مما مُنحوا ومما حصلوا عليه وبأن لديهم الكثير من لقناعة...

"عليك أن تحاول التخلي عن هذا الاستسلام، ليس هناك بالطبع على الأرض أية نعم دائمة، لكن بإمكان المرء أن يتمتع ببعض منها لفترة من الزمن."

سأله الشاب بتوتر: "لِمَ يجب أن تكون المتعة عابرة وغير دائمة إلى هذا الحد؟" "ليس العيب في كون المتعة سريعة الزوال ولكن العيب يكمن في نفس المرء التي قد تكون في حالة من عدم الاستقرار؛ لذا يجب أن تتغير طبيعتها لكي يصبح بإمكانها أن تحصل على البهجة..."

لو نظرنا إلى الكون فهل سيكون بإمكاننا أن نرى السماء مُشرقة على الدوام؟ هناك في السماء ضوء ساطع لكن هناك أيضًا في تكوينها عناصر لتكوين العواصف، ومع ذلك فالسما صافية تُحيي من ينظر إليها."

قال الشاب: "وكيف يمكن أن يحدث ذلك جدي؟ ما الذي بإمكانني أن أفعله؟ فأنا بالتأكيد أرغب وأشعر بالسرور بأن أرى إخوتي في البشرية سعداء حتى لو كانت نفسي مضطربة، لكنني تعبت من رغباتهم غير المُشبعة التي لا تنتهي، فهم يبحثون باستمرار عن شيء لم يسبق أن وقعت عليه العين، وقد يكون ذلك المجهول الذي هو مع ذلك ما تهفو إليه نفوسهم إلى حد كبير، شيء قد لا يتحقق مطلقاً لكي يشفي ظمأهم، ما يجعلني أشعر بألم يضغط على صدري ويصيبها بما يُشبه ببرودة الموت."

أجابه جدّه: "بإمكان كل من أن يعثر على ما يبحث عنه لو أنه بحث عنه بالأسلوب الصحيح؛ لأن مجرد التلهّف لا يمكن أن يمنحنا السعادة التي قد تضيع وتذبل من الينبوع الذي تنبعث منه... لكن السؤال هو هل كنا نبحث عن السعادة بالطريقة الصحيحة؟... ألسنا بالأحرى نطلب المستحيل عندما نطلب السعادة الدائمة قبل أن نهى أنفسنا لها؟... أنت ترغب يا بني بأن تكون حياتك سهلة إلى حد بعيد. استجمع كل طاقتك وانظر حولك بروح الحماس والتصميم وابحث عن تجديد وإصلاح كل حياتك، ولتجعل هذا هدفك في الحياة ولتكن رغبتك وتطلعك إلى السعادة

نابغاً من ذلك، وسترى بأنك سوف تُمسك بالسعادة كهدية دائمة في نهاية السعي وفي نهاية ذلك السباق...

ما هي أهدافك وما هي طموحاتك؟ فأنت حتى ملاحقة شيء تماماً، أنت في سعي وفي ملاحقة شيء أشبه بظلٍ يضيع من أمامك، وما يجعلك تجد بأن نفسك الضجرة تغرق...

أنت تتطلع إلى هدف كبير يجعلك ترتفع إلى الأعلى بثبات وثقة من خلال ما يمكن أن يكون في الحياة من شرور. ابتعد عن حبك لذاتك وانظر إلى العالم بعين بشرية فأنت إنسان..."

قاطعهُ الفرد بالقول: "هذا مستحيل... مستحيل! أنا أتحدى أي شخص يُعرض عن نفسه وينظر إلى العالم باهتمام أكبر من اهتمامه بنفسه. قد يكون المرء إنسانياً في مشاعره وقد يُكرس نفسه للتخفيف عن البؤساء والمساكين، لكنني أتمسك برأيي بأن من المستحيل ألا يكون حب البشر لأنفسهم في المرتبة الأولى... قد يدفعنا فجأة حافز أقوى لأن نفعل ذلك لبعض الوقت، لكن ذلك الحافز المفاجئ سوف يزول مع الوقت، وسوف ننظر لأنفسنا من جديد. وباختصار سوف نجد بأننا بكل ما فعلناه قد فقدنا توازننا..."

"أنا أعبر عما أعقده بكل صدق وهذا ما يؤمن به الآلاف في سنِّي حتى عندما يدافعون عن وجهة نظر مُناقضة تماماً، فليست هناك أية صراحة في هذا العالم!..."

قال جدّه وهو يبتسم بلطف:

"مهلاً مهلاً... يا صديقي... أنا أيضاً أتمسك برأيي بأن من المستحيل أن يكون بإمكان المرء أن يخسر حبه لذاته واهتمامه بنفسه، لكنني أوّمن بذات الوقت بأن بإمكاننا أن نحب الآخرين. لستُ أقصد بذلك الإشارة بشكل محدد إلى شخص واحد أو اثنين قد نُعجب بهم لكنني أتحدث عن إخوتنا في الإنسانية بشكل عام..."

أجاب الشاب وهو يهزّ رأسه:

"ليس بإمكانني حتى أن أتفهم مثل هذا الحب! ليس بإمكانني أن أفهم كيف بإمكانني أن أحب شخصًا لا يمتلك أي من الخصال الحميدة، فأنا أشعر دومًا بعدم المبالاة تجاهه مثل أولئك الأشخاص إن لم يكن ذلك أيضًا ببعض بالنفور... أعتقد بأن المثال: أن أكرّس أو أن أضحي بحياتي لأجل شخص أحبه لو حدث أن تعرّض لخطر كبير مفاجئ، ومع ذلك فأنا أعتقد بأن بإمكانني أيضًا أن أتسبب بالألم لذات الشخص لكي أرضي نفسي... فعلى سبيل المثال: لنفترض يا جدي بأنه قد تم اقتيادك إلى وتد لكي يتم حرقك، فهل سأخذ مكانك لكي أنقذك؟ لا... لكنني مع ذلك سوف أفعل كل ما بإمكانني لكي أجعلك سعيدًا، فأنا بذلك أشبع ما في نفسي من عاطفة تجاهك. وعلى سبيل المثال أيضًا أنا حاليًا أمضي ساعات الدراسة في الغابات أو إلى جانب الغدير؛ لأنني أعلم تمامًا بأنه سوف يسرّك أن تراني أعتكف على دراسة اللغة اللاتينية أو اللغة اليونانية."

أجابه جدّه وهو يتنهد: "هذا صحيح تمامًا. وأنت بذلك تثبت بأن حبك لذاتك هو الحب الذي يتحكم بمشاعرك."

رفع ألفرد حاجبيه كما لو أنه كان قد سمع شيئًا غير مرغوب به. فنحن دومًا لسنا على استعداد للاعتراف بالأمور التي لا نحب أن تكون فينا. ثم استغرق في تفكير عميق وقال أخيرًا:

"من المتعارف عليه في كل هذا العالم بأن الفضيلة مُحبة وأن من يعملون بها يبدون هادئين مطمئنين ومستسلمين، كما أنهم في كثير من الأحيان يبدون سعداء تمامًا، لكن لو أردنا الحقيقة، فإن مثل تلك السعادة تبدو بالأحرى سطحية وتافهة تعوزها الحرارة... أنا أرغب بأن تكون لدي كامل الحرية كي أتمكن من الابتعاد عن النزوات التي تشدّني بإرادتي، وبأن أحب و أن أكره كما يدعوني قلبي، فأنا أنبذ كل نوع من أنواع الكبح والضغط."

قال جدّه: "بني! لكن عليك أن تخضع لما عليك من التزامات حتى بدون أن تُفرض عليك."

سأله الشاب: "ما هو نوع تلك الالتزامات التي تقصدها بكلامك؟"
 قال جدّه: "التزامك بما يفرضه عليك المجتمع. عليك أن تنحني إلى حدّ ما للرأي العام... عليك في كثير من الأحيان أن تتجنب التصرفات التي قد تنتج عن ثورة الغضب، وأن تتجنب ردّات الفعل الغاضبة بشكل عام، وهذا ليس لأنك لا تميل إليها ولكن لأن المجتمع لن يتقبلها. أليس هذا هو الوضع أحياناً؟..."
 لم يكن الفرد قد استساغ كثيراً ما قاله جدّه، لكنه كان ساذجاً صادقاً ما جعله لا يتمكن من أن يخفي ما في نفسه من دوافع. لذا أجاب بكلمة: "نعم" لكنه كان قد تفوّه بها دون اقتناع شخصي بذلك.
 تابع الجدّ العجوز حديثه بالقول:
 "هل تعتقد بأن محاولة الشخص التغلب والسيطرة على ما لديه من نزعات ومن نزوات قد يحطّ من قيمته؟"
 أجاب الشاب: "ليس في هذا ما يحطّ من قيمته بالتأكيد، بل إنه أمر يستحق أعلى مستوى من التقدير، وهو أمر يتصفّ بالنبالة! وأنا أقرّ بذلك!"
 قال الجدّ: "ومع ذلك فأنت لا تجد الكثير من المتعة التي سوف تنجم عن هذا الترويض للذات."
 قال الشاب: "فإذن العذر جدّي. فأنا عندما تحدثت عن الفضيلة كنتُ أشير بذلك إلى النوع اللطيف الذي يبدو سلبياً أكثر من كونه إيجابياً، ذلك النوع من اللطف والرقّة التي تبدو كأنها تُخمد الحماس وتُغلق النفس على مجموعة من الآراء بدلاً من أن تجعلها تتسع لكل ما هو نبيل وشهم في أي مكان وجدت فيه."
 قال جدّه: "فإذن، لم يكن ما أشرتُ إليه بالفضيلة هو الميزة الحقيقية وإنما كان بما يُشبه ذلك."
 قال الشاب: "هذا لو كان ذلك يعتبر من الفضی، لكن لو عدنا إلى النقطة الرئيسية يا جدّي وهي كيف سيجد المرء السعادة لو كان عليه أن يناضل طوال حياته وأن يدقق في كل نبضة طبيعية في حياته؟"

قال جدّه: "توقف هنا ألفرد! نحن نخمد ونقمع فقط التيارات التي تمنع عنا المشاعر النبيلة والسعيدة ومصادر الخير والنقاء في نفوسنا والتي تمنعها من التفجّر دون قيود... صحيح أن علينا أن نكافح باستمرار فلم لا نقرّ بذلك؟ لكن هذا لا يستمر إلى الأبد فلا بد أن تكون هناك أوقات من البهجة تُنعش حياتنا. بهجة من نوع رفيع... بهجة بريئة براءة الطفولة... بهجة أشبه بالبهجة التي تغمر نفس المجاهد في ساعات الراحة والسكينة بحيث تجعله يرفع نظره إلى السماء وإلى الله - تعالى - ويشكره على ما أنعم به عليه."

كان ألفرد في ذلك الوقت يُمعن النظر بالطلعة النبيلة البهية للمتحدث. امتلاً قلبه بانفعال لم يعلم ما كنهه. كانت الابتسامة الملائكية للرجل العجوز قد اخترقت أعماق قلبه. كانت الطيبة تقف أمامه بكل ما فيها من القدرة على التأثير و كان بذلك قد استسلم لتلك المشاعر بكل احترام.

كم بدا له كل ما كان يتوق إليه ويتطلع لتحقيقه تافهاً في تلك اللحظة!... أخذ يفكر ملياً بما نرّ به ذلك المخلوق الوقور... ذلك المخلوق المستقيم الذي يتمتع بقدر كبير من العزيمة، وبما كان قد سكن قلبه النبيل ما جعل بإمكانه أن يعانق العالم بكامله. تذكر سنوات المعاناة الشديدة التي احتملها ذلك العجوز بكل صمت وجلادة من الناحيتين النفسية والجسدية، ثم استرجع أيضاً الأوقات التي كان فيها ذلك القلب الذي أصبح الآن هرمًا أكثر صدقًا وأكثر بهجة حتى مما كان عليه قلبه الفتى.

كان الاثنان قد غرقا في أفكارهما بصمت. كان من الجليّ من حالة التأمل التي بدت على ملامح ألفرد بأن تلك المرارة التي كان فيها قد حلّ محلّها الكثير من الإحساس الرقيق الصادق الذي كان يهذى به في كثير من الأحيان والذي كان يقمعه في سره ويثور عليه. كان جده قد استطاع أن ينتصر عليه ويدفعه إلى الأمام.

وكان قد عاد يفكر ويُمعن النظر في كل نقطة كان حديثهما قد دار حولها. كان وقع ذلك عليه وتأثيره قويًا جدًّا، لكنه ظل صامتًا تمامًا.

كان ألفرد قد انتظر إلى أن يجرب مقدرته قبل أن يتحدث عن قرارات أفضل ولم يكن ذلك بالقليل من الجهد. وكان قد شعر بأن تغييرًا قد حلّ في نفسه بحيث تحولت من الأنانية إلى نوع من المحبة والرفق الملائكي. وبأن محبة الكون قد بدأ تحلّ في نفسه وبدأت نبزغ وتتفجر في روحه شيئًا فشيئًا وبأنه قد بدأ الآن يتوجه نحو النور...

اتضح أمامه ما عليه من واجبات كشخص مسؤول، وكانت قد صدرت عنه الألم من اللوم لنفسه عما كان منه في الماضي. كانت الرؤى الساطعة للبهجة قد كلّت نظرتيه وكان قد شعر بوخز قاس من الألم. فكر بأنه خسر قدرته على التحكم بتلك الأمور التافهة التي كانت تشغل مُخيلته وبأنه كان قد أضاع ساعات وساعات بالاستماع والصخب وبالأحلام الثملة السامة التي كانت قد أغلقت أمام عينيه عالم الواجب. شعر بضعفه لكنه قرر ألا يفكر بذلك.

كانت نسيمات المساء العليقة النهار، تلك الأمسية بعد حرارة شمس النهار، وبذلك كان جده قد دخل إلى المنزل مع ألفرد الذي كان بعد فترة قصيرة قد استأذن جده ثم غادر.

وكان ألفرد قد توجه على الفور إلى غرفته وتناول نسخة الكتاب المقدس الذي كانت والدته قد منحه له منذ كان طفلًا أخذ يُقَلِّب الصفحات. وقعت عيناه المقدسة - من العبارات المقدسة - أخذ يقرأ ويقرأ تلك العبارات التي هي في غاية القدسية والروعة، تلك العبارات التي لم يسبق له أن تمعّن بها والتي لم يكن لها ذات التأثير القوي الحائي على نفسه...

بكى وبكى وبذلك كان ما كان في نفسه قسوة قد تلاشى، ثم بدأ يُصلي وشعر بأن الملائكة قد جعلت روجه تسمو. كانت تلك الرعدة من الشكر لله - تعالى - في غاية الرقة ما جعله يشعر بالسكينة في نفسه... لكن علينا أن نقول أيضًا بأن من المعروف أن الأشخاص الذين لديهم مزاجهم الخاص والذين هم من النوع المتحمس يقعون عادة في الإفراط.

وتلك كانت حالة ألفرد الذي كان قد بدأ يخشى أن يعود من جديد فريسة لمشاعره السابقة، وبذلك أصبح يلتزم الحرص وكان يحترس أشبه بشخص ناسك... كان ألفرد ولدة ثلاثة أشهر قد امتنع عن الاختلاط بأحد، وحتى عن الاستمتاع أحلامه الحياة... كان يمضي وقته بقراءة الكتب العلمية والدينية، وحتى أنه لم يعد يسمع أو يقرأ الشعر لكي لا يجعله ذلك ينصرف من جديد إلى أحلامه وإلى تأملاته الأنانية.

لاشك أن ذلك الانضباط كان جيداً بالنسبة إليه في ذلك الوقت لأنه كان قد منحه المقدرة على مقاومة تصرفاته الخاطئة وعلى تقويم العيوب المخزية في شخصيته، لكن ذلك لم يكن ليُدْم طويلاً دون أن تكون له أيضاً بعض الآثار السلبية الأخرى... ربما كان ألفرد خلال تلك الفترة وفي ذلك الوقت قد شعر بأكبر قدر من السعادة وأكثر من وقت في حياته. كان ذهنه وتفكيره مركزاً على هدف واحد كما كانت الكثير من الأفكار الأخرى قد بدأت تحتشد في ذهنه. كان يشعر بالبهجة وبثوب من التفاخر لما أصبح لديه من مقدرة على ضبط نفسه.. كما كان قد بدأ يشعر باللامبالاة بكل ما كان يهتم به سابقاً. كان الجمود قد حلّ على كل ما كان يسعى إليه سابقاً، لكن كآبة شديدة كانت قد غمرت نفسه أيضاً... كان ذات مساء قد ذهب إلى منزل جده وهو يتطلع إلى حوار مع ذلك الرجل السعيد ما سيجعله يكتسب المزيد من الصحة النفسية...

كان جدّه لحسن حظه جالساً بمفرده يقرأ، وكان بذلك قد استقبله بكل حبور وبابتسامة محبة وقال:

"حسناً سعيد لأنك جئت لزيارتي."

كان قد لاحظ التغيير الكبير الذي طرأ على حفيده البائس وكان قد تبين له أيضاً مدى الكآبة التي كانت ترتسم على مَحياه. وبذلك كان على أمل أن يكتشف السبب، قد أضفى المزيد من المودة على أسلوبه في التحدث إليه غير ألفرد قد أبدى بعض الملاحظات العادية بطريقة الضجر المعتادة لديه ثم قال دون أية مقدمات:

"أنا مكتئب جدًا با جدّي وأكثر من أي وقت مضى وليس بإمكانني تفسير السبب في ذلك، كان لحديثك الجدّي الأخير معي تأثيره الكبير عليّ، وكنت لمدة طويلة قد شعرتُ على غير العادة بالكثير من البهجة ومن قوة الإرادة. كان ذلك كما لو أن شيئاً قد تسرّب إلى روحي، وبذلك كنتُ قد شعرت بالسرور على أمل إعادة إصلاح نفسي والانفتاح على حياة جديدة بعون الله.

كان قد بدا لي كأن الله - تعالى - قد أنزل السكينة على روحي القلقة لكي أشعر بالراحة. كنتُ قد حاولت الاقتراب من الله - تعالى - لكنني مع ذلك كنتُ أخشى على نفسي من الغواية. ابتعدتُ عن أية مغريات وابتعدت عن المجتمع الذي كان لا يتناسب مع وضعي النفسي. وكنتُ بذلك قد شعرتُ لمدة طويلة بالسعادة لكن كم كان حزن الفتور و اللامبالاة قد غمرني أيضًا."

قال الجدّ: "بُنّي! عليك أن تسعى لاحتمال هذا الوضع النفسي الذي لابدّ أن ينتهي بعد فترة. كما أن عليك أن اعلم بأنه ليس علينا أن نهرب دومًا من الإغراء بجميع أشكاله، وإنما علينا أن نحمي أنفسنا من هجماته وإلا فإن الفائدة التي سنجنيها سوف تكون أقل بكثير...

لو كان الذين يسعون لإصلاح أنفسهم يفعلون ذلك بمجرد الابتعاد وبتجنب المجتمع، فسوف يصبحون مثالاً للأناية أكثر من كونهم مثالاً للطيبة... نحن بحاجة المجتمع كما أن المجتمع بحاجة إلينا أيضًا مهما كنا متواضعين... نحن بحاجة للانتعاش بقوة الطيبين منهم؛ لذا علينا نحن أيضًا أن نساهم بدورنا بأن يستفيد منا من يشاء الله أن نقدم إليهم العون...

وبذلك سوف نقرب أكثر من خلود الحياة الأبدية وسوف نُنمي المقدرة في قلوبنا... ألفرد! استمر في مسيرتك ألفرد دون أن تُلْقَ بالاً إلى مشاعرك وابتهل فقط إلى الله - تعالى - أن تكون مفيدًا للآخرين.

قال الشاب بحماس:

"نعم، فلا بد أن يخترق الضياء الظلام، وأنا سعيد لأنني تحدثت إليك با جدّي لأن كلماتك منحنتني قوّة المثابرة، فلم أكن قد أدركتُ قطّ بأنني بهذا الضعف إلا مؤخرًا."

قال الجدّ: "هذه المعرفة ثمينة يا بُني العزيز فنحن بالفعل نصبح أكثر مقدرة عندما نكتشف أنفسنا بالتواضع."

قال ألفرد: "لابد أن الأمر كذلك، لكن لم يكن بإمكانني أن أدرك ذلك. كنتُ قبل اليوم أنظر إلى المستقبل وأرى أمامي آلاف المواقف التي قد تتكرر فيها أخطائي، وأجد نفسي غير قادر على الدوام على اتباع المبادئ السامية التي كنتُ مؤخرًا قد اخترتُ التمسك بها."

قال الجدّ: "سوف يأتي اليوم الذي تتمكن فيه من ذلك. عليك أن تكون حذرًا أمام أية عقبات، وسوف تجد بأن ما كنتُ تعتبره صعودًا لجبال شاهقة قد أصبح بالنسبة إليك سهوًا. لا تخش مطلقًا من المستقبل وقم بكل ما بإمكانك في الحاضر."

قال ألفرد: "ربما من الغريب ربما ينتابني مثل هذا الشعور وأنا أبذل كل ما بإمكان أي كائن أن يبذله لتغيير وجهات نظري الخاطئة وأن أتقبل كل التدابير الإلهية بقلب مؤمن وبالرضى، وقد طردتُ من نفسي التفكير الأناني بالسعادة الدنيوية بقدر ما بإمكانني ذلك."

قال الجدّ: "لكنك مع ذلك تشكو من الكآبة وأنت غير مسرور بما تفعله." قال ألفرد: "ربما... لا... فأنا لا أزال أعتقد بأن بإمكانني أن أخضع بكل جلادة إلى ذلك الاختبار، لكن يبدو أن هناك سببًا بسيطًا لشعوري بالإحباط. هل شعرتَ بذلك ذات يوم يا جدّي؟..."

قال الجدّ: "نعم. وفي كثير من الأوقات. لكنني كنتُ دومًا أحاول أن أكرس نفسي أكثر من أي وقت لما يزيل تلك الأفكار عن ذهني."

قال ألفرد: "أشكرك يا جدي." قال الجدّ: "أنت فتى صادق يا بني."

وكان ألفرد قد غادر منزل جده وهو يشعر بالكثير من الراحة النفسية وبالسلام والسكينة. كانت الآمال المشرقة قد بدأت تملا نفسه من جديد، كما بدأ يرى بأكثر من الوضوح طريقه في الحياة وبذلك كان قد قرّر الاستسلام للمقدر بكل امتنان...
مرت سنوات أربع كان ألفرد خلالها مُنشغلاً لكنه لم يكن قد ابتعد عن جدّه وإنما كان يسعى لأداء واجباته.

ثم كان ذات ليلة من ليالي الصيف قد ذهب إلى منزل جده تبدو عليه علامات التفكير لكن الهدوء والاستسلام كانا يملآن نفسه. توجه إلى الغرفة الهادئة التي كان جده مُسجى فيها. كان هناك هدوء وصمت جليل ركع ألفرد إلى جانب الرجل المُسجى وضم يديه ثم بكى بدموع العرفان بالجميل. كان يبدو على ملامح ذلك العجوز الطيب صفاء وسكون وهدوء.

قال الجد وقد وضع ألفرد رأس حفيده المُحبب إليه:

"ألفرد! لقد حانت ساعتني ألفرد. وها أنا أغدر الحياة بامتنان. أشعر بأن الملائكة تُحيط بي ليست هناك أية غشاوة أمام عيني. كل شيء واضح أمامي. سوف يكون فراقنا قصير الأمد يا بني..."

وكان صوته قد ارتعش. امتلأت عينا ألفرد بالدموع وقال:

"جدي العزيز! كيف سيكون بإمكانني أن أعبر لك عن مدى امتناني وكيف سيكون بإمكانني أن أردّ لك إليك كل ما زودتني به من دروس نبيلة في هذه الحياة؟"

قال الجد: "لقد حصلتُ على مكافأتي لأن ما علّمته لك من دروس في الحياة أتت ثمارها، وقد امتد بي العمر كي أرى ذلك لنفسني. أنا أثق بأنك سوف تكون دوماً بهذا الطهر والنقاء، وأنا أباركك وأهنئك على ذلك يا بني."

ثم كانت عينا الجد قد أغلقتا إلى الأبد...

كان الشاب قد تابع حياته وهو يطبّق ما تعلمه من جدّه من ضبط للنفس ومن حسن سلوك بأكثر مما تكون أي عين رأت...

كيف يمكن للمرء أن تجنب الشجار

قال إدغار هاريس لشقيقه الأصغر بأسلوبٍ آمر: "بيل! تعال إلى هنا. أعطني المجرفة فقد نسيْتُ مجرّفتي في المنزل." وبذلك أجابه وليم بذات الأسلوب غير الودي الأمر الذي كان شقيقه قد تحدث به إليه عندما طلب منه إعطائه المجرفة: "لا. لن أفعل ذلك! اذهب واجلبها بنفسك من المنزل."

قال إدغار من جديد: "لستُ أرغب بالذهاب الآن إلى المنزل. أعطني المجرفة ألم تفهم ما قلّته لك. أريد استعمالها لدقيقة واحدة فقط." أجاب وليم: "لستُ أرغب بإعارة مجرّفتي أو إعطائها لأحد. اذهب بنفسك وأحضر مجرّفتك."

أجاب إدغار بغضب وهو ينهض ويتوجه نحو المنزل لكي يجلب مجرّفته: "لا يخطر ببالك بعد الآن أن تطلب مني أية خدمة وطوال حياتك؛ لأنني لن أؤديها لك، فأنت أسوأ شخص رأيته في حياتي."

كان ذلك الحوار غير المناسب للعلاقة بين الأشقاء قد دار تحت النافذة بالقرب المكان الذي كان السيد هاريس والد الولدين جالساً فيه. كان قد سمع كل ما دار بينهما ما جعله يشعر بالحزن. فمن المفترض أن يكون التعامل بين أولاده في غاية اللطف والمحبة. إلا أنه لم يكن قد علّق على الأمر ولم يجعلهما يشعران بأنه سمع تلك اللغة التي تحدث بها كل منهما مع الآخر واطلع على ما جرى بينهما من مشادة في الكلام.

كان إدغار بعد قليل قد عاد وجلس في المكان الذي كانا جالسين فيه وقال: "شكراً لك على عدم إعارتي مجرّفتك القديمة احتفظ بها لنفسك، فلن أستخدمها حتى لو كنتُ ستعطيها لي..." وكان شقيقه وليم قد أجابه:

"يسرني أنك أصبحت بهذه الاستقلالية، وآمل أن تظل هكذا على الدوام."

وكان الشقيقان قد استمرا في إغاضة بعضهما لبعض الوقت.

وفي اليوم التالي كان إدغار يبني بيتاً ببعض أعواد القصب بينما كان ويليم يلعب بالطارة، لكن الطارة قد حادت عن طريقها بالصدفة وسقطت على المنزل الذي كان إدغار يبنيه وبذلك تهدم جزء منه...

كان ويليم على وشك الاعتذار لشقيقه لما حدث دون إرادته، وأن يُعرض عليه إصلاح الضرر لكن شقيقه كان قد غضب جداً. علت الحمرة وجهه لشدة الانفعال وصاح به:

"ألا ترى ما فعلته؟ إن لم تتبعد عن هنا أنت وهذه الطارة فسوف أعلم والدي بأنك فعلت هذا عن عمد."

قال ويليم بلهجة تنم عن السخرية والتحدّي:

"فلتذهب وتستدعيه... هيا افعل ذلك على الفور..."

ظلّ الشقيقان لبعض الوقت يتشاجران ويزمجران أشبه بكلبين مشاكسين ثم بدأ إدغار بإصلاح المنزل الذي كان يبنيه من جديد، بينما استمر ويليم من جديد باللعب بتلك الطارة. كان ويليم يشعر بالكثير من الميل إلى إعادة ما حصل بالصدفة لكي ينتقم من شقيقه على ذلك الأسلوب الحاقد الذي كان قد تحدث به إليه، لكنه نظراً لما كان يتحلّى به من طباع تميل إلى الطيبة والتسامح كان قد نسي ما شعر به من غيظ وعاد للاستمتاع باللعب بتلك الطارة.

وكان السيد هاريس قد شاهد أيضاً ما حدث بين الشقيقين.

كان إدغار بعد مرور يومين قد توجه إلى والده لكي يشكو إليه من تصرفات شقيقه ويليم وقال:

"لم أر في حياتي مثل هذا الفتى المتهور غير المتعاون فهو ليس على استعداد لتأدية أية خدمة لي، فلو حدث وطلبتُ منه أن يُعيرني مجرفته، أو كرتة، أو أي شيء آخر فكل ما يفعله هو أن يرفض ويوجه إلي الكلمات اللاذعة."

قال والده وهو يبتسم بلطف:

"ربما كنت قد طلبت منه ذلك بأسلوب غير ودي. لا أعتقد أن يكون ويليم بطبيعته بمثل بهذا الميل إلى عدم المساعدة، أنا على يقين بأن هناك ما هو خطأ في أسلوب تصرفك تجاهه."

قال إدغار: "لكن أبي! لست أفهم كيف تعتقد بأنني قد أكون قد أخطأت تجاهه!" قال والده: "كان ويليم قد رفض إعارتك مجرفته أمس رغم أنه لم يكن يستخدمها ألم يكن قد فعل ذلك؟" "نعم سيدي."

"هل تذكر كيف كنت قد طلبت منه ذلك؟"

"لا سيدي. لست أذكر الآن كيف كنت قد فعلت ذلك بالتحديد."

قال والده: "حسنًا. حدث أنني كنت جالسًا إلى جانب النافذة وبذلك كنت قد سمعتك عندما طلبت منه ذلك؛ لذا بإمكانني الآن أن أعيد أمامك بالحرف الواحد ما قلتَه. وإن لم يكن بإمكانني أن أحاكي أيضًا نبرة صوتك حينذاك. كنت قد قلت له: "هيا! أعرني مجرتك."

كان أسلوب حديثك مُهيئًا كما كان في نبرة صوتك ما يدعو إلى إثارة الكثير من التوتر... لست أستغرب بأن يكون قد رفض ذلك. لو كنت قد تحدثت إليه بأسلوب ودي لكان قد أعطاك مجرفته على الفور.

عليك أن تدرك يا بُني ألا أحد يتقبل تلقي الأوامر وبمثل ذلك الأسلوب من السيطرة، حتى لو كان ذلك لأداء أي شيء. أعلم بأنك كنت قد تضايقت من ذلك، لكن ويليم كان قد تضايق أيضًا من أسلوب حديثك. حاول أن تصحح خطأك يا بُني، وسوف ترى بأنه لن يكون لديك بعد مدة ما تشكو منه من شقيقك ويليم." كان إدغار قد شعر بالأسف لتعنيف والده له، لكنه بذات الوقت كان قد أدرك بأن ما قاله كان صحيحًا.

وكان والده قد تابع حديثه بالقول:

"عندما تحتاج لأية خدمة من شقيقك عليك أن تتحدث إليه بكلمات طيبة بدلاً من أن تطلب منه ذلك بأسلوبٍ أمرٍ جافٍ وقاسٍ وسوف ترى كيف سيكون على استعداد لتقديم أية مساعدة لك..."

كنتُ قد راقبتُ تصرف كل منكما، وما لاحظتُهُ هو أنك نادرًا ما تتوجه إليه بالحديث بأسلوب ودّي مناسب؛ لذا عليك يا بُنيّ أن تُصلح هذا العيب في شخصيتك وسوف تكونا على أتم وئام... للكلمات الطيبة تأثيرها الأكبر وبألف مرة من الكلمات الجافة القاسية."

عندما كان إدغار في اليوم التالي بحاجة إلى رَفَش من الغرفة الصيفية، كان على وشك أن يقول لشقيقه:
"اجلب لي ذلك الرفش."

لكنه كان قد تحكم بألفاظه وطلب منه ذلك بأسلوب مختلف و بلهجة وألفاظ أكثر لطفًا:

"ويليم، هل بإمكانك أن تجلب لي من الغرفة الصيفية ذلك الرقش الصغير؟"
كان قد طلب منه ذلك بأسلوب لطيف يوحي أكثر بالرجاء وليس بلهجة أمرّة ما جعل ويليم يجيبه على الفور:
"سأفعل ذلك بالتأكيد"

ويسرع إلى الغرفة الصيفية لكي يحلب له الرقش.
كما كان إدغار عندما أعطاه شقيقه الرقش قد قال له: "شكرًا لك."
ثم سأله ويليم: "ألسْتُ بحاجة إلى إناء السقاية؟"
قال إدغار: "أنا بحاجة إليه بالفعل هل بإمكانك أن تحلبه لي وأن تملأه بالماء أيضًا؟"

أسرع ويليم وجلب له الإناء، لكنه كان عندما وقف إلى جانب أحد مشاتل الزهور قد نسي نفسه ووطأ مشتل لأزهار البنفسج.
غضب إدغار وقال له:
"أترى ما فعلته؟ أليس بإمكانك أن تنتبه لخطواتك؟"

وكان وليم قد شعر بأن شقيقه قد أخطأ بحقه تجاهه وبأنه كان قد جرح كرامته بتلك الكلمات التي وجهها إليه بكل قسوة، ما جعله يكاد يدوس بقدميه المزيد من تلك الأزهار لكي يُغيظه، لكنه كان قد كبح غضبه وراجع نفسه وخرج ببطء من الحديقة.

كان إدغار بعد ذلك قد ندم كثيراً على سوء تصرفه وعلى الكلمات القاسية التي وجهها لشقيقه وبذلك قرّر أن يحترس بما يوجهه من كلام عندما يغضب وبأن يكبح جماح غضبه. كان قد أدرك بأن أسلوبه في التحدث إليه بلطف كان له تأثيره الأفضل عليه، وبذلك بدأ منذ ذلك اليوم يرقب تصرفاته.

كان والده عندما شاهد تصرفه قد قال له:

"أترى بُني أثر الكلمة الطيبة؟ عليك ألا تنسى طوال حياتك بأن الكلمة الطيبة لها فعاليتها وتأثيرها الأكبر من الكلمات القاسية..."

وأنتم يا أصدقائي الأعزاء فلتحاولوا جميعاً تجربة هذه الطريقة في تعاملكم مع الآخرين وسوف ترون مدى تأثيرها ومقدار ما لها من نتائج إيجابية...

قابل الشر بالخير

السيد لاوسن والسيد وات جاران يعيشان على بعد مسافة ميل واحد، ولم يكن هناك من يعيش بين المسافة التي تقع بين مزرعة كل منهما. كان السيد وات المستوطن الأول للمنطقة وكان منذ أيام شبابه يحمل الكثير من الكراهية لأعضاء جمعية الكيكرس (وهي جمعية تدعو للسيطرة على النفس وللتعامل الحسن مع الآخرين)؛ لذا كان فعندما علم بأن السيد لاوسن الذي هو رجل ذو مكانة وذو سيرة حسنة قد اشترى المزرعة التي تقع إلى جانب مزرعته، قد قال بأن من الأفضل له أن يغادر إلى مكان آخر...

وبناء على ذلك كان قد بدأ يلجأ إلى ممارسة الكثير من الضغوط و من المضايقات الحقيرة تجاه جاره... وكان الوضع قد استمر بذلك الشكل لمدة تقارب العام كان خلالها السيد لاوسن - الذي هو كما أسلفنا رجل يتصف بالأخلاق الحميدة - قد بدا وكأنه لا يشعر بالضيق من تلك المضايقات التي كان ذلك الجار الحاقد يتعمد القيام بها...

لكن الأمور كانت قد تصاعدت كثيرًا ما جعل السيد وات قد يشعر أكثر فأكثر بالغيظ من موقف لاوسن المُسالِم وبذلك أقسم بأن يقوم بما سيجعل جاره الهادئ الطباع يصبح أكثر عدوانية تجاهه...

كان الحظ قد حالفه فقد كانت لدى السيد لاوسن مهرة ذات أصول عربية عريقة جدًا وكان يوليها كل عناية إلى أن بلغت الأربع سنوات. كان لاوسن يفخر بها كثيرًا، كما كان قد رفض بيعها لقاء مبلغ كبير جدًا من المال.

كان السيد وات ذات مساء بعد غروب الشمس بقليل وهو يمر إلى جانب حقل الذرة قد اكتشف بأن تلك المهرة كانت ترعى في منطقة صغيرة تفصل بين المزرعتين، ولذلك خطرت بباله خطة شيطانية بأن يزيل اثنين أو ثلاثة من قضبان السياج الفاصل بين المزرعتين بحيث تقوم المهرة أثناء الليل لكي ترعى بالدخول إلى مزرعته وكان قد فعل ذلك.

وكان وات في وقت مُبكر من صباح اليوم التالي قد حمل بندقيته وغادر المنزل. ولم يكن قد مرَّ وقت طويل إلا وكان أحد الرجال الذين يعملون في مزرعته منذ مدة قريبة قد سمع صوت إطلاق نار، وكان السيد وات بعد يضع دقائق قد عاد إلى المنزل بسرعة وهو يبدو في غاية الاهتياج يكاد يتوقف عن النفس وكان بعد أن جلس قد قال بأنه أطلق النار على وعمل كان قد هاجمه وجرحه وبأنه استطاع بصعوبة أن ينجو بحياته...

كان الجميع قد صدّقوا تلك الرواية ما عدا ذلك المستخدم الجديد بالنفور والازدراء تجاه سيده وات والذي كان قد ساوره الشكّ من أن يكون في أسلوب تصرفه خديعة ما ما جعله يتسلل بهدوء من المنزل ويتوجه إلى المنطقة التي كان قد تم إطلاق النار فيها وبذلك كان قد شاهد تلك المهرة ممدّة على الأرض وقد اخترقت رصاصة رأسها الذي كانت الدماء لا تزال الدماء تسيل منه بغزارة...

أسرع بالعودة إلى منزل السيد وات الذي كان قد قابله في الساحة وسأله بخشونة عن المكان الذي كان فيه.

وأجابه المستخدم على الفور:

"ذهبتُ لكي أتأكد بأن الرصاصة التي أطلقتها قد قتلت مهرة السيد لوسن..."

كان وجه وات قد شحّب لكنه تماكك نفسه وصاح به بعنف:

"هل تجرؤ على القول بأنني قتلت مهرة السيد لوسن؟"

أجابه الرجل: "وكيف عرفتَ بأنها قُتلت؟"

تردد السيد وات قليلاً ولم يُجب ثم عاد أدراجه إلى المنزل. مرَّ أسبوع دون أن يُكون السيد لوسن قد عثر على المهرة،

كان الرجل الذي يعمل لدى السيد وات قد شاهد السيد لوسن ذات يوم وهو في طريقه للبحث عن المهرة في المناطق المجاورة رغم مضي أسبوع على اختفائها، ما جعله يشعر بالأسف لأجله و يروي له ما حدث لمهرته.

كان السيد لوسن قد عاد أدراجه إلى منزله بقلب مُنكسرًا، وأعلم أزوجته وأولاده بمصير تلك المهرة الصغيرة.

ولم يكن قد صدر عنه مع ذلك ما يشير إلى اتهام جاره بقتل المهرة ولم يكن قد تفوّه عنه بأية كلمات تشير إلى التهديد بالانتقام، كما لم يكن قد لجأ إلى القانون لكي يطالب التعويض عن خسارته للمهرة. كان ما فعله أن انتظر بهدوء إلى أن تحين ساعة المناسبة لاسترداد حقه...

كان السيد وات قد اشترى من أحد القرويين في الفترة الأخيرة بقرة صغيرة لقاء بمبلغ مرتفع من المال وكان يتطلع إلى بيعها من جديد لتحقيق الكثير من الربح. مرّ أشهر دون أن يكون السيد لوسون قد عاد لإثارة الموضوع. وذات يوم بينما كان السيد لوسن جالساً أمام منزله كان ولده الأكبر سنّاً قد ركض إليه مسرعاً لكي يُعلمه بأن بقرة السيد وات قد اخترقت السياج ودخلت إلى الحقل، وبأنها التهمت أكثر ما فيه من نباتات الكُرنب (الملفوف) كما أنها قد سحقت بقوائمها أخاديد الخضار وتسببت بأضرار بالغة من المتعذر إصلاحها.

وكان السيد لوسن قد سأله بهدوء:

"وما الذي فعلته بها؟"

أجاب الابن: "طردها من الحقل."

سأله والده من جديد: "هل ضربتها بالعصا؟"

أجاب الابن: "لا أبي لم أضربها ولا حتى ضربة واحدة." حينئذ أجابه والده: "حسنًا، حسنًا، فعلتَ خيرًا اجلس الآن وتناول إفطارك معي، سوف أتولى معالجة أمر تلك البقرة بنفسي."

وكان السيد لوسون بعد انتهاءهما من تناول الإفطار قد امتطى جواده وبرفقه ولده وذهبا معاً إلى منزل السيد وات الذي كان جالساً أمام منزله.

كان السيد وات عندما شاهدهما قد اعتقد بأن جاره جاء لكي يطالبه بالعتل والضرر وكان بذلك قد أقسم بينه وبين نفسه بأنه لن يدفع له دولارًا واحدًا وبأنه سوف يجعله يلجأ للقانون لأجل ذلك.

قال لوسن وهو يترجّل عن الجواد ويجلس إلى جانبه:

"عمتَ صباحًا سيد وات كيف حال العائلة؟"

أجابه جاره: "أعتقد بأنهم على ما يرام"

قال لوسن من جديد:

"لديّ موضوع صغير أود أن أسوّيه معك هذا الصباح؛ لذا ربما كنتُ قد جنّثُ إليك
باكراً."

قال وات بجفاء: "أعتقد ذلك."

قال وات: "كان ولدي قد شاهد بقرتك هذا الصباح ترعى في حديقتي وكانت قد
تسببت بالكثير من الأضرار في المزروعات."

قال السيد وات قد بدا عليه القلق: "وما الذي فعله بها؟"

سأله لوسن: "ما الذي كنتَ ستفعله لو أن بقرتي كانت قد دخلت إلى مزرعتك؟"
قال وات بخشونة: "النار... سأطلق عليها النار." ثم أضاف: "أعتقد بأنك فعلتَ
ذلك لقاء خسارتك مهرتك... ها قد تعادلنا الآن وأصبحنا على قدم المساواة: بقرتي
لقاء مهرتك."

قال لوسن: "لا ياجاري... لا... أنت لا تعرفني على ما يبدو، فأنا لن أفكر مطلقاً
بإيقاع الأذى بك، كما لم أقم بلمس شعرة من بقرتك. هي الآن لا تزال في حقلي ولم
يقم ولدي حتى بضربها حتى ضربة واحدة بالعصا كما أنني لم أطلق عليها النار
كما فعلتَ أنت بمهرتي وبإمكانك استعادتها متى شئت... كنتُ أعلم بأنك أطلقت
النار على مهرتي ولا بد أنك فعلتَ ذلك لأن الشيطان كان قد أوعز لك بأن تفعل ذلك...
أما أنا فلستُ ممن يحملون الضغائن في قلوبهم على جيرانهم، وقد جنّثُ لكي أعلمك
فقط أين بإمكانك أن تعثر على بقرتك وسوف أغادر الآن..."

كان السيد وات إثر سماعه ما قاله جاره الطيب المتسامح قد نهض على الفور
وسأله:

"كم كانت مهرتك تساوي؟"

أجاب لوسن: "كانت تساوي مائة دولار."

وبذلك كان السيد وات قد أسرع إلى منزله ثم عاد بسرعة وهو يحمل المبلغ... ناوله
إلى جاره وقال:

"هذا المبلغ لقاء ثمن... مهرتك! ولتكن العلاقة بيننا منذ الآن بكل وفاق وسلام."
أجابه لوسن وهو يتناول المبلغ من يده بكل رضى وسرور:
"وليلحّ الوئام والسلام بيننا من الآن فصاعدًا"، وبعد قد امتطى جواده وعاد إلى منزله بقلب مُفعم بالرضى.
أما السيد وات فكان منذ ذلك اليوم قد أصبح جازًا طيبًا، وبعد أن قد أصلح نفسه وتخلّص من ذلك الحقد...
ربما كان على كل منا أن يتبع هذا الأسلوب في التعامل بأن يقابل دومًا الشر بالخير ومن المؤكد أنه سوف يكون بذلك أكثر سعادة...

أهمية وعد الأم

كانت تلك السيدة إيبرت على وشك مغادرة منزلها للقيام ببعض الزيارات عندما ركض إليها طفلها الصغير من غرفة الأطفال وقال لها وقد أمسك بإحدى يديها بين يديه الاثنتين وهو ينظر إلى وجهها نظرة تضرع أسرة: "أمي، أمي الغالية! ألن تشتري كتابًا مصورًا مثل الكتاب الذي اشتراه عمي لابنه إيدي؟"

قَبِلَت الأم وجه الطفل اللطيف وقالت له دون تردد: "بالطبع حبيبي!"، ثم أضافت: "لابد أن إيدي طفل جيد يُطيع مربيته أثناء غياب والدته."

أجاب الطفل بكل اهتمام الطفل بما يرغب به: "سوف أكون كذلك أمي. وبإمكانك سؤال المربية لدى عودتك إلى المنزل إن لم أكن قد تصرفْتُ كأفضل طفل في العالم."

قبلت السيدة إيبرت ولدها العزيز من جديد، ثم ذهبت إلى زيارتها الصباحية، وكان الطفل قد عاد إلى غرفة الأطفال وقد عقد العزم على أن يفي بوعدته لوالدته وبأن يكون طفلًا مطيعًا. وقال لمربيته:

"سوف تجلب لي أمي أجمل كتاب مصور. سوف يُسعدني كثيرًا الحصول على ذات الكتاب المصور الذي حصل عليه ابن عمي إيدي. كنتُ أرغب دومًا بالحصول على مثل ذلك الكتاب. أليست أمي طيبة جدًا؟"

أجابت المربية: "نعم بُني، والدتك طيبة جدًا وعليك أن تحبها جدًا وأن تُنفذ كل ما تطلبه منك."

أجاب الطفل: "أنا أحب أمي بالطبع، أحبها أكثر من أي شيء في هذا العالم، وسوف أفعل كل ما تطلبه مني وسوف أهتم بكل ما تقوله وأعمل به."

ثم انصرف الطفل للعب. كان يشعر بالسعادة بألعابه. لكن أفكاره كانت تهيم في ذلك الكتاب المصور الذي سيحصل عليه.

ثم اقترب من مربيته بعد ساعة وسألها:
"ألم يحن الوقت بعدُ لعودة أُمي؟"
أجابت المربية: "لا يا طفلي، فلم يمرّ وقت طويل بعد على ذهابها."
نظر الطفل بخيبة أمل إلى الباب، وكان الباب قد قُرع بعد لحظة وبذلك قال الطفل
وهو يُصفق بيديه:
"ها هي أُمي"
وكان قبل أن تتمكن المربية من منعه قد هرع راکضاً إلى الباب. لكنه كان قد عاد
بعد وقت قصير تعلو وجهه الجميل نظرة خيبة أمل ودخل غرفة الأطفال وقال:
"لم تكن تلك أُمي وإنما هو أحد الباعة المتجولين."
قالت المربية:
"لن تعود والدتك قبل مضي وقت طويل؛ لذا ليس عليك أن تتوقع عودتها الآن،
حسنًا، عليك الآن أن تستكمل بناء تلك البيوت الصغيرة بالألعاب."
قال الطفل الصغير:
"لكنني تعبتُ من ذلك ولم يعد بإمكانني أن أفكر بأي شيء آخر بعد أن وعدتني أُمي
بجلب ذلك الكتاب المصوّر."
قالت المربية بشيء من التوتر:
"حسنًا، سوف تعود والدتك في الوقت المناسب. حاول ألا تفكر حاليًا بذلك الكتاب،
فلن يجعلها ذلك تعود بوقت أبكر."
أصرّ الطفل الذي كانت مُخيلته أوسع من مداركه:
"ليس بإمكانني أن أمتنع عن ذلك لأنني أفكر بالكتاب المصوّر الذي سوف أحصل
عليه بعد قليل."
وكان قد حدث بعد فترة بسيطة ما جلب اهتمامه وبذلك كانت ساعة أخرى قد
مرّت قبل أن يكون قد عاد إلى سيرة الكتاب المصور الذي ستجلبه له والدته. كانت
المربية قد بذلت كل ما بإمكانها لكي تصرف انتباهه من جديد إلى حدّ ما عن
الموضوع بأن جعلته ينشغل لبعض الوقت بما لديه حوله من ألعاب.

ثم حان الوقت أخيراً لعودة السيدة إيرت وبذلك توقف الطفل عن الاهتمام بأي شيء بإمكانه أن يلفت انتباهه وكان قد ذهب إلى بهو الطابق السفلي حيث يقع مدخل المنزل وجلس هناك أمام النافذة بانتظار عودة والدته.

قد يستغرب القارئ بأن تكون السيدة هيربرت قد نسيت على الفور من اجتيازها باب المنزل كل ما يتعلق بوعدا لطفلها بجلب ذلك الكتاب المصور. ليس لأنها لم تكن تأبه بسعادة طفلها، وليس لأنها امرأة وأم عديمة الشعور لا... كان الأمر أبعد عن ذلك بكثير، كانت تحب طفلها كثيراً وتهتم بإسعاده بشكل كبير، لكن أفكارها كانت قد شُغلت بأمور أخرى ما جعلها تغفل عن تضرع طفلها بشأن ذلك الكتاب المصور، وتنسى وعدها المقدس له ثم كان قد خطر ببالها بأن طلبه لذلك الكتاب المصور لم يكن سوى تعبير عن فكرة مفاجأة كانت قد خطرت بباله.

لكن وعدها له لم يكن جزافاً وكانت تعتزم بالفعل أن تحقق رغبة طفلها؛ لأنها كانت نادراً ما ترفض لطفلها أقلّ الرغبات طالما كان بإمكانها أن تحققها له. كانت قد علمت بأن ابن عمه إيدي كان قد حصل على كتاب مُصور جميل؛ لذا كانت تفكر بشراء كتاب مماثل لطفلها وكان طلب الطفل لذلك الكتاب قد جاء مُطابقاً لما كانت تفكر به وبذلك كانت تنوي بالفعل أن تفي بوعدا له.

لكن بعض الأمور الأكثر أهمية من تلك الرغبة البسيطة لذلك الطفل كانت قد شغلت تفكيرها منذ مغادرتها باب منزلها، ما أدى إلى ألا تخطر ببالها تلك الفكرة من جديد، إلى أن شاهدت وجه طفلها المُحبب الذي كان ينتظرها أمام النافذة.

كان تعبير وجهه جدياً وينم عن بعض القلق كما لو أنه كان قد تعب من الترقّب والانتظار، لكن وجهه كان قد أشرق على الفور عندما وقع نظره عليها. ركض وفتح باب المنزل على مصراعيه حتى قبل أن تكون قد وضعت يدها على الجرس ثم وثب أمامها بكل بهجة وسألها:

"أين الكتاب المصور أمي؟ أعطني كتابي أمي! أنا سعيد جداً بعودتك!"

لاشكَّ أن اقتناع المرء بخطئه لابد أن يكون له تأثيره المعاكس ما قد يؤدي إلى اضطراب الذهن، وبالتالي إلى حجب المدارك، وبأنه قد يقود المرء أحياناً إلى ارتكاب أخطاء أكبر دون أن يعي ذلك...

كان ذلك هو الموقف الذي كانت فيه تلك الأم وبذلك لم يكن تعبير السرور على وجه الطفل، قد جعلها تبتهج لأنها كانت قد أدركت بأنها بذلك قد حطمت كل ما كان لدى ذلك الطفل من توقّعات بهيجة. كما تذكرت أيضاً في تلك اللحظة بأنه سوف يكون من العسير أن يحتمل طفلها خيبة الأمل تلك؛ لذا كانت أمسكت بيد الطفل الصغيرة وقالت له:

"دعني أقول لك شيئاً حبيبي!"

وكانت لهجتها الجدّية تلك قد جعل الرعدة تسري داخل الطفل الذي كان قد فهم جيداً بأن والدته، التي كان قد وثق بوعدها له ثقة مطلقة، لم تكن قد وفّت بوعدها له. كان وجه ذلك الطفل المسكين قد شحّب لمجرد توقعه ما حدث كما امتلأت عيناه بالدموع.

كانت السيدة إيبرت فور دخولها بهو المنزل قد جلست على أقرب كرسي وأجلست طفلها إلى جانبها. كانت قد شاهدت بالطبع ما ارتسم على وجهه الحزين ما كان يستدعي ألا تقول ما يشير إلى أن الكتاب المصور الذي وعدته به لم يكن بحوزتها، كما أنها كانت تعلم من مواقف أخرى مرّت بها بأن هذا الأمر سوف يتسبب بإشكال وبذلك كان توترها قد تزايد نحو طفلها قالت بحزم ولكن بأكثر ما بإمكانها من حنان بذات الوقت:

"حبيبي! أنت تعلم بأنك وعدتني بأن تتصرف بشكل جيد."

رفع الطفل عينيه الدامعتين إليها وأجابها بحماس:

"لكنني فعلتُ ذلك أُمي وبإمكانك سؤال المربية كيف أنني كنتُ قد تصرفتُ طوال فترة غيابك بشكل جيد جداً."

قالت الأم التي تأثرت جداً بالطريقة التي كان الطفل يتحدث بها إليها:

"أنا متأكدة من أنك تصرفت بشكل جيّد لكنني لم أجلب لك ذلك الكتاب المصور..."

بدأت الدموع تنهمر على خدي الطفل وأطلق تنهيدة خافتة أصابت الأم في أعماق قلبها.

قالت بجدية: "حبيبي! دعني أحدثك عن هذا الأمر. يجب أن تصغي إلى صوت العقل."

قال الطفل: "العقل!" فلم يكن بإمكان ذلك الطفل المسكين وهو في تلك السن أن يفهم مثل تلك الحجج العقلانية، وكان قد بدأ يبكي بمرارة. قالت السيدة هيربرت بحزم:

"ماذا الآن! ليس بإمكانني أن أتقبل منك هذا التصرف فلن يفيد البكاء. كنتُ قد وعدتُك بأن أجلب لك ذلك الكتاب المصوّر وسوف تحصل عليه فيما بعد. لم أجد الفرصة لكي أفعل ذلك هذا الصباح. تعال الآن يجب أن تتوقف عن البكاء هكذا وإلا..."

ولم تكن السيدة إيبرت قد تفوهت بما كان يدور في ذهنها لأنها كانت تكره مجرد فكرة معاقبة طفلها خاصة وأن ما يفعله كان نتيجة لتصرفها هي. ولكن بما أن الطفل كان قد استمر بالبكاء وبصوت أعلى، فلم تكن قد بدأت فقط تشعر بالكثير من التوتر والانزعاج، وإنما كانت قد اعتبرت بأن من واجبها أن تُجبره على التوقف عما لن يفيده وبما سيتسبب له بالأذى.

وبذلك كانت صرامتها قد تحوّلت إلى قسوة وقالت:

"بُني، يجب أن تتوقف عن البكاء."

لكنه لم يكن قد توقف عن البكاء.

وبذلك كانت لهجتها قد أصبحت أكثر توترًا وقالت بغضب:

"أنت لا تريد إذن أن تتوقف عن البكاء!"

وكانت قد أمسكت بذراع الطفل بقبضة قوية.

وفي تلك اللحظة سُمع صوت فتح الباب الخارجي، ثم دخل السيد إيبرت إلى البهو،

فقد كان ذلك موعد تناول العائلة للعشاء وقال على الفور من دخوله:

"ما الذي يحدث هنا بحق الله؟ ما هو الإشكال؟"

قالت السيدة إيبرت بصوت نكد:

"كنتُ قد وعدتُه بأن أشتري له كتابًا مصورًا وحدث أن نسيْتُ ذلك."

قال السيد إيبرت بمرح:

"أهذا كل ما في الأمر؟ بإمكاننا أن نحلّ هذا الإشكال بكل سهولة. تعال حبيبي!

دعني أرى ما الذي بإمكانني أن أفعله لأجلك."

وكان قد أخرج من جيب سترته رزمة صغيرة مربعة الشكل، وبدأ بفكّ الخيط الذي رُبِطت به. توقف الطفل عن البكاء خلال لحظة، كما لو أن قوس قزح كان قد لمع أمام عينيه بين تلك الدموع. كان كتاب صغير قد ظهر للعيان، كان ذلك هو الكتاب المصور بعينه... كان السيد إيبرت قد شاهده ذلك الصباح بالصدفة في أحد المتاجر، ووجد بأن طفله سيُسعده الحصول عليه، وبذلك كان قد اشتراه للطفل.

سأل الأب طفله: "هل يصلح هذا الكتاب؟"

كانت الفرحة قد انتشرت على وجه الطفل. وقف لبعض الوقت كالمذهول ثم أحاط عنق والده بذراعيه وضمّه بقوة وقال له بكل ما في قلبه من محبة وامتنان: "أبي! أنت أفضل أب في الدنيا وأنا أحبك جدًّا!"

أما السيدة إيبرت فكانت قد خرجت من الغرفة بينما كان الطفل بين ذراعي والده. وعندما اجتمعت العائلة من جديد على مائدة العشاء، كانت تلك الأم تبدو حزينة كما كان هناك ما يشير إلى أنها كانت قد بكت.

ترى ما الذي كانت تلك الأم تفكر به؟... لاشكّ بأن بإمكان أي أمٍّ مُحبة أن تُدرك ذلك! كانت بالطبع قد أسفت للغاية لأنها خيّبت أمل طفلها ولم تكن قد وفّت بوعداها له...

وبذلك كانت السيدة إيبرت بعد ذلك تحرص كل الحرص على الوفاء بأية وعود تلتزم بها أمام طفلها مهما كانت تلك الوعود تافهة ومهما كان لديها من مشاغل...

أليس واليمامة

أليس فتاة صغيرة طيبة جدًا رقيقة المشاعر يُحبها الجميع.
كانت أليس ذات ليلة مظلمة شديدة البرودة من ليالي الشتاء قد سحبت ستائر نافذة غرفة نومها وأخذت تنظر إلى السماء. كان القمر مُستترًا وراء ركام من السحب لكن بعض النجوم الصغيرة كانت تُطلّ بضعف هنا وهناك من خلف الغيوم، وكانت الأشجار في الحديقة المظلمة الرطبة تبدو أشبه بظلال داكنة.
بدت علامات التأثر الشديد على وجه أليس اللطيف الرقيق وقالت بعد أن أسدلت الستائر: "يا للطيور المساكين! لابد أنها الآن تشعر بالبرد."
أجابتها والدتها وهي تبتسم:

"لا تقلقي حبيبتي على الطيور! الطيور في أمان لأن الله - تعالى - قد هيا لكل طائر المكان الذي يأوي إليه. كل منهم يعرف تمامًا أين عليه أن يجد ذلك المأوى، لكن وعلى كافة الأحوال، لن يبقى الكثير منهم هنا في فصل الشتاء، سوف يطفرون إلى الجنوب المُشمس حيث الهواء الدافئ والأشجار الخضراء المثمرة."
قالت الطفلة البريئة:

"وهذا لأن الله - تعالى - رؤوف ورحيم جدًا أليس كذلك أمي؟"
ثم ركعت وبدأت تدعو الله بحرارة بأن يشمل برحمته كل شخص في العالم، وأن يجعل الملائكة ترعاها أثناء نومها، وكانت بعد أن قبلتها والدتها قد غرقت في النوم وفي الأحلام البريئة.

وفي صباح اليوم التالي كانت أليس عندما فتحت ستائر نافذتها قد شاهدت أمامها مشهدًا في غاية الروعة والغرابة!... كان الثلج قد سقط أثناء الليل وبذلك كان كل شيء قد اكتسى بجلّة ناصعة البياض تكاد تُبهر الأبصار. لكن السماء كانت على مرمى النظر مشرقة بلون أزرق صافٍ. تحت أشعة الشمس التي كانت قد بدأت تبزغ وتُسقط أشعتها الدافئة على الحقول وعلى الأشجار بحيث بدا كل شيء مُضيئًا لامعًا وكأنه اكتسى باللآلئ...
...

وكان نظر أليس بعد أن تأملت ذلك المشهد الرائع للحظة ولحظتين، قد وقع فجأة على مشهد لم تكن تتوقعه، كانت قد شاهدت في إحدى زوايا الجزء الخارجي من النافذة يمامة صغيرة رابضة إلى جانب اللوح الزجاجي للنافذة. كان جسمها بالكامل يرتجف لشدة البرد، وقد دسّت رأسها بين ريشها، لكنها لم تكن تبدو خائفة من أليس رغم أنها شاهدتها تنظر إليها عن قرب.

قالت أليس بصوت رقيق يملؤه الإشفاق وهي تفتح النافذة برفق لكيلا تُخيف تلك اليمامة وتجعلها تطير:

"يا لليمامة المسكينة! لا تخافي يا يمامتي العزيزة."

ثم ابتعدت عن النافذة ووقفت ترقبها لكي ترى فيما إذا كانت ستدخل إلى الغرفة. كانت اليمامة قد رفعت رأسها ببعض الخوف، ثم استدارت على جنبها من طرف آخر ببعض الخوف، لكنها بعد أن نظرت إلى الغرفة الدافئة في البداية ثم إلى الأرض التي تكسوها الثلوج، كانت قد وثبتت إلى عتبة النافذة ومنها إلى داخل الغرفة وحطّت هناك على الأرض.

هتفت أليس برقة:

"يا لها من صغيرة لطيفة!"

ثم ارتدت ملابسها بسرعة وذهبت إلى المطبخ. أحضرت بعض كسرات الخبز وبعثرتها على الأرض إلى جانب اليمامة. وكانت اليمامة قد التقطتها ثم طارت على الفور ووقفت على عتبة النافذة، وكانت بعد أن نفشت ريشها وقد بدأت تهدل كأنها تشكر صديقها الصغيرة، وكانت قد طارت من جديد وتوجهت نحو الشمس الساطعة في الخارج.

كانت أليس عندما اختفت اليمامة عن ناظرها قد شعرت بخيبة الأمل وتنهدت قائلة:

"يا للصغيرة البائسة!... لو كانت تعلم فقط كم كنت سأرعاها وكم ستكون آمنة هنا ومقدار ما ستحصل عليه من طعام ومن ماء نقي، لما كانت ستطير من هنا."

وكانت أليس أثناء تناول الإفطار مع عائلتها قد روت لهم ما حدث من زيارة تلك اليمامة. كانوا قد أحسّوا بالكثير من بالبهجة وتحدثوا مُطوّلًا عن مختلف أنواع اليمامات وعن أنواع الطيور، كما كان والدهم قد روى لهم قصة أو قصتين جميلتين عن حياة الطيور، ما أدخل البهجة إلى قلوب الأطفال. كانت والدّة أليس بعد ذلك قد تناولت من المكتبة أحد الكتب التي تحتوي على قصيدة جميلة جدًّا للشاعر ويليم بعنوان (اليمامة الصغيرة) وأعطتها للصغيرة أليس وطلبت منها أن تقرأها وكانت أليس قد قرأتها مرات بحيث حفظتها عن ظهر قلب.

وفي ذلك اليوم كانت أليس قد وقفت عدة مرات أمام باب المنزل، كما كانت تنظر من جميع نوافذ المنزل وهي تأمل أن تشاهد تلك اليمامة من جديد. كان بإمكانها أن تشاهد من حين لآخر أحد الطيور يعتلي سقف أحد المنازل التي كان الثلج قد ذاب عنه بعد أن طارت ذراته في الهواء، لكنها لم تتمكن من أن تتبيّن فيما إذا كان ذلك الطائر هو تلك اليمامة البيضاء التي التجأت إليها والتي كانت قد أطعمتها صباح ذلك اليوم.

لكن أليس كانت قبل غروب الشمس بقليل قد أطلقت صرخة بهجة وفرح، كانت قد شاهدت تلك اليمامة الصغيرة جالسة على نافذة ردهة البيت، وكانت اليمامة تنظر إليها وهي تبدو بائسة جدًّا.

سارعت أليس بفتح النافذة على مصراعيها ثم ركضت إلى المطبخ وأحضرت بعض كِسرات الخبز، وكانت اليمامة لا تزال على طرف النافذة عندما عادت إليها. نادتها أليس بصوت رقيق وهي تمدّ يدها إليها ببعض كِسرات الخبز، لكن اليمامة رغم أنها كانت جائعة لم تكن قد اقتربت من أليس وإنما استمرت بالنظر إليها فقط، كانت تعلم بدون شكّ بأنها الفتاة الطيبة التي أطعمتها في ذلك الصباح، لكنها كانت خائفة بعض الشيء وبذلك كانت خلال لحظات قد طارت من جديد إلى الطرف الخارجي من النافذة...

وبذلك انسحبت أليس قليلًا إلى الوراء واختبأت وراء النافذة وكانت عندما اقتربت اليمامة أكثر فأكثر قد مدّت إليها يدها المليئة بكسرات الخبز، وبدأت اليمامة

تلتقطها بسرعة الواحدة تلو الأخرى، كما كانت عندما اكتفت قد حملت أيضًا في فمها البعض من المتبقي منها ربما لأجل وجبتها المقبلة.
كانت اليمامة أثناء التقاطها كسرات الخبز، تتوقف من حين لآخر وتنظر إلى صديقتها الطيبة وكأنها تقول:

"شكرًا لك على هذا العشاء اللذيذ، أنت فتاة طيبة جدًا..."

وكانت تلك اليمامة بعد أن هدلت لبعض الوقت قد مالت برأسها الجميل أمام أليس، ثم رفعت جناحيها وطارت لكنها لم تكن قد عادت من جديد...

كانت أليس قد شعرت في البداية بخيبة الأمل لعدم عودة اليمامة، لكنها كانت تخلصت من ذلك الشعور وظلّت تشعر بالسرور لما فعلته وقالت لوالدتها:

"كنتُ أتمنى أن أرى تلك اليمامة من جديد لكي أطعمها لكنني أعلم بأنها سوف تكون أكثر سعادة في عشٍّ خاص بها... عشٌّ تنام فيه وتأكل ما يكفيها من طعام بدلاً من أن تجلس على عتبة نافذتي في الليالي التي تتساقط فيها الثلوج. ثم أنشدت: "حطّي على نافذتي أيتها اليمامة الصغيرة الجميلة..."

كانت زيارتك اليومية قد غمرت حياتي بالمحبة والسعادة...

كنتُ كلما سمعتُ أسمع هديك أشعر بأنه يتغلغل إلى أعماق قلبي اليافع...

وكانت بهجتي تتزايد كلما لمحت نظرة الامتنان في عينيك...

لم نطأ الأوراق الميتة؟.. ولم نهجر الغابة ذات الأشجار الجميلة والأزهار النضرة...؟

لم نأوي إلى الشوارع الملهبة بالحرارة وأمامنا الغابة بأشجارها المنعشة اللطيفة؟...

كيف بإمكاننا أن نحتمل كل ذلك الضجيج وذلك الهواء الملوّث؟...

أيتها اليمامة الصغيرة، أنت يا من تنظرين إلى وجه البشر دون خوف... أنت شعار المحبة والثقة والسلام...

أنت أيتها اليمامة اللطيفة هدية مقدسة من الله...

تعالِي إلَيَّ أيتها اليمامة عندما يزول النهار...

تعالى لى تنشرى حولى المحبة والسلام...
تعالى إى لى أستمع إى هدىك الموسيقى الرقىق...
دعىنى أرى فىك عظمة الإله... دعىنى أفهم منك دروس الحىاة..."

مجموعة المقالات والقصص التي تعالج موضوع

الإيمان

الطريق المظلمة

مما قد يبعث عن الحيرة أن تكون السماء مشرقة على الدوام بالنسبة للبعض، بينما قد لا تخلو مطلقاً من سحب الهموم بالنسبة لآخرين... لكن مما لاشك فيه أن هذا الأمر يعود إلى ما علينا جميعاً أن نؤمن به ألا هو: (تدبير العناية الإلهية)

فقد نجد في كثير من الأحيان أن من يتلمسون طريقهم في الحياة بأسى وفي طريق مظلمة، هم الأشخاص الأكثر عطاء ونقاء والأكثر غيرية من الذين يشقون طريقهم في الحياة ببهجة في طريق مشرقة.

تلك هي الأفكار التي كانت تجول في ذهن السيدة إنديكوت كلما نظرت إلى السيدة أدير وهي تشعر بالأسف لما عانتها والذي ما لا تزال تعانيه تلك السيدة من مأس في هذه الحياة...

كانت السيدة أدير في وقت من الأوقات تتمتع بكل ما يمكن أن تُتيحه الثروة للمرء من وسائل الرفاهية، لكنها في الوقت الحاضر فقيرة الحال عليها أن تُعيل خمسة أطفال، وبالإضافة إلى ذلك فقد أصبحت ضعيفة البنية لأنها مُصابة بمرض عُضال. ليس لدى السيدة أدير سوى القليل من الأصدقاء ممن لديهم الاستعداد لإقراضها المال أو لتقديم المساعدة إليها.

لم تكن هناك امرأة أحب زوجها كما كانت السيدة أدير تحب زوجها، كما أن هناك القليل من الزوجات اللواتي أحبهن أزواجهن كما كان زوجها قد أحبها؛ لذا كانت

السيدة أدير - بعد وفاة زوجها - قد التفت بثياب الحداد، واستسلمت لمدة طويلة لحزن غير قابل للعزاء...

كم كانت تلك السيدة رقيقة المشاعر! وكم كانت مُحبة ومِعطاء، بحيث بإمكان المرء أن يقول بأنها بالفعل ومنذ طفولتها كانت أشبه بملاك يمشي على الأرض!.. لذا لم يكن بإمكان السيدة إنديكوت أن تتقبل معاناة السيدة أدير وهذا ما جعل هذه التساؤلات تدور في ذهنها على الدوام:

"مادامت السماء تبتسم دومًا للطيبين، ومادام أن الصادقين المستقيمين لا يمكن أن ينبذوا على الإطلاق، فلم كان قدر السيدة أدير بمثل هذه القسوة؟ لكنها لن تعود وتحدث نفسها من جديد:

"أنا أوّمن بالطبع بأن الله - تعالى - هو الرحمة، وبأن حب الله - تعالى - لمخلوقاته يفوق حتى محبة الأم لأولادها. لكن، هل يمكن لأُم أن تجعل طفلها الذي تحبه يُعاني من مثل هذا المصير القاسي؟ لا ... لا ... لا ..."

ثم أخذت السيدة إنديكوت تطلب الغفران من أعماق قلبها وتقرّ بأنها ليست سوى شخص أناني ضعيف آثم...

وكان قد خطر بذهن السيدة إنديكوت بعد استطاعت أن تكبح تلك الخواطر الآثمة التي كانت تدور في ذهنها فكرة أخرى: (بأنه لابد أن لله - تعالى - خالق الكون حكمة في ذلك...)

لم تكن سماء السيدة إنديكوت أيضًا خالية على الدوام من سحب الهموم وكانت هي أيضًا قد سارت في كثير من الأحيان في طريق مظلمة لكنها كانت تقارن دومًا بينها وبين السيدة أدير البائسة وتحزن لمعاناتها...

وسوف نرى لم كانت معاناة السيدة أدير قد بدت لها دومًا لغزًا غامضًا إلى أن اكتشفت بنفسها سرّ ذلك اللغز...

في الوقت الذي كانت فيه السيدة إنديكوت تُحدث نفسها وتتساءل عن كل ذلك كان أحد الخدم قد فتح باب الغرفة التي كانت تجلس فيها وقال: "سيدتي! السيدة أدير بانتظارك في البهو."

سألته: "أهي هنا بالفعل؟ أعلمها بأنني سوف أكون معها خلال لحظة." كانت السيدة إنديكوت قد استغرقت ذلك الترابط بين تفكيرها بصديقتها وبين ظهورها الآن في منزلها. كان ذلك أيضًا من أحد تلك الأمور الغامضة التي لم يكن بإمكانها أن تتفهمها وأن تجد لها التفسير، رغم أنها أدركت بأنها دون شك من الأمور التي تعود إلى الحكمة الإلهية التي تسيّر أمور الكون. توجهت السيدة إنديكوت إلى الطابق السفلي بوجه رزين يتناسب مع مقابلة تلك الإنسانية الكثيرة المعاناة، وكانت عندما دخلت إلى البهو قد أمسكت بيد الزائرة وبادرتها بالقول بتعاطف ينمّ تقريبًا عن الحزن:

"أهلاً بك يا صديقتي العزيزة!..."

ثم نظرت إليها وهي تبحث في عيني أدير عن لمعة لستارة من الدموع تحجب عينيها، ولتقوّس حزن يرتسم على شفّتها، لكن ولدهشتها، لم يكن هناك أي أثر لما توقعته، وإنما كانت هناك نظرة بهجة في عيني السيد أدير، وكانت ابتسامة لطيفة قد ارتسمت على شفّتها. سألتها بصوت منخفض وبتعاطف:

"كيف حالك هذا الصباح؟"

أجابتها السيد أدير وهي تبسم:

"أنا أشعر بأنني إلى حدّ ما أفضل قليلاً هذا الصباح."

"كيف حال صدرك؟"

"لا يزال يؤلمني كثيرًا"

"وماذا عن الألم في جنبك؟"

"في الواقع، هذا الألم لا يفارقني للحظة واحدة"

وكانت تجيب بكل بهدوء وهي بتسم، كما لم يكن في صوتها حتى أقل مسحة من الحزن أو القنوط.

"ألا يتركك الألم ولا للحظة واحدة! كيف تحتملين ذلك؟"

أجابت السيد أدير بهدوء:

"أنا أقول لنفسي دومًا بأن من حسن الحظ ألا يكون لديّ حتى الوقت للتفكير بالألم. من الرائع أن يكون للجهد الفكري أثره في رفع الألم الجسدي عن المرء. ومن جهتي أنا متأكدة بأنه لو لم يكن لديّ ما أقوم به سوى الجلوس والتفكير بعلمي المزمنة، لكنّ المخلوقة الأكثر بؤسًا في هذا العالم. لكن الله - تعالى - برحمته رغم ما ابتلاني به من مرض و فقر، قد حَلَمَ كثيرًا على مخلوقته الضعيفة."

دُهِشت السيدة إنديكوت بسماع تلك الكلمات التي كانت تتفوه بها تلك الصديقة الشديدة المعاناة وبذلك بالطريقة من الإيمان الهادئ ومن تقبّلها قضاء بالله - تعالى - بهذه السكينة. وسألتها:

"كيف بإمكانك أن تشعرني بهذا الاستسلام لقضاء الله - تعالى - وقد غطت سماء حياتك الغيوم وترككتك تتلمسين طريقك في ظلام ليس فيه أي بصيص للأمل؟" كانت الإجابة: "ذلك لأنني على يقين بأن الشمس لا تزال مُشرقة، على الرغم من ظلمة السماء وهي بذات الجمال الذي كانت عليه دومًا..."

قد تكون الطريق التي قدّر عليّ الله - تعالى - بحكمته أن أسير فيها مظلمة، وقد تكون أيضًا في بعض الأحيان شاقة ومنهكة لكنك تُخطئين بقولك بأنه لا يوجد فيها أي شعاع من الضياء."

قالت السيدة إنديكوت:

"لكن سيدة أدير!... من أين سيأتي الضياء ما دامت السماء مظلمة قاتمة بهذا الشكل؟"

أجابت السيدة أدير: "ألستِ تذكرين ما ورد في القصيدة الجميلة للكاتب مورو؟ تلك القصيدة تعادل الآلاف بالنسبة إليّ. أنا أكررها لنفسي باستمرار باستسلام وبقلب دافئ ما يجعلني أشعر بأن نبضي يتسارع مع كل كلمة عزاء وردت فيها! ثم بدأت السيدة أدير تتلو تلك القصيدة وهي بذات ذلك الحماس المتوقد:

"

"الهي الذي تُجفف دمة الحزاني! كم سيكون الكون مظلمًا لو لم يكن بإمكان الضالون والمعذبون على الأرض أن يتوجهوا إليك؟

ذات يوم سوف يتركنا الأصدقاء الذين يعيشون أيام بهجتنا، ولن يتبقى لنا سوى الدموع التي سنزرفها بمفردنا، لكنك أنت من تشفي القلوب الجريحة المحطمة لكي تنتعش أشبه بالنباتات التي لابد أن تنشر عبيرها اللطيف على الدوام. فعندما لن يكون بإمكاننا أن نشعر بالأمل أو البهجة أو أن نتمتع حتى الأمل، وفي اللحظة التي تطفر خلالها دموعنا والتي تُظلم فيها سماؤنا سوف تأتينا رحمتك بالفرج وبالسلام من خلال الحزن، وسوف يتحول ذلك الحزن حينئذ إلى بهجة وإلى ضياء يشق ظلام العالم من حولنا ويحوّله إلى ضياء..."

ثم أنهت السيدة أدير حديثها بالقول:

"ليس هناك من بإمكانه أن يفهم تمامًا معنى هذه الكلمات سوى من كانت سماؤه قد أظلمت بالغيوم ثم أشرقت في نفسه بذلك الضياء الإلهي..."

لكن عليّ الآن أن أجيب على سؤالك متى وكيف سيأتي الضياء؟ سيدة إنديكوت! هناك عالم داخلي... عالم من الضياء الكامل والبهجة والعزاء... عالم تكون فيه السماء مشرقة على الدوام... عالم لا تختفي فيه الشمس أبدًا خلف الغيوم... فنحن عندما نترفع عن كل ما في هذا العالم الذي لا جدوى من الانتماء فيه على شيء ونرفع أعيننا نحو السماء، لابد أن يبرز أمام أعيننا ضوء لم نكن نتوقعه ولابد أن نجد قبة زرقاء مضيئة ينبعث ضياؤها من عالمنا الداخلي حيث تشرق شمس لا تغيب إلى الأبد...

سيدة إنديكوت! أنا لستُ أمشي في طريق مظلمة فهناك ضوء من السماء يقودني... قد أكون منهكة أحيانًا وأنا أتوجه نحوه ولكن هذا ليس بدون خطي ثابتة، كنتُ قد عانيتُ بمرارة هذا صحيح وكنتُ قد تألمتُ بعمق لكن بإمكانني أن أقول مع ذلك ربما كان هذا الابتلاء لصالح... ليس بودي أن أتحدث كثيرًا عن نفسي، وأرجو أن تعذريني لتطفلي. فأنا أعلم بأن حديث المرء عن نفسه ليس بالحديث المشوّق.

كان الهدف من زيارتي هذا الصباح هو محاولة الحصول على مساعدتك لامرأة فقيرة تقيم بالقرب من منزلي. تلك المرأة مريضة جدًا وأخشى أن تموت، لديها ثلاثة

أطفال لا زالوا صغار السن جداً. لو توفيت تلك الأم فسوف يبقون بدون عائلة وبدون أصدقاء، ما لم يهيئ لهم الله - تعالى - من يعطف عليهم. كنتُ طوال ليلة أمس قد ظلتُ مُسعدة، أنا أفكر بهم وأقلب في ذهني ذلك الأمر العسير وأفكر بالواجب الذي يُمليه علي ضميري لمساعدتهم. قد يكون بإمكانني أن أتولى رعاية أحدهم لكن..."

قاطعتها السيدة إنديكوت بالقول وفي صوتها الكثير من الاستغراب: "أنت؟ أنت؟ كيف سيكون بإمكانك أن تفكري بذلك ولو للحظة وأنت في هذه الحالة الصحية السيئة وفي عنقك مسؤولية رعاية أطفالك الخمسة. لا بالطبع ليس عليك ألا تفكري بمثل هذا الأمر."

أجابت السيدة أدير: "هذا ما يجعل الأمر بتلك الصعوبة، أنا أريد ذلك لكن ليست لديّ الإمكانية لتحقيق ما أود القيام به. لديّ في قلبي من الحنان ما يتسع لتولي رعاية أولئك الأطفال، لكن وضعي الصحي لم يعد يساعدني على احتمال مثل هذا العبء الإضافي. لذا جئتُ إليك اليوم لكي أعرض عليك الموضوع، لعله يلقي منك التجاوب والاهتمام. هم من الأطفال من اللطفاء وسوف يجلبون كل البركة والسعادة للعائلة التي ستتولى رعايتهم."

قالت السيدة إنديكوت:

"لكن لمَ عليك أنت أن تتولي هذا الأمر؟ يكفيك ما لديك من العديد من المسؤوليات والمشاكل والهموم التي هي بحد ذاتها أكثر مما يمكن لامرأة وحيدة احتمالها؟ عليك أن تتركي هذا الأمر للآخرين. اتركيه لمن هم أكثر مقدرة على مثل هذا العبء."

"لكن ليس هناك سوى القليل من الأشخاص الذين يتعاطفون مع تلك الأم وأطفالها، أه... يا صديقتي الطيبة! ليس هناك من قد يشعر بصدق بظروف تلك الأم سوى أم مثلي على وشك المرور بمثل هذه الظروف... كنتُ عندما نظرت إلى أطفال الغوالي قد شعرتُ بالأسى لأنني مع مرور الوقت أقترتُ أكثر فأكثر من النهاية ما جعلني أذرف دموع المرارة وأنا أتساءل عما سيحلّ بهم؟ وعمن سيمنحهم الحب وعمن سيرعاهم عندما سأرحل عنهم؟..."

ليس بإمكانك أن تدركي كم أشكر الله - تعالى - بأنني لازلت حتى الآن على قيد الحياة، وكم أشكر الله لأنه منحني المقدرة على رعايتهم حتى الآن. أنا أشكر الله كلما أويتُ إلى فراشي وكلما نهضتُ من فراشي في الصباح، وأنا أحتمل كل الأعباء، وأحتمل كل ما أعانيه من آلام لأجلهم فقط؛ لذا لجأتُ إليك لأن بإمكانني أن أتفهم تمامًا وأن أشعر بما تشعر به تلك الأم...

صديقتي! أنت ليس لديك سوى طفلة واحدة وقد أصبحت راشدة، كما أن وجود طفلة صغيرة في المنزل أشبه بربيع يُدخل البهجة إليه. أليس كذلك؟ ما رأيك أن تتولي رعاية أحدهم أو حتى اثنين منهم فهم صغار السن وأشبه بالملائكة. أرجوك أن تتولي رعايتهم وتنشئتهم وسوف يُجزيك الله - تعالى - على ذلك."

"تعال! ذلك فسوف إلى تلك الأم المريضة وقوي لها بأنك على استعداد لرعاية أطفالها وعلى إيوائهم بكل محبة. لو فعلتِ ذلك فسوف يفتح لك الله - تعالى - نبعًا لا ينضب من السعادة والبهجة، ولن تنسي إلى الأبد علامات السعادة التي سترتسم على وجه تلك الأم البائسة، كما سيكون ذلك سوف مبعثًا للسعادة الدائمة بالنسبة إليك. لا تغفلي عن الاهتمام بهذه الفرصة ولا لاتدعي غيرك يحصل على البركة التي تكمن وراء هذا العمل الإنساني الصالح.

كانت تلك الحجج قد لقيت أثرها في نفس السيدة إنديكوت كما كان ذلك الحماس الجميل وتلك اللباقة في عرض الموضوع أثرهما في تجاوبها ما جعل ما يكمن في قلب السيدة إنديكوت من نزعة صادقة لعمل الخير يتفاعل، وبذلك شعرت بالكثير من الإشفاق على تلك المرأة البائسة وعلى أطفالها.

وكانت بعد مرور نصف ساعة قد أصبحت في غرفة المريضة وقدمت لها عرضها لرعاية أطفالها. وهذا ما جعلها قبل مغادرتها منزل تلك المريضة تحصل على بركة تلك المرأة السعيدة التي كانت قد عبّرت لها بكل ما امتلأ به قلبها من امتنان بأن قالت:

"سيدتي! تأكدي بأن الله - تعالى - سوف يباركك..."

كان لتلك الكلمات أثرها البالغ في قلب السيدة إنديكوت، وظلّ صدى ذلك الصوت الخافت للمرأة المريضة يتردد في سمعها، ما جعلها تشعر برعشة من سرور غامر كان قد ملأ كيائها أشبه بتيار كهربائي من الأحاسيس التي لم يسبق لها أن شعرت بمثلها. كانت قد أدركت بأنها بهذا العمل الصالح قد تقربت من الله - تعالى - وبأنها أصبحت أقرب من رحمته وبأن نور الله - تعالى - قد غمر قلبها بضياء أزال كل ما كان لديها من قلق وحيرة.

"سيدتي ! سوف يجزيك الله - تعالى - على عملك! "

كانت تلك العبارة تتردد باستمرار في ذهن السيدة إنديكوت وكانت تشعر بأنها تنبئها بالكثير من الخير.

وبالفعل كانت السيدة إنديكوت قد حصلت على أضعاف مضاعفة من حسن الجزاء ومن بركة الله - تعالى - على رعايتها لأولئك الصغار.

لكنها كانت مع ذلك تشعر في كثير من الأحيان بأن السيدة أدير ذات القلب النقي الطيب تستحق قدرًا أكبر من السعادة لما تتمتع به من غيرية، وبأن قدرها لم يُنصفها فهي تعيش حياة بائسة وتكافح باستمرار في طريق مظلمة؛ لذا قالت لها ذات يوم:

"هناك أمر غامض ليس بوسع مداركي أن تفهمه. أتساءل كيف بإمكانك احتمال هذه المعاناة بمثل هذا الرضى؟"

وكانت السيدة أدير قد أجابت:

"هذه هي الطريق التي اختارها لي الله - تعالى - . ربما كنتُ في البداية أشعر بالخوف لكنني الآن أدرك تمامًا بأنني في نهاية هذه الطريق سوف أشاهد الشمس تشرق من خلال الغيوم وسوف أشاهد الورود العطرة تتفتح في طريقي."

ثم تابعت بالقول:

"قد يبدو ذلك غريبًا بالنسبة إليك لكنني الآن بالفعل أكثر سعادة من الوقت الذي كان فيه كل ما حولي شيء مُشرقًا وهذا لأنني أصبحت امرأة أفضل. لستُ أقول هذا لكي أتفاخر لكنني أجد بأنني أصبحت مخلوقة ذات فائدة للآخرين وأنا سعيدة؛

لأنني تعلمتُ بأن السكينة هي أفضل جزاء حصلت عليه، ذلك لأن في مساعدة المرء للآخرين وتخليه عن أنانيته ما يجلب للنفس أنقى وأصفى أحاسيس السعادة والبهجة."

قالت السيدة إنديكوت:

"لكن طريقك صعبة، وهي صعبة للغاية وأنت تعانين من هذا الألم المضني ومن هذا المرض الفتاك."

أجابت السيدة أدير بابتسامة رضى:

"وأنا أشكر الله - تعالى - لأن في هذا ما يهيئني للجنان."

ملاك مُتذكّر بطفلة

وهكذا كان الإدمان والبطالة والرذيلة قد أدوا دورهم البائس المخزي، بأن توفيت تلك الأم. كانت وهي في حالة من الثمالة قد تعثرت ووقعت على الأرض أمام عتبة باب غرفتها ثم توفيت. تمددت ساكنة باردة أمام أعين أطفالها البؤساء الصغار السن الذين كانوا يصرخون عاليًا لشدة الفزع، لكن الموت لا بد أن يُصيب جميع بني البشر...

كانت تلك المرأة الشابة طوال حياتها مُزدراة مُحترقة ومُدانة من كل رجل وامرأة وحتى من كل طفل في تلك القرية، لكن عندما انتشر نبأ وفاتها في القرية وتناقلته الألسن من شخص لآخر بأصوات خافتة، كانت الشفقة قد حلت على الفور محل تلك القسوة وذلك الازدراء، كما كان الحزن قد حلّ محل الشجب والالتهام... كان جميع الجوار قد هرعوا إلى ذلك الكوخ القديم المتداعي للمتوفاة، والذي لا يكاد يحميهم من حرارة الصيف ومن برودة الشتاء. كان البعض منهم قد ارتدى بتياب الحداد التي يجب أن تتناسب مع مراسم دفن لائقة للمتوفاة، كما كان البعض الآخر قد جاء وهو يحمل معه بعض الأطعمة للأطفال الثلاثة الصغار السن الذين كانوا يتضورون جوعًا.

كان جون أكبرهم سنًا في الثانية عشرة فتي مُكتنزا قوّي البنية؛ وبذلك كان بإمكانه أن يكسب عيشه بالعمل مع أي من المزارعين في القرية. أما كيتي التي هي في العاشرة فكانت فتاة جميلة مشرقة نشيطة وكان أكثر ما يُميّزها ذلك الذكاء وسرعة التأقلم بحيث بإمكانها أن تنجح وتتميّز لو أنها لقيت فقط ما يكفي من الاهتمام والرعاية، لكن أصغرهم سنًا الطفلة ماغي البائسة فكانت طفلة عليلة مريضة بمرض غير قابل للشفاء...

كانت ماغي قبل سنتين قد سقطت من النافذة مما جعلها تُصاب بشلل في العمود الفقري وبذلك لم يعد بإمكانها منذ ذلك الوقت حتى أن تنهض من الفراش ما لم يتم حملها بين ذراعي والدتها.

لم تعد الأم بعد أن تم مواراتها التراب إلى الأبد موضع حديث القرويين، وإنما كان السؤال الأكثر أهمية الذي طرح نفسه:

"كيف سيتم التصرف مع أولئك الأولاد؟".

لم يكن من المقبول على الإطلاق أن يُترك أولئك الأطفال بمفردهم وهم يتضورون جوعًا.

وبذلك كان السيد جونس وهو أحد كبار المزارعين في القرية، بعد دراسته الأمر من كل جوانبه وبعد مناقشته مطوّلًا مع زوجته، قد وجد بأن من الجيد أن يُحسن للفتى جون بأن يستخدمه لديه. أما السيدة إليزا فكانت تبحث عن فتاة شابة بمواصفات كيّتي كي تستخدمها لديها كمرافقة؛ لذا قررت بأنه سيكون من الإحسان أن تختار كيّتي لهذا العمل على الرغم من أنها صغيرة السن وبذلك لن يكون بإمكانها الاستفادة منها إلا بعد عدة أعوام.

كانت السيدة إليزا قد قالت حينذاك:

"أنا أعلم بأن بإمكانني الحصول على من هي أفضل من كيّتي لكن يبدو أن ليس هناك من يرغب بمساعدتها؛ لذا فسوف أتصرف انطلاقًا مما يُمليه عليّ الواجب الإنساني، رغم أنني أتوقع التعرض للمشكلات مع هذه الطفلة، فهي طفلة غير مُنضبطة، مُعتادة على التصرف على هواها."

لكن وعلى الرغم من نظرات الإشفاق التي ألقاها الجميع على تلك الطفلة الهزيلة الشاحبة ماغي، وعلى الرغم مما شعر به الجميع من القلق حول مصيرها لم يكن أحدهم قد قال: "سوف أتولى رعاية ماغي..."

وعلى الرغم من أن المعاناة التي تبدو في عيني الطفلة الصغيرة المريضة و الألم الذي ارتسم على وجهها قد كان له أثره الكبير في الكثير من القلوب، ورغم أنه كان قد أصابهم في العمق، فلم يكن أحدهم مع ذلك قد فكر في تبنيها...

فمن قد يرغب بطفلة مُقعدة في الفراش؟... كان كل ما فعلته تلك السيدات الأمهات أن قمن باستبدال ملابسها البالية الرثة الملوثة بملابس نظيفة وبإطعامها... كان أحد الرجال الذين تم استمزاز رأيهم عن كيفية معالجة أمر ماغي قد قال فقط وبكل فضاظة:

"عليكم أن تضعوها في مأوى المعوقين الفقراء، فلستُ أعتقد أن أحدنا قد يتولى مسؤوليتها..."

وأجاب آخر: "لكن مأوى المعوقين سوف يكون مكانًا حزينًا بالنسبة إلى طفلة مريضة عديمة الحيلة مثلها."

ثم قال آخر باستخفاف: "قد ينطبق هذا على ابنتك أو على ابنتي، لكن بالنسبة لمثل هذه الطفلة العباء، فسوف يكون إيداعها في مأوى الفقراء المعوقين جيدًا. سوف يكون هناك من سيقوم بالعناية بنظافتها، وسوف تحصل على طعام صحي وعلى رعاية طبية حتى بأكثر مما كانت تحصل عليه في السابق."

كان ما قاله من الحكمة لكن اقتراحه لم يكن قد حصل على التأييد.

كان بعض الجوار قد تواجدوا في ذلك الكوخ المَعدَم إلى أن تمَّ التشييع في اليوم الذي تلا الوفاة لكن لم يكن أحدهم قد تَبَعَ عربة الدفن...

كان صاحب المزرعة بعد أن تمَّ الدفن كان قد اصطحب جون في عربته وهو يشعر بالرضى؛ لأنه يكون بذلك قد قدّم كل ما بإمكانه من مساعدة.

كما كانت السيدة إليزا قد قالت لكيّتي وهي تستعجلها:

"ودّعي شقيقتك بسرعة"، ثم فرّقت بين الطفلتين الباكيّتين اللتين لم تتمكنا حتى من تقبيل بعضهما.

ثم بدأ الآخرون بالخروج بسرعة من الكوخ. كان بعضهم ينظر إلى ماغي بإشفاق، بينما أحجم البعض الآخر حتى عن النظر إليها، إلى أن غادر الجميع وبذلك بقيت تلك الطفلة وحيدة بمفردها!

لكن جو تومسون صانع العجلات كان قد توقف أمام عتبة الباب وقال لزوجته الحداد التي كانت تُسارع بالخروج مع الآخرين:

"من القسوة بالفعل أن تترك هذه الطفلة هنا بمفردها."
 لكن زوجة الحداد كانت قد أجابته وهي تُسرّع بالخروج وتترك جو وراءها:
 "فلتأخذها إلى مأوى للفقراء المعوقين، عليها أن تعيش هناك."
 لكن ذلك الرجل ظلّ واقفاً أمام الكوخ لبعض الوقت وهو في غاية الحيرة، ثم عاد
 أدراجه ودخل إلى الكوخ من جديد، كانت ماغي قد بذلت جهداً مُضنياً لكي تجلس
 في سريرها، وكانت تنظر إلى الباب الذي غادر منه الجميع وقد كست وجهها النحيل
 الشاحب نظرة فزع شديد.

وكانت عندما لمحت السيد تومسون قد صاحت بنفسها المقطوع:
 "سيد تومسون آه... أرجوك... أرجوك لا تتركني بمفردي هنا!..."
 وعلى الرغم من أن السيد تومسون كان يبدو جلفاً خشن الطباع إلا أنه في أعماقه
 كان عاطفياً ورقيقاً جداً، كما كان يحب الأطفال جداً ويُسرّ بمجيئهم إلى متجره
 الذي يتم فيه إصلاح المزاليج والعربات؛ لذا توجه نحو سريرها ووقف إلى جانبه
 وقال لها برقة:

"لا تخافي عزيزتي فلن أترك بمفردك هنا."
 ثم كان بعد أن دثرها بملاءة نظيفة بكل عناية أشبه بعناية امرأة مُحبة، قد حملها
 بين ذراعيه القويتين وتوجه بها عبر الحقل إلى منزله الممتد بينه وبين ذلك الكوخ
 المتواضع.

لم تكن زوجة السيد جو تومسون قد رُزقت بالأطفال، وبذلك لم تكن دوماً بمزاج
 جيّد، كما أنها لم تكن أيضاً من النوع الورع أو ممن لديهن الاستعداد للتضحية
 لأجل الآخرين؛ لذا كان جو تومسون يتوقع مسبقاً الطريقة التي سوف تستقبل
 بها زوجته عودته مع تلك الطفلة.

لكنه كان قد شعر وهو يحمل بين ذراعيه تلك الطفلة المعوقة بأنه يحمل حملاً
 ثميناً، كما كان قد شعر أيضاً عندما ضمّ تلك الطفلة المريضة إلى صدره بأن كوكباً
 من الحنان قد انبعث منها واخترق أعماق أحاسيسه، وبأن وثاقاً متيناً قد ربط
 بينهما، وبأن المحبة والسعادة قد أضاعت حياته منذ تلك اللحظة...

كانت السيدة تومسون عندما شاهدته من النافذة قد هرعت على الفور لاستقباله على بعد خطوات من المنزل. وسألته بحدة: "ما الذي تحمله بين يديك؟" شعر جو تومسون بأن الطفلة البائسة قد جفلت؛ لأنها كانت قد التصقت به. لم يكن قد أجاب على سؤال زوجته سوى بنظرة كانت نظرة توسل وتحذير ثم قال: "انتظري لحظة. سوف أشرح لك الأمر بعد قليل لكن أرجو أن تكوني طيبة معها." وكان قد تجاوز زوجته ودخل إلى المنزل وهو يحمل ماغي بين ذراعيه، وتوجه إلى غرفة صغيرة في الطابق الأول، ثم كان بعد أن وضعها هناك على السرير قد عاد أدراجه وأغلق الباب ووقف في الممر الخارجي وجهاً لوجه أمام زوجته ذات المزاج النكد.

قالت السيدة تومسون وهي في غاية الدهشة والغضب يتطاير الشرر من عينيها: "لِمَ أحضرت هذه الطفلة المريضة العليلة إلى منزلنا؟"

قال جو: "يبدو أن قلوب النساء تكون أحياناً في غاية القسوة".

فقد كان من عادة توم تومسون، عندما تستشيط زوجته غضباً حول أي موضوع، إما أن يُعرض عنها أو أن يلتزم الصمت ويبتعد عن المواجهة؛ لذا كانت زوجته قد صُغت عندما واجهت نظرة التصميم والثقة بالنفس التي كانت تبدو في عينيه وقالت:

"بل إن ما في قلوب النساء من قسوة لا تعادل نصف ما في قلوب الرجال من قسوة." وكان جو قد لاحظ أيضاً وبسرعة بأن موقفه الذي يوحى بالتصميم كان له أثره على زوجته، وبذلك أجابها على الفور وبقدر كبير من السخط:

"هيا، لتتصرفي الآن مثلك مثل كل تلك النساء اللواتي كنّ بعد تشييع الأم المتوفاة قد أغمضن أعينهن وأسرعن بالهرب وتركن وراءهن هذه الطفلة المريضة في ذلك الكوخ القديم الذي لا تدخله الشمس حتى لساعة واحدة."

قالت السيدة تومسون: "وأين شقيقها جون وشقيقتها كيتي؟"

قال جو: "بالنسبة لجو فقد اصطحبه جونس صاحب المزرعة وسوف يعمل لديه. أما كيتي فقد اصطحبتها السيدة إليزا معها، بينما لم يرغب أحد مع الأسف بهذه الطفلة المريضة البائسة وكان كل ما قالوه:

"ليأخذها أحدكم إلى مأوى للفقراء المعوقين."

قالت زوجته: "فَلِمَ لَمْ تدعهم ينقلونها إلى هناك وَلِمَ أحضرتها إلى منزلنا؟" قال جو: "ألا ترين أنه ليس بإمكانها المشي إلى مأوى الفقراء المعوقين، وبأن على أحدهم أن يحملها على ذراعيه، أما أنا فلدي ما يكفي من القوة والعزم للقيام بهذه المهمة."

سألت زوجته: "فإذن لِمَ لَمْ تذهب بها إلى هناك وَلِمَ أحضرتها إلى هنا؟" "لأنني لا أريد القيام الآن بالعديد من المهام المتعبة في وقت واحد، فسوف يكون عليّ قبل كل شيء أن أقابل المسؤول هناك لكي أحصل على الموافقة على قبولها لديهم." لم تكن هناك أية إجابة بإمكانها أن توضح ما قاله. لكن زوجته كانت بعد ذلك قد سألته بنفاذ صبر لم يكن بإمكانها كبحه:

"ومتى ستذهب لمقابلة المسؤول هناك؟"

"سوف أذهب إليه غداً."

"لِمَ عليك تأجيل الأمر إلى الغد، اذهب على الفور لكي تحصل على الموافقة، عليك أن تُنهي الأمر هذه الليلة."

قال السيد تومسون بصوت مؤثر كان قد خفف كثيراً من ثورة غضب زوجته: "جين، أتعلمين! عندما كنتُ أحياناً أقرأ في الكتاب المقدس، ما تم إيراده عن معاملة الأطفال الصغار، وعن مقدار ما يعاقب الله - تعالى - من لا يستقبلونهم في بيوتهم، وكيف أن على المرء أن يأخذهم بين ذراعيه لكي يحصل على بركتهم وبأن من يمنحهم كوباً من الماء البارد سوف يلقي دون شك أحسن الأجر والثواب... والآن فإن أقل ما علينا أن نقوم به هو أن نووي هذه الطفلة المريضة التي فقدت والدتها ولو لليلة واحدة فقط. كل ما علينا أن نرعاها ونجعلها تشعر بالأمان والراحة لهذه الليلة..."

وكان صوت ذلك الرجل القوي الشكيمة الخشن الطباع قد ارتعش، وبذلك استدار لكي يُخفي عن زوجته الدموع التي بدأت تسيل من عينيه. لم تكن السيدة تومسون قد أجابته لكن شعور رقيق كان قد ملأ قلبها. ثم قال لها زوجها بلطف: "جين، أرجوك أن تنظري إليها بعين العطف، فكّري بوالدتها التي ماتت، وبوحدتها، وبألمها وبالحنن الذي سوف يكون عليها أن تواجه طوال حياتها."

كان الحنان الذي يشعر به في قلبه قد منحه فصاحة غير عادية. لم تكن زوجته قد أجابته وإنما كانت قد توجهت إلى الغرفة التي وضع فيها زوجها الطفلة ماغي ودخلت إليها بهدوء. لم يكن جو قد لحق بزوجته؛ لأنه كان قد أدرك حينذاك بأن موقفها قد تغير، وبذلك وجد بأنه قد يكون من الأفضل أن يتركها بمفردها مع الطفلة. ثم ذهب جو إلى متجره الذي كان بالقرب من المنزل وظلّ يعمل هناك إلى أن حلّ الليل.

كان أول ما لفت نظره عندما اقترب من سور الحديقة، عندما عاد إلى منزله مساء ذلك اليوم، بأن هناك ضوءاً كان يلمع من خلال الغرفة الصغيرة، وكان ذلك بمثابة الطالع الحسن. كان عليه أن يمرّ وهو في طريقه إلى الداخل، بالقرب من النافذة وبذلك لم يتمكن من منع نفسه من النظر منها إلى الداخل. وبما أن الظلام كان قد انتشر في الخارج ما جعله يحتجب عن الرؤية ويتمكن النظر لما يحدث في الداخل. كانت الصغيرة ماغي ممددة في ذلك الفراش وقد تم رفع رأسها على وسادة وثيرة، وكانت السيدة تومسون جالسة إلى جانب السرير تتحدث إلى ماغي. وكان بإمكان جو أن يُشاهد على ضوء المصباح الذي يُنير الغرفة وجه الطفلة بالكامل. كانت زوجته جالسة إلى جانب السرير تتحدث إلى ماغي وكان ظهرها إلى النافذة وبذلك لم يكن بإمكانه أن يُشاهد تعبير وجهها.

وإنما كان بإمكانه أن يشاهد التعبير الحزين الرقيق المرتسم على وجه ماغي التي كانت تنظر إلى وجه زوجته بعينين تملؤهما الدموع وهي تتفوّه من وقت لآخر ببعض الكلمات، كان بإمكان جو أن يتوقع نوعية الحديث الذي يدور بينهما. لكنه

لم يكن قد وجد في نظرتها تلك المرارة ولا ذلك الألم الذي كان قد شاهده سابقاً على ذلك الوجه الطفوليّ. وبذلك كان قد سحب نفساً عميقاً تلاه شعور غمر قلبه بالراحة والفرج كم شعر بأن عبئاً ثقيلاً كان قد انزاح عن كاهله.

لم يكن السيد تومسون قد توجه مباشرة إلى الغرفة الصغيرة التي كانت فيها الطفلة؛ ذلك لأن زوجته كانت لدى سماع وقع خطواته الثقيلة قد أسرع بالخروج من الغرفة التي كانت فيها مع ماغي. وبذلك وجد بأن من الأفضل ألا يقوم بذكر الطفلة، ولا حتى أن يُظهر ما يُشير إلى قلقه أو إلى اهتمامه بها.

سأل زوجته: "متى سيكون طعام العشاء جاهزاً؟"

أجابت السيدة تومسون وقد بدأت تعمل بسرعة:

"سوف يكون جاهزاً بعد قليل."

وكان ما أثار دهشته أنها لم تكن تتكلم بحدّة كعادتها.

وكان جو بعد أن غسل وجهه ويديه، قد خرج من المطبخ وتوجه نحو الغرفة التي كانت فيها تلك الصغيرة. نظرت إليه الطفلة المضجعة في ذلك السرير النظيف بعينين واسعتين مُضيئتين بشعور المحبة والشكر والامتنان والتوسل. وكان جو للمرة الأولى قد نظر على ضوء ذلك المصباح إلى ذلك الوجه الطفولي الشاحب الجميل الذي لم تكن كل المرارة والمعاناة قد أزالته منه رقة وبراعة الطفولة. جلس إلى جانب السرير وأخذ يدها الصغيرة الناعمة بين يديه وقال لها:

"اسمك ماغي أليس كذلك؟"

أجابته الطفلة بصوت خافت أشبه بلحن موسيقى:

"نعم سيدي."

"هل أنت مريضة منذ مدة طويلة؟"

أجابت: "نعم سيدي"

يا الله كم كان مقدار ما في صوتها من رقة وصبر!...

سألها من جديد: "هل كان الطبيب يراقب حالتك؟"

أجابت: "كان في السابق يأتي لرؤيتي من وقت لآخر."

"ولكن ليس مؤخرًا أليس كذلك؟"

"لا سيدي."

"هل تشعرين بالألم؟"

"أحيانًا، لكن ليس الآن."

"متى كنتِ قد شعرتِ بالألم مؤخرًا؟"

"كان جنبي يؤلمني هذا الصباح، كما آلمني ظهري عندما حملتني."

"أتشعرين بالألم عندما يتم رفعك أو تحريكك؟"

"نعم سيدي."

"ألا يؤلمك جنبك الآن؟"

"لا سيدي."

"هل يؤلمك ظهرك عادة كثيرًا؟"

"نعم سيدي، لكنه لم يعد يؤلمني منذ وضعتني على هذا السرير الوثير المريح."

"أجعلك هذا السرير تشعرين بأنك بوضع أفضل؟"

"أوه... سيدي بالطبع... أنا أشعر الآن بأنني بوضع جيّد جدًّا!"

يا الله! كم كان مقدار ما في صوتها من رضى ومن عرفان بالجميل!

وكانت السيدة تومسون قد دخلت إلى الغرفة بعد وقت قصير وقالت: "أصبح العشاء جاهزًا"

كان السيد تومسون قد ألقى نظرة تساؤل إلى وجه زوجته، ثم إلى وجه ماغي، وكانت زوجته قد فهمت معنى نظراته وبذلك قالت:

"بإمكانها البقاء هنا إلى أن نُنهي عشاءنا وسوف أجلب لها بعد ذلك ما تأكله."

كانت زوجته على ما يبدو قد بذلت بعض الجهد لكي تتظاهر بعدم المبالاة، لكن زوجها الذي كان قد شاهدها من النافذة كان قد فهم بأن ذلك البرود كان زائفًا.

كان جو بعد أن جلسا أمام المائدة قد انتظر أن تقوم زوجته بالتطرّق إلى الموضوع الأهم الذي كان يجول في أفكارهما، لكنها ظلّت صامتة لعدة دقائق كما ظلّت على تحفظها إلى أن قالت أخيرًا بشكل مفاجئ.

"ما الذي تنوي فعله بشأن تلك الطفلة؟"

أجاب جو وهو يتظاهر بالدهشة لسؤالها:

"أعتقد أنك قد فهمت مني بأنني سوف أصطحبها غداً إلى مأوى للفقراء المعوقين." كانت السيدة تومسون قد نظرت إلى زوجها بصمت مُطبق وبطريقة كانت بالأحرى غريبة بعض الشيء عما عرفه فيها من مشاكسة ثم أسدلت نظرها، ولم يكن قد تم التطرق إلى الموضوع من جديد أثناء تناولهما العشاء.

ثم كانت بعد أن أنهيا عشاءهما قد وضعت بعض الزبدة على قطعة من الخبز كما أعدت كوباً من الحليب الدافئ وحملتاهما إلى ماغي على صينية صغيرة. وضعتهما أمامها، وظلت جالسة ممسكة بالصينية بينما أخذت الطفلة الجائعة تأكلهما بكل نهم وغبطة.

وبذلك سألتها وهي تشاهد مدى استمتاعها بالطعام:

"أهي طيبة المذاق؟"

وكانت الطفلة قد وضعت كوب الحليب من يدها وأجابتها بنظرة امتنان أيقظت في قلب السيدة تومسون كل ما كان قد خمد فيه لسنوات طويلة من مشاعر رقيقة...

وكانت السيدة تومسون في صباح اليوم التالي عندما أشار أثناء تناولهما الإفطار إلى أنه سوف يذهب لمقابلة المسؤولين عن مأوى الفقراء المعوقين لأجل قبول ماغي لديهم:

"دعنا نحتفظ بهذه الطفلة ليوم أو ليومين آخرين فهي ضعيفة جداً ومُنهكة القوى."

قال زوجها: "لكنها قد تُشكل عبئاً عليك!"

أجابته زوجته: "لا أهمية لذلك، ما دام الأمر ليوم أو ليومين فقط." ثم همست دون شعور: "يا للطفلة المسكينة!"

لكن جو تومسون لم يكن قد ذهب بعد ذلك لمقابلة المسؤولين عن دار رعاية الفقراء المعوقين لا في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي ولا في اليوم الذي تلاه. كما أنه لم يكن في

الواقع قد ذهب لمقابلتهم على الإطلاق لأن السيدة تومسون كانت خلال أقل من أسبوع قد تخلّت نهائياً عن رغبتها في إرسال الطفلة ماغي إلى دار رعاية الفقراء المعوّقين...

كم كان مقدار النور و البركة التي حلّت في منزل عائلة تومسون بوجود تلك الطفلة المريضة العديمة الحيلة والحماية!...

كان منزلهم بارداً بائساً لمدة طويلة؛ لأن زوجته لم يكن لديها ما تهتم به، كما لم يكن لديها من تمنحه ما لديها من عاطفة ومشاعر الأمومة مثلها مثل كل النساء، ما جعل حياتهما تصبح مريرة وجافة، وما جعلها تصبح مشاكسة ومتوترة على الدوام نتيجة شعورها بالأسى على نفسها لأنها لم ترزق بالأطفال.

ولكن السيدة تومسون كانت بوجود تلك الطفلة الحبيبة التي كانت تنظر إليها دوماً بكل محبة وامتنان بتلك النظرة التي كانت بمثابة البلمس على قلبها قد تغيّرت كلياً. كانت قد بدأت تكنّ لتلك الطفلة المريضة كل الحب، وكانت تحملها بين ذراعيها أشبه بكنز ثمين عليها الحفاظ عليه. أما بالنسبة للسيد تومسون فلم يكن هناك في كل الجوار من شعر مثله بالسعادة.

كانت تلك الطفلة هي أشبه بملاك جاء إلى منزله على هيئة طفلة بائسة مريضة عديمة الحماية لكي تملأ حياته بنور المحبة ولكي تجعله وزوجته يتذوّقا متعة العطاء...

اليمامة البيضاء

كانت الصغيرة لينا عندما فتحت عينيها على العالم قد وجدت نفسها بين ذراعي والدها غوتليب الطيب. الذي كان قد قبّل تلك الطفلة بهجة عارمة وقال: "هذه الطفلة هبة من الله."

كان قد شعر بأن حبًا قدسيًا رائعًا قد تغلغل في أعماق قلبه، وأن جسده بكامله يرتعش، كما لو أنه أصيب بماس كهربائي بولادة تلك الطفلة البريئة.

لكن جذل ونشوة الوالد الشاب لم تكن مع ذلك قد اكتملت إلى أن قبّل أيضًا بكل محبة زوجته آنا التي كانت مضطجعة هناك بكل ما في بهجة الأم الشابة من نقاء وجمال. كانت زوجته قد أحاطت عنق زوجها بذراعيها وشعرت بأنها بذلك قد أصبحت أكثر قوة بالحنان الذي كان يتدفق في قلبها.

ثم قبّل الأب الطفلة الحديثة الولادة لينا من جديد مرة بعد مرة، كما الأم قد أخذت الصغيرة بفرحة غامرة وهي تشعر كما لو أنها امتلكت العالم بكامله بتلك الصغيرة.

وكان غوتليب قد ركع بعد ذلك إلى جانب السرير وأخذ يشكر الله بكل ورع على تلك الهدية الجميلة، بينما اغرورقت عينا زوجته بالدموع، وكان عندما نهض قد قال لزوجته:

"أتدرفين دموع الفرحة حبيبتي؟"

قالت آنا: "نعم، أريد أن أعلمك بأنني كنت ذات مرة، ليس من زمن بعيد، قد حلمت حلمًا جميلًا بأن مثل هذا اليوم سوف يحين. كنت قد حلمت بأنني كنت في مكان رائع وبأنني جالسة أحمل بين ذراعي طفلة، طفلة صغيرة بريئة جميلة وبأنك كنت أنت يا غوتليب العزيز! راکعًا إلى جانبي كما فعلت الآن وبأن امرأة ملاكًا كانت تقف إلى جانبنا. كانت تلك المرأة الملاك قد تلت هذه الكلمات المقدسة بصوت أشبه بالموسيقى:

(تناولا ثمرة اتحاد الإخلاص والخير...)

وبأنك كنت قد قبلتني بفرحة غامرة وهمست لي:

" ولد لنا اليوم ملاك هبة من الله... غوتليب! هذه الصغيرة هي الطفلة التي كنت قد حلمتُ بها. "

تلك كانت أحداث ولادة الصغيرة لينا التي كانت تزداد جمالاً وبراءةً ونقاءً يوماً بعد يوم.

ونعود الآن إلى أحداث ارتباط والدتها أنا بوالدها غوتليب.

كان غوتليب فون أرنهايم قد شاهد النور في ذلك المنزل الصغير القائم الذي يقع على تخوم الغابة السوداء في ألمانيا. كان منذ نعومة أظفاره طيب القلب نقياً بريئاً، وكان كل من يحبهم في هذا العالم هو الله - تعالى - ووالده ووالدته؛ لأن طبيعته الحساسة كانت قد جعلته يجفل من التعامل مع القرويين الخشني الطباع الذين كانوا يشكلون عالم حياته البسيطة. لكن الموت كان قد حرمه من والده بعد وقت ولعل غوتليب يشعر بفراغ كبير. لكن والدته كانت تحدّثه دوماً عن حياة الخلود، وتقول له بأن والده لا زال يعيش معهما وبأنه لا زال يحبه، وكان الصبي قد بدأ بذلك يشعر ببعض العزاء وبنوع من السمو والرفعة بأن يكون له أب كان قد عرف الحياة لكنه قد أصبح بين الملائكة يعيش حياة جديدة في عالم مُشرق جميل وبأن الحياة جميلة...

كان غوتليب في بعض أوقات الفراغ بين المخيلة ذلك يشعر بالسكينة ويحلم بذلك العالم، وكان يجد متعة كبيرة في مثل تلك الخيالات التي كانت تضيء حياته وتمنح البهجة لوجوده. لكن وفاة الوالد الطيب لم تكن فقط قد جعلت مخيلة ذلك الصبي فقط تهيم في العالم الآخر، وإنما كانت أيضاً قد اجتذبت قلب والدته إلى ذلك العالم الروحي الجميل...

كان غوتليب قد بدأ يشاهد بأن وجه والدته قد بدأ يصبح أكثر شحوباً ونحولاً وأدرك بأنها مريضة ضعيفة البنية، كانت يدها في كثير من الأحيان تسقط بتعب من المغزل الذي كان تعمل عليه دون توقف وكانت تضم يديها معاً بخنوع وهذا ما كان

يجعل قلب الصبي يرتعش لشدة القلق على والدته التي كانت كل ما تبقى له في العالم...

وكانت والدته ذات ليلة عندما لاحظت بأن غوتليب كان يثبت نظره عليها بقلق وحنان، قد رفعت عينيها السماويتين إليه وقالت:

"حبيبي غوتليب! لو متُّ فأنت تعلم بأن الله معك وهو يحبك."

وكان الصبي قد هتف بجزع: "آه... أمي! أمي! هل ستتركيني أنت أيضاً؟" ثم دفن وجهه في حجرها بحزن وكأن كل ما في الكون من أسي قد غلّف مستقبله أشبه بحجاب لا يمكن اختراقه لكنه كان قد رفع رأسه فجأة وقد غمره أمل غريب مشرق وقال:

"أمي وقد أموت أنا أيضاً."

كانت الأم قد تغلبت على ضعفها وتحدثت إليه بكل محبة وحنان لمدة طويلة. أعلمته بأنه كان منذ نعومة أظفاره يحب الله وبأن أول كلمة كان قد نطق بها كانت اسم (الله) وبأنها كانت قد علمته كيف يصفق بيديه الصغيرتين وهو يقول: (الله) قبل أن يتفوّه بأية كلمة أخرى، وبأنها أطلقت عليه اسم غوتليب لأنه سيكون من مُحبِّي (الله) وكان الطفل وهي تتحدث إليه قد هدأ وقال:

"آه... أمي! ومع ذلك فإن حب الله أكبر من قلب صبي صغير. الله أسمى وأرفع وهو في السموات البعيدة ما يجعلني أشعر بأنني لست سوى ورقة عشب تنظر إلى المدى البعيد إلى شمس بعيدة..."

أمي! لكن الحياة ستكون مقفرة بدونك ولن يكون لدي أي أمل إلا في الموت." وقالت الأم: "لا، بني هناك الكثير من الآمال الجميلة في الحياة الدنيوية. سوف أقول لك الآن ما الذي سيجعلك تحب الله بإخلاص أكثر من أي وقت مضى."

وكان الصبي قد أصغى إليها باهتمام وهي تقول:

"أنت لا تعلم غوتليب العزيز بأن الله عندما خلقك صبيًا وشجاعًا قد خلق لك صبية صغيرة طيبة لطيفة، وبأنه خلقك قويًا لكي يكون بإمكانك أن تعمل، وخلقها رقيقة طيبة لكي تمنحك الحب."

قال غوتليب بحماس: "وأين هي الآن؟"

أجابت والدته: "لستُ أعلم، لكن الله يعلم وسوف يرعاكما فهو الذي خلقكما واحدًا للآخر وسوف يقابل كل منكما الآخر في الحياة أو في الجنة؛ لذا أليس من الأفضل لك ألا تتمنى الموت وأن تترك الأمور لله؟ لأن تلك العذراء الصغيرة سوف تصاب بالقنوط بالوحدة والحزن لو تركتها بمفردها على الأرض ولم يكن إلى جانبها قلب رجل قوي تستند إليه، رجل قوي مثلك يعمل لأجلها... لا، بني!.. يجب أن تعيش وسوف تحصل على السعادة وسوف تكون إلى جانبك رفيقة ستكون لك. لن تخلو الأرض من ذلك الأمل الجميل الذي ينتظر قلب يتيم مثلك."

كان ذلك قد حدث في ليلة كئيبة باردة من ليالي الشتاء، حيث كانت تلك الأم الطيبة قد زرعت في قلب ولدها بذرة الحقيقة بأن هناك بعد ذلك جنة مُزهرة نُصرة وهو ما جعل الأمل يتفتح في قلب ذلك الصبي.

وكان غوتليب عندما حلّ الربيع قد ألقى إلى والدته الحبيبة نظرة الوداع الأخيرة. كانت رحلت إلى العالم الآخر، كما كان عليه بمزيد من الحزن أن يغادر أيضًا بعد ذلك المكان الذي كان يحبه كثيرًا لكي ينفذ وصية والدته ويذهب للبحث عن شقيق لها يعيش في هايدلبرغ. كان غوتليب وهو يُغادر المكان الذي عاش فيه يأمل بأن يعود ذات يوم للعيش تحت سقف ذلك البيت وبين من عرفهم وأحبهم...

وانطلق الصبي إلى ذلك العالم الجديد الذي لا يعرف عنه شيئًا تملأ قلبه الثقة والإيمان بالله، إيمان طفل صادق كان والداه قد غادرا العالم، لكنه كان يتطلع بإيمان راسخ إلى عون الله العظيم المجيد وكان يُخيل إليه كلما سجد وبدأ يصلي بأن والدته ملاك يقف إلى جانبه وبأنها بتلك الكلمات التي قالتها له قبل وفاتها حول الخضوع لله تُضيء نفسه، وبذلك كانت جميع عواطفه قد توجّهت إلى عالم الغيب والخلود.

ثم مرت السنوات وهو في مدينة هايدلبرغ، سنوات كانت قد جلبت البركة لذلك الطفل اليتيم. كان الجميع يحبونه وكان غوتليب الذي كان في البداية قد خطط له

أقرباؤه بأن يُمضي حياته في العمل لدى الاسكافي قد تمكن بمثابرتة بمساعدة بعض الأصدقاء من الانتساب إلى الجامعة. كانت تلك بالنسبة إليه أكبر سعادة ليس فقط لمحبتة للعلم وليس بسبب طموحه للحصول على منصب يُضاهي من حوله، لكن كان هناك أمر آخر في ذهن ذلك الشاب الذي كان لديه هدفاً واحداً في حياته هو الأمل الذي زرعت والدته قبل موتها في قلبه والذي كان قد ساندته طوال حياته! كان تلك الصورة دوماً أمام ناظريه. نعم، كان يدرس لغاية رفيعة وسامية، وكان العلم بالنسبة إليه الأداة لحياة يملؤها الحب والبركة. كان هدفه في الحياة أن يُحسن للآخرين بما وصل إليه من علم بدراسته الشاقة للطب، وكذلك بأن يلقي تلك الشابة التي سوف ترافقه حياته.

لم يكن قد اهتم لا بالبرد ولا بالجوع ولا بالتعب الذي رافق مسيرته في الحياة، وكان ذلك الأمل الدافئ في قلبه قد جعله يحتمل تلك المعاناة.

كان المظهر اللطيف النحيل لذلك الفتى الطالب عندما حصل على درجاته العلمية قد تحوّل إلى شاب لامع بعينين وديعتين، كما كان أمل حياته قد بدأ ينمو ويثمر مع مرور الأيام.

ثم عاد غوتليب إلى ذلك المسكن المتواضع الذي نشأ فيه وقد ملأ حياته القاحلة شعور بالحرية والرضى وبالبهجة. كان الحافز الوحيد في وجوده أن يعمل... ويعمل... ويعمل... كان منزل طفولته ما يهفو إليه قلبه على الدوام، لكنه تساءل كيف سيكون بإمكانه أن يعيش وحيداً كئيباً؟

لم يكن غوتليب قد نسي الدروس التي لقنتها له والدته وبذلك سجد وبدأ يصلي لله ويرجوه أن يرشده إلى ما عليه أن يفعله، وهو يشعر وكأن روح والدته تهيم من حوله.

وبينما كان غوتليب في ذلك التواصل المقدس سمع طرقة على الباب وكان أستاذه الطبيب إمبرهارد قد دخل من الباب. كان ذلك الطالب الشاب الذي لا زال في بداية طريقه في الحياة وشعر بأن عليه أن يأخذ بيده ويقدم إليه المساعدة. وبما أنه كان بحاجة في ذلك الوقت إلى مساعد يتمتع بالخبرة والدقة. ونظرًا لما له من خصال

حميدة ومن مقدرة علمية فقد عيّنه بعد أيام من عودته مساعداً له في منصب جعله يعيش حياة مترفة.

مرت السنوات وكان الدكتور غوتليب لا يزال يبحث عن امرأة تبادله الحب. كان قد قابل الكثيرات ممن أعجب به لكنه لم يكن قد عثر بعد على تلك الفتاة التي وصفها له والدته والتي هي النسخة طبق الأصل عنه. كانت جميع الفتيات الألمانيات مختلفات عن الصورة التي كانت في ذهنه ولم يكن قد شعر بالارتياح لأي منهن.

كان أحياناً يفقد الأمل لكن إيمانه بالله كان يساندّه وكان يقول: "لابد أن الله - تعالى - الذي خلق تلك الرغبة الملحة في قلب من يؤمن به أن يحققها له." كان يفكر بأنه إن لم يقابل تلك الفتاة في الحياة فلابد أن يقابلها في العالم الآخر وبذلك استمر بالعمل وبالا انتظار بصبر وإيمان.

كانت ذلك في ليلة من ليالي الشتاء الباردة. كانت الرياح القارصة البرودة تعصف بشدة، لكن النجوم كانت مع ذلك تضيء السماء الصافية الخالية من الغيوم، كان غوتليب المتعب قد عاد من عمله في ساعة متأخرة من الليل. لكنه كان مع ذلك كان قد لبّى رغبة أستاذه المُلحّة بأن يذهب لرعاية امرأة مريضة. كان قد هرع لتلبية نداء الواجب في ذلك الظلام الدامس وهو يُناجي نفسه بقلب مفعم بالأمل: "هناك عالم آخر وهناك حياة أخرى ولا بد أن أجد فيها ما أصبو إليه."

وصل إلى المنزل الذي كان يحتاج إلى خدماته ودخل إلى تلك الغرفة التي كانت مظاهر الفقر فيها قد ذكرته بأيام دراسته، لكن الكآبة والفقر كانا أكبر في ذلك المكان الذي كان يفتقر حتى إلى الأثاث.

كانت هناك سيدة مستلقية على أريكة قاسية كان صوت سعالها الشديد وآثار الدماء على منديلها يُغنيان عن أية كلمات.

وكان قد شاهد إلى جانب السرير فتاة شابة بوجه شاحب وعينين بدا عليهما آثار البكاء. كانت تلك الشابة راكعة تصلي بخشوع. كان غوتليب في تلك اللحظة قد شعر فجأة بأنه أصبح في نطاق تحقيق هدفه في الحياة، ما جعل البرد والتعب

يزولان عنه على الفور. كانت المريضة التي تبدو على وشك مفارقة الحياة عندما لمسها قد بدأت تصحو، كأن الحياة قد دبّت فيها إثر لمسة ذلك الطبيب، وكأن وجوده كان قد زرع الأمل والسكينة في تلك البائسة...

كانت الخادمة الطيبة بيتينا التي قادتة إلى ذلك المنزل المتواضع قد ساعدته في جهوده لإسعاف المريضة ثم أحضرت الأدوية وجلبت بعض الوقود لذلك الموقد الذي بدأت النيران تشتعل فيه وتنشر الدفء. انعكس اللهب على وجه الفتاة الشابة التي كانت راكعة إلى جانب المريضة. يا الله! كم كان قلب غوتليب قد خفق بشدة عندما نظر إلى تلك الفتاة؟ هل كان ذلك لجمالها؟ لا!... كان قد التقى بمن هُنَّ أكثر جمالاً. أم كان ذلك لما كانت فيه من حزن؟ لا!... كان قد شاهد الكثير من البؤس والحزن... لكن ومهما كان الأمر، فقد شعر غوتليب في تلك اللحظة كأن القدر قد وضع تلك الفتاة في طريقه، وبأنه التقى أخيراً بقدره وكان كيانه قد اهتز بكامله.

استدارت الفتاة ونظرت إليه وكانت عندما قال لها غوتليب بأن والدتها لن تموت قد هدأت على الفور وكأنها قد ألقت عن كاهلها ما كانت تعانيه من قلق وأسى... ولم يكن غوتليب قد غادر منزل المريضة إلا في وقت متأخر من الليل وكان قبل أن ينام قد توجه إلى الله - تعالى - بدعاء حار وبالشكر لما أصبح لديه من علم يؤهله لمساعدة إخوته في الإنسانية. وكان وهو يصلي قد شعر بأن ضوءاً قد أشرق على حياته منذ التقى تلك الشابة الحزينة.

استيقظ غوتليب صباح اليوم التالي بقلب يملؤه شعور بالبهجة وهو يتطلع إلى أحداث اليوم الجديد. شعور لم يكن قد سبق وأحسّ به...

أسرع بإنهاء واجباته اليومية بنوع من المرونة والأمل كانا جديدين عليه، وعلى الرغم من أن مشاعره لم تكن قد وضحت بعد، لكن كان لديه إحساس داخلي جديد مبهم. شعور غامض بأن كل ما لديه من عواطف قد استيقظ منذ قابل تلك الشابة.

كان يفكر بكثير من القلق بإنقاذ حياة مريضته الضعيفة لكنه كان بذات الوقت كان مدفوعاً على الأصح بالافتنان بتلك الشابة...

توقف قليلاً أمام منزل المريضة بقلب مرتعش يملؤه الأمل والشك. كان يخشى أن تتبدّد تلك المشاعر اللطيفة التي غمرته الليلة الماضية، لكنه عندما طرق الباب كان قد سمع وقع خطوات خفيفة ثم فُتح الباب برفق ووقفت أمامه فتاة بكل كياسة وعلى وجهها نظرة تنم عن العرفان بالجميل وبدأت تعبّر له عن امتنانها بكل رقّة ثم قالت:

"كنتُ أمل أن تكون أنت من طرق الباب"

خفق قلب غوتليب بشدة وبجذل بأن تكون تلك الفتاة الشابة، قد فكرت به لكنه عندما اقترب من سرير المريضة أدرك سبب تلك اللهفة التي عبرت عنها الفتاة بشكل عفوي، كانت ولا بدّ لأنها كانت تتمنى قدوم الطبيب لمساعدة والدتها... كما كان غوتليب بنظرة ألقاها حول الغرفة قد أدرك بأن أنا كانت تعمل لمساعدة والدتها المريضة. كان هناك على طاولة إلى جانب النافذة بعض الأزهار الصناعية كما كانت بيتينا الخادمة قد دخلت تحمل سلة أخرى من الأزهار ونظرت إلى أنا وهزت رأسها بحزن. كانت الفتاة قد ارتعشت عندما شاهدت بيدها تلك السلة ما يشير إلى أنها لم تتمكن من بيعها. كان غوتليب قد لاحظ كل ذلك وشعر بتعاطف شديد لما يجري. وبذلك كان بعد أن تحدث بعبارات التشجيع إلى الوالدة المريضة قد اقترب من الطاولة وأخذ يُبدي إعجابه بتلك الزهور الجميلة، لكنه كان في الحقيقة يفكر بما عليه أن يفعله لمساعدة كل من الأم والابنة، ثم التفت إلى بيتينا المخلصة، التي كانت لا تزال على صلة بمن خدمتهم، وطلب منها أن تتبعه؛ لأنه سوف يعثر على من سيشتري تلك الزهور الجميلة. كانت أنا قد أَلقت عليه نظرة امتنان وقالت:

"شكراً لك"

وكانت بيتينا قد وجدت بأن ذلك الطبيب في غاية الكرم؛ لأنه منحها ضعف الثمن الذي طلبته لكنها على الرغم من ذلك لم تجد بأن من الضروري أن تُعلم أنا بذلك وأقنعت نفسها بأنها من وجدت من يشتري الزهور وبأن الفارق في السعر من حقها...

أما بالنسبة إلى غوتليب فقد شعر بأن تلك الأزهار قد أضافت الكثير من السحر وبهجة إلى غرفته! وكانت بهجته كبيرة عندما عاد بعد ساعات من عمله ونظر إلى تلك الزهور وشعر بأنها قد أضافت السعادة إلى حياته. قام بتفحصها ولم يتمكن من منع نفسه من تقبيلها...

ولم يكن أي مريض قد لقي من غوتليب ما لقيته من الرعاية والاهتمام بقدر ما لقيته السيدة هيندريكسون. وكانت الفتاة عندما استعادت الأم عافيتها قد بدأت تشعر بالأمل من جديد. ما جعل النور يشعّ من عينيها الصافيتين، وكان غوتليب قد شاهد الورود تتفتح من جديد ما جعل لنور يشعّ في عينيها الصافيتين. كانت تبدو أجمل بكثير من تلك التي تصنعها بيديها بكل براعة.

كانت أنا قد شعرت نحوه بعرفان جميل صادق وبذلك لم تكن تخفي سرورها بزياراته لوالدتها، كانت نقية جدًا وبريئة وطيبة ما جعلها لا تجد بأن من الضروري أن تخفي أي شيء من ذلك...

ثم بدأت زيارات غوتليب تصبح بعد ذلك أكثر فأكثر طولًا. وكان ما شعر به من والدتها المريضة من إيمان صادق به قد منحه ميزة على مواساتها في مرضها. كان يتحدث إليها عن العالم الآخر وعما فيه من راحة وسكينة ولم تكن المرأة المريضة تملّ من الإصغاء إليه؛ لأنه بإيمانه الصادق السامي وبما لديه من حماس وصدق كان قد فتح أمامها عالمًا جميلًا.

وكان عندما كانت نظرت الذكية تلتقي بنظرة أنا يشعر بالكثير من الجذل. كان ذكاء أنا قد أيقظ لديها عالمًا من الأفكار ومن المدارك أضاف إلى جمالها سحرًا خاصًا وجعلها تبدو في نظره أشبه بروح ملائكية. كانت تلك الروابط الروحية قد بدأت تربط بينهما. كانت السيدة هيندريكسون قد بدأت تتماثل شيئًا فشيئًا للشفاء ولم يعد عليها أن تلتزم البقاء في الفراش، وبذلك كان بإمكان أنا أن تذهب للصلاة في أيام الأحاد وكانت عندما تدعو الله لنفسها تدعو لغوتليب أيضًا.

وكانت ذات يوم عندما خرجت من الكنيسة قد وجدت غوتليب بانتظارها. توجّها معاً إلى المنزل وكانت سعادة الأم لا توصف عندما دخل الاثنان معاً إلى غرفتها. شعرت بأن كلاً منهما قد خُلق للآخر كان دفء ونور الحب قد لفهما بنور قدسي. أما غوتليب فكان في غاية قلبية وكان كل ما علّمته له والدته في طفولته قد عاد إلى ذهنه وكان بعد أن تحدّث إلى والدتها عن والدته التي أحبها وعما قالت به بأن الله - تعالى - عندما خلقه كان قد خلق له فتاة صغيرة سوف تكون زوجته، قد استدار إلى أنا التي كان وجهها قد اصطبغ بالحمرة وقال بأنه يعتقد أنه وجد تلك الفتاة. وكانت أنا قد نظرت إليه وكأنها تقول:

"أنا لك"، كانت تلك الإجابة الضمنية قد ملأت قلبه بسرور غامر. وكان اليوم التالي قد جلب إليه المزيد من السعادة فقد وصلته رسالة من محبوبته فقد كان يرغب بأن يتلقى منها ما يعبر عن سعادتها بالارتباط به ماعدا تلك النظرة الخجولة التي ظهرت في عينيها وكانت الرسالة كالتالي:

غوتليب العزيز!

يسرني أن أكشف لك عما في قلبي، قلبي الذي يتوق يقول لك بأنني ممتنة لك وبأنني أحبّتك وبأن الله قد أرسلك إليّ. سوف أعلمك بحلم حلمت به الليلة الماضية وهو ما ملأ قلبي بالسكينة والسعادة.

كنت وأنا أقرأ لوالدتي في الكتاب الذي أعرّته لي قد قرأت كيف تتوجه الملائكة بنظرها دوماً إلى مركز الشمس مهما كانت الجهة التي تقف فيها. كنت سعيدة وكانت أفكاري قد ارتقت وتوجّهت بي إلى ملكوت الله - عز وجل - كان هناك شيء جديد قد بدأ بحلّ في روحي ويسعد وجودي بكامله...

وكنّت عندما نمّت قد وجدت نفسي في مكان فسيح مُحاط بالملائكة وبأنني كنّت جالسة أمام مائدة تزيينها جميع أنواع الزهور وتنتشر عليها جميع أنواع المأكولات وكانت امرأة ملاك قد تحدثت إليّ وقالت:

"هذا هو عشاء الله"

كنتُ عندما قالت ذلك قد رأيتُك أمامي. كنتُ تقترب مني وأنت تبتسم بكياسة ثم قلت لي وأنت تمسك بيدي:

"كم تبدين متألقة حبيبتي! لقد عرفتُ الآن الحقيقة الأبدية للحياة"

وكنتُ قد أجبتُك: "نعم وأنا أيضًا قد عرفتُ الآن حقيقةً جديدةً جميلة"

ثم نظرتُ إلى نافذة شرقية وأشرتُ إلى الشمس التي كانت تتألق في السماء. كان قلبي قد امتلأ بالحب لك لأنني عرفتُ بأنك تحب الله. غوتليب! ألم يكن ذلك الحلم رائعًا؟

كم كان من عوالم من الجمال قد فُتحتُ أمامي عندما تعرفتُ عليك!... كانت أفكارِي سابقًا محدودة تقتصر على الحياة الدنيوية لكنك رفعتني عن الأرض... رفعت قلبي الرهيف إلى السماء وكان حبي لأفكارك السامية ما جعلني أحبك... كانت رسالة أنا قد غمرت قلب غوتليب بالسعادة، وكانت والدتها بعد تلك الزيارات المطولة لغوتليب قد بدأت ترغب بأن تشاهد ابنتها في ثياب الزفاف قبل أن ترحل عن العالم، وبذلك كان الشابان السعيدان قد تزوجا بعد وقت قصير وكانت أنا بالفعل بثياب الزفاف أشبه بيمامة بيضاء رمزًا للنقاء.

ثم كان غوتليب بعد وفاة والدته أنا قد حقق حلمه بالعودة مع زوجته إلى مسقط رأسه وإلى ذلك البيت الصغير المتواضع الذي نشأ فيه والذي عاش فيه أيام طفولته الأولى مع والدته.

ثم رزقا بتلك الطفلة لينا التي جعلت سعادتهما تكتمل. كانت لينا الصغيرة طيبة مرحة بريئة ما جعل والديها يقولان دومًا:

"هذه الطفلة هي بالفعل الملاك الذي وهبه لنا الله - تعالى - لكي يسعدنا."

تطلّع المرء إلى الراحة والسكينة

هناك القليل من الأشخاص الذين لا يكمن العنصر الأساسي لمفهومهم عن السعادة في الشعور بالسكينة... كما أن أكثر الأشخاص الذين تقاذفتهم عواصف ونوائب الحياة، والذين لم يجدوا العزاء، يتطلعون آخر الأمر إلى نهاية ما يمرون به من مآسٍ بالحصول أخيراً على السكينة.

لذا كان تطلّع المرء إلى السكينة وإلى الراحة النفسية مرتبطاً بمخيلته على الدوام بصورة الجنان، وهذا ما قد يجعل المرء يقول في نهاية الأمر بعد الكثير من التخبّط والمعاناة:

"كم قد يكون في الموت من راحة ومن سكينة!..."

ولابدّ أن يجد من يتمتع بنعمة الإيمان بأن الخلود في الجنان هو المظهر الذي تتجلّى به السكينة، وبأن الجنة هي المكان الذي يتحرّر فيه المرء من كل ما يتسبب له بالقلق وبالاضطراب، وبأنه المكان الذي لا يُعكر صفو الهدوء فيه أي صوت، والذي لا يسمع فيه المرء سوى نغمات التراتيل الدينية التي تُشبه همس المياه المتدفقة من الينابيع، والتي تمنح المرء هدوءاً أكثر عمقاً من سكينة الصمت.

لكن المرء قد يتوق أحياناً إلى الراحة والسكينة إلى الحدّ الذي يجعله يُعزّي نفسه ليس فقط بتلك الرؤى البعيدة للجنان وإنما أيضاً بالسعي إلى تجربة جوهرها...

ولكن السؤال الذي يطرح هو: ما هي الوسيلة للتوصل إلى ذلك؟...

هل هي بأن يعتمد المرء إلى أن يترك خلفه كل ما كان يلهث لأجله دون جدوى في سباق الحياة، بأن يلجأ إلى مكان بعيد بإمكانه أن يستمتع فيه بالهدوء والسكينة؟...

قد يحاول المرء خوض مثل تلك التجربة، لكنه سوف يجد بسرعة بأنه لم يُفلح بالتخلّص من قلقه وبأنه لم يشعر بالسكينة، وسوف يكون بذلك قد تلقّى أخيراً درساً هاماً في الحياة (بأن السكينة ليست مُرتبطة بالمكان وإنما تنبع من قرارة

النفس)، وبأن السماء الهادئة، وبأن دائرة الأفق والنجوم الراسخة في كبد السماء ليست سوى لغة السكينة لكنها ليست السكينة ذاتها...

وقد يبحث المرء عن السكينة في الحياة العائلية بأن يجعل كل شيء في منزله يسير على هواه، بحيث تُنير منزله الأصوات المحببة المُتناغمة التي تُبهج النفس والتي تحلّ حتى أثناء ظلمة الليل مكان إشراق شمس النهار... لكن المرء قد يُخفق أيضًا في ذلك، فقد لا يشعر بالسكينة على الرغم من اعتقاده بأنه لديه ما يكفي لأن يشعر بتلك الراحة والسكينة. فقد يتفوق عليه في ذلك أحد الجوار ما يجعله يشعر بالغيرة التي سوف تُنغص عليه صفو حياته العائلية. أو قد تتولد لديه أحيانًا الرغبة بالمزيد من الملكية، أو ربما يُسيطر عليه الحسد وسوء النية أو قد ترفض حواسه ابتلاء وألم المرض...

لذا فليست السكينة في الأمور الخارجية التي تكون دعائمها محدودة، دعائم قد تزول مع مرور الوقت أو أنها قد تبهر وتصبح مُملّة، ذلك لأن مدارك الإنسان لا يمكن أن تكتفي بمجرد خداع النفس ولأن للمرء نفس مُتعددة الرغبات، ولأن هناك دومًا ما يأمل به المرء... فهو حتى وهو في غمرة انغماسه في المتع واللذات، لابد أن يكتشف الحقيقة الأبدية بأن في زوال المتعة ألم يُضاعف سعادة الحصول عليها... وقد يعتقد المرء أحيانًا بأنه سوف يحصل على السكينة بطريقة أخرى، وذلك بأن يتخلى عن جميع المتع الدنيوية وبأن يذهب إلى مكان بعيد مُقفر يعيش فيه على الماء والأعشاب فقط لكي يستغرق في نشوة التقى والورع.

وكثيرًا ما نجح الإنسان في ذلك أكثر من نجاحه في سعيه وراء المتعة، لكن شعوره بالسكينة كان على الدوام ممتزجًا بالقلق رغم ما كان قد يتوصل إليه من سكينة. فقد تقاوم غرائز المرء التضحية، وبذلك تُصبح تقواه ويُصبح تكريسه لنفسه، حتى وهو بمفرده تمامًا، غير مُرض وبمثابة الأنانية.

وهكذا نرى بأن جميع الأشخاص يتطلعون ويبحثون بطريقة أفضل أو أسوأ عن ذات السكينة والسلام والراحة النفسية. البعض يبحث عن شكل ايجابي بممارسة النشاط الخارجي، وذلك بأن يعتمد إلى السفر من مكان لآخر، أو إلى

التنقل من رفقة إلى رفقة أخرى، لكن كل ما يقوم به هؤلاء هو تغيير المكان فقط، لكنهم لن يُغيّروا مطلقاً مما هو في قرارة أنفسهم من قلق...
مثل أولئك الأشخاص يُثيرون الشفقة فهم يبحثون عن إخفاء عُري أنفسهم بالملابس أو باللهو أو الثثرة لكي يُخفّفوا من حرارة النيران التي تُلهب قلوبهم.
فقد نشاهد أحياناً الوجوه الأكثر بهجة في عربات الحداد، وقد ينظر إليك الأشخاص الأكثر كآبة وأصحاب القلوب المتألمة التي تُعاني، بابتسامة ظاهرية وبضحكة بهيجة مُشرقة.

وقد يبحث آخرون عن السكينة في الانطلاق إلى المزيد من المغامرة، فهم بذلك مثلهم مثل البحارة والضباط والتجار والمتعاملين بالأموال والعاملين في الميدان السياسي الذين يدفعون بأنفسهم إلى حياة المغامرة لكي يتحرّروا من فراغ قلوبهم المتألمة أملاً بأن تجعلهم مجازفتهم في الأعمال التجارية أو أن تجعلهم وتغييرات الحياة السياسية، ينسون فراغ أنفسهم فهم بذلك يحاولون التغلب على شعورهم الداخلي بالقلق بتعريض أنفسهم للمجازفات، لكنهم بذلك أيضاً يخدعون أنفسهم بالاعتقاد بأنهم في طريقهم إلى الحصول على السكينة...

هل يتوق المرء إلى السكينة والراحة إلى هذا الحدّ دون أن يجدها قط؟... نعم!... هذا ما أثبتته التجارب الإنسانية على الرغم من أن الأمر ربما كان كذلك في أحوال نادرة وعلى الرغم من أنه غير مؤكد بعض الشيء...

هذا هو وضع سكينة النفس! ولكن عندما تعمل قُدرات المرء معاً بشكل مُتناغم، دون أن تُنازع الواحدة الأخرى ودون أن تُعيق إحداها الأخرى فسوف تتكامل معاً قد تنشط طاقة محددة في طبيعة الملاء الإنسانية وتتوجّه نحو نهاية نبيلة لديها استقلاليتها في التصرف، لكنها بذات الوقت لابد أن تعمل جميعها بتناغم، كل منها مع الجميع وجميعها مع كلٍّ منها، وهو الأمر الذي يمكن أن نُطلق عليه تعبير ضبط النفس ورباطة الجأش...

كما أن السكينة والراحة النفسية لا يمكن أن تكون بعدم المبالاة ولا بالبلادة وإنما بالنشاط بشكله المثالي وبأرفع مستوياته.

لذا فقد نجد بعض الأشخاص الذين ولدوا بقدرات مُتوازنة تمامًا؛ لذا فإن توصلهم إلى السكينة، يكون بالعمل وبالكفاح في الحياة. كما أن أكثر الأشخاص وعلى رأسهم الأشخاص الأقوياء، يولدون مُنظمين ومُتوازنين مما يُمكنهم من التوصل إلى حلٍّ لغز الحياة، ويكون بإمكانهم بذلك مقاومة أنفسهم. وقد يكون هؤلاء الأشخاص في البداية غير متوازنين تمامًا بحيث يتغلب جزء من شخصيتهم على الجزء الآخر، وهم بذلك أشبه بالبحر الهائج الذي لا يمكن أن يهدأ. لذا على المرء أن يعمل على توظيف قدراته وميوله للتوصل إلى الأهداف السامية، ولكي تتناغم تلك القدرات معًا لابد أن يكون إدراك المرء وأن تكون نظرته إلى حقيقة الحياة صائبة...

لابد للمرء أن يتمتع بإرادة قوية وأن يكون لديه هدف مُحدد وفكرة سامية وذهن يتعلم من التجربة تصحيح النواقص وتلافي العيوب، وهو الأمر الذي يتطلب منه التحكم بنفسه وبعواطفه التي كانت سابقًا تتحكم به. على العقل أن يسود على الإحساس و على الواجب أن يسود على النزوات...

لابد أن يتعرّض كل منا في الحياة إلى الكثير من الأحزان وأن يواجه العديد من النوائب فقد يخسر شخصًا عزيزًا عليه وقد يكون حزنه عليه دون عزاء، لكن على المرء أن يحاول التأقلم مع فكرة فقدان من يحبهم، دون أن يعتمد إلى نسيانهم تمامًا، وذلك بأن يتوجّه بأفكاره إلى المكان الذي ذهبوا إليه إلى أن يصبح فقدانه لهم ليس بالخسارة التي لا عزاء فيها، وأن يدرك بأنهم انتقلوا إلى عالم أفضل وأكثر نقاء، وبأن الابن، الابنة، الأخ، الأخت أو الزوج الزوجة هم جميعًا من الخالدين في كنف الله - تعالى - وليسوا أمواتًا تحت الثرى، وهذا هو ما يجعل المرء يتمالك نفسه ويتوازن، وهذا ما سوف يجعله يحصل على الراحة والسكينة...

خلف كل سحابة بريق من ضياء

أيمكن أن يكون هذا القول صحيحًا؟...

أيمكن أن يكون هناك بريق من ضياء في عالمنا الذي تُخيم عليه سحب الأسى والحزن وخيبات الآمال والحرمان الذي يحجب عنا حتى أية بارقة من الأمل؟...

عالمنا الذي تحمل فيه كل نسمة صوت النحيب والتأوهات...

عالم تنطلق فيه التنهدات المريرة من القلوب المجروحة المحطمة التي تندب على الآمال الضائعة، حيث المشاعر المسحوقة والحب الضائع في القلوب التي تكافح دون جدوى للانتصار في معركة الحياة، وهي تتلمس طريقها في الظلام لكي تلمح - لو كان بإمكانها ذلك - وميضًا من نور للشمس بين السحب الكثيفة!...

ها هو قلب آخر قد استسلم للأسى. انظر كم تغطي السحب السوداء السماء، وكم تضغط بقوة على قلب ذلك الأرمل الوحيد الذي فقد زوجته. انظر إليه وهو يُقبل جبينها البارد ويتساءل:

"لِمَ علينا أن نعاني من الوحدة في هذه الحياة؟ أه...! لن تُجبني بعد الآن تلك الشفاه الباهتة التي أغلقت بإحكام وللأبد. أشعر بأن قلبي الذي يفتقر إلى العزاء قد غادرته الحياة بعد أن عانق ذلك الشكل المُحبب الثرى وأصبح في عمق الصمت والظلام إلى الأبد...

ما هو الشيء الجميل المُشرق الذي تبقى لي في هذا العالم بعد أن أنتزعت مني أئمن الكنوز؟..."

قد لا يكون هناك بعد الآن أي بصيص من النور يُشرق على قلب ذلك الأرمل البائس المتعلق بتلك المخلوقة التي لا يمكن أن ينساها...

عاهات الجسد وجمال الروح

من منا لم يلحظ وهو يمرّ بين حشود المارة في شوارع المدن، ذلك العدد الكبير من الأشخاص الذين لديهم عاهات أو تشوّهات جسدية...؟
كم أشعر بألم يكاد ينفطر له قلبي وأنا أنظر إلى أولئك البؤساء المساكين الذين حُرّموا من حقهم المشروع بالاستمتاع بما أنعم به الله - تعالى - عليّ بسخاء.
ها هو أحدهم، وقد يبدو الأكثر سوءًا وإيلامًا من الجميع وهو يتلمّس طريقه في الظلام مُمسكًا بيد طفله الصغيرة. وها هو رجل آخر فقد أحد ذراعيه، يحاول أن يشقّ طريقه بكل صعوبة. وهناك إلى أبعد من ذلك في مكان منعزل شخص مُشوّه إلى حدّ كبير جعله إحساسه بالعجز يبتعد عن الظهور في الشوارع المزدحمة، وهناك أيضًا ذلك الشخص المشلول العديم الحيلة تمامًا الذي يجلس في عربة صغيرة يجرّها طفل.

ربما كان كل ما قد تُثيره مثل هذه المظاهر المختلفة من العاهات والتشوّهات في قلوب البعض، مجرد شعور بالرهبة أو بالشفقة، أو أنها قد تُثير أحيانًا لدى البعض الازمئزاز وتجعلهم يُعرضون عن النظر إليها...
أما بالنسبة إليّ فهي تجعلني أشعر في عيانه منذ أحيان بأنه لو كان بإمكان كل منا أن ينظر إلى ما في نفوس أولئك الأشخاص، لكانت فكرتنا عنهم مختلفة تمامًا...

ربما كان لذلك الأعمى البائس، الذي أغلقت عيانه منذ فترة طويلة عن كل ما حوله في الكون من جمال وبهاء، بصيرة تجعل نور الله - تعالى - الطاهر يُنير روحه ويُشرق في أعماق نفسه.

وربما كان ذلك الرجل الذي يعرج الآن ببطء وبأسى على عكازيه اللذين يلامس بهما الطريق الضيقة بحذر، سوف يمشي عندما ستنتهي رحلة حياته في سهل ظليل أخضر دون أن يخشى أية شرور، وسوف يقول للأشخاص الذين كانوا يأسفون

لوضعه في رحلة الحياة، بأن الشخص الذي حرّمته عاهته من السير في الطريق العام قد أصبح يمشي الآن بين الملائكة وهو بكامل صحته...
وقد تصبح لذلك لشخص العديم الحيلة الذي تطعمه والدته الآن بيدها، المقدرة على أن يُحرّك بيده العالم ذلك لأن الله - تعالى - لا يتخلّى عن العباد، ولأن الحقيقة المقدسة الأبدية هي أن الله - تعالى - لا يحكم على البشر، كما نفعل نحن، بالاستناد إلى مظهرهم الخارجي، ولكن إلى ما في داخلهم من خير وإلى طبيعة أرواحهم.
لذا لا أهمية لأن يكون المرء مشوّهاً، أو أن تكون له عاهة أو أن يكون فاقداً للنظر أو أن يكون فاقداً للنطق، إن كان يمتلك قلباً طاهراً نقيّاً... لأن كل كلمة وكل فكرة وكل عمل يقوم به سوف يصبح قرباناً لله - تعالى -...
هذه هي الأمور التي لها أهميتها بما يُقدّره الله لكل من مخلوقاته؛ لذا عليك يا أخي المؤمن أن تهتم بها، ولعجز وبأن قلب المرء قد يكون نقيّاً رغم ما قد يكون في جسده من تشويه ومن عجز وبأن تلك العاهات والعجز لن تدوم في الحياة الأبدية...

الغني والفقير

انقضت أشهر الصيف الشديدة الحرارة والرطوبة، وبدأت أشهر الخريف الباردة بلياليها الطويلة الهادئة. كان بعض الأيام أكثر برودة من المعتاد مما استلزم إشعال النار في المواقد، وبذلك بدأ أفراد عائلة السيد بارتون السعيدة يجتمعون حول الموقد بتلك الجلسات المسائية الهادئة المعتادة. كان من الممتع للجميع أن يشعروا من جديد بالدفاء الذي تنشره نيران الموقد وأن يُشاهدوا انعكاس توهجها على وجوههم اللطيفة.

ابتسم جيمس وهو يمدّ يديه نحو الموقد وقال:

"كم من المُحبب أن يشعر المرء بالدفاء."

وقال ويليم: "أعتقد أنني أصبحتُ أستمع بفصل الشتاء، فمن الممتع جلوسنا معًا حول الموقد وأن نشعر بحرارة النيران وتوهجها على وجوهنا وبحرارتها على أيدينا، وكأن في ذلك ما يجعلنا نشعر أكثر بأننا نعيش في أمان ورخاء في منزلنا. ألا تعتقد ذلك أبي؟"

أجاب السيد بارتون: "بالطبع يا بني، وهذا لأن التغير المتتالي في الفصول هو دومًا من الأمور المحببة. ألم يسبق أن لاحظت ذلك؟"

"نعم بالطبع! فأنا أقول دومًا عندما يحلّ الربيع بأنني أشعر بالبهجة لأن الربيع قد حلّ، كما أقول أيضًا عندما يليه فصل الصيف وتبدأ الزهور بالتفتح وتبدأ الثمار بالنضوج بأنني أشعر بالبهجة في فصل الصيف. ثم أشعر بعد ذلك من جديد بالسُرور عندما يتم إغلاق النوافذ والأبواب مع عودة فصل الخريف ويكون بإمكاننا الاجتماع حول الموقد كما نفعل الآن، كما أشعر بالكثير من المتعة عندما يبدأ الثلج بالتساقط في فصل الشتاء وعندما أجلس أمام النافذة لكي أنظر إلى كُرّات الثلج وهي تتطاير ببهجة في الهواء."

لكن ما قالته ماري تلك الفتاة الرقيقة ذات القلب الطيب كان مختلفًا جدًا حيث قالت:

"لكنني في فصل الشتاء أفكر دومًا بالأطفال الفقراء الذين ليس لديهم من الملابس ما يجلب لهم الدفء والذين ليست لديهم المواقف التي يجتمعون حولها كما نفعل نحن، وهذا ما يجعلني أتمنى أحيانًا بأن يظلّ الطقس دافئًا دومًا لأجلهم."

نظر السيد بارتون إلى وجه ابنته ماري الرقيقة الذي ينبع بالطيبة والتعاطف وقال: "هذا صحيح يا ابنتي لكن الله - تعالى - يعرف ما هو الأفضل بالنسبة إلى كل منا وهو رؤوف بعباده كما أنه حلیم حتى مع من يرتكبون المعاصي..."

قالت ماري: "أعلم ذلك أبي، وأعلم أن الله - تعالى - يقول في كتبه المقدسة بأنه يُشفق على عباده كما يُشفق الأب على أولاده، ومع ذلك ليس بإمكانني أن أمتنع في كثير من الأحيان عن التفكير بأن هناك الكثير من المُعاناة في هذا العالم."

قال والدها: "هذه هي سنّة الحياة ماري، نعم! هناك بالفعل الكثير من المُعاناة، وربما كان هذا ما يجعلنا أحيانًا نجد الكثير من الصعوبة في فهم حقيقة سرّ الوجود، لكن هناك أمر واحد علينا أن نعرفه جيدًا هو:

(أن الكثير مما يُعانيه المرء قد يكون بفعل البشر، وبأن الله - تعالى - عندما يأذن بذلك لابد أن يكون لصالح المرء ولغاية يصعب على البشر معرفة كنهها وليس لكي يعاقبهم)

ذلك لأن الله - تعالى - لا يعاقب البشر لأجل العقاب فقط، وإنما لكي يُوجّههم نحو طريق الهداية ولكي يمنعهم من ارتكاب الآثام والشرور... أتذكرين ما قرأته لك في الأسبوع الماضي حول التدبير الإلهي؟"

أجابت ماري: "نعم أبي ألم يكن ذلك بما يتعلق بالخلود"

"هل تذكرين ما قلته حول معنى الخلود؟"

"نعم يابني، الخلود هو كل ما يتعلق بنجاة الإنسان في العالم الآخر."

"هذا ما قلته تمامًا، ولكن يعتقد الكثيرون بأن الله - تعالى - وهو المُطلع على كل ما نقوم به، وحتى على أصغر تفاصيل حياتنا الدنيوية، يُحاسبننا على هذا الأساس فقط... أذكر بأنني عندما كنت فتىً يافعًا كنتُ أسمع رجلًا يبتهل إلى الله - تعالى - يوميًا وباستمرار أن يزيد ويضاعف له ثروته."

"وهل جعله الله - تعالى - ثريًا بالفعل أبي؟"
 "لا يا ابنتي، لأن الله يعلم الغيب، ولأنه كان يعلم بأن ذلك الرجل لو أصبح ثريًا، فسوف يُدمر المال له روحه وبأن ذلك لن يكون في صالحه."
 قال ويليم: "فإذن، سوف يكون من الأفضل للبعض أن يكونوا من الأثرياء كما أن من الأفضل للبعض الآخر أن يظلوا فقراء."

"دون شك، وإلا لكان جميع من هم في هذا العالم من الأثرياء ولحصلوا جميعًا على كل ما يمكن من أسباب الرفاهية على الأرض. لكن الله - تعالى - يمنح لكل منا ما يمكن أن يفيد في حياته الدنيوية، وبما ينقذ روحه أيضًا من ارتكاب الآثام، دون أن يكون أحد الأمرين على حساب الآخر... كما أن الله - تعالى - لا يحرم المرء من السعادة ومن الثروة إن لم يسيء استخدامهما، لكنه لابد أن يحرم المرء منهما لو أساء استخدامهما."

قال ويليم: "ولكن ليس جميع الأثرياء من الأشخاص الطيبين بل على العكس فأنا أعتقد بأنهم، بشكل عام، من الأشخاص الأنانيين، كما أنهم يفتقرون إلى الإحساس أكثر من الفقراء؛ لذا و لهذا السبب لن يجدوا الكثير من الفرص للخلود في الجنة." قال والده: "أعلم بأن هذا ما يُقال لكنه خطأ كبير. قد يكون بعض الفقراء أيضًا مثلهم مثل الأثرياء، من الأشخاص الأنانيين والعديمي الإحساس، وبذلك لن يكون لديهم الكثير من الفرص لدخول الجنة... أما بالنسبة إلى موضوع الفقر والثراء فهناك دومًا إرادة الله - تعالى - التي تتحكم بقدر كل منهم وهذا كما قلت سابقًا بهدف إنقاذ نفوسهم."

هذا الله - تعالى - عندما يجعل بعض الأشخاص من الأثرياء، بينما يكون الآخرون فقراء، فليس هذا لأن أحدهما أفضل من الآخر؟"

أجاب الوالد: "هذا بالتأكيد. أحباءنا والسبب على الإطلاق لا يمكن الحكم على وضع أي رجل بالاستناد إلى ظروفه وإلى مظهره الخارجي، ذلك لأن الظروف التي قد تلائم أحدهم قد تكون سيئة جدًا بالنسبة إلى الآخرين. لتتذكر هذا جيدًا بُني، ولتعلم بأنه مهما كان الوضع الذي يختاره لك الله - تعالى - وبأنه سواء أكان قدرك

أن تكون ثريًا أو أن تكون فقيرًا فهذا ولا بدّ لأجل صالحك ولأن الله - تعالى - الذي يعلم الغيب يعلم كيف سيكون تصرفك تجاه ما يمنحه لك من النعم الدنيوية..."
الغني والفقير يلتقيان لأن كليهما من صنع الله.

أحباًؤنا... من أحببناهم... ومن غادروا الحياة قبلنا...

زال نور حياتك واختفى كما قد تختفي فجأة نجمة متألقة وراء الغيوم... أنت تطلب من أن أحدثك عنها... عن تلك الصديقة العزيزة التي أحببناها وفقدناها!... لكنك بذلك تفرض عليّ مهمة عسيرة جدًّا، فأنا أجد بأن قلبي يعجز عن التعبير عما محبة قلبي من مشاعر. لكنني سوف أفعل ذلك لأجل ما أكنه لها من محبة...

كنتُ قد حدثتُك عنها سابقًا في بعض الشيء في رسائي. رويت لك كيف أتت إلينا عروساً في التاسعة عشر من ربيع العمر، وكيف كنا قد شاهدناها للمرة الأولى يوم حفل الزفاف، لأنهما كانا قد وصلا في ساعة متأخرة من ليلة السبت وبذلك لم يكن أحدهما قد شاهدها تلك الليلة.

كما كنت قد أعلمتك كيف تعلق قلبي بها منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها نظري على وجهها اللطيف المشرق الذي تكسوه مسحة من الحياء. كانت هناك فتنة في عينيها. كان فيهما سحر ينفذ إلى أعماق القلوب لم يسبق أن رأيت مثله. كان كل ما فيها من شأنه أن يأسر القلوب.

نعم... كنتُ منذ اللحظة الأولى قد أحببتُها وأصبحتُ أنتظر بلهفة أن تتاح لي فرصة التحدث إليها، كما أنني في الواقع كنتُ قد أحببتُها قبل أن أراها نظرًا لأن صديقنا الشاب بيريت كان قد حدثنا كثيرًا عن عروسه الشابة ماري.

كم شعرت بالإعجاب وأن أنقل نظري من أحد العروسين للآخر... كما كنت أعلم بأن جميع من كانوا في حفل الزفاف قد تمنوا لهما دوام البركة والسعادة. كان صديقي قد أعد لها بيتًا جميلًا كانت جميع الترتيبات فيه قد تمت بذوق رفيع. كان هناك بيانو في غرفة تُطلّ على حديقة تزهو فيها ورود الربيع وتنشر عطرها في المكان، وكنا نسمع من خلال تلك النوافذ عزفها وصوتها الرقيق وهي تغني.

كنا قد شاركنا في إعداد ذلك البيت بكل عناية ونحن نأمل أن يحوز على إعجابها، ولم تكن مساعيها قد ذهبت هباء لأنها كانت أثناء زيارتنا الأولى لها في اليوم التالي، قد عبرت لنا عن الكثير من الامتنان من أن يكون كل شيء في هذا المنزل بهيجاً جميلاً مثاليًا.

كانت ماري شابة تنظر إلى كل شيء نظرة وردية على الرغم من أنها كانت قد تركت خلفها والدين مُحبين ومنزلاً مترفاً. كنا نخشى أن تُرهقها المسؤوليات التي تفرضها عليها مكانتها الجديدة، لكنها كانت قد أثبتت جدارةً على مستوى رفيع في كل ما كانت تقوم به. كانت الصديقة المُفضلة لدينا جميعاً، فقد كانت قد تألفت واندمجت معنا مما جعلها تصبح محبوبة الجميع.

كان منزل السيد بيريت يبدو بجولاته وفيّاً أشبه بجنة تُحيط بها جميع مظاهر السعادة. كان الفقراء يجدون فيه دوماً يداً تساعدهم وأذناً تُصغي لما يعانون منه من مشكلات وكانوا يخرجون من بيتها يملأ قلوبهم الأمل والسعادة مهما كانوا فيه حزن وقنوط.

كم كنتُ أستمع بالنظر إليهما وهما يسيران معا تملؤهما الحيوية والنشاط! كانت ترافقه دوماً في جميع جولاته وفي جميع زيارته لبيوت الفقراء والمرضى. كانت أشبه بظله وكانت بالفعل تسكن روحه وتفكيره، بحيث بإمكاننا أن نوكد بأن كليهما كانا يمنحان البركة للعين التي تراهما وللأذن التي تسمعهما وبأنهما كانا يساعدان الفقير واليتيم ويخففان من أحزان الأرامل...

ومع مرور السنوات كان قد أصبح لديهما العديد من الأطفال الجميلين وأصبح بيتهما أشبه بعشٍّ صغير لكل ما في العالم من سعادة.

كم كان السيد بيريت سعيداً وفخوراً بعائلته وبزوجته الجميلة جداً والطيبة جداً التي كانت أهلاً وبجميع المعايير لأن تجعل بيته سعيداً! كانت ابنتاه وكان ولده الأصغر سنّاً يُضفون على حياتهم المزيد من السعادة.

لن أنسى مُطلقاً بأنها كانت ذات مساء بعد أن وضعت كلاً من أولادها في سريريه وقبلته قد قالت لي:

"مهما شكرتُ الله - تعالى - فلن يكون شكري له كافيًا لما أنعم به عليّ بهؤلاء الأطفال الأعزاء."

ثم أضافت: "كم يمكن أن يتسبب فقدان طفل من أسي! أعتقد بأنني لو فقدتُ أحد أولادي فسوف أموت أنا أيضًا."

لكن ليس لي أن أقول هذا، ألسْتُ أوّمن بالله وبما يختاره لكل منا؟" لكنها مع كل أسف لم تكن تعلم بأنها سوف تتعرّض لمثل ذلك الامتحان وخلال وقت قصير...

كانت عندما ذهبَتْ لزيارتها بعد بضعة أيام وهي تزرع بعض فسائل الزهور في الحديقة قد بادرتني بالقول:

"طفلي ويلى ليس بخير. أرسلتهُ للتو إلى فراشه وقد طلب مني زوجي أن أخرج قليلًا لكي أستنشق الهواء؛ لأنني كنتُ متعبة جدًّا من سهري إلى جانبه طوال الليل، لكنني هنا قريبة منه أيضًا لو استيقظ فجأة"

وكنا قد سمعنا فجأة صوت صرخة من غرفة الصغير ما جعلها تثب على قدميها وتركض إليه. رافقتها وأنا أحاول أن أهدئ من روعها.

لكنني كنتُ عندما دخلنا إلى الغرفة قد صُدمتُ بأن يكون ذلك الطفل العزيز مصابًا بالحمى ما جعله يُقاذف ذراعيه من جهة لأخرى وقد جفت شفثاه. أسرع السيد بيريت باستدعاء الطبيب وكنا قد انتظرنا جميعًا قدومه بقلق ونحن نأمل أن يكون قلقنا في غير محله، لكن مجيء الطبيب لم يكن قد طمأننا لأنه كان قد شاهد بعض الأعراض الخطيرة التي تدل على سوء وضع الصغير، لكنه قال لنا مع ذلك بأنه يأمل بالأفضل...

كنتُ بذلك قد عدتُ إلى منزلي بعد أن أعلمني السيد بيريت بأنه لا يحتاج إلى أية مساعدة...

لكن قلقي كان قد تزايد في اليوم التالي عندما وجدتُ الطبيب مُثبط الهمة فقد تبين له أن الأعراض ليست مطمئنة، وبأن الأدوية لم تكن قد أحدثت أي تأثير... أسرعْتُ

إلى والدته الطفل ورجوتها أن تأخذ قسطاً من الراحة وأن تترك لي المجال لكي أنوب عنها في رعاية الطفل لكنها قالت:

"لا، لا، ليس بإمكانني أن أتركه، فمن الشخص الذي عليه أن يكون إلى جانبه إن لم تكن والدته إلى جانبه؟"

لم يسبق لي أن شاهدتُ مثل ذلك الحزن الذي كان في ملامحها. وكان السيد بيريت قد حاول تهدئتها رغم الكرب الذي كان فقال: "إن كان الله - تعالى - سيقطف هذه الزهرة الصغيرة من حديقة عائلتنا، فهل علينا أن نرفض أو نعترض على إرادته؟ أليس علينا أن نشكره لأنه سمح لنا بالاحتفاظ بها حتى الآن؟"

وكلتا قد أجابته: "نعم لكن الله - تعالى - لابد أن يشملني برحمته."

كانا قد أمضيا الليلة وهما يرقبان الحياة تُنتزع من ذلك الطفل إلى بدا لهما قرب الصباح بأن معاناته قد انتهت. كان قد ابتسم لوالديه مما أحيى في قلوبهما الأمل للحظة، لكن الأسى كان قد حلّ بهما بعد وقت قصير حيث كانت ملامح وجهه في الصباح قد أظهرت بوضوح بأنه أصبح على حافة النهاية.

وكانت والدته قد انحنت عليه في غمرة معاناتها وهتفت:

"ويلي... حبيبي! تحدّث إليّ..."

وكان الطفل قد قال بجهد: "ماما!"

هناك الكثير مما رُوي ومما كُتب عن وفاة الأطفال، كما أن المرء يشاهد دومًا في هذا العالم الكثير من الأحزان التي تتضاءل مع الزمن، كما يشاهد المرء في عالمنا الكثير من الشرور ومن الآثام فهل بإمكاننا أن نعجب من أن تكون مشيئة الله أن ينتقل هؤلاء الصغار إلى عالم أجمل وأظهر وأكثر نقاءً!...

لم نكن قد اجتمعنا بأصدقائنا الأعزاء إلى أن حان يوم الدفن وكانت تلك هي المعاناة الكبرى. لم يكن أحدنا يرغب بالتطفل على حرمة حزنهما رغم أن الجميع كانوا قد ذرفوا الدموع وكادت قلوبهم تنفطر، وعلى الرغم من أننا كنا ندرك جميعًا بأنهما يعلمان بأن طفلهما سوف يعيش في جنة الله.

كم كانت تلك الأم تبدو حزينة مريضة عندما انحنت لكي تقبله قبلتها الأخيرة!
كانت ليالي القلق والترقب قد تركت آثارها على وجهها بحيث كانت تستند على ذراع
زوجها لكي لا تسقط على الأرض.

وكان قد حدث في تلك الليلة تغيير مفاجئ في الطقس كانت ليلة شديدة البرودة
وكانت الأمطار قد سقطت بغزارة ما أدى إلى تصاب السيدة بيريت في اليوم التالي
بنوبة برد شديدة زاد من حدتها ما تعرضت إليه من حزن شديد...

كنا قد أقنعنا أنفسنا بأنها سوف تتماثل للشفاء مع المزيد الراحة ومن الرعاية...
ولكن... بإمكانكم أن تُقدِّروا الرهبة التي أصابتنا عندما تم إعلامنا في اليوم التالي
بأنها مريضة جدًا وبأنها بوضع خطر.

كنا نُحدث أنفسنا مئات المرات:

"لا، لا يمكن لذلك أن يكون... لابد أنها سوف تصبح غداً أفضل. فلم يكن بإمكاننا
أن نفكر بطريقة أخرى، ولم يكن بإمكاننا أن نتقبل للحظة فكرة عدم تماثلها
للشفاء. كم أشعر بالرهبة عندما أتذكر تلك الأيام الطويلة وتلك الليالي التي لم نكن
فيها نذق طعم النوم! عندما بدأ المرض يُنهك تلك الشابة التي يحبها الجميع، والتي
لا يمكن أن نجد بمثل طبيبتها على وجه الأرض.

وكانت قد توفيت بعد عشرة أيام من المعاناة رغم أننا كنا قد اعتقدنا وأملنا وكنا
شبه متأكدين بأن معجزة سوف تنقذها. لكن إرادة الله
- تعالى - لابد أن تكون لذا تقبلنا مشيئته...

آه... كم شعرنا حينذاك أن العالم بكامله قد أظلم، وبأن الحزن قد لف العالم
بكامله! وكم كانت الحياة قد بدت لنا كئيبة وغريبة!
كنا قد دُهلنا وحُيِّل إلينا بأننا لن نتمكن من الاستمرار بالعيش بدونها. بكيناها
وبكيناها وسالت دموعنا كالأنهار...

ونحن حتى الآن نفتقدها أكثر فأكثر... نحن نفتقدها في جولاتنا وفي زيارتنا، لكننا
كنا قد أدركنا في النهاية بأن من الأنانية أن نرغب ببقائها إلى جانبنا. أدركنا بأنها
أصبحت مع طفلها الذي فقدته في عالم الخلود...

جَنَّةُ عَدْن

كانت أليس ذات يوم قد عانقت والدتها وغمرتها بالقبلات وقالت لها بأسلوبها الطفولي البريء:

"أنا أحبك جدًّا يا أُمِّي الجميلة الرقيقة! أنت طيبة... طيبة جدًّا."

وكانت والدتها قد أجابتها بجديّة:

"ابنتي الحبيبة! ذلك لأن الله - تعالى - كريم، فإن كنتُ طيبة فذلك لأن الله - تعالى -

- قد ساعدني على أن أكون كذلك "

نظرت الطفلة إلى والدتها باستغراب وقالت:

"ولكن بما أن الله - تعالى - قد منحك هذه الفضيلة فقد أصبحت من صفاتك."

أجابت السيدة: "لا، يا حبيبتي أنت لا تُدركين تمامًا معنى ما أقوله أصغِ إليّ:

لنفترض أن لدى والدك حديقة كبيرة تُزينها أجمل الزهور، زهور ليس لها مثيل في هذا العالم وبأنه سوف يقول لك:

(تعالى يا ابنتي كي تعيشي في حديقتي وسوف أمنحك قدر ما ترغبين به من أرض. وسوف أعطيك كل ما ترغبين الحصول عليه من بذور لجميع أنواع الثمار والزهور وبقدر ما يكفيك أن تزرعيه. سوف تعيشين هنا إلى الأبد في رعايتي ولن يصيبك هنا أي أذى!)

ولنفترض أنك ستشعرين حينذاك بالكثير من السعادة، وسوف تقومين على الفور بزراعة البذور في قطعة الأرض. سوف تكون تلك الأرض في البداية عبارة عن قطعة صغيرة لكن الزهور سوف تبدأ بالتفتح كما ستنمو الثمار في الأشجار بسرعة وتصبح في غاية الجمال ما يجعل كل من يمر إلى جانب السياج يسألك:

"ما أجمل هذه الحديقة! أهذه الثمار والزهور لك."

سوف تقولين: هذه الحديقة ليست لي وإنما هي لوالدي. هي حديقته الجميلة لكنه سمح لي بالبقاء فيها، وقد جئتُ لكي أعيش معه لأنه طيب...

سوف تقولين: لا يعود إليّ أي شيء هنا لأن والدي يريدني أن أهب هذه الثمار والزهور لكل من يطلب ذلك. وأنا الآن أكثر سعادة لأنني أعلم بأن جميع الزهور وحتى الزهور البرية وحتى ثمار العليق الصغيرة والطيور التي تأكلها تعود إليه وهذا أفضل من أن تكون لي...

لكن ألن تشعرني يا حبيبتي كما لو أنك تسرقين إن أجبت بأن جميع تلك الزهور والثمار تعود إليك لو عرف الناس بأن لك أب هو من منحك تلك الحديقة؟
 "نعم أمي، سوف يكون ذلك سيئاً جداً بالفعل. سوف أُمْنَح الثمار والزهور للناس وسوف أقول لهم بأنها أثمرت على أشجار والدي وسوف يحببني الناس حينذاك أكثر. لكن أرجو أن تُحدثيني أكثر عن جنة عدن..."

"سوف أعلمك بما بإمكانك أن تفهمينه وأنت في هذه السن، وعليك أن تُصغي إليّ جدّياً؛ لأنني أريدك أن تتذكري ما أقوله طوال حياتك هل سبق وسمعتِ بجنة عدن؟"

"نعم إنها المكان الذي كان يعيش فيه آدم وحواء."
 "حسناً، هذه هي الحديقة الجميلة التي كنتُ أحدثك عنها. أما والدك الرحيم فهو الله - تعالى -، وبإمكانك أن البدء منذ اليوم برحلتك إن رغبتِ بذلك."
 "لكن أليست هذه الرحلة طويلة جداً؟ ألن ترافقيني؟ وهل هناك بالفعل مثل تلك الحديقة؟ أعلميني أين هي أمي!"

"أنا أرغب بالفعل بأن أصطحبك إليها لكن الطريق إليها شاقّة وشديدة الانحدار، وليس بإمكانني أن أحملك بين يدي طوال الطريق؛ لذا عليك أن تجتازي الطريق على قدميك وأخشى أن يصيبك التعب أحياناً فقد تتعبين جداً."

"أنت تعلمين أمي بأنني لا أتعب عندما أكون في طريقي إلى مكان جميل، لكنني أعتقد بأن كل ما تقولينه الآن ليس سوى قصة خيالية أليس كذلك؟ فها أنت الآن تبترسين كما لو أنها بالفعل كذلك."

"لا يا صغيرتي ليس عليك أن تشعرني بخيبة الأمل وأن تعتقدي بأن ما أصفه لك ليس سوى قصة خيالية، فليس هناك في العالم ما هو أكثر صدقاً مما أقوله..."

أريدك أنت تعلميني بما يخطر بذهنك الصغير لِمَا هو أقرب إلى هذه الحديقة الجميلة."

"ليس بإمكانني أن أتخيل ما يشبه ذلك ما عدا الجنة؟ نعم هذا هو الأمر إنها الجنة، أليست الجنة؟"

"وما هي الجنة؟"

"هي المكان الذي يذهب إليه الأشخاص الطيبون بعد الموت."

"فكّري من جديد ما هي الجنة؟"

"فكّرتُ ثانية وليس بإمكانني أن أرى سوى أنها المكان الذي فيه الله

– تعالى – والملائكة. لستُ أدري ما الذي تقصدين بأن عليّ أن أفكر ثانية..."

"أريدك أن تفكّري لِمَ هي الجنة وَلِمَ يكون فيها الملائكة وَلِمَ يكون فيها المرء سعيدًا هل تفهمين ما أقوله؟"

"نعم أُمي ذلك لأنها جميلة ولأن فيها الملائكة."

"فإذن لو دخل إليها الأشخاص الأشرار فهل سيصبحون من الملائكة وهل سيصبحون سعداء؟"

"آه، لقد فهمتُ الآن! أنت تقصدين بذلك أن الملائكة سعداء لأنهم من الأشخاص الصالحين."

"ما الذي يجعلهم ذلك يشعرون بالسعادة؟"

"لستُ أدري لماذا، لكنني أعتقد بأن الأمر يماثل وعدك لي بالمكافأة لو تصرفْتُ بشكل جيد"

"لا يا حبيبتي، ليس الأمر بهذا الشكل تمامًا، أريدك أن تفهمي الأمر جيدًا، لكنني أخشى ألا تجدينه سهلًا... أنت تعلمين بأن الله – تعالى – رؤوف ورحيم للغاية وهناك أمر سوف أشرحه لك:

كل ما في الأمر فقط يكون من بهجةٍ ومن طيبةٍ وسعادةٍ ومن حكمةٍ تأتي إلينا من الله فقط... ومنه فقط...

عندما نموت وتنتهي حياتنا سوف تخرج نفوسنا من العالم كما يتصاعد اللهب من الشموع، وهذه الحقيقة التي أعلمك بها الآن تأتي إلينا من حكمة الله - تعالى -

"عليك أن تعلمي بأن الله - تعالى - هو الذي يزرع المشاعر الطيبة والصادقة في نفوسنا، ويجب أن تشكري الله لأنه أنعم بها عليك فهي أشبه بالثمار التي تنمو في حديقة الجنة."

"لِمَ تُطلقين عليها اسم حديقة الجنة؟"

"لأنها تعني الوضع الذي يعيش فيه الناس في طاعة الله ولأنهم يتعلمون من جمال وبهجة تلك الحديقة بأن المرء عندما يلقي السعادة يكون ذلك برحمة الله، وبأن السعادة تأتي من الطيبة والصدق."

"هل سيكون جميع الطيبين دومًا سعداء؟ لم أكن أعتقد ذلك."

"هذا صحيح، فقد يتعرض المرء للكثير من المحن في هذا العالم، ولكن ألا ترين بأن علينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - سوف يشملنا ببركته... عليك أن تعلمي بأن سعادة الأشخاص تكون بقدر ما يتمتعون به من طيبة..."

كنتُ قد صادفتُ في حياتي بعض الأشخاص الأصدقاء - ولأسباب عديدة - كانت معاناتهم بسبب المعاصي التي كانوا قد ارتكبوها. أما الطيبون فهم يجدون آلاف الأشياء التي من شأنها أن تجلب لهم السعادة والبهجة التي لا يمكن أن يجدها الأشخاص الشرار، وهم على يقين بأنهم سيجدون دومًا حولهم الأصدقاء، و الأفضل من ذلك أيضًا، أنهم سوف ينشرون حولهم المحبة، ويشعرون بالبهجة في كل ما يرونه من جمال في خلق الله - تعالى - هم حتى في غمرة أحزانهم يؤمنون برحمة الله وبذلك يسود السلام في نفوسهم."

"لِمَ قلتُ بأن الطريق وعرة وطويلة إلى تلك الحديقة الجميلة؟ هل من العسير جدًا أن يكون المرء طيبًا؟ وهل سيأخذ الوصول إليها الكثير من الوقت؟"

"ليس عليك أن تشعرني بالحزن لأن الطريق إلى الجنة طويلة، فمن السهل دومًا أن يتصرف المرء بشكل جيد؛ لذا يتعرض المرء أحيانًا للمغريات وللصعوبات، ولكن لا

بأس فمن السهل دومًا التغلب عليها لأن الله - تعالى - لن يُحمّلنا ما لا طاقة لنا به؛
لذا علينا ألا نفقد شجاعتنا ولنتذكر بأنه سوف يرسل إلينا العون، وبأن رحمته لا
حدود لها، وبأنك لو أردت فسوف يقودك الله - تعالى - إلى طريق الصلاح وإلى
جنته..."

الرحيل عن العالم

كانت ماريون بعد مرور بضعة أسابيع على إصابتها بنزف معوي حادّ - كان بمثابة نذير للشر - قد قالت لشقيقتها ماريون بأنها تعلم بأنها اقتربت من النهاية. كانت تتحدث بهدوء غريب كما لو أنها في طريقها إلى رحلة إلى عالم بعيد أكثر بهجة من العالم الذي تعيش فيه:

قالت لها أنا وهي تذرف الدموع:

"عزيزتي ماريون كيف بإمكانك النظر إلى الأمر بمثل هذا الهدوء؟"

أجابتها ماريون: "لَمْ ترين بأنه ليس عليّ أن أنظر إلى الأمر بكل هدوء واستكانة؟" قالت آنا: "حقًا ماريون؟ ولكن كيف بإمكانك أن تجدي تساؤلي هذا غريبًا؟ فمجرد التفكير بالموت يجعل الدماء تتجمد في عروقي."

أجابتها ماريون وهي تبتسم ابتسامتها الرقيقة:

"هذا لأنّ فكرتك عن الموت كانت على الدوام فكرة مُبهمّة وخاطئة، فأنت تفكرين فقط بالبرودة التي تسري في الجسم وبتوقف التنفس وبظلمة القبر. أما أنا فلست أدعُ المجال لأفكاري للتوقف عند هذه الأمور. لأنّ فكرة الموت بالنسبة إليّ تعني وترتبط بفكرة الخلود وليس بإمكانني أن أفصل بينهما..."

ألا تعلم الفراشة عندما تخرج من شرنقتها - ولو كان ذلك بصعوبة - بأنها سوف تنشر جناحيها لكي تطير نحو شمس عالم جديد؟... وأنا أيضًا ليس لديّ ما يجعلني أرعد وأجفل لشعوري بدنو الساعة التي سوف أخرج فيها من دار الفناء إلى دار الخلود؟"

قالت آنا: "أنا أحسدك على هذا الإيمان الرائع الذي يملأ روحك بمثل هذه السكينة التي تمنحك القوة وأنت تشعرين بدنو ساعتك."

أجابت ماريون: "هذا لأنّ إيماني صادق. الإيمان رائع يا شقيقتي العزيزة وليس هناك أفضل من الإيمان الصادق."

قالت أنا - وهي تتنهد -: "لو كنتُ بمثل طبيبتك لما كنتُ سأرتعد أيضًا لفكرة الموت." قالت ماريون: "آمل أن تكوني أفضل مني عزيزتي وأنا أعتقد ذلك." أجابت أنا بسرعة: "لا!... لا... أنا لستُ أفضل منك" سألتها ماريون بجدية: "هل تعتقدين بأنه قد يكون في قلبك أي ميل إلى الشرور؟" بدت علامات الدهشة على أنا واصطبغ وجهها بالحمرة وقالت: "ماذا؟ ميل إلى الشرور! لا بالطبع! آمل ألا أكون كذلك." "عزيزتي أنا! لذا فلتعلمي بأن من الإثم أن نخاف من الموت؛ لأن الموت والعالم الآخر يكون بالنسبة لمن يرتكبون الآثام ولمن يحبون أنفسهم... حدثتُ مؤلمٌ مخيفٌ، لكنه بالنسبة لمن يحبون الله - تعالى - انتقال إلى مكان أسعد." قالت أنا: "كل ما تقولينه صحيح وأنا أعلم بأن سبب خوفي يتوافق مع ما قلته، لكن التفكير باللحظة التي تنفصل فيها الروح عن الجسد يجعلني أرتعد ويجعل قلبي يرتجف في صدري، كما يُروّعني التفكير بالانتقال إلى ذلك العالم التي لا يعود منه أحد لكي يعلمنا بما فيه." أجابت ماريون: "هناك الكير مما سيزيل هذا الخوف الذي تشيرين إليه. الأمر الذي يجعلك ترتعدين منه هو المجهول بالطبع... لكننا عندما ندرك ما ينتظرنا فسوف يكون بإمكاننا أن نستعد لتلك الرحلة بهدوء يقول أحد الكتاب: (هناك ملاكان يقفان إلى جانب الشخص الذي يموت لكي يحميانه من الأفكار السيئة إلى أن يصل إلى عالم الخلود حيث يجد حوله هناك حقائق وجداول وأشجار... وعندما يعلم الشخص بأنه مات وبأنه أصبح في عالم الخلود سوف يدرك بأن الجسد يفنى لكن الروح خالدة.)" سحبتُ أنا - وهي تصغي إليها - نفسًا عميقًا وقالت باستغراب: "ما تقولينه في غاية الغرابة ومن العجب أن تكون هذه هي فكرتك عن الموت. أهذا ما تؤمنين به تمامًا؟" أجابت ماريون: "نعم! هذا تمامًا كما أوّمن بوجود الشمس في القبة الزرقاء."

قالت أنا: "إن كانت هذه فلسفتك وكان هذا ما يجعلك لا تخشين الموت الذي يجعل الخوف ينتاب حتى عقول من يناضلون لأجل حياة نقية، فهذا هو بالفعل ميراث الخير في هذا العالم. أتعلمين...ماريون! كنتُ منذ طفولتي أشعر برعب شديد من الموت!"

قالت ماريون: "عليك إذن أن تُقلعي عن الخوف من الموت. قد يبدو لك - عندما ينتقل أحد من تحبينهم من هذا العالم - بأنه ينغمس في عمق الظلام، وبأنه لن يعود لكي يعلمنا بمصيره في ذلك العالم الذي لا يعود منه أحد! لكن عليك الآن أن تؤمني بالفلسفة التي أعلمتك بها، عليك النظر إلى ما وراء العالم وعليك أن تفكري بأنه على الرغم من أن المسافر لن يعود فنحن نعلم بأنه في عالم الخلود." قالت أنا برقة: "هل تقصدين بذلك بأن علينا ألا نخاف عليك عندما ستنتقلين إلى العالم الآخر؟"

أجابت ماريون: "نعم يا شقيقتي العزيزة! أنا أعلم بما أوّمن به وأنا على يقين بأنه ذلك سوف يكون الأفضل بالنسبة إليّ ما دمتُ قد نأيتُ بنفسني عن الشرور. فهل تعتقدين بأنني سوف أنغمس في عمق الكآبة وبأنني سوف أصحو من رقدة الموت خائفة مشدوهة مصدومة بذلك التغيير المفاجئ... لا يا شقيقتي!... فلتعلمي بأن الملائكة سوف تكون برفقتي وبذلك لن أخاف من أية شرور، وبأنه سوف يتم استقبالي في العالم الآخر بين من سبقوني وبذلك لن أشعر بالغربة إلى أن أنتقل إلى الجنان."

وكانت والدّة ماريون قد دخلت إلى الغرفة في تلك اللحظة وبذلك توقف الحديث الذي كان يدور بين الشقيقتين. لكنه بعد ذلك كان تجدد واستمرت تلك الفتاة الطيبة ذات الروح النقية في التحدث عن العالم الآخر كما لو أنها كانت تستعد لرحلة إلى بلد آخر تعرف كل شيء عن عادات المقيمين فيه مما طالعت في الكتب...

و كان هادم اللذات بعد مرور بضعة أشهر قد جاء أخيراً إلى منزل تلك الشابة التي لا تزال في ربيع العمر. وعلى الرغم من أنه كان وضع يده عليها برفق في البداية لكن لمسته كانت مع ذلك مفاجئة مشؤومة... ظلت روحها النقية ساكنة في الوقت الذي

كان فيه جسدها النحيل يذوي. لكن وفي الوقت الذي كانت فيه شمس حياتها تغيب كانت هالة البشير بيوم آخر تُضيء أفق روحها ولم يكن في قلبها أية ريبة أو خشية أو جَفَل من أنها سوف تنتقل بسلام وراحة وأمان إلى عالم الخلود. كان ذلك الوقت وقتًا عصيبًا على الجميع. اجتمعوا حول سرير ماريون الأم والأخ والأخت المحبة...

وقالت ماريون قبل أن تغادر العالم بقليل وهي تمسك بيد والدتها وتنظر إليها بحنان:

"الله هو الرحمة والمحبة والسلام."

ثم أغلقت عينيها، ورقدت صامتة لبعض الوقت وعلى وجهها ابتسامة، ثم رفعت نظرها إلى آنا وأمسكت بيدها ووضعتهما في يد والدتها وقالت:

"أمي! عندما سأغادر هذا العالم أريدك أن تُضيفي كل ما تحمليته لي من محبة إلى محبتك لشقيقتي آنا وأن تتذكري دومًا بأنني سوف أصبح ملاكًا في السماء وبأن آنا هي ابنتك على الأرض."

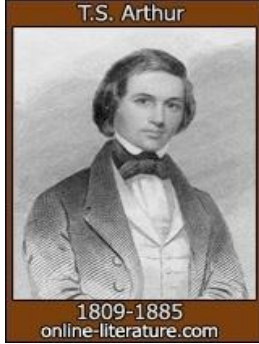
كانت دموع والدتها - رغم ما بذلته من جهد كي تتماسك - قد بدأت تنهمر على خديها. ضمت ماريون إلى صدرها... وكان الله - تعالى - قد غمر قلبها بالسلام، ومع ذلك قالت لآنا:

"هل سيكون عليّ أن استمر في العيش بدونها؟ أعتقد بأنني لن أتمكن من احتمال ذلك؟"

قالت ماريون: "أمي! لا تحزني إن كنتُ سأغادر الحياة قبلك فسوف نتلاقى من جديد في عالم الخلود. وسوف توحدنا المحبة حتى أثناء فراقنا."

ثم أغلقت عينيها وانعكس ضوء السماء على وجهها وغرقت في نوم هادئ. انحنى من يحبونها على وجه تلك الراقدة الرقيقة، لم يكن خوفهم دون مبرر فقد سبق لذلك الإنذار بما عانتها خلال مرضها الطويل، فقد دعاها الآن الله - تعالى - إلى كنفه وقد لبّت الدعوة دون خوف.

لم يكن الحزن لفقدانها أقل مضاءً في قلوب من يحبونها. كانت الأم والأولاد مثل البشر قد استسلموا لمشاعر الأنانية ولكنهم كانوا مع الوقت قد تفهموا بأن فقدان ماريون كان بالنسبة إليها تغييراً مقدساً وإلى الأفضل، وبذلك كانوا على الرغم من حزنهم الشديد على فقدانها قد شعروا بشيء من السكينة...
لكنهم بالطبع أيضاً من البشر، فقد انتزعت منهم تلك الشابة وكل تلك الروابط والمحبة التي كانت بينهم.
بكوها كثيراً لأن البكاء من شأنه أن يُنزل السكينة على القلوب، وظلّت ماريون ماثلة دوماً في أذهانهم وحتى في أحلامهم، لكن ذلك الحزن لم يكن حزن البشر وإنما كان حزن من ينظرون إلى الخلود، وكان الإيمان الذي تركته في قلوبهم كان قد منحهم القدرة على السلوان...



السيرة الذاتية للكاتب تيموثي.ش.آرثر:

كاتب وشاعر أمريكي ولد في ولاية نيويورك في العام ١٨٠٩ وتوفي في فيلادلفيا في العام ١٨٨٥ هو الولد الأصغر لأحد ضباط جيش الثورة يُدعى ويليم آرثر.

كان تيموثي آرثر ضعيف البنية؛ لذا لم يتمكن من الالتحاق بالدراسة النظامية وكانت والدته قد تولّت تدريسه بنفسها، وكان تيموثي آرثر قد حاول أيضًا التدرّب على إحدى الحرف اليدوية لكن إصابته بضعف في بصره جعلته يتوقف عن متابعة تدرّبه على تلك الحرفة وينطلق للعمل في مجال الصحافة.

عمل الكاتب تيموثي آرثر مراسلاً لعدد من الصحف، وكان له دوره المتميّز كناشر وكريّس لتحرير العديد من الدوريات إلى أن تفرغ كلياً للتأليف. كان الإنتاج الأدبي للكاتب تيموثي آرثر الأدبي مُتميّزًا وغزيرًا منه العديد من الروايات و القصص القصيرة ومن المقالات والقصائد الشعرية.

وكانت باكورة مؤلفاته قصة بعنوان "عشر ليال" تم نشرها في العام ١٨٣٩، وهي القصة التي وضعته على سُلّم تلك الشهرة الكبيرة.

يسرني أن أضع بمتناولكم مجموعتي القصصية الجديدة التي اخترتها من بين مؤلفات الكاتب تيموثي شي آرثر. وهي مجموعة من القصص الهادفة التي ألقى فيها الكاتب الضوء على أوجه العلاقات الاجتماعية في مختلف المجالات، والتي حرص فيها على التوجيه إلى الأسس الأخلاقية السليمة للتعامل بما يحقق الوصول إلى مجتمع فاضل وإلى حياة عائلية سعيدة.

تناول الكاتب تيموثي آرثر في مؤلفاته المواضيع التالية:

العلاقة بين الزوجين، وبين أفراد العائلة من شقيقات وأشقاء - العلاقة بين الأصدقاء والجوار - كيفية التوصل إلى السعادة الحقيقية - الأسلوب السليم للتعامل بين الطبقة الفقيرة والطبقة الغنية، والطريقة الأفضل لمساعدة الفقراء الخ... - طيفية معالجة الإدمان والعديد من القصص الموجهة إلى الفئة الناشئة.

وكان قد عبّر عن ذلك بأسلوب بسيط ومشوّق أورد فيه المقارنة بين الصواب والخطأ وبين التصرف السليم والتصرف الخالي من التعاطف لكي يختتم قصصه ومقالاته دومًا بمَقُولَةٍ تحثّ على مكارم الأخلاق وعلى التحلّي بالفضائل.

للكاتب عدة مقالات وقصص تم التركيز فيها على أهمية الإيمان في حياة البشر، وعن مقدار ما يمنحه الإيمان للمرء من شعور بالسكينة ومن صبر وعزيمة لمواجهة الأحزان والنوائب...

من أشهر مؤلفاته: من هو الأكثر سعادة - فائدة العمل الصالح - دروس في الحياة - مقاومة الإغراء - مهمة العائلة - الحياة الزوجية: بهجتها وكدرها - ملاكٌ مُتَنَكَّر - كل شيء للأفضل - سوف يأتي الوقت السعيد، والعديد من غيرها من القصص الاجتماعية الأخرى.

ومن أشهر قصائده: الفراشة الطليقة - أغنية طائر الثلج - ابتهالات المساء.